بدايات

حروب الردّة

فواز طرابلسي

ما من شك في أن المنطقة شهدت في الآونة الاخيرة تقدماً لافتاً لقوى الردّة المضادة للثورات، وهي ليست «ثورات مضادة»، حسب التعبير الدارج، لأن لا شيء فيها من التغيير أو الثورة، انما هي ردة ضد هذا وتلك. يتمثل المشهد بإعادة انتاج عدد من الانظمة العربية، بعد التضحية بالحاكم الفرد فيها، يقابل ذلك تعزيز طابعها الاستبدادي والتسلطي، وتمكين مرتكزاتها العسكرية والامنية، وتنمية توجهاتها النيولبرالية، وهي أحد الاسباب الرئيسة للبطالة والفساد والفروق المناطقية والطبقية. تحقق ذلك بمزيج من التدخل الاقليمي (الانظمة الاستبدادية النفطية في السعودية وقطر وتركيا وإيران على ما بينها من تنافس وتبادل أدوار) وفي ظل أحدية «الحرب الكونية ضد الارهاب» بقيادة الولايات المتحدة الاميركية، ومن خلال العمليات الجراحية التي أجرتها الحروب الاهلية في جسم الثورة والمجتمع (كما في الحالة السورية خصوصاً). يستدعي هذا بذاته ورشة تفكير وتحليل نقدي. تفتح «بدايات» صفحاتها، كما هي مفتوحة دائماً، لمثل هذه الجهود وتلك النتاجات.

يهمنا هنا إلقاء بعض الاضواء على المستجدّ الأكبر في الردة المضادة للثورات: الحركات الجهادية-التكفيرية.

١. إن نقطة الانطلاق لأي بحث في دور الدين والمقدس والعنف في الدولة والسياسة تستدعي الاعتراف بالحضور الدائم للعامل الديني في الحياة البشرية والالتفات الى أنه يطفو الى السطح، ويحتلّ فاعلية وزخماً متجددين، ويتلبّس جماعات وقوى، إبان الحروب والأزمات والنكبات الكبرى والكوارث الطبيعية. والذين خبروا الحروب اللبنانية قد تعرّفوا الى ظاهرة التضخم الديني الذي فخّخ الطائفية السياسية والاجتماعية بالفقهي والمقدّس بما في ذلك الدور المتزايد لرجال وعلماء الدين في الحياة العامة وفي الدولة والسياسة.

٢. في السجال بين تبرئة الاسلام من فكر التنظيمات الجهادية-التكفيرية وأفعالها وبين تحميله كل تبعاتها، نودّ نقل النقاش الى مجال آخر، الى التأمل في سؤال: ما الذي يدفع مجموعات من العرب والمسلمين، إلى أن تتبنى مثل هذا التفسير الحرفي، والحربي، والعدمي، والتكفيري، والاقتصاصي للاسلام؟ ولقطع الطريق على أي حصرية، ليست الجهادية ولا التكفيرية ولا النزعات المهدوية، والخلاصية مخصوصة بدين معيّن من الاديان التوحيدية او بمذهب معيّن من مذاهب الاسلام. وانما هي ابنة فِعل زمان معين في ظروف اجتماعية-سياسية معنية في بيئات مجتمعية معينة. فعلى سبيل التمثيل لا الحصر، يتبنى «أنصار الله» (الحوثيون)، الشيعيون الاثنا عشريون في اليمن، تأويلات للإسلام ليست تختلف كثيراً عن الجهادية-التكفيرية السنّية.

٣. على عكس النظريات القائلة بأن نمو الحركات الجهادية-التكفيرية هو وليد الفوضى التي احدثتها الثورات، الحقيقة انها جهيضة قمع الانظمة الاستبدادية وإحباط الآمال التي انعشتها الثورات، ووأد محاولات التسوية، وتهميش القوى الاجتماعية والعُمرية الحيّة التي قذفتها الثورات الى مقدمة الاحداث.

قامت الثورات العربية من اجل تغيير الدولة العربية لتصير أكثر انسجاماً مع العصر ولتحقيق الديمقراطية

(بمعناها الأبرز: المساواة السياسية والقانونية بين مواطنين) وتداول السلطة وتجسير الفوارق الاجتماعية والمناطقية وإعتماد عدالة اجتماعية توفر الحد الادنى من الحياة الكريمة. وفي النقيض من ذلك، يسعى الجهاديون التكفيريون الى تدمير الدولة العربية ذاتها، وقد أدانوها بالخروج والجاهلية، وإقامة دولة دينية خلافية – الحاكمية – ينصّب فيها افراد أنفسهم «امراء» و«خلفاء» لا يزعمون تمثيل الشريعة وحسب، بل حكم الله على الارض أيضاً، ويفرضون البيعة بالسيف. والنصل الامضى لحكمهم هو الاقتصاص من المجتمع لعدم رضوخه لتحليلهم والتحريم، والتحريم خصوصاً، لأن تحليلهم هو الهَوَسُ الجنسي المريض والسبي والنهب وتجارة الرقيق وقطع الرؤوس. إن الجهادية-التكفيرية تقتصّ من المجتمع على غيريته، تبدأ بالعداء الذكوري للنساء ولا تنتهي الا بأهل السنّة انفسهم، عندما يرتدّ العنف على ذاته، على اعتبارهم الاقربين الأوْلى لا بالمعروف، وإنما الأمر بالمعروف، بعد أن تمرّ على المغايرين دينياً ومذهبياً، من مسيحيين وإزيديين وشيعة وعلويين واسماعيليين ودروز وسواهم.

وهذه الهمجية تقطع الرؤوس بالسيف لكنها تقاتل بأحدث الأسلحة والآلات، وقد تدربّت عليها على يد الاستخبارات الاميركية والباكستانية في افغانستان وفي حروب الشيشان وفي حروب العراق وسورية. وترتكز قوتها الاقتصادية على المال النفطي تحديداً، يتدفق عليها من أنظمة دول الاستبداد في الجزيرة والخليج، وخصوصاً السعودية وقطر، أو من عائدات وإتاوات آبار النفط التي تسيطر عليها، حتى لا نتحدث عن تبرعات سخية من رجال أعمال من مختلف الانتماءات والمواقع.

٤. داعش، المتحدرة من «تنظيم القاعدة»، هي أولاً نتاج الغزو والاحتلال الاميركي الاطلسي للعراق وتدمير الدولة العراقية وتسريح جيشها. وقد تغذّت من تجريم الجماعة السنّية بجريرة نظام صدام حسين الدكتاتوري. وقد استدرجت الحرب العراقية الآلاف المؤلفة من الجهاديين عبر الحدود السورية وحولت عشائر برمّتها الى جيوش خاصة، وشيوخها الى مقاولي تهريب وحروب.

نجح الاحتلال الاميركي في آخر ايامه في شراء ولاء عشائر مسلحة قاتلت في صفوف تنظيم القاعدة أو إلى جانبه، انتظمت في «الصحوات» (١٢٠ ألف مسلّح). غير أن الانسحاب الاميركي تم بناءً على تفاهم مع إيران قضى بتسليم الحكم إلى تحالف أحزاب شيعية وكردية، بزعامة نوري المالكي على حساب خيار آخر دعمته أنظمة سورية والعربية السعودية وتركيا، قضى برئاسة اياد علاوي لمجلس الوزراء، يُشرك قوى أكثر تعبيراً عن الجماعة السنّية في العملية السياسية. إستأثر المالكي بولايتين احتكر خلالهما منصبي وزير الدفاع والداخلية، وسرّح عدداً من خيرة ضباط العراق لأسباب مذهبية، وعاث في القوات المسلّحة فساداً واستخدم قانوني مكافحة الارهاب واجتثاث البعث ضد خصومه ولتدعيم سلطته. ولم ينفع احتلال تنظيم القاعدة الفلوجة وبعدها الموصل في التنبيه الى الاحتقان الذي يعتمل في البيئة السنّية ولا نفعت انتفاضات شعبية سلمية في ست محافظات عراقية على مدى سنتين كاملتين في رفع قانون الارهاب التمييزي ولا في اثارة الاهتمام بتنمية المناطق الشمالية والشرقية. واجه المالكي تلك التحركات والانذارات بالإهمال والاتهام بالإرهاب

وبالعنف. فحصد احتلال تنظيم داعش وعشائر مسلحة نحو ثلث البلاد، بما فيه قسم من موارده النفطية والمائية وطرق مواصلاته.

٥. إن تنظيم القاعدة السوري، بشقّيه، هو أيضاً نتاج الحرب العراقية تكونت خلاياه الاولى من الجهاديين الذين صدّرتهم الاستخبارات السورية الى العراق، قبل أن تتلقفهم استخبارات خليجية وإقليمية متنوعة. والأهم من ذلك أنّ داعش والنصرة السوريتين قد نمتا بسبب استمرار القتال واشتداد طابعه المذهبي، وإنتشرتا في الوسط الاجتماعي والجغرافي الطرفي والمذهبي إياه الذي مدّ داعش العراقية بمصادر قوتها. وإنه لمعبّر حقاً أنّ الادارة الأميركية، التي تذرّعت لفرض الحظر على تزويد الكتائب الاسلامية السورية «المعتدلة» بالسلاح الصاروخي المضاد للطيران بأنه يرمي الى منع وقوع الأسلحة المتطورة في أيدي التنظيمات «المتطرفة» لم تنته سياساتها فقط الى حرمان المعارضة السورية من ممارسة ضغوط كافية تسمح بنجاح تسوية «جنيف» مثلاً، إذ لم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الحظر ذاته سمح لسياسة «البراميل المتفجّرة» بأن تحقق من الترهيب والتهجير والقتل والمجازر بحق المدنيين ما أدّى الى اختلال واضح لصالح قوات النظام في المدن الرئيسة وضواحيها. وهكذا تتوجت «نجاحات» سياسة عدم وقوع الاسلحة المتطورة في أيدي التنظيمات المتطرفة بموجة لجوء متصاعدة لضباط وعناصر الكتائب المعارضة «المعتدلة» الى جبهة النصرة وداعش.

٦. إن إعلان الدول والخلافات لا يعني بناء دول. فهذه الميليشيات الجهادية-التكفيرية لا تبني شيئاً. ولا تحمل قضية ولا تخدم جماعات. انها تعبّر عن يأس أقصى. لكنها أكثر تعالياً من الأنظمة الاستبدادية على شعوبها وأقسى عقاباً. يعيش الشعب، في عينها، في جاهلية يستحق العقاب أكثر مما يستحق الخلاص.

ثم إن إعلان بناء دول عابرة للحدود بين سورية والعراق لا يعني إعادة النظر بالحدود أو امتلاك القدرة الذاتية على ذلك. وثمة فارق كبير بين التجزئة والتخلّع الداخليين، وهما الفعل المشترك بين قوى محلية وإقليمية ودولية، وبين إعادة النظر في ما يسمّى حدود «سايكس-بيكو»، التي تطبّل لها وتهدّدنا بها الأقلام والإذاعات والفضائيات. فليس ثمّة ما يشير الى أن القوى الغربية - التي كرست حدود التجزئة في المشرق العربي، بواسطة البيان الثلاثي الاميركي-البريطاني-الفرنسي العام ١٩٥١ - في معرض إعادة النظر في تلك الحدود التي هي بالدرجة الاولى حدود أمن إسرائيل وحدود حماية النفط وكياناته.

٧. بغضّ النظر عن ارتباط التنظيمات الجهادية التكفيرية بهذا النظام أو ذلك وتلك الجهة الاستخبارية او تلك، فإن وجودها ذاته يخدم بقاء الأنظمة العربية مجتمعة. لقد كان الاشتراك في «الحرب الكونية ضد الإرهاب» الواسطة التي انضم بها غير حاكم عربي الى الحومة الأميركية وجدّد «شرعيته» الخارجية واستدرج المساعدات المالية والعسكرية. وفي زمن الثورات العربية، يخدم وجود التنظيمات الجهادية- التكفيرية مبرراً لشيطنة شعوب بكاملها وتسويغ القمع الداخلي، وصولاً الى استخدام الأسلحة الكيماوية والإفلات من أي عقاب في «مجتمع دولي» ظالم ومنحاز وعقيم. وإنه

لمعبّر حقاً أن يتقدّم وزير خارجية النظام السوري بطلب رسمي لانضمام سورية بواسطة نظام المافيا الروسية الى «الحرب العالمية ضد الإرهاب» بقيادة الولايات المتحدة الاميركية.

٨. الاسلام المعتدل ليس هو البديل. وتأكيداً ليس هو البديل الوحيد. لسببين. الأول لأن الهوية الدينية للحل أو لصاحب الحل ليست برنامجاً بذاتها. والسبب الثاني هو السؤال الذي أثارته التجربة المصرية: هل وصول الإسلام الإخواني «المعتدل» إلى السلطة بواسطة الانتخابات الرئاسية والنيابية، قطع الطريق فعلاً على نمو تيارات جهادية عنفية أم أن البيئة التي خلقها ونوع التشريعات التي سنّها وتلك التي أوحى بتطبيقها قد شجّعت قوى تريد الذهاب في شعار «الإسلام هو الحل» إلى نهاياته؟

٩. الحرب ليست هي الجواب. وليس ذلك فقط نظراً لما نشاهده من سوابق الإخفاق الدموي التدميري في أفغانستان وباكستان. ويمكن التوقع منذ الآن أن بؤر السيطرة التي أسستها داعش والنصرة في هذا الموقع السوري والعراقي أو ذاك سوف تستقطب التركيز العسكري عليها بهدف تضييق رقعتها، بواسطة سلاح الطيران الاميركي والقوى المسلحة للنظامين المعنيين، واستعادة المدن التي احتلتها وإجلائها من المناطق الحدودية بين البلدين. علماً أن هذه الإجراءات، في حال نجاحها، لن تمنع استمرار هذه البؤر المسلحة قيد الوجود والفعل لفترات من الوقت – وهذه هي تجربة اليمن دليلنا. ولن يكون لتلك البؤر، في ظل أحدية «الحرب الكونية ضد الإرهاب»، غير وظيفة تخييرنا بين استبداد متجدد واستبداد وافد. والأهم أن الحرب التي يبشّرنا القائمون بها بأن لا نهاية لها، سوف تصادر كل القضايا وتختزل كل المعالجات والسياسات وتحوّل الحاضر الى راهن لا يتحوّل وتغتال المستقبل.

١٠. تجفيف منابع الإرهاب: في بداية «الحرب الكونية ضد الإرهاب» طرحت الإدارات الأميركية والقوى الغربية شعار تجفيف منابع الإرهاب، وقد طُبّق ذلك بالدرجة الاولى عن طريق مطاردة الموارد والمسالك المالية لتنظيم القاعدة. أما التجفيف الفعلي لمنابع الإرهاب فمجموعة من المهمات لا يزال يطمسها قرع طبول الحرب التي لا نهاية لها: الحكومات الوطنية التي تشرك الجميع في تقرير مصير المراحل الانتقالية، ومصير بلدانها، المساواة السياسية والقانونية بين المواطنين، بناء اقتصاديات تنتج فرص عمل لملايين الشباب الباحث عن عمل وعن أمل في المستقبل، سياسات تنمية وعدالة اجتماعية تخفف الفوارق بين الطبقات والمناطق، وأخيراً ليس آخراً: فصل الدين عن الدولة. وهو إجراء باتت وظيفته الأبرز الآن تدارك موجات من الارتداد عن الدين، بما هو دين، لا مندوحة عنها بعد ما ظهر من بشاعات وجرائم في استخدام الدين في ميادين القوة والعنف والتحكّم بحياة البشر.

١١ . الرد على الإسلام السياسي بمنوعاته المختلفة يكون على الأرض لا في السماء. والجواب على عقيدة شاملة كالتي يحملها لا يكون إلا بعقائد شاملة تحيط بكل نواحي الحياة وتوجّه الممارسات. أما ما عدا ذلك ففكر وممارسات التأتأة والتلعثم وخُيلاء أشباه غُربان تحاول تقليد نقلة الحجل.

وفي هذا كلام يطول.

العرب في مطلع الألفية الثالثة
بين الهيمنة الإمبريالية والتدخل الإقليمي

سليمان تقي الدين

مؤرخ وكاتب من لبنان

في مطلع سبعينيات القرن الماضي بدأ رصيد الأنظمة السياسية العربية التي نشأت بعد الاستقلال يتقلّص ويواجه تحديات بناء الدولة الحديثة. كانت الأولويات ما زالت في المناخ السياسي العام الرسمي والشعبي هي لتوطيد الاستقلال السياسي والاقتصادي واستكمال ما بقي من معارك تحرير الأرض العربية ولا سيما فلسطين، والانخراط في تجارب وحدوية وتعزيز التعاون بين الدول ذات التوجه القومي. وبالرغم من هزيمة ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، أخذت الأنظمة فرصة جديدة لقيادة المعركة القومية والرد على الهزيمة و«إزالة آثار العدوان»، ومثّلت حرب تشرين ١٩٧٣ ذروة هذا الدور القومي وحدوده وإمكاناته. ثم انعطفت المنطقة كلها تحت مظلة سياسة الاحتواء الامبريالية وتطويعها لمسارات اتخذت صفة «الواقعية» في ظل موازين القوى الدولية والقدرات الذاتية للأنظمة.

قبيل هذا الانعطاف الكبير كانت إرهاصات قيام حركات شعبية راديكالية تتوالد في غير بلد عربي وفي المقدمة طبعاً انطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة (١٩٦٥) ثم امتداد الثورة في اليمن الجنوبي إلى سلطنة عمان، وانتفاضة الأهوار في العراق (١٩٦٨)، وصعود اليسار اللبناني في مواكبة تداعيات الحدث الفلسطيني بعد معركة الكرامة في الأردن (١٩٦٨) وإنهاء دور منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن (١٩٧٠)، ثم الانقلاب السوداني التقدمي (١٩٧٢) الذي أحبطه التحالف المصري الليبي السوري (الوحدة الثلاثية).

بعد حرب تشرين بدأت مرحلة تصفية إرث النهوض القومي لندخل في أول محطة من محطات التصالح مع الامبريالية وحلفائها، والانسحاب من المواجهة مع إسرائيل باتفاقية كامب ديفيد (١٩٧٧ـ١٩٧٨) وانقطاع الصلة بين مشرق العالم العربي ومغربه. وفي المقدمات لكامب ديفيد أكثر من حدث عربي نكتفي هنا بواحد مفصلي هو تفجير الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥) التي تحولت إلى حروب عربية وإقليمية شغلت كل البيئة الاستراتيجية في ما يسمى «قوس الأزمات» أي بلاد الشام والعراق. وكانت هذه الحرب آلية لتصفية الموقع اللبناني بوظيفتيه التقدمية والفلسطينية، فضلاً عن إشغال المنطقة بساحة النزاع هذه واستنزافها سياسياً وأمنياً واقتصادياً وثقافياً.

انتقل النظام المصري إلى موقع الحليف لأميركا وإلى الانخراط العضوي في السياسات الامبريالية وإلى تصفية كل المكتسبات التي حظي بها الشعب. ومن اختلال التوازن الإقليمي هذا تحوّل الاهتمام إلى دولتين هما العراق وسورية اللتان إدارتا ملفات القضايا العربية بأسوأ أشكال المخادعة والتنافس الانتهازي من أجل هدف مركزي أخذ يتقدم على ما عداه هو «الحفاظ على الأنظمة» والاحتفاظ بالسلطة، والسعي الدؤوب إلى تحصينها ضد كل محاولات تهديدها في الداخل والخارج. ومن «ميثاق العمل القومي» وجبهة «الصمود والتصدي» (١٩٧٨) إلى التآمر الانقلابي المتبادل، صار النزاع العراقي - السوري عنوان مرحلة الثمانينيات. وكانت مغامرات صدّام حسين كفيلة بتدمير العراق بعد حربه مع إيران (١٩٨٠ - ١٩٨٨) ثم اجتياحه الكويت (١٩٩٠) وجعل النظام السوري يخوض معركة البقاء بتقديم نفسه وكيلاً لمهمات أمنية وسلوك براغماتي محتفظاً لنفسه بهوية العداء لإسرائيل كأحد أهم عناصر شرعيته الشعبية والوطنية. وحين تنتهي «الوظائف الخارجية» لهذه الأنظمة تفقد توازنها وعناصر الثقة باستمرارها وتتصرف بخيارات غير محسوبة لاستدرار الدعم إلى شرعية فقدتها. ولما فرغ الأميركيون من ملفات أكثر أهمية (العراق وأفغانستان) توجهوا إلى

النظام السوري لكي يستخدموه هذه المرّة وكيلاً في تصفية ذيول الحروب الأخرى، وضد الجماعات المتطرفة ولكي يستنزفوا سورية كياناً ودولة وشعباً.

الانكفاء نحو الداخل

في الثمانينيات دخل العالم العربي في مرحلة الانكفاء على الذات والتعامل مع مشكلات اقتصادية واجتماعية نتجت منها حركات احتجاج واسعة (مصر، المغرب، تونس، الجزائر، اليمن، سورية) وتزايد الطلب على «الديموقراطية» والتعددية والحريات السياسية. وأمام محاولات الاستجابة المراوغة أو القمع لهذه المطالب، ظهرت الصراعات بين مراكز القوى داخل الأنظمة وعبّرت عن نفسها بأشكال مختلفة. لكن الظاهرة الأكثر أهمية وعمومية وانتشاراً كانت صعود حركات الإسلام السياسي التي اختمرت في مناخ الكبت السياسي والثقافي والتهميش والأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

وفي الصورة نفسها برزت إلى الضوء مسألة الأقليات القومية والإثنية وحالات التأزم في العلاقات الطائفية. (استقل إقليم كردستان في العراق عملياً منذ العام ١٩٩٠، وتبلور انفصال جنوب السودان نهاية التسعينيات، وانفجرت العلاقات الامازيغية العربية في الجزائر كذلك). كانت الولايات المتحدة ومعها الحلف الأطلسي تدير الحرب الباردة في العالم وفي الشرق الأوسط ضد الاتحاد السوفياتي من جهة وضد مشروع القومية العربية من جهة ثانية، وتسعى إلى الاحتفاظ بامتيازات سيطرتها على الثروات النفطية العربية وحماية قاعدتها الاستيطانية المتقدمة إسرائيل. وكانت حروب السبعينيات إنجازات أميركية بينما الهجمة السوفياتية التي أعقبت خسارتها مصر وبعض هيبتها في حرب تشرين ١٩٧٣ قد حملت أوهاماً (بيري أندرسون). احتلّت افغانستان وكسبت إثيوبيا وزادت تعاونها مع العراق وسورية، لكنها انتهت إلى انحسار النفوذ في جميع أرجاء المنطقة. حصلت استباحة أميركية للشرق الأوسط لم يعكّرها إلا ظهور الدور الإيراني وما بدا أنه «الإسلام الراديكالي» الذي يهدد بعدوى واسعة تشغل مكان القومية العربية. ومنذ اللحظة الأولى ساهمت أميركا بجعله عنصر منافسة للعرب وعنصر تحد للإسلام السياسي السني الأكثري. وبذريعة الحدث الإيراني وتداعياته خرجت نظرية «مكافحة الإرهاب» والأصولية الإسلامية التي اكتملت عدّتها الفكرية والسياسية والعسكرية بعد أحداث ١١-٩-٢٠٠١، إلا أن بذور هذا الصدام المتجدد بين «عالم الإسلام وعالم الغرب» كانت بعد حرب تشرين وحظر النفط، وتطوير الغرب استراتيجية الإخضاع لهذه الشعوب المناهضة للهيمنة الغربية (إدوار سعيد ـ تغطية الإسلام...).

ما بعد أيلول ٢٠٠١

سجل الغرب انتصاره الكبير عام ١٩٩١ في الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفياتي بعد مقاومته وإنهاكه بسباق التسلح وفشله في تطوير نموذجه الاجتماعي والسياسي الخاص. بدأ الغرب يقضم الامبراطورية الروسية دولة تلو أخرى حتى حدود الاتحاد الروسي. وتصرف خلال عقدين (١٩٩٠ - ٢٠١٠) كمرجعية دولية وحيدة مقررة ذات شرعية تاريخية وذات رسالة لإدارة وتوحيد العالم، وواكب دور العولمة العسكرية الأميركية فكر سياسي مزيج من نسبة الإنجاز التاريخي للرأسمالية وللنموذج الأميركي بالذات. لم تطرح الولايات المتحدة نظرية انتصار الرأسمالية بل انتصار العالم الحر (أنظر: بيري اندرسون، «السياسية الاميركية الخارجية ومفكروها»، نيو ليفت ريفيو، العدد ٨٣، سبتمبر/اكتوبر ٢٠١٣) على عالم التوتالتياريا والدكتاتوريات

شكل العمل الإرهابي الضخم في الهجوم على برجي التجارة العالمية (١١-٩-٢٠٠١،) تبريراً لغزو القوات الأميركية لافغانستان باعتبارها المكان الآمن لدور «القاعدة». ولا يخفى أن هذا الموقع مفصلي واستراتيجي في اتصاله بحدود روسيا وإيران والصين وباكستان وتأثيره على وسط آسيا. أما العراق المستنزف والمحاصر فقد كان يحتاج إلى تبرير من نوع خاص يتعلق بأسلحة الدمار الشامل وتهديده للأمن في العالم والحاجة إلى نزع أظافر الدكتاتوريات ونشر الديمقراطية لمواجهة التطرف والمغامرات العسكرية. وسيظل الاحتلال الأميركي للعراق إحدى العلامات الفارقة في مطلع الألفية الثالثة وفي تاريخ «حروب التدخل الأميركية» لأهداف امبريالية. لم تكن كلفة التدخل على الأميركيين البشرية والمادية بالقليلة وفق حسابات دول ديمقراطية تخضع السلطات فيها للمساءلة والمحاسبة. لكن نهب العراق وإزالة سلطة مشاغبة كان أثره كبيراً لصالح النفوذ الأميركي. وإذا كان هذا المشروع قد حصل بتواطؤ معلن مع إيران فقد هدف إلى التعامل مع «الأقليات» الإثنية والدينية والطائفية واستخدامها (في

نهب العراق وإزالة سلطة مشاغبة كبيرة كان أثره كبيراً لصالح النفوذ الأميركي. وإذا كان هذا المشروع قد حصل بتواطؤ معلن مع إيران فقد هدف إلى التعامل مع "الأقليات" الإثنية والدينية والطائفية واستخدامها في تفتيت وتفكيك الشرق الأوسط تمهيداً لصياغة جديدة للنظام الإقليمي.

افغانستان والعراق) في تفخيخ وتفكيك الشرق الأوسط تمهيداً لصياغة جديدة للنظام الإقليمي.

لعب «المحافظون الجدد» دوراً كبيراً في عسكرة الدور الأميركي العالمي ودفعه إلى إنجاز مشروع «أمركة العالم» أو استثمار عصر القوة الأميركي حتى النهاية. لكن هذا التيار وهذه القوى ما لبثت أن اصطدمت بحدود القوة العسكرية والاقتصادية وبطبيعة الجدوى من سياسة التدخل المباشر حيث للامبريالية أكثر من شبكة اتصال وتأثير على مجريات الأحداث في العالم. فحين اختار الشعب الأميركي، بمختلف مكوناته وعناصر التأثير المقررة لديه، الرئيس الأميركي الجديد باراك اوباما اختار وسائل وأساليب أخرى للتعاطي في السياسة الخارجية فضلاً عن السياسة الداخلية. فالرئيس جاء بوعود عن وقف الحروب المباشرة التي يموت فيها الجنود الأميركيون. هو ينسحب من الحروب التي تأخذ بعض الأشكال التقليدية ليذهب باتجاه صراع من نوع آخر ويستخدم «القوة الناعمة». فلم تكن أميركا بحاجة إلى إثبات قوتها العسكرية في الميدان بمقدار ما هي بحاجة إلى جعل هذه القوة في حساب أي طرف آخر وفي أي نزاع، وهذا ما حصل في مسألة سورية. (بيري اندرسون ـ في معنى عدم الإنخراط في الحرب من وجهة نظر فريق اوباما).

لم تعد منطقة الشرق الأوسط تشكل تهديداً جديّاً للأمن القومي الأميركي بمفهومه الشامل، ولا حتى للمصالح الحيوية والأساسية التي تريدها أميركا من المنطقة. هذه المسألة تفسر إلى حد بعيد الانكفاء الظاهر لنشاط السياسة الأميركية أو التعامل البارد مع ملفاتها، وعلى الأقل، لم تعد المنطقة تمثل الأولوية التي كانت لها من قبل. ولأن ظاهر الحال هو كذلك هناك مقاربات مختلفة للسياسة الخارجية الأميركية تراوح بين إعلان عجزها وتداعي قوتها وتبدل اهتماماتها، وبين حديث عن تعددية قطبية وحرب باردة جديدة.

لكن كل هذه المقاربات تغفل التاريخ الفعلي للمنطقة وكيف دخلت في شبكة العلاقات الامبريالية والأميركية تحديداً، وكيف خرجت منها كل التحديات السابقة للنفوذ الاميركي والغربي. أما الصعيد الدولي فلا بدّ من إعادة فهمه في ضوء انهيار الامبراطورية السوفياتية وعوامل هذا الانهيار رغم المعطى العسكري الذي كان موجوداً والذي لم يتقدم أصلاً بموازاة القوة الأميركية والأطلسية. وفي أساس فلسفة السياسة الدولية الاميركية أنّ انتصارها هو إعادة القطب الشرقي إلى المنظومة الليبرالية (الرأسمالية) واندماجها في النظام الاقتصادي العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية، وهي على هذا الصعيد أنجزت هذا الهدف تجاه الطرفين النقيضين الصين أولاً وروسيا ثانياً (بيري اندرسون).

ولا نظن أن النموذج العالمي الآخر والتحدي التنافسي يتشكل الآن من حول كوريا الشمالية أو كوبا أو إيران، ولا من حول أنظمة سياسية واقتصادية تحتاج الى دراسة خصوصياتها ومستقبلها دون أي وهم أنها خارج النظام الدولي الاقتصادي والاجتماعي (تجمع دول البريكس). الفارق الكبير والتمايز السياسي الذي يشغل الفكر المعاصر هو أنّ العقد الأول من الألفية الثالثة يشهد استعصاءات فعلية لتعميم الثقافة الديمقراطية وحقوق الانسان، وإزالة الأنظمة الدكتاتورية والشمولية وخصوصاً في العالم العربي والإسلامي.

الثورات العربية، هل انتهت؟

شكلت الثورات العربية مطلع العام ٢٠١١ إيذاناً بأن العرب ليسوا خارج المسار التاريخي وأنهم ليسوا شعوباً راكدة ومستكينة. لكن الحصيلة الراهنة بعد ثلاث سنوات من هذا المخاض وهذا الحراك الهائل الانفجاري لم تبلغ نهاياتها ولا أعطت ثمارها في التحول المضمون والمؤكد نحو الديمقراطية. هناك من قال إنها «ثورات بلا ثوّار» أو بلا قيادة وتنظيم وإيديولوجيا ومشروع، وهناك من قال إنها نتاج سياسة «الفوضى الخلاقة» التي أرادتها الولايات المتحدة الأميركية بديلاً من السيطرة المباشرة. وهناك من قال بإشكالية الإسلام السياسي التي تفرض نفسها في نموذج وسياق مختلف للتطور التاريخي.

لم يكن اندلاع الثورات العربية مفاجئاً إلا من حيث حجم الاحتجاجات وشمولها فئات واسعة من الشعب وتسارع وتيرتها وانتقال عدواها من بلد إلى آخر في تتابع، بدا وكأن مرجعية كبرى تديره. لن نعود الى حركات الاحتجاج والأزمات خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين والتي يمكن من خلالها متابعة التحولات الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والثقافية التي حصلت في العالم العربي. فهذا عمل تأريخي ضخم يحتاج الى مساحة كبيرة من البحث. لكننا نشير هنا إلى أن عدة مؤلفات عالجت هذه



المشكلات خلال تلك الحقبة. سنكتفي هنا بالعقد الأول من الألفية الثالثة الذي شهد اختراقات واسعة لسقف الأنظمة السياسية السلطوية وإجبارها على التعامل مع مسألة الحريات العامة والتعددية والديموقراطية ولو بصورة التفافية أو مخادعة أو احتوائية. في مكان ما، أسهمت في هذا المشهد عدة عناصر، منها الحركات الشعبية الاجتماعية، المعارضات السياسية، الانفتاح الإعلامي الذي جاء بواسطة ثورة الاتصالات والمعلومات والتقنيات فوق كل الحواجز ومحاولات السيطرة. لقد أصبحت سطوح المدن العربية غابات من أجهزة التقاط القنوات القضائية في ظل أنظمة إعلام محلية مقيّدة وموجّهة. كما أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي كسلعة استهلاكية رأسمالية حديثة ظاهرة شعبية عصية على التقنين. وهذه بعض ظواهر كانت في امتداد «الانفتاح الاقتصادي» أو اللبرلة الاقتصادية رغم استمرار أنظمة الطوارئ الأمنية والتحفظ الواسع على اللبرلة السياسية. وقد انتهت الأنظمة التسلطية إلى تصفية إرث دولة الرعاية والتوجيه الاقتصادي علناً، أو أنها بحثت عن مخارج نظرية مستوحاة من التجربة الصينية تحدثت عن «اقتصاد السوق الاجتماعي».

في الكتاب الذي أصدره مركز كارنغي ونشرته دار النهار بالعربية عام ٢٠٠٨ (ما يتعدّى الواجهة) هناك رصد موثق لحركة «الإصلاح السياسي» في العالم العربي، وقد تناول الكتاب (مصر، الأردن، سورية، فلسطين، لبنان، الجزائر، المغرب، السعودية، الكويت، اليمن). وجاءت الخلاصة لتؤكد اتساع الحراك الشعبي، وضعف الاستجابة الرسمية للإصلاح السياسي، والقيود المستمرة على الحريات السياسية، كما أشارت إلى ضعف التكوينات الحزبية المعارضة وحاجتها إلى الإصلاح، وطبعاً ملاحظة الدور المتزايد لحركات الإسلام السياسي.

من المعروف أن السياسة الأميركية والغربية دعمت الدكتاتورية العربية وتعاملت معها كضامنة للاستقرار في المنطقة. وهي حين تبنّت مسألة نشر الديمقراطية كان الهمّ الأساسي لديها هو اللبرلة الاقتصادية والحريات التي تفيد هذه اللبرلة وتحتوي التيارات الراديكالية. والأسلوب الأكثر استخداماً كان دعم هيئات المجتمع المدني لتحديث الحياة العربية بصورة لا يكون من خلفها احتمال ثورة سياسية شاملة.

ومن المعروف أيضاً أنه حين انطلقت الثورات

العربية مطلع العام ٢٠١١ كانت خارج سياق التوقعات

وخارج كل الاستشراف في المنطقة والعالم في شكلها ومضمونها وسلوكها وشرارتها وتداعياتها. وليس لأحد أن يزعم معرفة مسبقة بتلك الأحداث التي تحولت إلى مسألة تاريخية وقد بدأت بإحراق مواطن تونسي نفسه احتجاجاً على المظلومية التي تعرض لها. أو بتظاهرات كانت تجري في مصر على مدى سنوات لأسباب عدّة ولكن تخصيصاً لرفض التوريث وإعادة إنتاج الطاقم السياسي القائم. أو من خلال مجموعة من الصبية المحتجين في درعا على نمط حياة عانى منه الشعب السوري عقوداً طويلة. وليس أدل على طبيعة المفاجأة من تعامل الأنظمة السياسية والقوى السياسية، وكذلك المجتمع الدولي، مع هذه الشرارات الاحتجاجية وعدم فهم دلالاتها.

تونس ومصر البداية

في تونس ومصر سعى النظامان إلى احتواء هذه التحركات بتقديم بعض التنازلات الشكلية مع استنفار كامل لأجهزة الأمن والقمع والتضييق والتحريض. وحين بدأت التحركات تكبر وتتسع كان الخطاب الرئيسي للأنظمة هو التنكّر لقدرة الشعب على ممارسة الديمقراطية وجرى التهويل في دور وحجم «الحركات الإسلامية» باعتبارها حركات متطرفة ومناهضة للحرية وللديمقراطية ومقلقة للغرب. ومع تصاعد حركات الاحتجاج ونجاحها في استقطاب المزيد من الفئات السياسية والاجتماعية وعجز الأنظمة عن السيطرة عليها، استنفر النظام السوري كل آلته القمعية وقرر تحويل المواجهة بصراحة ووضوح إلى مواجهة دموية وإلى سياق الحسم العسكري تحت شعار مواجهة المؤامرة.

فاوض الرئيس التونسي على تعديلات دستورية وحكومية وبعض المطالب الاجتماعية. وفاوض الرئيس المصري كذلك على تعديل دستوري وانتخابات حرّة ونزيهة، وبادر الرئيس السوري بوعود لإلغاء المادة الثامنة من الدستور التي تنص على قيادة حزب البعث للدولة والمجتمع كما على الاعتراف بالتعددية السياسية وإجراء إصلاحات اجتماعية، ثم قدم تنازلات مباشرة للخارج نافضاً اليد من عرقلة أي تسوية سياسية يقبل بها الفلسطينيون. ورفع شعار مكافحة الإرهاب والتطرف وأطلق على حركة الإخوان المسلمين «الإخوان الشياطين».

اندفع «الإخوان» بقوة نحو السيطرة على السلطة والانفراد بها وإقصاء الشركاء الأساسيين في الثورة، وأعلنوا عن مشروعهم وبرنامجهم لأسلمة الدولة ولمصالحة كاملة مع الغرب ولقبول غير مشروط بكل الآثار الناجمة عن وجود إسرائيل ومواقعها ودورها في المنطقة.

لم يكن التغيّر العربي حادثاً داخلياً هامشي التأثير على البيئة الجيوسياسية وبالتالي على النظام الدولي. لذلك استنفرت كل القوى الفاعلة إقليمياً ودولياً لاحتواء هذا الحدث والسيطرة على مفاعيله ونتائجه. دخل الأميركيون مباشرة على خط الوضع التونسي والمصري خصوصاً، وكذلك دول الخليج العربي وتركيا وإيران. ظهرت حركة الإخوان المسلمين بطابعها الدولي كقوة فاعلة أساسية وقدمت نفسها كمشروع إقليمي كبير.

كان «الإخوان» على علاقة حوار وتعاون وثيق مع الأميركيين وعلى تفاهم وتعاون مع تركيا. اندفعوا بقوة نحو السيطرة على السلطة والانفراد بها وإقصاء الشركاء الأساسيين في الثورة، وأعلنوا عن مشروعهم وبرنامجهم لأسلمة الدولة ولمصالحة كاملة مع الغرب ولقبول غير مشروط بكل الآثار الناجمة عن وجود إسرائيل ومواقعها ودورها في المنطقة. وهم إلى ذلك، رغم حوارهم السابق مع إيران، لم يظهروا رؤية للتعاون بين دول الإقليم وحل المشاكل السياسية العالقة.

إن مقاومة الشعب المصري لسلطة «الإخوان» مثّلت أكبر حدث سياسي في المنطقة. سقط المشروع الدولي لتحالف بين الإخوان والأميركيين يشمل المنطقة فيجدد الأنظمة السياسية ويشحنها بطاقة إيديولوجية على حساب حل مشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية. ولا شك أن إسقاط هذا المشروع احتاج إلى تدخل فاعل من أجهزة ومؤسسات الدولة المصرية ولا سيّما الجيش. ففي لحظة من التأزم السياسي بدت مصر على أبواب حرب أهلية. ولقد كان واضحاً منذ انطلاق الموجات الثورية الثلاث بين ٢٠١١ و٢٠١٤ أن القوى المنظمة هي التي تتحكم في نتائج الأحداث ولو لم تكن هي التي أطلقتها. وكانت جماهير الثورة المصرية لا تملك إطارات حزبية منظمة غير «الإخوان» ولا تستطيع المنافسة في معركة بهذا الحجم مع قوى لديها إمكانات مادية هائلة سواء من خلال التنظيم الإخواني التاريخي وفاعلياته الاقتصادية أو المؤسسة العسكرية وفاعليتها الاقتصادية أو حزب النظام والقوى الاقتصادية التي يتشكل منها أصلاً. وفي مكان ما، ضغطت الأوضاع الاجتماعية والخدماتية والمالية ومديونية الدولة على الحراك الشعبي وعلى جمهوره، وزادت من الحاجة إلى الخروج من «الفوضى» ومن العنف الذي لجأ إليه الإخوان ترهيباً للشارع.

ماذا عن سوريا؟

لم تكن الثورات متروكة لتقرير مصيرها بنفسها وفق الأوضاع الداخلية الخاصة بكل بلد. في اليمن والبحرين حضر التدخل السعودي المباشر كما الإيراني. وفي ليبيا تولت جامعة الدول العربية تغطية تدخل الحلف الأطلسي نيابة عن دول خليجية مدّت الحركات المسلحة بالسلاح والمال. وفي مصر كانت جماعات الإسلام السياسي المختلفة (الإخوان، السلفيون، المسلمون الليبراليون...) تتلقى دعماً خليجياً مباشراً ولو في تنافس معروف. أما الثورة السورية فقد استبقها استنفار واسع لكل القوى الإقليمية والتيارات السياسية التي كانت على تماس مع «المسألة السورية»، سواء إيران أو تركيا أو الخليج العربي أو حركة الإخوان المسلمين وفرعها الفلسطيني. فقد كانت سورية منذ احتلال الأميركيين للعراق في مرمى مداخلات إقليمية ودولية متعددة ولا سيّما من دول الجوار (إيران - العراق - تركيا - الأردن - لبنان). في سورية كان البُعد الجيوسياسي الأكثر وطأة على مجريات الأحداث. وقد كان هذا البُعد مؤثراً في خيارات الشعب السوري والرأي العام عموماً كما في موقف القوى الإقليمية المتدخلة. وكان هذا البُعد حاسماً في تعاطي النظام مع مطالب الثورة نفسها وكيفية إدارته للصراع. لقد حسم أمره منذ اللحظة الأولى باتخاذ خيار الحسم العسكري تدعمه في ذلك قوى داخلية وخارجية. لن ندخل هنا في تقديرات وفرضيات عن شعبية النظام وجمهوره ولا عن طبيعة قوى الثورة والتغيير، ولا عن الاحتمالات والمشاهد المختلفة خارج عمليات التدخل التي شاركت فيها دول متعارضة ومتناقضة وبأية وسائل وإمكانات وأية ظروف، فهذه كلها لا تؤثر في الواقع الذي تظهّر بسرعة عن تقاطع الحرب الداخلية مع الحرب الخارجية. لقد كانت الأمور منذ بداياتها تشبه المسار اللبناني للحروب اللبنانية والإقليمية المركبة.

نجح الرئيس السوري في أن يحوّل المواجهة إلى صراع إقليمي ودولي بعد المواجهة العسكرية مع من صوّرهم منذ اللحظة الأولى بالإرهابيين والعصابات المسلحة. وضع سورية والشعب السوري أمام خيارات الاستسلام أمام بطش النظام أو الحرب الأهلية المديدة التي تفتح احتمالات تفكك سورية وتقسيمها. ولم تكن المعارضة بعد موجات متتالية من القمع وتصفية كوادرها أو تهجيرهم قادرة على إدارة معركة داخلية منظمة وناجحة. فقد أدّت الفوضى إلى طغيان العنف من جهة وإلى استدراج كل الجماعات المتطرفة والمرتبطة بدول الإقليم لكي تتولى المواجهة المسلحة.

أحجمت أميركا عن التدخل المباشر في الأزمة السورية. فقد جاء الرئيس الأميركي اوباما تحت شعار وقف حروب التدخل الأميركية فضلاً عن وعوده بالخروج من العراق وافغانستان وحاجته إلى انسحاب هادئ وآمن لإيران وروسيا دور فيه. وكان الغرب (الحلف الأطلسي) قد تصرف باستقلال كامل في ترتيب الحل الانتقالي في اليمن وفي اسقاط نظام معمر القذافي، كما في دعم حركات الإسلام السياسي في كل من تونس ومصر. الأمر الذي زاد من قلق الروس والصينيين على مصير مصالحهم في وسط آسيا وشمالي افريقيا ولا سيّما خارطة اقتسام موارد الطاقة الكبرى - النفط والغاز • وإنهاء آخر معاقل روسيا في الشرق الأوسط وقاعدتها العسكرية في سورية. لذلك استخدمت روسيا والصين موقعهما في مجلس الأمن بممارسة حق النقض على قرارات تعطي شرعية دولية لعمليات عسكرية ضد سورية. أوجد التوازن الدولي الجديد حول سورية فرصة إضافية للنظام وحلفائه في استكمال العمليات العسكرية لضرب المعارضة المسلحة والجماعات الوافدة من الخارج المدعومة من أنظمة الخليج العربي، كما سمح لإيران بأن تزيد من أشكال تدخلها العسكري المباشر ومن خلال ذراعيها في لبنان (حزب الله) والعراق (فيلق أبو الفضل العباس) وطبعاً التسهيلات التي يقدمها النظام العراقي نفسه بواسطة رئيس الحكومة نوري المالكي. أصبح التوازن العسكري ملائماً جداً لما يسمّى محور الممانعة من طهران إلى بيروت عبر العراق وسوريا، فضلاً عن تدخل أوسع لإيران في البحرين واليمن عبر دعمها لجماعة الحوثيين في الشمال وحركة الانفصال في الجنوب. وتحولت الدول الداعمة للمعارضة السورية إلى موقف دفاعي من الخليج وفي تركيا والأردن ولبنان.

أنجزت أميركا مطلبين حاسمين، الأول هو السيطرة على أسلحة الدمار الشامل (النووي الإيراني والكيماوي السوري) والثاني هو استنزاف مديد لمحور الممانعة بما في ذلك تجويف سورية الدولة والكيان. وخلافاً لكل الدعاءات عن تشكل نظام إقليمي جديد «ممانع» دخلت المنطقة تحت جناحي الأمبريالية وفقدت المزيد من عناصر قوتها وسيادتها.

ثلاثة أسئلة فلسطينية
من وحي غزّة

الياس خوري

كاتب وروائي من لبنان. آخر أعماله «سينالكول» (٢٠١١).

أكتب هذه الكلمات بينما تشتعل النار في غزة، بعد انهيار المفاوضات الفلسطينية الاسرائيلية في القاهرة مساء الثلاثاء ١٩ آب ٢٠١٤. الأفق مليء بالغموض، المسألة الوحيدة الواضحة هي مسيرة الألم الفلسطينية التي يضيئها الصمود وتصنعها الإرادة.

الكتابة على أطراف النار المشتعلة تحتاج الى لغة جديدة، والى قدرة على التخلي عن قاموس الرطانة التي احتلت الأمكنة، بشعاراتية تبدو اليوم باهتة أمام تضحيات الفلسطينيات والفلسطينيين في قطاع غزة.

إنها مجرد اسئلة، تبحث عن أفق فلسطيني جديد، بعدما انهارت لغة التسويات مع محتل لا يريد التسوية على الاطلاق، لأنه لا يزال مصراً على أن يستكمل بالعنف فصول النكبة الفلسطينية المستمرة منذ ستة وستين عاماً.

السؤال الأول: الغائب يحضر

القوانين المتعلقة بالفلسطينيين التي ترافقت مع إنشاء دولة اسرائيل، تثير الحيرة في قدرتها على تحويل الاستعارة الى نصوص قانونية. فإلى جانب الحكم العسكري الذي فُرض على فلسطينيي ١٩٤٨، ولم يرفع الا عام ١٩٦٦ ليفرض من جديد بعد ستة أشهر على فلسطينيي الضفة والقطاع، قام الإسرائيليون بصك تعبيرين غامضين أعطيا الصفة القانونية. التعبير الأول هو «الغائبون»، الذين سُنّ من اجلهم قانون أملاك الغائبين الذي سمح للسلطات الإسرائيلية بمصادرة أملاك اللاجئين الفلسطينيين، بحجة أنهم لم يكونوا في بيوتهم عام ١٩٤٨. والتعبير الثاني هو «الغائبون - الحاضرون»، وهو تعبير مستل من قاموس الاستعارة الأدبية، الذي قام الاسرائيليون بإعطائه مفاعيل قانونية سمحت لهم بمصادرة أملاك الفلسطينيين الذين بقوا في اسرائيل ولكن الهاغاناه والبالماخ قامتا بتهجيرهم من قراهم أو بيوتهم.

«الغائب» هو الاسم القانوني للفلسطيني الذي طُرد من بلاده بالقوة وبفعل المجازر وتنفيذاً لخطط اسرائيلية كشفها المؤرخون الفلسطينيون والاسرائيليون، بدءاً بخطة دالت ووصولاً الى عملية داني.

و«الغائب» اسم مستعار للمطرود، هكذا تم استبدال كلمة ذات دلالة سياسية، بكلمة محايدة. وبدلاً من أن تعترف اسرائيل بخطيئتها الأصلية عام ١٩٤٨، اخترعت تعبير الغائبين وكأن ألوف الفلسطينيين الذين أقاموا في مخيمات اللجوء، قرروا التغيّب أو الهجرة بمحض ارادتهم. كما أن هذا التعبير يخفي الأوامر الواضحة التي أصدرها بن غوريون بحصد المتسللين، أي منع عودة الفلاحين الفلسطينيين تسللاً الى قراهم بقوة السلاح.

المطرود يصير غائباً، والغائب يصير متسللاً، هذه هي قوانين لعبة شرعنة تغييب الفلسطينيين وتحويلهم الى كائنات غير منظورة، مغطاة بحجاب اللغة. وقد تكثّف هذا الحجاب اللغوي الى درجة أنه نجح في تغيير اسم الفلسطينيين الى «عرب أرض اسرائيل»، بحيث صار الفلسطيني هو العربي الوحيد في العالم العربي!

استعارة لها فعل القانون

أوصل الإسرائيليون «إبداعهم» الى ذروته عبر استنباط تعبير الغائب - الحاضر، وهو تعبير لا يمكن العثور على ترجمة معانيه الا في القاموس الأدبي، حيث يشكّل استعارة تحمل احتمالات تأويل شتى. وعلى سبيل المثال فلقد استخدم محمود درويش عبارة «في حضرة الغياب»، عنواناً لكتاب سيرته الشعرية/النثرية، كي يروي سيرة الحضور الذي يقاوم الغياب من جهة، وكي

يسمح لنصه بتأمل معاني الموت، ودلالات الغياب في حضرته، من جهة ثانية.

غير أن الاسرائيليين أعطوا الاستعارة الأدبية مفعول القانون، وجعلوا منها وسيلة للتعريف بالفلسطيني الحاضر بصفته غائباً. وهذا يذكّرنا بافتراض ادوارد سعيد في كتابه «مسألة فلسطين» بأن الصراع هو بين الحضور والتأويل. التأويل الاسرائيلي للحضور يجعله غائباً، أي أن حضور الفلسطيني في أرضه، التي اطلق عليها الغزاة اسم اسرائيل، لا يكون الا في غيابه.

المشروع الصهيوني الذي حوّل الأسطورة التوراتية الى واقع تاريخي، يقوم بتحويل الاستعارة الى قانون وضعي، يتبارى كبار رجال القانون في تسويغه وتطبيقه.

في حرب غزة حضر الغائبون الفلسطينيون بطريقة مبتكرة لا سابق لها. فسكان غزة، الذين يشكل اللاجئون أو الغائبون في القانون الاسرائيلي نسبة خمسة وستين في المئة منهم، حضروا في الغياب. ذهبوا الى أقصى الغياب في باطن الأرض، حفروا الأنفاق، وخرجوا منها، وشكلوا في عملهم هذا المفاجأة الاستراتيجية الكبرى في حرب غزة.

الغريب أن الاسرائيليين الذين اصطدموا بأنفاق الجنوب اللبناني في حرب تموز فوجئوا بأنفاق غزة في حرب تموز وآب ٢٠١٤، كأنهم صدّقوا استعارة الغياب التي فرضوها على ضحاياهم، وأيقنوا بعد احتلال متماد دام ستة وستين عاماً أن الغائب لن يحضر، كما أن الغائبَ الحاضر سوف يغيب الى الأبد.

احتلالان وحقّان لا تنازل عنهما

ما فعله مقاومو غزة هو أنهم ذهبوا في الغياب الى أقصاه، وفي أقصى الغياب يتجلّى الحضور، هذا هو معنى استراتيجية الأنفاق. الفلسطيني يمّحي تحت الأرض، كي يخرج منها، معلناً أنه ابن هذه الأرض، وأن غيابه ليس غياباً الا لأنه ذروة الحضور.

جدل الغياب الحاضر لم يقتصر على غزة وأنفاقها وبيوتها المهدمة، بل امتد الى كل أرض فلسطين، الغائبون ـ الحاضرون، أي فلسطينيو ١٩٤٨ حضروا في مظاهراتهم واحتجاجاتهم، وهبّة الغائبين في الضفة الغربية، أشارت الى الانتفاضة الكامنة التي تختمر في مقاومة الاحتلال.

المعاني التي كشفتها حرب غزة نقلت استعارة الغياب - الحضور الى أفق سياسي جديد يعيد بلورة السؤال الوطني الفلسطيني، مُخرجاً اياه من عتمة اوسلو ومعيداً المسألة الى جذورها.

هناك احتلالان وحقان لا يمكن التنازل عن اي منهما.

احتلال عام ١٩٦٧، الذي يقتضي بلورة استراتيجية فرض الانسحاب بلا قيد أو شرط على قوات الاحتلال.

واحتلال عام ١٩٤٨، الذي يبدأ بفرض حق العودة والمساواة، تمهيداً لبلورة مشروع ديمقراطي لحل مسألة فلسطين، وحلّ المسألة اليهودية المستجدة فيها، بما يضمن حق الوجود للجميع في اطار هزيمة المشروع الكولونيالي الصهيوني.

الإشارة الى احتلالين لا تعني بالضرورة تحقيباً زمنياً للصراع، لكنها تطرح أسئلة المستويات المتعددة للنضال الوطني الفلسطيني.

السؤال الثاني: الحاضر يغيب

منذ نهاية زمن الحروب النظامية مع حرب تشرين ١٩٧٣، بدأ زمن جديد للحروب. فإسرائيل توقفت عن خوض اية مواجهات مع جيوش عربية نظامية، واقتصرت حروبها على مواجهة المقاومين الفلسطينيين واللبنانيين في حروب غير متوازية.

قام الإسرائيليون بصك تعبيرين غامضين أعطيا الصفة القانونية. التعبير الأول هو «الغائبون»... الذي سمح للسلطات الإسرائيلية بمصادرة أملاك اللاجئين الفلسطينيين، ... و«الغائبون - الحاضرون»... الذي قام الاسرائيليون بإعطائه مفاعيل قانونية سمحت لهم بمصادرة أملاك الفلسطينيين الذين بقوا في اسرائيل.

الحروب لم تتوقف منذ خروج مصر من الصراع مع اتفاقات كامب دافيد ١٩٧٨، بل ازدادت استعاراً، كما أن الآلة العسكرية الاسرائيلية ازدادت وحشيتها في مواجهة قوات غير نظامية أطاحت العقيدة القتالية الاسرائيلية القائمة على نقل المعركة الى أرض العدو وتحقيق انتصار صاعق ومفاجئ. من اجتياح بيروت ١٩٨٢ الى اجتياح الضفة عام ٢٠٠٢ الى حرب لبنان الثانية ٢٠٠٦، وصولا الى حروب غزة المتواصلة، وما تخللها من حروب صغيرة واجتياحات محدودة.

غابت الأنظمة العربية في هذه الحروب، بل وتواطأت في الكثير من الأحيان مع المحتل الاسرائيلي، علّه ينهي العبء الفلسطيني مرة والى الأبد.

غياب الحاضر العربي مقلق، لأسباب متعددة أهمها منع المقاومة من ترجمة صمودها الى حقائق سياسية في الكثير من الأحيان، لكن اللافت هو أن الغياب لم يكن يوماً جامداً، بل جرت محاولات توظيفه من أجل تصفية حسابات اقليمية، في سياق الصراعات بين الأنظمة.

سأتوقف بسرعة عند مثالين، قبل أن أصل الى حرب غزة الحالية.

المثال الأول هو الحرب العربية - الاسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨، التي صار اسمها حرب النكبة. إن دراسات الوقائع التاريخية لتلك الحرب يشير الى أمرين:

الأمر الأول هو أنها لم تكن حرباً رغم أنها كانت تشبه الحرب، وهذا يعود الى الاختلال العميق في موازين القوى العسكرية من جهة، وعدم قدرة الجامعة العربية على بلورة خطة حقيقية مشتركة لمواجهة قوات الهاغاناه التي كانت تفوقها عدداً وعدّة. هذا لا ينفي بالطبع بطولات جرت هنا وهناك: الجيش المصري في الفلوجة، والجيش العراقي في جنين. لكن هذه البطولات لم تكن جزءاً من عمل مشترك، بل كانت قرارات ميدانية وافقت عليها القيادات السياسية لأنها تصب في مصلحة رؤيتها لغنائمها الممكنة من الحرب.

حرب ١٩٤٨ حرب سياسية عربية عربية

الأمر الثاني، وهو الأهم، هو أن الحرب كانت حرباً سياسية عربية عربية. السوريون يتوجسون من أمير شرقي الأردن وطموحاته في عرش سورية، وأمير شرقي الأردن يفاوض الاسرائيليين سراً على تطبيق قرار التقسيم، والملك المصري يتوجس من طموحات الأمير الأردني والى آخره.

وهذا يسمح لنا بأن نقدم افتراضَ أن نشوء دولة اسرائيل كان الثمرة التي أنتجها النظام الاقليمي العربي في صراعات أطرافه على رسم مستقبل أنظمة الحكم فيه بعد الحرب العالمية الثانية.

هكذا لم يحارب العرب اسرائيل الا في سياق حروبهم الداخلية، ما سمح للتفوق العسكري الاسرائيلي المدعوم بظرف دولي تقاطعت فيه المصلحتان الأميركية والسوفياتية، بأن يتحول الى دولة، وبأن يتم حجب جريمة التطهير العرقي ضد الفلسطينيين.

المثال الثاني هو حرب لبنان الأولى ١٩٨٢، التي قادت الى احتلال بيروت، ومجزرة شاتيلا وصبرا وما أعقبها من مجازر.

كان القائد الفلسطيني الراحل ياسر عرفات لا يخاف الا من «استراتيجية الأكورديون»، وهو الاسم الذي أطلقه على احتمال تقاطع المصالح بين اسرائيل والنظام السوري، الذي سيؤدي حتماً الى هزيمة منظمة التحرير في لبنان.

جاءت حرب ١٩٨٢ في ظل غطاء اميركي بضرورة تصفية «الارهاب الفلسطيني» وفي وضع عربي مفكك بعد خروج مصر من الصراع إثر اتفاقية كامب دايفيد. وكان النظام السوري يسعى الى جمع ما تيسر من الأوراق بين يديه كي يعدّل موقعه الاستراتيجي في أي تسوية مقبلة محتملة.

ان قراءة متأنية للغزو الاسرائيلي للبنان، تشير الى أن هذا الغزو فشل في تحقيق هدفه، اي طرد المقاتلين الفلسطينيين من لبنان. فالخروج بالسفن اليونانية لم يكن خروجاً كاملاً من لبنان، اذ بقيت القوات الفلسطينية المقاتلة في البقاع والشمال، كما أن عملياتها ضد قوات الاحتلال لم تتوقف.

ومع بداية الانسحاب الاسرائيلي من الجبل اندفعت القوات الفلسطينية الى الجبل، وبدأت تستعد للعودة الى بيروت.

استرايجية «الاكورديون»

هنا حقق «الاكورديون» ما عجزت اسرائيل عن تحقيقه، دعم النظام السوري الانشقاق في فتح، ثم منع قوات «فتح الانتفاضة» من الوصول الى بيروت، وفرض على قائد الانشقاق ابو صالح الإقامة الجبرية في دمشق، كما اندفعت القوات السورية الى معركة انهاء الوجود العسكري الفلسطيني في طرابلس.

المنتصر عام ١٩٨٢ لم يكن الجيش الاسرائيلي، بل كان الاكورديون الذي أحسن الرئيس السوري العزف على مفاتيحه. اسرائيل خرجت من حرب لبنان الأولى مهشمة على المستويين السياسي والأخلاقي، بينما عادت القوات السورية الى بيروت، كي تدير الحرب الأهلية اللبنانية بإيقاعات جديدة.

في غزة يمتزج النموذجان، فالحرب الإقليمية مستعرة بين المحاور الثلاثة في المنطقة: المحور المصري-السعودي والمحور التركي-القطري- الاخواني والمحور الايراني- الحزب الهي. واذا كان دور المحور الايراني خافتاً فهذا يعود الى فقدانه الورقة الحمساوية بسبب موقفه الداعم لنظام الاستبداد في سورية من جهة، وبسبب الانفجار الداعشي الذي يهدد بهيمنته على العراق، والذي صار ورقة ابتزاز اميركية ضده.

صراع المحورين المصري - السعودي والتركي - القطري، انعكس على مجريات الحرب، وهدّد بتحويل غزة الى ورقة مساومة، كما أنه أشار الى احتمال «الاكورديون» بسبب العداء المستحكم بين النظام العسكري المصري والاخوان.

غير أن الصمود الأسطوري لمقاتلي غزة، والتضحيات الهائلة التي قدمها الشعب الفلسطيني فيها يخففان من وطأة هذين الاحتمالين، لأن الفلسطينيين فهموا أن الوحدة الوطنية هي عنصر قوتهم الأساسي، وأن فلسطين لا تستطيع ان تكون ساحة للصراعات الاقليمية لأنها موضوع الصراع.

الاقليم يدفع حرب غزة الى أن تكون ورقة صراع ومساومات، وغزة حين تقاوم الاحتلال الاسرائيلي تقاوم أيضاً مشروع الساحة، وتفرض على الفلسطينيين إيقاعاً وحدوياً هو بداية طريق خروجهم من زمن الانقسام الذي قادهم الى حافة الهاوية.

السؤال الثالث: فلسطين والمنطقة

دارت حرب غزة وسط انفجار الدم في المشرق العربي. واقع وقع دفعة واحدة بحيث صار كابوساً. كارثة تأسيس دولة الخلافة أعلنت دخول بلاد الشام والعراق في هاوية الجريمة. ودخلت المنطقة في عصر ظلامها الأشد حلكة: تطهير طائفي للمسيحيين في الموصل، ابادة وسبي للايزيديين في جبال سنجار، رؤوس تقطع وجثث تمتد من الرقة الى سهل نينوى.

في بحر الانحطاط الدموي، الذي هو نتاج الهزائم والاحباط والفشل، الذي تشكل من مفاعيل الغزو الاميركي للعراق، ومن تمفصل الغزو على الاستبداد، ووصل الى احدى ذراه في القمع الوحشي للشعب السوري عبر الأسلحة الكيماوية بصفتها رمزاً بعثياً عراقياً وسورياً.

منطقة تتفكك ونخب تتآكل، هذا هو حصاد الثورة المضادة التي تقوم بوأد احتمالات الحرية التي اعلنتها الثورات العربية.

فلسطين علامة للعرب

من هنا يأتي الخوف على فلسطين.

فلسطين وحدها اليوم، هكذا كانت دائماً. والاستثناء السياسي والشعبي اللبناني الذي جعل من فلسطين جزءاً من المعركة الوطنية الديمقراطية في لبنان خلال الحرب الأهلية كان استثناء ولم يكن القاعدة.

لكن فلسطين كانت قادرة على أن تشكل بوصلة العمل الوطني العربي. نبحث عن الصح حيث تكون فلسطين، وحين لا تحضر قضية الحرية الفلسطينية يكون هناك خطأ ما في المعادلة السياسية في المشرق العربي.

لا تستطيع فلسطين أن تكون بديلاً للعرب، ولكنها تستطيع أن تكون علامتهم. فيها ومنذ بداية مقاومة المشروع الصهيوني لم يكن الاسلام حلاً كما لم يكن مشكلة. اسلامها جزء من الحركة الوطنية من عزالدين القسام الى فتحي الشقاقي، ومقاومتها يصنعها الفلسطيني بصفته فلسطينياً وليس بصفته مسلماً أو مسيحياً. جورج حبش كان فدائياً فقط مثله مثل خليل الوزير، ففي فلسطين ينصهر الجميع في مقاومة الاحتلال.

هل تستطيع فلسطين وسط هذا الانهيار العربي الكبير أن تبقى موحَدة وموحِدة؟

السؤال ليس موجهاً الى حماس فقط أو الى القوى الاسلامية الفلسطينية، بل هو موجه أيضاً الى الحركة الوطنية والى القوى العلمانية فيها. كيف نعيد بناء الوحدة ونخرج من الخطاب الإقصائي، ويصير كل الفلسطينيين فلسطينيين من جديد؟

في الماضي كتب الفلسطيني جورج انطونيوس كتاباً تحت عنوان «يقظة العرب». لعله لم يبق من هذا الكتاب سوى عنوانه، لكنه عنوان جدير بأن يجعلنا نتأمل هذه الغيبوبة العربية الراهنة.

السؤال هو من سيكتب كتاب «يقظة فلسطين»؟

هل ننتظر كاتباً أم علينا البحث عن هذا الكتاب وجمع صفحاته من أشلاء أطفال غزة التي تحتلّ عيوننا؟

لا تستطيع فلسطين أن تكون بديلاً للعرب، ولكنها تستطيع أن تكون علامتهم. فيها ... لم يكن الاسلام حلاً كما لم يكن مشكلة. اسلامها جزء من الحركة الوطنية... ومقاومتها يصنعها الفلسطيني بصفته فلسطينياً وليس بصفته مسلماً أو مسيحياً. جورج حبش كان فدائياً فقط مثله مثل خليل الوزير

هل من يوقف إسرائيل؟

بشير أبو منة

أستاذ الأدب في جامعة برنارد نيويورك

أطلقت إسرائيل جولة أخرى من الدمار والمعاناة في قطاع غزة، أكثر ضراوة حتى من عدوانها في ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩. وحتى الآن، تم تشريد مئات الآلاف من الفلسطينيين مرة أخرى، وقتل أكثر من ألفي فلسطيني وأصيب ثمانية آلاف (معظمهم من المدنيين)، وتم تدمير الآلاف من المباني كلياً أو جزئياً (بما في ذلك العديد من المساجد والمدارس والمستشفيات التي استهدفت مباشرة).

وقد دمرت أحياء في الشجاعية وخزاعة وتحولت إلى أكوام من الأسمنت والحديد المتهالك. وتشير روايات الشهود إلى محو عائلات بأكملها من الوجود، واغتيالات جماعية، وإطلاق النار على المدنيين العزّل، وقتل نحو خمسمئة طفل. ولا يوجد مكان آمن في القطاع ولا حتى مدارس الأمم المتحدة التي تحولت إلى ملاجئ تؤوي ما يزيد عن مئتين وعشرين ألف فلسطيني مشردين داخلياً. وبعد ثماني سنوات من الحصار، وسبعة وأربعين عاماً من الاحتلال، وستة وستين عاماً من الحرمان، يعيش مليون وثمانمئة ألف شخص من سكان غزة في خوف ورعب لمدة شهر تقريباً الآن. ومن جديد، يقوم أقوى جيش في المنطقة بقصف السكان الذين طالت معاناتهم.

وتعتبر التكلفة بالنسبة إلى إسرائيل عسكرية بالأساس: فقد قتل أربعة وستون من جنود الغزو وأصيب عدد أكثر. كما كانت هناك ثلاث وفيات بين المدنيين نتيجة إطلاق الآلاف من صواريخ القسام محلية الصنع وقذائف الهاون على إسرائيل، وقد صدت العديد منها القبة الحديدية التي مولتها أميركا. ورحل العديد من سكان المدن الإسرائيلية الجنوبية (حيث تكثر الملاجئ التي توفرها الدولة) إلى المناطق التي لم تتأثر، أو مناطق أكثر أمناً.

وبالنظر إلى هذه الحقائق، لا شك في أن الاجتياح الإسرائيلي قد عطل بالأساس الحياة اليومية في المناطق القريبة من غزة، لكن الفلسطينيين المقيمين في غزة شهدوا دماراً على نطاق غير مسبوق. وسوف تحتاج غزة إلى سنوات للتعافي من الدمار المادي الذي أحدثه الجيش الإسرائيلي، ولفترة أطول بالنسبة إلى شفاء الفلسطينيين من الندوب النفسية والحزن والجروح، إذا سمحت لهم إسرائيل بالعيش من دون عمليات قصف واجتياح في المستقبل.

وتثير حقيقة أن إسرائيل يمكن أن تكرر اجتياح غزة الذي حصل في ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩، وتدمير المزيد من البنى التحتية، وقتل المزيد من الفلسطينيين، قلق جميع الذين يعتقدون أن غضب الرأي العام من شأنه أن يضع على الأقل بعض القيود على سلوك الدولة الإسرائيلي.

لماذا، إذن، نجد أنفسنا مرة أخرى في مواجهة مع مثل هذا الواقع الكئيب؟ لماذا يكون لإسرائيل مطلق الحرية في التعامل بعنف مع الفلسطينيين؟ وما الذي يمكن أن يضع قيوداً على سلوك إسرائيل في المستقبل؟

حاجة متبادلة؟

يكمن جوهر المسألة في حقيقة أن الفلسطينيين لا يتمتعون بأهمية كبيرة استراتيجياً وجيوسياسياً، سواء في المنطقة، أو باعتبارهم شعباً خاضعاً للسيطرة من دون فوائد لهذه السيطرة. فبالنسبة إلى إسرائيل، تم خفض عدد العمال الفلسطينيين، منذ أوسلو وسياسات الإغلاق. ولم تعد إسرائيل تستغلّهم مباشرة كعمال. ويسلبهم هذا الوضع النفوذ اللازم للتأثير في السياسة الإسرائيلية، كما يجعلهم شعباً يمكن الاستغناء عنه تماماً.

في المقابل يحتاج الفلسطينيون إلى إسرائيل في كل شيء (الغذاء والموارد والمياه والكهرباء، والوصول

إلى أراضيهم - التي تتقلص بشكل متزايد - وإلى المناطق الأخرى داخل الضفة الغربية، والوصول إلى العالم الخارجي، الخ)، ولا تحتاج إليهم إسرائيل في شيء. وتعتبر إسرائيل قطاع غزة والضفة الغربية سوقاً في قبضتها، تضخ فيه سلعها للفلسطينيين، الذين لا يمتلكون أي قدرة على اتخاذ القرارات المتعلقة بالتنمية الاقتصادية والسياسية الخاصة بهم. وهكذا، لم تؤدّ الآلية التي وضعتها أوسلو للاحتلال، إلى حرمان الفلسطينيين سياسياً فحسب (من خلال تعطيل الاستقلال) ولكن اقتصادياً أيضاً، مما يجعلهم يعتمدون اعتماداً كلياً على إسرائيل، وخاضعين لسيطرتها. ونتيجة لذلك، فهم يمثلون زائدة سكانية؛ يتعرضون للقمع، ولكن لا يجري استغلالهم، خاضعون للسيطرة، لكن لا حاجة لهم.

يعني هذا حرية إسرائيل في الغزو، والهجوم على الفلسطينيين، وقتلهم كلما شاءت. وأدّت هذه الحرية إلى تطورات مرعبة في المجتمع الإسرائيلي (راجع كل موضوعات جدعون ليفي في «هآرتس» أخيراً). ولا يمكن تفسير النسب الصادمة (٩٥٪ من اليهود الإسرائيليين) المؤيدة للحملة على غزة، إلا عبر العنصرية الجامحة، التي ترعاها الدولة. فعلى سبيل المثال، صارت الكراهية للفلسطينيين صارخة في جميع غرف الأخبار الإسرائيلية، الحافلة بالمسؤولين السابقين العسكريين والأمنيين المؤمنين بشدة بضرورة توجيه ضربات حاسمة إلى حماس. وهذا واضح في خطاب الحاخامات، والمستوطنين، والساسة إضافة إلى الجو العام الذي يطارد العرب.

ويجسّد هذه الروح بنحو دقيق بينيَ موريس في مقالته الأخيرة في صحيفة هآرتس: «يجب أن نهزم حماس في المرة المقبلة». وتحدث عن «إنهاء المهمة» و«إعادة احتلال قطاع غزة بالكامل وتدمير حماس كمنظمة عسكرية، وربما أيضاً كمنظمة سياسية». ويضيف، باعتبار ذلك أمراً واقعاً: «وهذا يتطلب شهراً من القتال، يجري خلاله تطهير جميع أحياء القطاع من العناصر الفاعلة في حماس والجهاد الإسلامي وأسلحتهم. وسيتطلب ذلك ثمناً باهظاً من حياة كل من جنود الجيش الاسرائيلي والمدنيين الفلسطينيين».

ولا يمكن أن تشتعل هذه الرغبات في الإبادة الجماعية إلا عندما يتهم ما يسمى دعاة السلام في إسرائيل مثل عاموس عوز، مرة أخرى، المقاومة الفلسطينية باستخدام «الدروع البشرية» - بينما تشير جميع الأدلة في الحرب الأخيرة على قطاع غزة، إلى أن إسرائيل هي من استخدمت الفلسطينيين بهذه الطريقة لحماية جنودها. ويعتبر قياس عوز صادماً، في محاولة متعمدة لتبرير جرائم الحرب: «ماذا كنت لتفعل لو أن جارك في المنزل المواجه لك عبر الشارع يجلس في الشرفة، ويضع ابنه الصغير في حضنه ويبدأ إطلاق النار على حجرة أطفالك؟».

ألا يستحق عوز جائزة نوبل للآداب على هذا الاستخدام الرائع لقدراته الخيالية؟ فهو - مثله في ذلك مثل موريس - يؤيد أيضاً نزع السلاح في غزة بالقوة: «أرى أن الشر المطلق في العالم هو العدوان، والطريقة الوحيدة لصد العدوان للأسف هي القوة. وهنا يكمن الفارق بين داعية السلام الأوروبي الإسرائيلي، وداعية سلام إسرائيلي مثلي». فهل يعتقد حقاً أنه يشجع السلام بينما يتحدث بلغة الكراهية؟ وبوجود دعاة سلام إسرائيليين مثل عوز، من يحتاج إلى دعاة حرب؟ سوف تتم الإشادة برئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو مع تبنّي عوز نهجه العدواني الهمجي الجديد.

مجالات الضغط على إسرائيل

في ظل هذه الظروف من العنصرية الاستعمارية واسعة النطاق والحرب ضد الفلسطينيين، لا خيار سوى فرض ضغط على إسرائيل. يمكن تحديد ثلاثة مجالات للضغط: الداخلي، والإقليمي، والعالمي. وعند فرض هذه الضغوط بالتزامن، تقلّ فرص تحييدها، أو التصدي لها من قبل إسرائيل وحلفائها.

أولاً: الداخلية؛ حيث تخشى اسرائيل من فقدان السيطرة على سكان الأراضي المحتلة من خلال التظاهرات الحاشدة والمواجهات: أي من خلال طعن شعبي منظّم في نظام الاحتلال الذي فرضته أوسلو. نظام تلعب فيه السلطة الفلسطينية دورها الحاسم في مراقبة المحتلين، وإبعادهم عن الجيش الإسرائيلي، وتنسيق المسائل الأمنية مع إسرائيل عبر تسليم المشتبه بهم، والسماح لإسرائيل بإجراء عمليات الاغتيال والخطف وسجن المسلحين، والمشاركة في المعلومات الأمنية.

وإذا استمر التعاون الأمني المحلي، فسيكون لدى إسرائيل ميزة خطيرة على المقاومين المحليين وموجهي السياسة. وهذا هو المجال الرئيسي للخلاف بين فصائل المقاومة الفلسطينية (بما في ذلك حماس والجهاد الإسلامي) ونخبة «فتح» والسلطة الفلسطينية.

أما القيد الثاني فهو الإقليمي: يمكن أن تمثل الحركات العربية الشعبية والديمقراطية مجرد بيئة أفضل للنضال

الفلسطيني والتضامن العربي. ففي الفترة الماضية، على سبيل المثال، نُفّذت عشرات التظاهرات في مختلف أنحاء الأردن تدعو إلى إغلاق السفارة الإسرائيلية، وإنهاء معاهدة السلام الإسرائيلية الأردنية، ووقف التعاون الاقتصادي.

وكما أوضحت غزة ٢٠١٤، فإن شعباً بلا دولة مثل الفلسطينيين حساس بشكل استثنائي للتغيرات الإقليمية. ولم يكن لإطاحة الجيش المصري الرئيس محمد مرسي، والحملة على الحركة الإسلامية في مصر، وإعادة تمكين النظام القديم مؤثراً في ترك حماس بلا حليف رئيسي في المنطقة فحسب؛ لكن في إخماد الثورة وقمعها وتشتيتها من قبل الجيش المصري والنخبة أيضاً. حرم ذلك الفلسطينيين من الدعم الشعبي المصري الذي يحتاجون إليه من أجل تحسين قدرتهم على الصمود ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

ونتيجة لذلك، صار النظام المصري مطلق اليد في خنق غزة بقدر ما يريد، سواء اقتصادياً وجغرافياً، والمساعدة على منع الوصول إلى العالم الخارجي. وإذا كانت إسرائيل هي أساساً المسؤولة عن سياسات إغلاق القطاع (منذ عام ١٩٩١) وحصاره (منذ عام ٢٠٠٧) لمنع الفلسطينيين من السفر إلى الضفة الغربية وإسرائيل – فقد كانت مصر شريكاً رئيسياً في تنفيذ الحصار على قطاع غزة. وبدلاً من تخفيفه (كما حدث لفترة وجيزة في عهد مرسي)، ساهمت مصر في تكثيفه. وساهمت على نحو خطير في احساس سكان غزة بانعدام الأمن والاحتباس، والاختناق المكاني.

الدعم العربي لإسرائيل والمقاطعة الأجنبية

لا تزال المملكة العربية السعودية أكبر دولة تدعم إسرائيل في المنطقة. وترى السعودية ـ حبيسة التحالف مع الولايات المتحدة ـ أن إسرائيل تمثل قوة في الصراع الإقليمي، ليس فقط ضد القومية العربية (من التيارات الناصرية الراديكالية، كما في ١٩٦٧)، ولكن أيضاً ضد التمكين الإيراني والشيعي الحالي في المنطقة. وكان تأييد رئيس الاستخبارات السعودي السابق تركي الفيصل لإسرائيل صارخاً عندما اعتبر حماس مسؤولة عن الاجتياح الإسرائيلي الحالي لغزة.

وحتى بيان الملك عبد الله الذي جاء متأخراً، الذي بالكاد ذكر غزة، حفل بعدد كبير جداً من التحذيرات من «الارهابيين» لدرجة أن حركة الجهاد الإسلامي شعرت بأن الخطاب كان موجهاً ضد المقاومة الفلسطينية نفسها.

وإذا كان حدوث تغيير شعبي للنظام مستبعداً في المملكة العربية السعودية اليوم، فإن إضعاف أي حلقة في السلسلة السعودية / الإسرائيلية / المصرية / الأردنية / الأميركية ليس مستبعداً، خصوصاً أن الروح الثورية العربية تعاود التنظيم والالتحام مرة ثانية.

والواقع، أن الكثير من دول المنطقة متواطئة مع الاحتلال الإسرائيلي، إذ تساهم قطر في قوة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، عن طريق شراء الأسلحة من الولايات المتحدة، كما أنها تستضيف أكبر قاعدة عسكرية للولايات المتحدة في المنطقة، على الرغم من أنها تقدم الدعم الدبلوماسي والسياسي والملاذ لحركة حماس. ويعكس دعم قطر لإنهاء الحصار على غزة، ودعم الحليف الرئيسي لإسرائيل في المنطقة (فضلاً عن قمع الديمقراطية وحقوق الإنسان على أرضها، بينما تقوم بتحويل الأموال إلى الأصوليين في مصر وسورية) خصوصيات الحكم القطري فقط وليس التزامها بحرية العرب. وإذا كانت قطر لا تشكل مشكلة كبيرة مثل المملكة العربية السعودية، فإنها لا تزال مشكلة، وتلعب دوراً نشطاً في الكتلة الخليجية المعادية للديمقراطية الإقليمية (مجلس التعاون الخليجي).

ماذا عن الضغط العالمي؟ لا شك في أن الرأي العالمي ذو أهمية. وكلما فهم الجمهور في الغرب واقع الاحتلال الإسرائيلي والفاشية الإسرائيلية الحالية، كان ذلك أفضل. ويمكن أن يكون ضغط المجتمع المدني فعالاً، إن لم يكن في وقف الحروب، ففي زيادة أعباء الاحتلال الإسرائيلي: مقاطعة البضائع والخدمات المرتبطة بالاحتلال، والدعوة إلى فرض عقوبات التسليح ضد إسرائيل، وملاحقة جرائم الحرب الإسرائيلية.

في العقد الماضي، زاد التضامن مع الفلسطينيين بشكل كبير في الكثير من المجالات المختلفة، كما أنه في سبيله لأن يكون أكثر تماسكاً في أساليبه ومطالبه. وتعتبر حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (دي بي إس) أفضل وسيلة يقول بها المواطنون في الغرب لإسرائيل إن الاستعمار غير مقبول.

وهناك أشياء كثيرة ينبغي أن تحدث حتى يكون اجتياح غزة ٢٠١٤ آخر حروب إسرائيل على الفلسطينيين. فليس باستطاعة إسرائيل وحلفائها وقف النضال من أجل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحق تقرير المصير لفترة أطول من ذلك كثيراً. ولن تكون العدالة على هوى إسرائيل، ودعونا نأمل أن تتحقق قريباً.

لحظة الموصل
العراق في الوقت الضائع

سنان أنطون

كاتب عراقي. آخر مؤلفاته رواية «يا مريم» (دار الجمل ٢٠١٠) وموضوعها مجزرة سيدة النجاة المذكورة في هذا المقال.

بين احتلالين

كانت لحظة سقوط بغداد عام ٢٠٠٣، وبداية عصر الاحتلال الأميركي، اللحظة الأهم، عراقياً، في فاتحة هذا القرن. لا لرمزيتها، أو لأنها أنهت حقبة الدكتاتورية فحسب، بل لأنها عنت، في ما عنته، (وما كان الهدف الرئيسي للاحتلال) تفكيك الدولة العراقية الحديثة. وهي دولة استغرق بناؤها قرناً أو أقل، ولم يكن نظام البعث إلا فصلاً كارثياً متأخراً، لكنه كان الأكثر خراباً في فصولها. وما تلا الاحتلال هو تشكيل نظام سياسي جديد و«بناء» دولة صمّمها المحتل وحلفاؤه (ومعظم هؤلاء عادوا من شتات عراقي امتد شرقاً وغرباً وارتدوا أقنعة طائفية إن لم يكونوا طائفيين أساساً) وفق المخيال الاستشراقي والعنجهية الإمبراطورية التي استعارت من أرشيف القرن التاسع عشر، واستعادت ممارسات وأفكاراً قديمة بعد تغليفها بورق «نشر الديمقراطية» البرّاق.

وسيكون سقوط الموصل المدوّي بيد داعش (وقبلها وبعدها سقطت مدن أخرى في غربي العراق وفي سهل نينوى) لحظة مفصلية وكارثية، ترتبط، عضوياً، بلحظة السقوط الأولى. إذ إنها تكشف الخراب الذي أنتجه وعمّمه هذا النظام السياسي الجديد وتبيّن فشل الدولة الهشّة الفاسدة في حماية مواطنيها وحدودها وبناء جيش وطني مهني. كما تكشف إخفاقها في استيعاب التيارات السياسية المعارضة وإصرارها على منهج إقصائي يهمّش شرائح ومناطق واسعة يجعل اختراقها سهلاً. تلخّص لحظة الموصل، بتداعياتها، وبجذورها، وبردود الفعل إزاءها، مأساة العراق. وتمثّل نتيجة لعوامل وأحداث تضافرت وتفاعلت في العقود الثلاثة الأخيرة. إنها لحظة تثار فيها أسئلة عن وجود العراق ككيان مستقل وعن مصير مواطنيه، خصوصاً من الأقليّات الذين تم تشريدهم وطردهم من ديارهم في الموصل وفي محيطها في سهل نينوى. وأنا أكتب هذه السطور يموت اليزيديون المحاصرون على قمة جبل سنجار في شمال العراق عطشاً بعدما هربوا من سنجار

تلخّص لحظة الموصل، بتداعياتها، وبجذورها، وبردود الفعل إزاءها، مأساة العراق. وتمثّل نتيجة لعوامل وأحداث تضافرت وتفاعلت في العقود الثلاثة الأخيرة إنها لحظة تثار فيها أسئلة عن وجود العراق ككيان مستقل وعن مصير مواطنيه، خصوصاً من الأقليّات الذين تم تشريدهم وطردهم من ديارهم

التي سقطت هي الأخرى بيد داعش بعد انسحاب قوات البيشمركة الكردية. وتتقدم داعش في سهل نينوى ويزداد بذلك عدد العراقيين المهجّرين من سهل نينوى والمناطق المحيطة من كل الخلفيّات، وإن كان التركيز، عالمياً وعربيّاً، أكثر نسبيّاً على محنة المسيحيّين. وهؤلاء تم طردهم من الموصل ومصادرة أملاكهم بعد تخييرهم بين الإسلام أو دفع الجزية.

وهكذا تسدد داعش ضربة قاصمة للنسيج الاجتماعي في الموصل وفي سهل نينوى وتغيّر ديموغرافية المنطقة. كما تواصل نسف المراقد والأضرحة الدينية (النبي يونس وشيت) بعدما دشّنت دخولها الموصل بنسف الرموز الثقافية من تماثيل لشعراء وفنانين (أبو تمام وعثمان الموصلي).

داعش: الماضي البعيد أم الماضي القريب؟

إزاء هذا الخراب الكارثي يتساءل الكثير من العراقيين والعرب: كيف يمكن أن يحدث كل هذا في بلد مثل العراق؟ يدفع محتوى الخطاب السياسي الذي تستخدمه داعش، والرموز واللغة التي توظفها في إعلامها الذي يتفوّق بمراحل على إعلام النظام العراقي، يدفع الكثيرين إلى نقاشات وجدالات عقيمة. فيقعون في شراك استشراق ذاتي، حول الماضي البعيد والإسلام، وفرضية ميل الأخير لإنتاج حركات وظواهر مثل هذه لخلل جوهري. وهناك فريق آخر من المثقفين العراقيين يرددون لازمة مفادها أن العراق دولة "مصطنعة" خاطها الاستعمار البريطاني على عجل من ثلاث ولايات عثمانية لتضم قبائل وإثنيات وطوائف لا يمكن لها أن تجتمع وبذلك هي مشروع فاشل أساساً. ويجهل هؤلاء أن كل الدول الحديثة كيانات مصطنعة وأن نشوء الهويّة الوطنية العراقية في مرحلتها الجنينية يسبق الاستعمار البريطاني ويعود إلى القرن الثامن عشر. إذ ارتبطت مدن العراق الرئيسية سياسياً واقتصادياً وكانت بغداد مركز حيز اقتصادي وإداري واضح سيكون في ما بعد كيان العراق الحديث. التاريخ، تاريخنا، لا يبدأ بقدوم الرجل الأبيض دائماً!

بدلاً من الدخول في سجالات عقيمة حول الماضي البعيد، فإن ما نحتاج إليه هو نظرة نقدية إلى الظروف المادية والسياق التاريخي والسياسي اللذين يجعلان ظهور حركة مثل داعش ونموها ممكناً أساساً. قد يكون الزخم الذي دخلت به داعش على الساحة العراقية (والسورية أيضاً طبعاً) واحتلالها لمدينة مثل الموصل صادماً، لكنني أزعم أنها كانت محصلة منطقية لما كان يحدث في العراق في السنين الأخيرة. وليست داعش إلا النسخة الأخيرة، الأكثر تنظيماً وقوة من تيارات وتنظيمات كانت فاعلة على الأرض منذ عام ٢٠٠٣. لقد وفّر تفكيك الدولة العراقية وتدميرها واستبدال نظام هش بها أرضية خصبة لحركات إرهابية. والمضحك المبكي في الحرب على الإرهاب أنها تخلق المزيد من الإرهاب الذي يفترض أن تقضي عليه. ليس القصد هنا تنزيه النظام البائد الذي كانت طبيعته الشمولية وسياساته التدميرية وحروبه الانتحارية وعسكرته للمجتمع، كلها مجتمعة، من بين الأسباب الرئيسية التي نخرت جسد الدولة العراقية وأضعفت النسيج الاجتماعي على مدى عقود قبل الغزو. لكن لا بد من فهم تبعات تفكيك الدولة وحلّ الجيش وطبيعة النظام السياسي الفاشل الذي أوجده الأميركان إذا كان لنا أن نستوعب ما حدث ونفهم سياقه.

وفّر تفكيك الدولة العراقية وتدميرها واستبدال نظام هش بها أرضية خصبة لحركات إرهابية. والمضحك المبكي في الحرب على الإرهاب أنها تخلق المزيد من الإرهاب الذي يفترض أن تقضي عليه

وقبل هذا لا بد من أن نعود إلى المثال الأفغاني الذي قد يساعدنا في فهم الديناميات والسياق التاريخي الذي «تزدهر» فيه الحركات الداعشية. يجتذب غزو عسكري لبلد ما مجموعات من المقاتلين الأجانب ينضمّون إلى مقاتلين محليين لخوض حرب ضد امبراطورية شريرة (أيامها كان الاتحاد السوفياتي هو امبراطورية الشر، وكان المجاهدون «مقاتلين من أجل الحرية» استقبلهم الرئيس الأميركي رونالد ريغان في البيت الأبيض وحياهم على شجاعتهم وشبّههم بالآباء المؤسسين في الولايات المتحدة، وتعاونت استخبارات النظامين السعودي والباكستاني مع الاستخبارات الأميركية لدعم هؤلاء وتدريبهم.) لسنا بصدد نظريات المؤامرة هنا ولكن بصدد توافق مصالح إقليمية ودولية وتحوّل بلد ما إلى ساحة حرب تنمو فيها حركات مثل هذه. ولا داعي إلى سرد ما حدث بعد انتهاء الحرب الباردة وعودة الأفغان العرب إلى بلدانهم.

ما حدث، حدث من قبل: مذبحة سيدة النجاة

لا شك أن هذا التهجير والنزوح الجماعي من الموصل سيكون استعارة أليمة لمصير المسيحيين العراقيين في البلد بأكمله، والفصل الأكثر رسوخاً في ذاكرتهم الجمعية. كانت حادثة الهجوم على كنيسة سيدة النجاة في بغداد عام ٢٠١٠ كفيلة بدق ناقوس الخطر. إذ قامت يومها «دولة العراق الإسلامية» (وداعش، كما ذكرنا، ليست إلا النسخة الأكثر تنظيماً وقوة بعدما استفادت من مآلات الوضع في سورية وإمعان النظام في بغداد في سياساته وفساده) باحتجاز المصلّين رهائن وقتلهم قبل أن تقتحم قوات مكافحة الإرهاب التابعة للنظام العراقي الكنيسة لـ«تحرير» الرهائن. وأعلنت «دولة العراق الإسلامية» بعدها بأيام أن كل المسيحيين في العراق ورموزهم أهدافاً مشروعة لعملياتها، خصوصاً بعد انتهاء المهلة التي أعطتها إلى الكنيسة القبطية للإفراج عن رهينتين اعتنقتا الإسلام.

لم يكن ذاك الهجوم الأول، فمنذ احتلال العراق هوجمت أكثر من ستين كنيسة، وقتل ما يزيد على ألفي مسيحي. واضطر أربعمئة ألف منهم إلى الهروب من

العراق بعد تفاقم العنف الطائفي وانعدام الأمن وهدر الدم، في زمن الديمقراطية العجيبة. كما تم تهجير الآلاف من بيوتهم ومناطقهم ليصبحوا لاجئين داخل بلدهم، كما هي حال مئات الآلاف من غير المسيحيين.

ومع أن المسيحيين ليسوا الضحايا الوحيدين للعنف الطائفي (انظروا ما حدث للصابئة مثلاً)، ومع أن عشرات الآلاف من المسلمين السنة والشيعة كانوا ضحايا هذا العنف على اختلاف مصادره وأقنعته، وحرقت وهوجمت جوامع ومساجد، فإن ردود الفعل (خصوصاً في الغرب) تختلف نوعياً باختلاف الضحايا. فترى الكثير ممن لا يحرك ساكناً حتى بعيْد أكثر المذابح وحشية ضد المسلمين، يهب لـ«نصرة» المسيحيين في منطقتنا. وهناك تاريخ لهذا التقليد الرسمي الذي يعود إلى زمن الاستعمار، وخطاب حماية الأقليات، والذي كان محض ذريعة لتحقيق مكاسب سياسية وللضغط على الحكام والحكومات والأمثلة كثيرة لا داعي إلى ذكرها. أما على المستوى الشعبي فإن «هبّة» كهذه ترسخ صوراً نمطية عن العالم الإسلامي وعن مجتمعاته، وتختزل تواريخها المعقدة إلى سردية بسيطة مفادها أن لا مكان ولا حيّز في الإسلام وفي مجتمعاته للآخر (المسيحي هنا)، وأن ما نراه اليوم هو نتيجة حتمية لتاريخ طويل من الاضطهاد والتفرقة. ويصب هذا الاعتقاد بدوره في نهر المخيلة الاستعلائية الهادر الذي ينصّب الغرب المتحضّر حارساً أبدياً للأقليات ولقيم الإنسانية. وهناك من تشرّب هذا الخطاب من بعض المسيحيين وغير المسيحيين أنفسهم في العراق وخارجه وفي المنطقة.

الماضي

يعود تاريخ المسيحيّة في العراق إلى القرن الأول من انتشار المسيحيّة، وتستعيد الطوائف المختلفة تاريخاً عريقاً وآثاراً ولغات ما زالت تستخدم في الطقوس الدينية وإن كادت محكياتها تختفي مع الأجيال الجديدة (باستثناء الآشورية) وتفتخر بها دليلاً على حضور غير منقطع على أرض وادي الرافدين. وهذه تواريخ معقدة وغنية لا يمكن تتبعها هنا.

قد يعترض البعض ويذكر مذبحة سيميل التي اقترفتها الدولة العراقية الناشئة والتي راح ضحيتها الآلاف من الآشوريين في آب/أغسطس من عام ١٩٣٣ عندما هاجمهم الجيش العراقي بقيادة بكر صدقي. لكن هذه المذبحة يجب أن تقرأ وتفهم في سياق صراع القوميات ونشوء الدولة المركزية وليس في سياق «صراع الأديان». فقد كان للآشوريين، كما لغيرهم من القوميات، مطامح وأحلام بدولة مستقلة وشجعهم البريطانيون في البداية في هذا المسعى، قبل أن يتخلّوا عنهم ويخذلوهم. أسوق هذا للتذكير بالسياق السياسي والتاريخي لمحنة الآشوريين مع الدولة العراقية. ولم تخفت المطالب القومية للآشوريين مذاك بل تعاظمت وخصوصاً في الشتات حيث تصاعدت، ولاسيما في الآونة الأخيرة وبعد ازدياد العنف ضد الآشوريين والمسيحيين من غير الآشوريين في كردستان العراق، مطالب منظماتهم السياسية بـ«ملاذ آمن» في شمال العراق.

والإشكالية هنا هي أن خطاب المنظمات السياسية الآشورية يحاول منذ عقود اختزال كل الهويات والطوائف المسيحية الأخرى تحت مظلة القومية الآشورية وأهدافها السياسية.

لم يعرّف المسيحيون في العراق، قبل ٢٠٠٣ وانهيار الدولة العراقية، أنفسهم دائماً كمجموعة سياسية أو عرقية بالضرورة. ومن الضروري أن نفهم تاريخ وتحولات الهويات التي تم سلخها بفعل تكرار خطاب واحد تكون فيه الهوية الطاغية هي الدين والطائفة والعرق. نعم، كان الأصل العرقي (مهما كان متخيلاً) والانتماء الديني يلعبان دوراً في جدلية الهويات طوال القرن العشرين، لكن كان للمنطقة وللطبقة والإيديولوجيا مكاناتها وتأثيرها المهم في إنتاج وإعادة إنتاج الهوية. أولم يكن مؤسس الحزب الشيوعي العراقي فهد (يوسف سلمان يوسف) مسيحيّاً؟ أولم يكن طارق عزيز مسيحيّاً هو الآخر وتسنم مناصب مهمة (وبالمناسبة يحظى عزيز، بسبب مسيحيته، بالتماسات رحمة وطلبات عفو، خصوصاً في الغرب. لم يحظَ بها الآخرون من رفاقه، على افتراض أن المسيحي المسالم لا يمكن أن يكون قد ارتكب أو شارك حتى بصورة غير مباشرة في جرائم النظام السابق). هناك أمثلة كثيرة لمسيحيين عراقيين برزوا في حقول وسياقات شتى في تاريخ العراق الحديث. المهم هو أن جلّ المسيحيين لم يكونوا يشعرون بأزمة ما حول عراقيتهم أو انتمائهم. كما تمتعوا بممارسة شعائرهم ومعتقداتهم بحرية. لا يعني هذا عدم وجود تفرقة أو توتر إطلاقاً، لكنه لم يكن مؤسساتياً أو رسمياً. وبالرغم من ضراوة النظام السابق (١٩٦٨-٢٠٠٣) ووحشيته ضد أعدائه

السياسيين وحتى من كان يظن بأنهم أعداء، سواء كانوا جماعات أو أفراداً، فإن تعامله مع المسيحيين، كأقلية، كان بلا إشكاليات.

عاصفة ما زالت تهب

قال جيمس بيكر، وزير الخارجية الأميركي في عهد بوش الأب، لنظيره العراقي طارق عزيز قبيل حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١: «سنقصفكم قصفاً يعيدكم إلى العصر ما قبل الصناعي». إن هذه الجملة جديرة بالتأمل لكي نفهم واحداً من الفصول المهمة التي أدت إلى خراب العراق. كان الهدف المعلن من الحرب هو إخراج جيش الاحتلال العراقي من الكويت. لكن الأميركان وحلفاءهم دمّروا البنية التحتية في العراق بشكل ممنهج. أما الحظر الاقتصادي الذي كان قد فرض أصلاً لإجبار العراق على الانسحاب من الكويت (ولم ينجح في ذلك) فقد ظل مفروضاً حتى عام ٢٠٠٣ وهو الأقسى في العصر الحديث. وكانت نتائجه، إضافة إلى موت مئات الآلاف من المدنيين الذين لا علاقة لهم بالنظام ولا بالطبقة الحاكمة (التي استفادت وأثرت من الحصار)، انهيار الاقتصاد العراقي والنظام الصحّي وتهرؤ النسيج الاجتماعي وهجرة مئات الآلاف من العراقيين وانحسار الطبقة المتوسطة هرباً من جحيم الدكتاتورية. قد لا نغالي إذا زعمنا بأن تفاقم الصعوبات والكوارث دفع بأغلب العراقيين إلى الاحتماء بالإيمان وجعلهم أقرب إلى هويتهم الدينية. وكان لما سمي بالحملة الإيمانية التي شنها النظام في التسعينيات فعلها وأثرها، وخصوصاً بالنسبة إلى المسيحيين.

لكن الغزو الأميركي وتفكيك الدولة العراقية كان الضربة القاضية، فالنظام السياسي الطائفي الذي أسسته الولايات المتحدة في العراق على أنقاض الدولة العراقية عقّد التوترات الموجودة أساساً وزاد من حدتها. ولعل أهم عامل في هذا السياق هو تحول الهويات الدينية والإثنية خطابياً إلى هويات سياسية، ومأسستها ببناء نظام تحاصص طائفي، تصبح فيه الطائفة والإثنية هي العملة الرئيسية الوحيدة القابلة للتداول. لقد أجبر هذا غالبية العراقيين على الاتكاء على الهويات الأولية، وهكذا صار المسيحي مسيحياً، أولا وقبل كل شيء، وكذا بالنسبة إلى المجموعات الأخرى.

لقد ترك نظام وثقافة الميليشيات والأحزاب الطائفية المسيحيين وأمثالهم بلا وسائل دفاع، فلا ميليشيا تحميهم ولا حزب له وزن يمثلهم، فأصبح وضعهم أكثر هشاشة وأصبحوا أكثر عرضة من غيرهم لأعمال العنف والاختطاف والتهجير. فهوجمت وفجرت الكنائس واختطف وقتل الكثير من الرهبان بعد الاحتلال. وتبعثر المسيحيون مثلما تبعثر مئات الآلاف من العراقيين أثناء الحرب الأهلية وبعدها، فلجأ الكثير منهم إلى دول الجوار أو إلى كردستان التي لا تخلو من اعتداءات، لكنها قد تكون أرحم من غيرها.

قدّر عدد المسيحيين في الخمسينيات بستة بالمئة من سكان العراق. دفعت سنين الدكتاتورية والعقوبات الاقتصادية بالكثير منهم إلى الهجرة، حتى قيل إن عدد المسيحيين قبيل الغزو الأميركي كان قد انخفض إلى ٣٪ (ثمانمئة ألف). والآن انخفض عددهم إلى أقل من ثلث ذلك. من المحزن بالطبع أن يصبح إفراغ العراق من مسيحييه واقعاً معاشاً وأن يندثروا ويضافوا إلى أطلال عراق تعددي، كان في يوم ما.

طوال القرن العشرين لم تتم مهاجمة كنائس في العراق ولم يهجم أحد يوماً على مصلين داخل كنيسة ولم يتخيّل المسيحيّون أن يأتي يوم يخيّرون فيه بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية.

وأنا أكتب هذه السطور يزداد عدد النازحين والهاربين، من كل الخلفيّات، هرباً من داعش. بعد شهرين من سقوط ثاني أكبر مدن العراق خارج سيطرة الحكومة المركزية، لا يبدو أن لدى الطبقة السياسيّة في بغداد خطة جديّة لتحرير المدن المحتلّة ولحماية مواطنيها، بغض النظر عن مذاهبهم. وما زال المالكي متمسكاً بمنصبه والبلد يتفتّت. وكان لافتاً الاستعانة بالميليشيات الطائفية في بلد أنفق المليارات على جيشه، وفتْح باب التطوّع أمام المواطنين بعد فتوى السيستاني. إن ثقافة الميليشيات والنظام الطائفي هما عاملان رئيسيان في الخراب الذي وصل إليه البلد. فكيف يمكن للداء أن يكون الدواء؟

الحاضر... إلى الشتات والمتاحف والذاكرة

لقد شابت تاريخ وجود المسيحيين العراقيين الطويل توترات ومشاكل، هنا وهناك، لكنه لم يكن مهدّداً في يوم من الأيام. أما الآن فهو يكاد يقترب من نهاية حزينة ومألوفة مرت بها جماعات أخرى في العصر الحديث. ويبدو أنهم، مثل كل العراقيين، بحاجة إلى أعجوبة. لكن لا مكان للأعاجيب في التاريخ.

عرسال وانقلاب الصورة

محمد حجيري
كاتب وصحافي، لبنان

خلال زياراتي القليلة إلى عرسال قبل عام ٢٠٠٥، كنت ألاحظ أن البلدة في حيرة سياسية منذ نهاية الحرب الأهلية في ١٩٩٠، فهي تعيش في دائرة الهامش والتهميش، كأنها خارج لبنان في الوظائف والحضور الأمني والمؤسسات الرسمية.

لم يكن في «عرسال السنية» من مؤيدي الرئيس الراحل رفيق الحريري سوى قلّة لا تتعدى أصابع اليد، إضافة إلى بعض الحاصلين على منح تعليمية من «مؤسسة الحريري». في تلك الفترة، لم تكن عرسال محسوبة على أحد وإن كان البعض يظن أنها يسارية الهوى بحكم تاريخها، ولم تكن بعثية أسدية برغم امتدادها الجغرافي إلى المناطق السورية، وأشغال التهريب فيها. ولم يقدر «حزب الله» أن يتغلغل في نسيجها برغم محاولاته الملتوية في اكتساب مؤيدين سُنّة لـ«المقاومة الإسلامية». كانت عرسال مهمشة سياسياً ولم تكن مع أحد طوال فترة ما بعد الحرب، ولم تُرفع فيها صورة للحريري. ربما لم يكن النظام السوري يسمح للحريرية السياسية بالتمدد خارج الأماكن المسموح لها في بيروت وبعض المناطق القريبة منها مثل عرمون وصيدا، ولم يكن تيار المستقبل أكثر من زعيم حوله مجموعة من المستشارين وليس له أي دور تنظيمي.

وعرسال في أحضان السلسلة الشرقية عند الحدود السورية، كانت أكثر ميلاً إلى التاريخ القومي واليساري والعروبي. لم تكن تشهر سنيّتها، لم تكن الطائفية من شعاراتها، بين شبابها النسبة الكبرى من الذي يحملون اسم علي وحسين وسائر الأسماء الإسلامية التقليدية، ومئات من الذين يتزوجون من طوائف أخرى خصوصاً الشيعية. ربما كانت عرسال في مرحلة ضبابية، تبحث عن دورها بعد احتضار اليسار وترهل الحزب الشيوعي وتفكك التنظيمات الناصرية وتحول حزب البعث مجرد عناصر مخبرة للمراكز الأمنية السورية. بهتت صورة عرسال اليسارية، هوت في القعر، لم يحافظ اليسار الشيوعي على «الذاكرة الوردية»، غطس في وحل ملفاته وأصيب بسرطان الطوائف، تحول في جزء كبير منه تنظيماً طائفياً مقنعاً بالعلمانية. احتضر اليسار وذهب العراسلة إلى أعمالهم في المقالع والكرز والمشمش وأشكال التهريب المعروفة عبر الطرق غير الشرعية.

من الشيوعية إلى الحريرية

صورة عرسال اليسارية والعروبية الناصرية بقيت مرحلة طويلة عالقة في الأذهان، الشهداء الذين سقطوا في جنوب لبنان، من شبعا إلى بنت جبيل، كانوا كافين لإرساء صورة نمطية نضالية عن بلدة كبيرة في السلسلة الشرقية. التقي شاباً من جنوب لبنان يعرف أني من عرسال، يسألني: «عرسال بعدها يسارية ما هيك، فيها كثير شهدا»، كأن الشهداء امتياز لا ينعم به إلا قلّة، خصوصاً في الأيديولوجيا الشيوعية الممزوجة بالبيئة المحلية وبعض الثقافة الدينية الكربلائية. طوال التسعينيات كانت عرسال لا تزال تحافظ على بعض من حضورها وفلولها من اليسار، وثمة حضور خجول لأصحاب اللحى من «الجماعة الإسلامية» وبعض الأفراد السلفيين من الذين يجبرون المرأة على وضع النقاب من دون سبب.

لكن اغتيال الرئيس رفيق الحريري في ١٤ شباط ٢٠٠٥، كان كافياً ليقلب الأمور رأساً على عقب، ولتعيش عرسال مرحلة انقلاب الصورة. فالاغتيال أو الزلزال السياسي الذي تبعه انقسام مذهبي وخلاف جذريّ حول الوجود السوري في لبنان بين مكونات المجتمع اللبناني، تبعته تظاهرات وتنافس على التحشيد العبثي في ساحات بيروت. كان اغتيال الحريري مؤثراً وبدا بالنسبة إلى معظم السنة كأنه اغتيال طائفة، وبدأ توجيه الاتهامات إلى «سورية

الأسد». «حزب الله» الإيراني الهوى والسلوك، تصرف وفق ما تقتضيه مصالحه ومصالح سيده الإقليمي، وأنزل حشده الكبير إلى ساحة رياض الصلح في الثامن من آذار تحت شعار «شكراً سورية»، كان شعاره وحشده كافيين لإثارة الغرائز وردود الفعل، والنزول بتظاهرة مضادة في ١٤ آذار. لم تكن عرسال حريرية، لكن الصراع والانقسام المذهبيين ادخلاها في مرحلة انقلاب الصورة والانتقال السريع من الخيمة العروبية اليسارية المتهالكة، بل من المرحلة الضبابية، إلى الخيمة الحريرية الليبرالية. زحف جمهورها إلى ساحة الشهداء ودخلت مستنقع الساحات الآذارية، ربما ظن العراسلة أن اللجوء إلى حضن الطائفة طريق النجاة الوحيد، لكن البلدة القابعة في السلسلة الشرقية ذاع اسمها وبقيت صورتها كما هي، تؤيد موجة السيادة لكنها في الوقت ذاته بقيت في دائرة الهامش والتهميش. جغرافيا البلدة وحضورها وسط بحر من الشيعة في سهل البقاع جعلاها في وضع يشبه الأقليات الدينية، فهي بلدة عنيدة لا تنصاع إلى الأكثرية المحيطة بها، ولا تقدر على الاستفادة من لعبة الزبائنية السياسية السائدة في لبنان. من يقارن بين الوظائف التي يحصل عليها بعض البلدات «السنية» مقارنة ببلدة عرسال، يشعر بأن الأخيرة لا تنتمي إلى لبنان، فالبلدة التي تحوي نحو ٤٠ ألف نسمة ليس فيها سوى أربعة ضباط.

على نحو ما كان بعض اليسار يعتبر عرسال «خزان المقاتلين»، اعتبرتها ١٤ آذار «خزان الجمهور»، وتصنيف عرسال في خانة الآذارية الحريرية جعلها موضع اتهام دائم من الآذارية الحزب إلهية، فخلال السنوات التي تلت عام ٢٠٠٥، تعرض العراسلة العائدون من تظاهرات ١٤ آذار في ساحة الشهداء، أكثر من مرة لهجوم بالحجارة على طريق اللبوة - البزالية، سقط منهم جرحى وتكسرت سياراتهم. وبدا واضحاً أن قوى الأمر الواقع أقوى من خطب «السيادة والحرية» و«العبور إلى الدولة»، وثقافة قطع الطرق كان لها حساسية كبيرة بين أهالي اللبوة وبين أهالي عرسال، طوال تلك الفترة، كان رجل الإطفاء بينهم، الشيوعي الراحل حافظ أمهز الذي يجلّه العراسلة ويعتبرونه صاحب الموقف الشجاع، بل يجله كثيرون من أبناء اللبوة والعين والفاكهة وراس بعلبك والجمالية. وكان بعض اليساريين ما زالوا يؤمنون بأن أبناء اللبوة وعرسال قاتلوا يوماً ما في عمليات مشتركة ضد إسرائيل وسقط منهم شهداء منهم الشهيدان أسعد خلوف ومحمد علي البريدي.

سقطت ذاكرة النضال أمام هدير القبائل المذهبية، كان الشرخ المذهبي يزداد ودخل لبنان في آتون الصراع من الاتجاهات كافة، وصارت عرسال محوراً لصراع إعلامي سيادي وممانع، سوريون يعتدون على أراضيها وعقاراتها في المناطق المتداخلة، وإعلام المستقبل وحلفاؤه يحشدون عبر نوابه وسياسييه للحديث عن الاعتداء على السيادة والمطالبة بترسم الحدود. وبدا العرسالي عالقاً بين النظام السوري الكاره للحريرية وبين محيط شيعي معظمه يؤيد «حزب الله» في السراء والضراء. ووقعت «حرب تموز» ٢٠٠٦ فزادت من وتيرة الانقسام بين اللبنانيين ورفعت من منسوب الشحن المذهبي، وما لبث «الإطفأجي» حافظ أمهز أن رحل تاركاً فراغاً مدوياً، وبقيت العلاقة بين اللبوة وبين عرسال أشبه بالذاهبة نحو المجهول، وما كان يحصل بينهما من مناوشات هو نموذج مصغر عن واقع الانقسام اللبناني.

نتائج الثورة السورية

مع انطلاق الثورة السورية عام ٢٠١١ وانتقالها من مرحلة التظاهرات والحرية و«سلمية سلمية» إلى حمل السلاح والمطالبة بإسقاط النظام، بدت عرسال كأنها الخاصرة التي تركز وسائل الإعلام على قصفها، وفبركة مختلف أشكال الأخبار السوداء عنها. منذ البداية اعتبرها الإعلام الممانع شريان الثورة السورية وممر تهريب السلاح والمقاتلين الأجانب، أرادوا محاربة «الحريرية السياسية» من خلال تشويه صورة عرسال وحرقها. لم يكن الأصوليون إلا مجموعة قليلة في عرسال، لكن مع سطوة ما يسمى وهج السلاح وترهل الحريرية وإفرازات الحرب السورية وتهميش الدولة اللبنانية، كانت عرسال تنحو نحو الفوضى، بل تحولت قنبلة يمكن أن تنفجر في أي لحظة إلى درجة أن بعض المواقع الإلكترونية صنّف عرسال على رأس قائمة أخطر الأماكن في لبنان.

لم تكن الدولة حاضرة طوال عقود في عرسال حتى صورياً، وحين حضرت العناصر الأمنية إليها وأقامت النقاط الثابتة على أطرافها كانت أشبه بالفلكلورية. ولم تكن وسائل الإعلام الكثيرة معنية بالدفع نحو دعم الدولة في منطقة مهددة بسبب فوضى الحرب السورية، بل إن إعلام «حزب الله» لكثرة ما تحدث عن عرسال وطرقاتها غير الشرعية أرشد كل من يريد الذهاب إلى سورية إلى طرق جرود عرسال، وصارت البلدة التي تؤوي النازحين الهاربين من مناطق القلمون موضع اتهامات دائمة بتهريب السلاح والمقاتلين وإيواء الإرهابيين، وحصلت إشكالات بين أفراد من عرسال

مع الجيش لأسباب تتعلق بالثورة السورية، فزاد من التصويب الإعلامي عليها.

صنع الإعلام «أساطير» في عرسال مثل رئيس البلدية وغيره، وكانت تعيش إفرازات الحرب السورية بتفاصيلها كلها بدءاً بأعداد النازحين الهائلة الذين وصلوا إليها وحتى تفاعل الثوار السوريين مع بعض العراسلة وصعود موجة «جبهة النصرة». صارت عرسال مأوى الألم والقسوة والفوضى وموطن المخيمات، اختنقت البلدة بالفوضى السياسية أولاً ثم بفوضى النازحين والهاربين من الموت وحتى الباحثين عن لقمة الإعاشة، والتحق فتيان أشقياء فيها بـ«جبهة النصرة» ظناً منهم أنها ستعيد إليهم حقوقهم ومعنوياتهم. الانتساب الخجول إلى النصرة في عرسال يأتي تماثلاً مع التحاق شبيبة الشيعة بـ«حزب الله»، هكذا الأمور قائمة على فعل ورد فعل وحساسيات رخيصة، غير أن أسوأ مع أفرزته الأحداث السورية هو دخول الذهنية المادية بقوة إلى عرسال، ولهذا بحث آخر.

مقتلة

خلال زيارتي الأخيرة إلى عرسال، وربما قبل زيارتي بأشهر، كان الجميع في هذه البلدة، يتوقع أن يحصل حادث ما يهز المنطقة ولبنان، كانوا يتوقعون ذلك منذ معارك القصيْر، وازداد التوجس بعد اشتداد المعارك بين المسلحين المعارضين وبين «حزب الله» في جرود القلمون وسقوط خسائر كبيرة من الأخير. ابن خالي يقول «إن حزب الله سيأتي ويرفع العلم هناك في رأس التلّة». ابن خالتي يقول لي عبر الواتس آب: «زبطلي غرفة في إقليم الخروب... ستهجم داعش». كنت أقول له «داعش لا تهجم علينا ليس لدينا نفط ولا ماء». لكن قلق العراسلة من داعش تجلى بقوة بعد دخول مجموعة منها إلى وسط البلدة وقتلهم أحد المواطنين خلال شهر رمضان. أمير داعش الذي تكثر الشبهات حول أصله وفصله، كان يمارس مختلف أنواع التشبيح في منطقة القلمون وجرود عرسال ورأس بعلبك، ويتولى مع مجموعة من الفارين من وجه العدالة عمليات السلب والنهب والخطف والقتل. في كل مرة تأتي مجموعته إلى عند أطراف البلدة، كانوا يطلقون الصواريخ على المناطق الشيعية في اللبوة والنبي عثمان ويحدثون بلبلة وإرباكاً للناس ويعودون أدراجهم.

العراسلة كانوا يدركون أنهم سيتعرضون للهجوم، إما من خلال هجوم داعش عليها كما حصل في الموصل، أو من خلال تعرض البلدة للحصار من «حزب الله» إذا ما سيطر على جرودها، دون أن ننسى التخوف من براميل طائرات الأسد التي قصفت أكثر من مرة واستهدفت معظم البيوت الجردية وقتلت بعض النازحين العاملين في قطاف الكرز. كانت عرسال تعيش في بحر من النار، واللافت في هذا المجال أنه بدل زمن حافظ أمهز كان زمن شقيقه رامز الذي بشرنا بساعة الصفر للهجوم على عرسال، وسبقه في ذلك منشد «حزب الله» علي بركات الذي يطلق مع كل غزوة حربية أغنية تعبوية تحشيدية بدءاً بالقصير مروراً بيبرود وحلب وصولاً إلى عرسال.

لم يكن رامز أمهز «اطفأجياً»، بل كان يحمل البنزين وينثره على النار المشتعلة، انحدر في مواقفه إلى درجة المزايدة على «حزب الله» وهو الآتي من الثقافة الشيوعية، ربما هذا يعكس واقع الشيوعية اللبنانية التي تعيش مرحلة احتضار لا مثيل له. لم يترك أمهز للتواصل خيطاً رفيعاً من قطع الطرق إلى التصريحات. كأن سيناريو عرسال كان جاهزاً ومحضراً ويحتاج إلى الإخراج المناسب في الزمان المناسب. أدخلت عرسال مع النازحين في بلبلة لا مثيل لها، أوقف الجيش اللبناني عند أحد حواجزه السوري أبو أحمد جمعة، وهو من قادة «داعش»، واشتعل كل شيء. تحول بعض ثوار سورية من طالبي حرية إلى محتلين، وبات أهالي عرسال من حاضني نازحين الى نازحين، وعاش السوريون مشهداً جديداً في حياتهم، بعدما شهدوا موتهم وتدمير بيوتهم ببراميل الأسد، شاهدوا في عرسال موتهم واحتراق خيمهم الفقيرة وموت أطفالهم بشظايا القصف، كان الضحايا الأبرز في حرب عرسال من المدنيين فيما كان معظم السياسيين والقادة الإحترابيين يعلنون انتصاراتهم الوهمية.

مشهد مقتلة عرسال أظهر الصورة الحقيقية للدولة اللبنانية، تلك الصورة المخلخلة الملتبسة المتناقضة شاهدة الزور على كل شيء، من الحدود السائبة والفالتة من أي ضوابط إلى المناطق المهمشة التي لا تعرفها الدولة إلا من خلال الأخبار السوداء. عاشت عرسال حرباً أهلية صغيرة، حرباً بديلة عن حرب لبنانية شاملة، كواليس المعركة خلال بضعة أيام كانت كافية لتكشف بعض العقليات اللبنانية التي تدّعي الحداثة والتطور وهي في الواقع ليست أكثر من داعشية فاشية تدعو إلى الدعس والقتل والمحو.

عاشت عرسال حرباً صغيرة أظهرت أنها ضحية صورة الإرهاب وليست إرهابية، غير أن الذين كانوا يرفعون شعار «الأمر لك» للجيش اللبناني سقطوا وأسقطوا الجيش في أول امتحان، فالجيش الذي يحمل شعار «الأمر لي» في محاربة الإرهاب، لم يقدر على فتح طريق اللبوة الذي قطع لمنع وصول المساعدات الإنسانية إلى عرسال.

كرة القدم استعارة للحرب

إدواردو غاليانو

صحافي وروائي وكاتب من الأوروغواي. ننشر هنا مقاطع من كتابه «كرة القدم في الشمس والظل» (٢٠٠٣)

هل دخلت يوماً إلى ملعب فارغ؟ حاول القيام بذلك. قف في منتصف أرض الملعب، وأنصت. لا يوجد مكان فارغ أكثر من ملعب فارغ. لا يوجد مكان صامت أكثر من مقاعد محرومة من المشاهدين.

لا تزال تسمع في أنحاء ملعب ويمبلي، صرخات من كأس العالم التي أقيمت فيه عام ١٩٦٦ وفازت بها إنكلترا، وإذا أنصتم بشكل أعمق يمكنكم سماع صرخات الاستهجان من العام ١٩٥٣ حين هزم الإنكليز على يد الهنغاريين. يسترجع ملعب «سنتيناريو» في مدينة مونتيفيديو ذكريات أيام عز كرة القدم في الأوروغواي. لا يزال ملعب «ماراكانا» يبكي على هزيمة البرازيل في العام ١٩٥٠ في كأس العالم. في ملعب «البونبونيرا» في بوينس أيرس يمكن سماع قرع الطبول قبل خمسين عاماً، ومن أعماق ملعب «الازتيكا» يمكن سماع الأغاني الاحتفالية بلعبة الكرة المكسيكية القديمة. تتحدث مدرجات ملعب «كامب نو» الإسمنتية اللغة الكاتالانية، وتلك الموجودة في ملعب «سان ماميس» في بلباو بلغة الباسك. في ميلانو، يسجل شبح جيوسيبي ميازا أهدافاً تهز الملعب الذي يحمل اسمه. يوماً بعد يوم، وليلة بعد أخرى، يعاد لعب المباراة الأخيرة من كأس العالم لعام ١٩٧٤ في ملعب ميونيخ الأولمبي. يحتوي «ملعب الملك فهد» في السعودية على رخام ومقصورات من الذهب، ومدرجات تحتوي على سجاد، لكن لا ذكريات لأي شيء.

الغزوات الإنكليزية

خارج مستشفى للأمراض العقلية في أرض فارغة في بوينس أيرس، كان عدد من الشبان الشقريلعبون بالكرة.

«من هم»، سأل طفل.

«مجانين»، أجاب والده. «مجانين إنكليز».

يتذكر الصحافي خوسيه دو سويزا رايلي هذا الأمر من طفولته. بداية، بدت كرة القدم كلعبة رجل مجنون في منطقة «ريفر بلايت» أو نهر الفضة التي تقع بين الأرجنتين والأوروغواي. لكن مع توسع الإمبراطورية البريطانية، أصبحت كرة القدم منتجاً بريطانياً تقليدياً للتصدير كالنسيج من مانشستر، أو سكك الحديد، أو القروض من مصرف «بارينغز» (Barings)، أو مذهب التجارة الحرة. وصلت اللعبة بأقدام البحارة الذين لعبوا قرب أرصفة بوينس أيرس ومونتيفيديو، في الوقت الذي كانت فيه سفن جلالة الملكة تفرغ الأغطية، والأحذية، والطحين، وتحمّل الصوف وجلود الحيوانات، والقمح لإنتاج المزيد من الأغطية والأحذية، والطحين في الجانب الآخر من العالم. أسس المواطنون الإنكليز – الدبلوماسيون ومديرو شركات سكك الحديد والغاز – أول فرق محلية. نظم إنكليز مونتيفيديو وبوينس أيرس أول مسابقة دولية في الأوروغواي في العام ١٨٨٩ تحت لوحة عملاقة للملكة فيكتوريا التي رسمت عينيها وهي تنظر للأسفل بنظرة احتقار. لوحة أخرى لملكة البحار كانت في أول مباراة برازيلية لكرة القدم في العام ١٨٩٥، وتنافس فيها الموظفون الإنكليز من شركتي «الغاز» و«سكك حديد ساو باولو».

يظهر هؤلاء في الصور الفوتوغرافية القديمة بألوان باهتة. كانوا محاربين تلقوا تدريباً للمعركة. غطت دروع من قطن وصوف أجسادهم كلها، من أجل عدم إهانة مشاعر السيدات اللواتي حضرن المباريات. سيدات رفعن مظلات حريرية ولوّحن بمناديل مخرّمة. كشف اللاعبون عن وجوههم فقط من كل جسدهم، وراء شوارب عققت أطرافها بالشمع، وعلى

رؤوسهم قلنسوات أو قبعات. انتعل اللاعبون أحذية «مانسفيلد» الثقيلة.

لم يتطلب الأمر الكثير من الوقت لتنتشر العدوى. سرعان ما بدأ الرجال المحليون بممارسة تلك اللعبة الإنكليزية المجنونة. استوردوا من لندن القمصان، والأحذية، وجوارب الكاحل السميكة، والسراويل التي تمتد من الصدر إلى ما تحت الركبة. لم تعد الكرات تربك موظفي الجمارك، الذين كانوا بداية لا يعرفون كيف يصنفونها. كذلك، أحضرت السفن كتب القواعد الخاصة باللعبة إلى تلك الشواطئ البعيدة في أميركا الجنوبية، ومعها أتت الكلمات التي بقيت لسنوات طويلة: ملعب، نتيجة، هدف، حراس للمرمى، الظهير، الوسط، المهاجم، رمية تماس، ضربة جزاء، تسلل. كان «الخطأ» يستحق عقاباً من قبل «الحكم» لكن كان يمكن للاعب الذي تلقى الخطأ أن يقبل اعتذاراً من المخطئ «طالما كان اعتذاره صادقاً وتم التعبير عنه بلغة انكليزية صحيحة»، وفق أول كتاب قواعد لكرة القدم وانتشر في منطقة «ريفر بلايت».

في ذلك الوقت، بدأت كلمات إنكليزية أخرى تدخل إلى الخطاب اليومي في دول أميركا اللاتينية في منطقة الكاريبي: الرامي (pitcher)، المتلقي (catcher)، أشواط (innings). إذ وقعت هذه الدول تحت التأثير الأميركي، وتعلمت أن تضرب الكرة بمضرب خشبي مستدير. حمل عناصر قوات المارينز مضرب البايسبول على أكتافهم إلى جانب بنادقهم، أثناء تنفيذهم الأوامر الإمبريالية في المنطقة بالدم والنار. أصبحت رياضة البايسبول بالنسبة لسكان الكاريبي ما أصبحت عليه كرة القدم بالنسبة لنا.

حرب مصممة مسبقاً

في كرة القدم، وهي طقس حربي مهذب، يكون ١١ رجلاً يلبسون سراويل قصيرة هم سيف المنطقة، المدينة أو الأمة. يخلّص هؤلاء المحاربون غير المسلحين ومن دون دروع، الجمهور من شياطينه ويعيدون تثبيت إيمانه: في كل مواجهة بين طرفين، تدخل العداوات القديمة والشغف القديم الذي ينتقل من الآباء للأبناء، تدخل في المعركة.

في الملعب أبراج ولافتات مثل القلاع، وكذلك خنادق عميقة وواسعة حول أرض الملعب. في الوسط، يفصل خط أبيض بين الأراضي المتنازعة. في كل طرف يقف المرمى الذي سيقصف بالكرات الطائرة. المنطقة التي تتواجد أمام المرمى مباشرة تدعى «منطقة الخطر».

في وسط الدائرة، يتبادل قائدا الفريقين شعارات الفريق ويتصافحان كما تتطلب العادات. يطلق الحكم صفارته وتدب الحياة في الكرة. تتحرك الكرة ذهاباً وإياباً، يحتجزها لاعب ما ويتنزه فيها ريثما تتم إعاقته عبر مخالفة ويسقط أرضاً بعد أن تتشابك قدماه. لا تنهض الضحية. في خضم المستطيل الأخضر، يستلقي اللاعب وهو منهك. ترتفع الأصوات من المدرجات. يصدح جمهور العدو بصيحة ودية:

"اتركوه يموت
اقتلوه، اقتلوه، اقتلوه»

الدمع لا ينهمر من المناديل

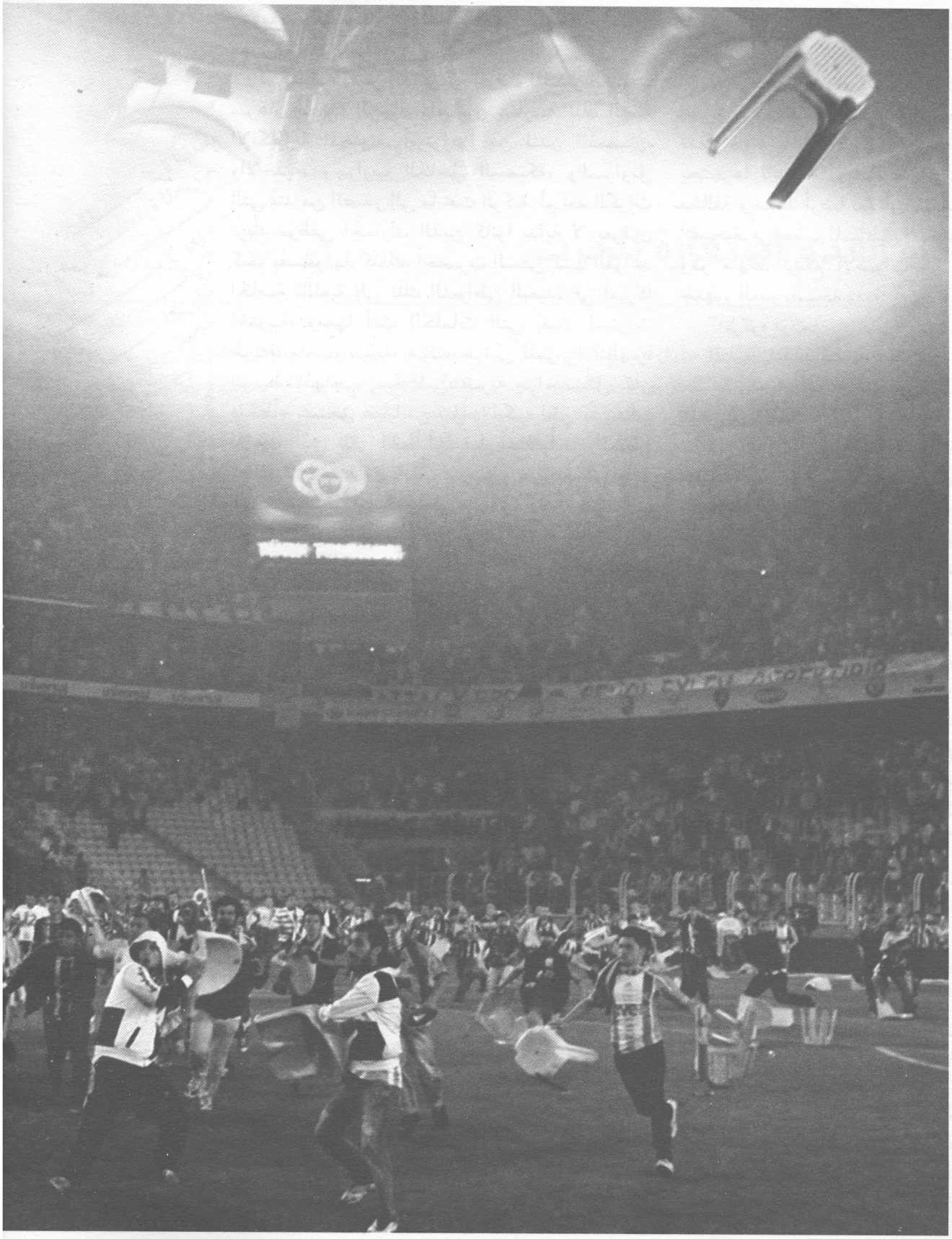
تنقلب كرة القدم، وهي استعارة للحرب، إلى حرب حقيقة أحياناً. ولا يعود «الموت الفجائي» اسماً لطريقة مأساوية في تحديد نتيجة مباراة تعادل. هذه الأيام، أصبح التطرف في التشجيع في كرة القدم يحتل مكاناً كانت تحتله في السابق الحماسة الدينية، والغيرة الوطنية والشغف السياسي. وكما يحصل أحياناً مع الدين والوطنية والسياسة، تجعل كرة القدم التوتر يحتدم وتُرتكب العديد من الفظاعات باسمها.

يعتقد البعض أنّ رغوة تظهر على أفواه الرجال الممسوسين من قبل شيطان الكرة، وهذه الصورة تقدم بصراحة وصفاً دقيقاً للرجل المهووس. لكن حتى أكثر النقاد الناقمين سيعترفون بأنّه في معظم الحالات لا ينبع العنف من كرة القدم، مثلما لا ينهمر الدمع من المناديل.

في العام ١٩٦٩ اندلعت حرب بين هندوراس والسلفادور، بلدان فقيران من أميركا الوسطى، كانا يكدسان طيلة قرن أسباباً عدّة لعدم ثقة أحدهما بالآخر. كان كل من البلدين سبباً لمشاكل الآخر، في الخطاب الداخلي. لا يجد سكان هندوراس عملاً؟ السبب أنّ عمالاً من السلفادور يأتون إلى بلادهم ويسرقون الوظائف. سكان السلفادور جائعون؟ السبب أنّ سكان هندوراس يسيئون معاملتهم. اعتقد كل من البلدين أنّ جارهم هو العدو، وقامت الدكتاتوريات العسكرية في كل من البلدين بما في وسعها لاستمرار هذا الأمر.

سميت هذه الحرب «حرب كرة القدم» لأنّ شرارتها انطلقت في ملاعب تيغوسيكالبا (عاصمة هندوراس)

تنقلب كرة القدم، وهي استعارة للحرب، إلى حرب حقيقة أحياناً. ولا يعود «الموت الفجائي» اسماً لطريقة مأساوية في تحديد نتيجة مباراة تعادل.





وسان سلفادور (عاصمة السلفادور). بدأت المشاكل خلال التصفيات المؤهلة لكأس العالم لعام ١٩٧٠. كان هناك مشاغبات، وبعض الجرحى، وعدد من القتلى. بعد أسبوع قطع البلدان العلاقات بينهما. طردت هندوراس مئة ألف فلاح سلفادوري ممن عملوا في مزارع البلاد، وعبرت الدبابات السلفادورية الحدود.

استمرت الحرب أسبوعاً وقتل في خلالها أربعة آلاف شخص. نفخت الحكومتان في نار الكره المتبادل، وهما دكتاتوريتان شكلتهما الإدارة الأميركية وفق عقيدة «مدرسة الأميركيتين». في تيغوسيكالبا كان الشعار «أيها الهندوراسيون لا تتقاعسوا، احملوا عصاً واقتلوا سلفادورياً»، أما في سان سلفادور فكان: «لقنوا هؤلاء البرابرة درساً». لم تسقط قطرة دم من أسياد الأرض والحرب، فيما انتقم شعبان حافيان من مأساتيهما المتطابقة عبر قتل أحدهما الآخر من دون أية قيود.

نهاية المباراة

تدور الكرة، ويدور العالم. يعتقد الناس أنّ الشمس هي كرة مشتعلة تعمل طيلة اليوم وتقضي لياليها تقفز من جنة لأخرى، فيما القمر يقوم بمناوبته، رغم أنّ العلم يشكك بهذه الرواية. لكن من دون شك يدور العالم حول كرة متحركة: لقد شاهد نهائي كأس العالم لسنة ١٩٩٤ أكثر من ملياري شخص، وهو أكبر عدد في تاريخ الكرة الأرضية. هو الشغف الأكثر تشاركاً: الكثير من المعجبين بالكرة يلعبونها في الملاعب، والكثيرون منهم يجلسون أمام التلفاز ويقضمون أظافرهم فيما يطارد ٢٢ رجلاً كرة ويركلونها ليعبّروا عن حبهم.

في نهاية كأس العالم ٩٤، سمي كل الأطفال الذين ولدوا في البرازيل «روماريو» وبيع عشب الملعب في لوس انجلس مثل البيتزا، بعشرين دولاراً للقطعة. هل هو القليل من الجنون الذي ينبغي أن يخصص لقضية أفضل؟ هل هي تجارة بدائية ووضيعة؟ هل هي صندوق فرجة يتحكم فيها مالكوها؟ أنا واحد من هؤلاء الذين يؤمنون بأن كرة القدم هي كل ذلك، لكن أكثر من ذلك أيضاً: متعة للعين التي تشاهدها، ومتعة للجسد الذي يلعبها. سأل صحافي مرة اللاهوتية الألمانية دوروتي سول «كيف تفسّرين السعادة لطفل؟». أجابته: "لن أفسرها، سأعطيه كرة وأسمح له باللعب».

يقوم عالم كرة القدم الاحترافي بما في وسعه لسلب هذه الطاقة السعيدة، لكنها تستمر رغم كل النكايات.

التاريخ الرسمي يتجاهل كرة القدم. لا تأتي نصوص التاريخ الحديث على أي ذكر لكرة القدم، حتى مرور الكرام في الدول التي لطالما شكلت فيها هذه اللعبة رمزاً أساسياً من الهوية الجماعية.

وربما لذلك لا تتوقف كرة القدم عن كونها مدهشة. كما يقول صديقي أنخل روكو فإنّ أفضل ما فيها هو قدرتها العنيدة على المفاجأة. كلما قام التنكوقراط ببرمجة اللعبة حتى أصغر تفاصيلها، وتحكّم فيها الأقوياء، استمرت كرة القدم أن تكون فن ما لا يمكن التنبؤ به. يحصل المستحيل حين لا تتوقعه، ويعلّم القزمُ العمالقة درساً، ورجل أسود صغير، رجلاه مقوستان، يجعل رياضياً يشبه آلهة اليونان القدامى يبدو سخيفاً.

هناك فراغ غريب: التاريخ الرسمي يتجاهل كرة القدم. لا تأتي نصوص التاريخ الحديث على أي ذكر لكرة القدم، حتى مرور الكرام في الدول التي لطالما شكلت فيها هذه اللعبة رمزاً أساسياً من الهوية الجماعية. ألعب إذاً أنا موجود: أسلوب اللعب هو طريقة وجود تكشف لمحة فريدة عن كل المجتمعات وتؤكد حقها في الاختلاف. أخبرني كيف تلعب وسأخبرك من أنت. لسنوات عدّة، لُعبت كرة القدم بأساليب مختلفة، وتعبيرات فريدة خاصة بشخصيات كل شعب، ويبدو أن الحفاظ على هذا التنوع أكثر من ضروري اليوم وذلك أكثر من أي وقت مضى. هي أيام التماثل المفروض، في كرة القدم وغيرها. لم يكن العالم غير عادل في الفرص التي يقدمها ومتساوياً في العادات التي يفرضها أكثر من قبل. في عالم اليوم، مع نهاية القرن، من لا يمت من الجوع يمت من الضجر.

لسنوات خلت، كنت أشعر بتحدي الذاكرة وحقيقة كرة القدم، وحاولت كتابة ما يليق بمجموعة الوثنيين الكبيرة هذه التي تستطيع التحدث بلغات مختلفة وتطلق شغفاً كونياً مماثلاً. عبر الكتابة، كنت سأحقق من خلال يَدَيّ ما لم أستطع تحقيقه بقَدَمَيّ: مع قلة موهبة لا يمكن تصحيحها، وكوني أشكل عاراً على الملاعب، لم يكن لدي خيار سوى أن أطلب من الكلمات أن تفعل ما حرمتني منه الكرة التي طالما رغبتها.

انطلاقاً من هذا التحدي، ومن هذه الحاجة إلى التكفير عن الذنب، ولد هذا الكتاب. هو تقدير لكرة القدم، احتفال بتألقها وبكل ما يشوبها من اتهامات وبما يحدث في كواليسها أيضاً. لا أعرف إذا كان هذا الكتاب سيكون كما تريده كرة القدم أن يكون، لكنني أعرف أنه نما بداخلي ووصل إلى الصفحة الأخيرة، ومع ولادته سيصبح ملككم. كما أشعر الآن بهذا الحزن الذي لا شفاء منه والذي يصيبنا بعد ممارسة الحب أو في نهاية كل مباراة.

حلب
ثمار الحواس

عزيز تبسي

كاتب سوري من مواليد حلب، اعتقل في عام ١٩٨٣ لانتمائه لحزب العمل الشيوعي ولم يفرج عنه إلا في عام ١٩٩٨

الرسائل التي كتبها الشاب عمران القطان بين شهري تموز/يوليو وكانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، وأبقاها في منزله، الذي غادره على حين غرة، ولم يعد إليه حتى الآن. صادفتها، مكتوبة بقلم حبر جاف داخل دفتر بغلاف كحلي، أغلب أوراقه بيضاء، فوق بسطة لبيع الأغراض المستعملة والجديدة في شارع إسكندرون، مركونة جانب أشياء أخرى كسبحات وقداحات... منحني إياها البائع ع «البيعة»، بعدما اشتريت منه مصباح كاز، وحزمة من الشموع، وشاحناً ضوئياً.

الرسالة الأولى

قررت تجديد ديكور محلي لبيع الألبسة النسائية الجاهزة في حي «الهلك»، بعد أن توفرت لي فرصة شراء ديكور كامل من محل للألبسة في حي «صلاح الدين»، علمت فيما بعد أن صاحبه قد انضم لـ«الجيش الحر». قررت نقل الديكور في مساء يوم الخميس بمساعدة صديقي المجازف، الذي أقنعني بضرورة نقل الديكور كاملاً، في «حملة واحدة» معللاً ذلك، بعدم استطاعتنا دخول حي «صلاح الدين» في يوم الجمعة، حيث تجري التحضيرات الكبيرة للتظاهرات، بحماية المسلحين.

لن أنسى طريق عودتنا، حيث كانت الطرقات مغلقة بالحجارة وحاويات القمامة، وتجمع عشرات الشبان في مجموعات في الطرقات وزوايا الشوارع، مطلقين الكلام العلني المعارض للسلطة، وهو ما لم أكن أسمعه في منطقة سكني في حي «الهلك» إلا بين الناس المتواثقين. الشعارات تملأ الجدران وعلم الاستقلال الذي اعتمد علماً للثورة يرفرف في كل مكان.

أنهينا تحميل الديكور ومضينا. في طريق العودة جمد الدم في عروقنا، ونحن نشاهد الحملة الأمنية والحافلات التي تحمل المسلحين وسيارات الدفع الرباعي. مما اضطرنا إلى تغيير الطريق، وسلوك طرق فرعية كنا نجهلها، لولا إرشاد صديقي للسائق.

فاقت مبيعاتي التوقعات، بعد تركيب الديكور الجديد، وتعبئة المحل بالبضائع الجديدة التي اشتريتها. أربكتني نقاشات الزبائن، المتسمة بالتوتر، وتترافق على الدوام بتبادل التهم والشتائم والتخوين، وخشيت دوماً الانزلاق إلى مشاركتهم هذه «النقاشات».

برغم ذلك الوضع شديد التوتر، الناس في انتظار وترقب، الأسواق التجارية في حالة عمل كثيف على غير العادة قبل شهر من رمضان ـ الذي صادفت بدايته في أواسط تموزا يوليو ٢٠١٢ ـ يتحدث الناس عن خطة للجيش الحر بنقل المعركة إلى المدينة، والأغلبية لا تريد تصديق ذلك. برغم ذلك يتحضر الأهالي لأيام يعتبرونها سوداء، لأنهم سمعوا بممارسات الجيش والشبيحة في المناطق التي دخلها الجيش الحر في الريف الشمالي، وعجز عن حماية أهلها بعد اضطراره للانسحاب، وتركهم يواجهون مصيرهم.

مزاج الأهالي من غير المهاجرين الريفيين، يميل إلى عدم دعم أي تغيير، ويعتبره ضرباً من المجازفة، التي لا تحتمل عقابيلها، قد يعود ذلك إلى الترسبات السلبية، لتجربة الصراع المسلح ١٩٧٩-١٩٨٢ بين جماعة الإخوان المسلمين والسلطة، ونتائجها التي امتدت لبعد ذلك.

تتوسع التظاهرات في تشييع الشهداء في المناطق التي أغلب سكانها من أصول ريفية ـ صلاح الدين والصاخور ـ ووصل عددهم إلى عشرة آلاف. وبدت

الاستجابة مقبولة لدعوات إضراب الكرامة ـ في المناطق الشعبية، كان للخوف دور في ذلك، ربما لأن المسلحين الملثمين الذين كلفوا بنقل فكرة الإضراب إلى أصحاب المحلات، نقلوها بصيغ فيها توعدات تهديدية وعقابية... ولم يستجب أصحاب المحلات لطلبات دوريات الأمن التي طالبتهم بضرورة فتحها، متذرعين بعجزهم عن حماية أنفسهم من المسلحين الملثمين.

الرسالة الثانية

سمعنا أصوات قذائف، لم نعتد سماعها فيما مضى، حددنا جهتها بخبرة السكن الطويل في الحي، ولم نتيقن مما حدث. تهامس الأهالي عن وصول مقاتلي «الجيش الحر» من الريف وخوضهم معارك قاسية مع القوى الأمنية، تطورت لتتحول مع قوات عسكرية مدعومة بالدبابات. رأيت في الصباح آثار جنازير الدبابات على الإسفلت، وسمعت من شباب الحي عن سيطرة «الجيش الحر» على حي «هنانو» بالكامل. رأيت الخوف في عيون الناس، وهم يخشون ردة الفعل على هذا التقدم العسكري. شاهدت أثناء نزولي إلى وسط البلد، دورية أمنية، تدير أمور سير السيارات والحافلات في تقاطع «دار المعلمين» بحي «بستان الباشا» وكأنها إعلان شكلي عن وجود السلطة. كانت وجوه رجال المخابرات، مرتبكة على غير عادتهم.

في مساء يوم الرابع من رمضان، سمعنا انفجارات قذائف الهاون لأول مرة، خفنا جميعاً، الكبار قبل الصغار، وأجهش الأطفال بالبكاء. باشر الأهالي باصطناع الاحتياطات الوقائية، كتصليح الأقفال وزيادة عددها، زيادة عدد الأبواب... أصبح الحي في فوضى عارمة، انتشرت عصابات السرقة، ولم نعد نشاهد «الصبايا» في الشوارع بعد أول المساء.

بعد أول قصف للهاون، الذي بدأ مساء، صرنا نشاهد حالات النزوح، وبتنا نتذكر صور الفلسطينيين التي كنا نراها في أفلام السينما، الذين نزحوا عن أرضهم وبيوتهم. بدأ الأهالي في الواحدة ليلاً بالهرب من المنطقة بسياراتهم، ومنهم من هرب بسيارة جار أو صديق، حتى لو كانت «سوزوكي» أو «بيك آب».

رجال يحملون أسطوانات الغاز، مخدات وفرشات للنوم وأواني طبخ، وحاجات أساسية أخرى تكفيهم للعيش المؤقت، ربما أياماً قليلة يقضونها في قراهم، ويعودون حالما تنتهي الأزمة. كانت معظم قرى الريفين ـ الشرقي والجنوبي ـ هادئة وبعض من قرى الريفين الشمالي والغربي، وبشكل خاص منطقة عفرين وقراها.

تناقشنا في أسرتنا بموضوع الرحيل، وقررنا التريث لامتلاك معظمنا محلات تجارية، لكننا جهزنا أغراضنا الضرورية، لنكون على استعداد للمغادرة في أقل من ساعة. علمنا من شباب حينا، أن حزب العمال الكردستاني، قد طلب من الأكراد الرحيل، ووفر لهم حافلات كبيرة، لنقلهم إلى عفرين وقراها. سافرت الشابة الكردية التي تساعدني في العمل، وبقيت وحدي، وهي مناسبة لأقول إن أعمالي وأعمال إخوتي قد توقفت بالكامل.

نقلت في المساء، كل أغراضي الهامة إلى بيتي في حي «الميدان» الذي يبعد عن بيت أهلي اثنتي عشرة دقيقة، سيراً على القدمين، لقناعتي بأنه في منطقة آمنة، ومحمية بتنوعها الديني والعرقي.

صحونا بعد يومين، على حواجز جديدة لـ«الجيش الحر» في منطقتي «الحيدرية ـ الإنذارات» ومن اللافت أن هذه الحواجز لم تتدخل بأي شيء، بعد ذلك بدأنا نرى أسماء الكتائب المشاركة في الاقتحامات العسكرية، مكتوبة على الجدران، منها كتائب «الفاروق» من حمص. وبعد يوم ظهر تمدد جديد، من دون أي اشتباك، نصب حاجز عسكري لـ«الجيش الحر» بين حيي «الهلك التحتاني» و«الهلك الفوقاني»، وبدأت التظاهرات تكبر، محمية من مسلحين ملثمين، وتوفرت لها تغطية على قناة «الجزيرة مباشر». وتوقف بعض المتظاهرين أمام منازل شبيحة وعملاء للمخابرات، معروفين في الحي، وصرخوا عليهم بأسمائهم، بعدها بأيام فر بعضهم إلى مناطق سيطرة السلطة، وسلم آخرون أسلحتهم لـ«الجيش الحر» وانضموا إليه.

لكن بدأت بالمقابل، مداهمة بيوت أناس لا علاقة لهم بالشبيحة، أو غير معروفين بدعمهم للنظام. اعتقل شاب على علاقة متينة بالعمل الثوري الميداني ودهمت بيوت شبان آخرين على علاقة بالثورة، وحرنا في اجتراح إجابات، أو تبرير هذه الأفعال.

استمرت رمايات القذائف على الأحياء التي أضحت تحت سيطرة «الجيش الحر»، عملنا على إسعاف المدنيين المصابين، واجهتنا مشكلة عدم وجود أي عيادة مفتوحة، لقد غادر جميع الأطباء الحي.

فاجأنا تحوّل أعداد كبيرة من الشبيحة إلى «الجيش الحر»، وحين طلبنا توضيحاً من قادة الكتائب، كان جوابهم «بارودة معنا، أحسن من بارودة علينا».

جرت في التظاهرات عمليات تهميش المتظاهرين من غير التوجه الإسلامي، ومنع رفع اليافطات التي تطالب بالإفراج عن المعتقلين، من ذوي التوجه الديمقراطي المدني، واستبدلت بيافطات ذات طابع ديني بتحريض طائفي، وانخفض عدد رايات الاستقلال التي اعتمدت كرايات للثورة، واستبدلت بالرايات السوداء. وأثار هذا الموضوع الجدال، وتطلب حله اجتماعاً في أحد المساجد، وهذه أول مرة نذهب إلى المسجد للقاء والحوار، حيث اعتدنا أن تكون اللقاءات والحوارات في بيوت النشطاء، أو أماكن عملهم.

لمسنا هناك خضوع عناصر «الجيش الحر» إلى رجل ذي ذقن طويلة، مجهول في الحي، ناداه الجميع: شيخي. أنهى الشيخ النقاش بحزم: هذه اليافطات، هي ما يجب أن يكون، وهي ردنا على أفعال النظام الطائفية، هذا ما يريده الشعب، فهو في غالبيته سني وإسلامي. وحين جادلناه بالفرق بين المسلم والإسلامي، كاد الجدال يأخذنا إلى معتقل، أعده «الجيش الحر» للشبيحة.

أصبحنا غرباء عن أصدقائنا، وباتوا يتحدثون معنا بغير الكلام الذي كنا نتبادله قبل أسابيع. أما صغار السن، فلم تنفعهم نصائحنا، وما عادوا يسمعون، إلا لمن يدفع بهم بكلام عاطفي، واصفاً إياهم بالأبطال ورجال الثورة. وأضحى من واجباتنا تعليمهم عدم كتابة كلمة الحرية على الأرض، بل على الجدران، وكتابة الشعارات دون أخطاء إملائية، قد تعبث بمعناها.

صرنا عدداً بلا عدة، ولم نعد ندعى لأي جلسة، كي لا نعكر صفوها واتساقها. واكتشفنا متأخرين، أننا قليلو العدد وغير منظمين، وأننا نعيش في جزيرة شبه معزولة وتزداد عزلة، ولا تعني هؤلاء جميعاً. اعتزل الكثيرون وانسحبوا، وأرخى ذقنه من أراد التكيف مع المزاج السائد.

الرسالة الثالثة

تمدد «الجيش الحر» وأقام حاجزاً جديداً قرب مشفى «زاهي أزرق» المعروف شعبياً بـ«مشفى الحميّات»، الأهالي مازالوا على نزوحهم، بسبب من ازدياد القصف واستمراره، وبعد أن بوشر باستخدام الطائرات العمودية والنفاثة، في قصف حيي «هنانو» و«الإنذارات»، سمعنا من أصدقائنا، بتوسع «الجيش الحر» في الجهة الجنوبية من المدينة، ووصل إلى أعماق حي «صلاح الدين».

شاهدنا لأول مرة مصابين وشهداء في صفوف «الجيش الحر» خلال المعارك التي خاضها في حي «بستان الباشا» وتمكن من التقدم وصولاً إلى الطريق الرئيس، عند «دار عجزة الأرمن» والسيطرة عليها، وأقام حاجزاً في هذا الشارع ذي الأهمية الإستراتيجية، بعد أن قام الجيش منذ زمن بإغلاق الطريق «الدائري الشمالي» من أمام فرع المداهمة.

أصبح عملنا نهارياً فقط، ونزح المزيد من الأهالي، بقيت مع أسرتي في حالة ترقب وخوف، حتى سقطت قذيفة قرب بيتنا، وتطايرت شظاياها إلى الشرفة، وحين قمنا لتفقدها، سقطت قذيفة أخرى. نزلنا جميعاً إلى الطابق السفلي، وقررنا دون كلام كثير، النزوح في أول الصباح نحو القرية.

في الطريق إلى قريتنا، أوقفنا حاجز عسكري في قرية الزهراء، (الزهراء ونبل قريتان شيعيتان، في ريف حلب الشمالي) رفع عليه العلم السوري وعلم حزب الله، عصب مسلحوه جباههم بأنشوطات صفراء كتب عليها «حزب الله». فتشوا السيارة وتأكدوا من البطاقات الشخصية، طلبوا منا بعدها متابعة الطريق. لا أعرف كيف سيكون تعاملهم معنا، لو كنا من قرى «عندان ـ بيانون ـ ماير» التي كانت أول من بدأ النشاط الثوري في ريف حلب، واستمر به.

الرسالة الرابعة

تركت القرية بعد عدة أيام، وعدت مع أخي إلى الحي، لنتفقد بيتنا ومحلاتنا. بدأت أتقصد تطويل طريقي بين بيتي وعملي، لأراقب «شباب الجيش الحر»، أهم ما يميزهم الفقر، حيث الغني من امتلك حذاء، أو ثمن علبة مرتديلا، كان ثمنها ٣٥ ليرة وأصبح ثمنها اليوم ١٢٠ ليرة، يستمعون إلى الأغاني الثورية من موبايلاتهم الرخيصة، لا يحتكون مع السكان، يجلسون في الشوارع أو أمام المدارس في مجموعات.. اضطررت ذات مرة للصراخ عليهم «تفرقوا يا شباب، قاعدين جنب بعض والطيارة فوقكم عم تضرب». كنا نسرع للمساعدة والإغاثة، حين نسمع صوت سقوط قذيفة هاون، وتعلمنا الانتظار لخمس دقائق قبل الركض نحو مكان سقوطها.

استيقظت على صوت القذيفة المدوّي، أشعرني بأنها ليست هاون، وتبيّن أنها صاروخ قصفت به الطائرة مدرستي الإعدادية، وفي المساء رأيتها عبر تقرير «قناة

الجزيرة»، حيث وقفت المراسلة في ذات المكان الذي كنت أقف فيه كل صباح لتحية العلم مع الطلاب. لم تعد تسعني الدنيا، ولم يعد ينفعني البكاء، هرعت من منزل أهلي إلى الشارع لأبكي كما أشاء.

تقدم «الجيش الحر» في حي «بستان الباشا» منطقة «مسبح العروبة» بعد اشتباكات متعددة، وسلسلة من عمليات الكر والفر، غادر بعدها ما تبقى من سكان الحي، وأصبح الدمار أكبر من أن يوصف بكلمات، تدمرت مبان بطوابقها العالية. يواجه مقاتلو «الجيش الحر» إغارات الطائرات برشقات من بندقيات «الكلاشنكوف».

الرسالة الخامسة

خرجت ذات يوم من شهر أيلول/سبتمبر ٢٠١٢، من بيتي في حي «الميدان»، لألتحق بسهرة مع أصدقائي، ولم أعد إليه إطلاقاً بعد ذلك، بعد أن وصلت الاشتباكات إلى حارتي، وسقط فيها أحد الأصدقاء الذي لم أكن أعرف اسمه الحقيقي. قبلها سمح لي حاجز «الحرس الجمهوري» بالدخول إلى بيتي مرتين، نقلت في المرة الأولى بمساعدة صديقي بعض الحاجيات البسيطة. أما في المرة الثانية، فلم أتعرف على حارتي أبداً. كانت شبه مدمرة، السيارات محروقة، وآثار جنازير الدبابات فوق سطح حديدها، شظايا الزجاج على الأرض وفي كل الزوايا، الشرفات ملوية على الأرض، المغاليق المعدنية للمحلات مفتوحة، بفعل ضغط الانفجارات، الأبواب الخارجية للعمارات وأبواب المنازل، كلها متهاوية على الأرض ومحطمة.

دخلت المنزل مع صديقي، وجدت الحاسوب في مكانه، حمّلت على قرصه الصلب تعب عشر سنوات من الأرشفة الموسيقية، وكل ما يخصني من صور وفيديوهات. حملته مع كل ما استطعت حمله من الأسطوانات الأصلية، كل شيء في البيت مدمر، الطلقات فتتت حائط الصالة، وباب الشرفة...

في طريق عودتنا، انتبهنا إلى مكان يجمعون فيه جثث القتلى.

حاولت العودة للبيت مرة أخرى، لكني منعت بكلمات حاسمة من المسؤول عن الحاجز، وكان برفقتي جاري وزوجته، ورأينا جميعنا، كيف تتم عمليات إنزال أثاث المنازل وأغراضهم وينقل بسيارات الشرطة وسواها إلى أماكن لم نتبينها، وما يتبقى من أثاث خشبي يكسره العساكر ليتدفأوا عليه في الشتاء.

لم يعد عندي بيت، ما عملت بدأب على تأسيسه وفرشه خلال عشر سنوات، فقدته بأيام. أتذكر الآن كل التفاصيل الحميمة التي كانت ترافقني باختيار الملاعق والصحون والكاسات، لوحات الحفر على النحاس، الستائر المخملية، النراجيل بأحجامها المتفاوتة، صورتي مع مرسيل خليفة، ليتر النبيذ البلدي الذي حملته من بلدة دريكيش، واحتفظت به لليلة زفافي. ملمس الحوارات الصاخبة والرائقة التي احتضنتها جدرانه، وذاك الملمس الحنون في أواخر الليل، بعد ان تطفئ كؤوس النبيذ الخلايا الهائجة.

وأخيراً رسم وحدد المحاربون الحدود، بين مناطق وأحياء مدينة حلب، خلنا أنها مؤقتة، ولن يطول بها الزمن إلا أسابيع على الأكثر، بستان الباشا/الشيخ خضر/الصاخور. المتجهة جنوباً نحو صلاح الدين/ كاستيللو/السجن المركزي/مشفى الكندي/الدويرينة/ بستان القصر/كرم الجبل.

الرسالة السادسة

هي ليست هموماً صغيرة، لأنها أساس حياتنا في المدينة، وسبب جليّ لبقائنا في بيوتنا وفي متابعة أعمالنا التي ليس لنا سواها كمصدر للدخل وبالتالي للمعيشة.

جرى إخراج مقسم حي «الهلك» من الخدمة، وسرقت معظم كابلاته، من قبل إحدى الكتائب المقاتلة، وسرق قبل ذلك المازوت الموجود، الضروري لتشغيل المولدة الموجودة في المقسم ذاته.

تمت سرقت كل الكابلات الفرعية، دون أن ينتبه أي من سكان الحي، أما حين باشر أعضاء الكتيبة في سرقة الكابل الرئيس، وبدعم من العربة التي تنتصب عليها «الدوشكا»، من اعترض ووجه بتهديد مباشر من السارقين، وجرت بعدها عمليات تخريب المجموعات الفرعية ونهبها، رغم انعدام أي قيمة مالية لمثل هذا الفعل اللصوصي، إلا انه حصل.

انقطعت بعدها الكهرباء عن حي «بستان الباشا»، ترافق ذلك مع هجوم «الجيش الحر» على الحي، وتبين لنا، فيما بعد بالتواصل مع أصدقائنا وأقربائنا، أن الكهرباء قطعت عن كل أحياء المدينة.

بعد نزوح معظم أهالي الحي عن بيوتهم، قامت الكتائب المقاتلة بسرقة الكابلات الواصلة بين الأعمدة في الطرقات، وسرقة محتويات البوسطات التي تنظم تدفق

الكهرباء إلى المنازل والورشات. لم تقدم أي كتيبة على إصلاح الكهرباء، كل مبادرات الإصلاح كانت رهينة قدرات من تبقى من الأهالي.

واستكملت المشكلة بالمياه، وتوضح ذلك لكل من تبقى في الحي، حين وصول الشاب المكلف بتشغيل المضخة، وهو من أعضاء مجلس الحي، وجد أمامه عناصر كتيبة «أبو محمود الحربلي» يقومون بقص كابلاتها بمقصات كبيرة، حملوها معهم، وربما سرقوها من أحد محلات تصليح السيارات المنتشرة في الحي. صاح وهو غير مصدق ما يرى «إش عم تعملو؟» فطردوه بتهديد السلاح، فما كان منه إلا الاستعانة بأهل الحي، بعد أن صعد إلى مئذنة الجامع ونادى «يا أهالي الهلك، الحقوا مضخة المي، المضخة عم تنسرق» تجمع الأهالي أمام الجامع ونزلوا باتجاه المضخة، دون أن يحملوا أي سلاح، حتى عصا خيزران، وكنت معهم، وحين المرور كنا نطالب الناس بأن ينضموا إلينا لنكون أكثر عدداً.

وصلنا إلى المضخة، ونحن أكثر من خمسمائة شاب، ترافق وصولنا مع وصول عناصر جديدة من كتيبة «أبو محمود الحربلي» بعتادهم الحربي الكامل بما في ذلك رشاشات الـ«بي كي سي». قاموا بتلقيم الأسلحة لإرهابنا، وطالبونا بمغادرة المنطقة فوراً. رفضنا طلبهم بالإجماع، ودار بيننا حوار غير ودي، حيث جرى اتهامهم بشكل مباشر بالعمل لسرقة المضخة، وشراكتهم مع أصحاب صهاريج المياه. برز من بينهم أحد العناصر الملتحين وصاح من فوره «أنا سرقت المضخة...خرّوها.. روّحو جيبو الهيئة الشرعية» وقال آخر «أنا بعرف العرصة اللي راح ع الجامع وجمع ها لكلاب» وتابع بشراسة «بكرا بدي رشو إذا شفتو هون».

صادرنا المقص الكبير، واحتجزناه كدليل على واقعة السرقة، حاولوا استعادته فرفضنا، وحين هددونا بالسلاح، أخرج أحد شبان مجلس الحي قنبلة يدوية، وهدد بتفجيرها بالجميع.

حاولوا تهدئة الأمور بوعود تكفلهم بحماية المضخة، لكن شباب مجلس الحي ذكروهم بمحاولات سرقة الكابل الرئيس، الذي يغذي المضخة.

أخيراً قال كبيرهم «نحنا هون الدولة، ونحنا منحمي المضخة». رددنا، أن الدولة وفرت المضخة، ولم تقم بسرقتها لحرماننا من المياه. انسحبنا بعدها بعد طلب من شباب مجلس الحي، وقررنا عقد تفاهم بين مجلس الحي وقائد الكتيبة، واتجهنا إلى الجامع منتظرين الانتهاء من الصلاة للبدء بمظاهرة.

أرسلوا من هددنا بأنهم سيطلقون الرصاص ضد كل من يتظاهر ضد «الجيش الحر» وسيقطعون رجليه. قررنا عدم التظاهر، والعودة إلى بيوتنا.

في آخر المساء ونحن نتابع الأخبار من التلفزيون الرسمي، بث خبراً مطولاً عن الوقائع التي حصلت معنا في الحي، مع إضافة الكثير من المبالغات عليها، وتساءلنا كيف وصلت هذه الأخبار إلى هناك ومن أوصلها بهذه السرعة.

مرت بعد هذه الوقائع أيام عصيبة على الحي، القذائف لا تتوقف وتزداد غزارتها، وتتعمق نتائجها بالتدمير والهجرات المتواصلة نحو الريف ومناطق سيطرة الجيش. أكمل ذلك مشاحنة حصلت أمام باب المسجد، بين عنصر من إحدى كتائب «الجيش الحر»، بعد سؤاله المصلين عن خادم الجامع ومسؤول إذاعته، وعندما حاولوا تبين السبب، أجاب: لضرورة تبليغ أهالي الحي بالمغادرة. رفض الناس الأمر بشدة، واحتدّ الكلام مع العسكري، فذهب وأحضر زملاء له مع سلاحهم.

ببساطة، رفض الناس القرار، وأعلنوا بوضوح عن رغبتهم البقاء في بيوتهم، وتمسكهم بها، لأنهم لا يملكون أي مكان ينزحون إليه، يحقق لهم الحد الأدنى من الكرامة الآدمية، ولو توفر لهم ذلك لغادروا قبل أن تطالبهم الكتائب بذلك.

شعر عناصر الكتيبة بالصعوبات التي تحول دون تنفيذ قرارهم. لكننا لم نتوقف عند حد المطالبة بإيقاف قرار المغادرة، بل تجاوزناه إلى «ضرورة إمدادنا بكل السبل التي تجعلنا متمسكين بالحياة والبقاء، من غذاء وماء ودواء بالمجان، وببدل راتب كتعويض عن افتقاد معظمنا للدخل، أو الدخول المتواضعة التي لا تتحقق إلا بالمعاناة والمجازفة بالحياة. وأخيراً، أكدنا لهم أننا من يدافع عنهم، ويحميهم، ويدفع ضريبة ذلك». لم يقتنعوا بكل هذا الكلام وغادروا مهددين.

أرسلنا وفداً إلى مقر قيادة «أمن الثورة» لشرح الحالة، فأرسلت معنا سيارة ومجموعة عسكرية، طلبت فور وصولها من عناصر الكتيبة، ضرورة بقاء الناس في الحي.

يعلم الناس أن وراء أمر المغادرة رغبة في نهب البيوت والمحلات والورشات، كما حصل في حي «بستان الباشا» حيث لم يبقوا وراءهم حتى الأبواب الخشبية وأسلاك الكهرباء الداخلية..

انتهت موضوعة قرار الإخلاء، وبقي من تبقى من

الأهالي في بيوتهم، كما توزعت الكتيبة على مقراتها المستولى عليها، رغم مطالبة الأهالي بضرورة مغادرتها المكان، كنوع من الحل الوسط، لإبعاد العسكريين عن المدنيين، علها تساهم في اتّقاء الشرور المتواصلة، الناتجة من الاحتكاكات اليومية.

جرت بعد أيام عمليات تلغيم كل الأبنية التي تشغلها الكتيبة، ليس خوفاً من هجوم فجائي للجيش، بل من مخاوف أخرى مثل مداهمة الهيئة الشرعية هذه المقرات لاعتقال مطلوبين، أو، مداهمة كتيبة أخرى للسيطرة عليها، كأحد مظاهر صراع نفوذ بين الكتائب المقاتلة.

اعتقل صديق بعد عودته من تركيا، بسبب اعتراضه على تلغيم المبنى الذي يسكنه. هذا الاعتراض كان سبباً كافياً لاعتقاله، بتهمة جاهزة: شبّيح. ولم يطلق سراحه إلا بتدخل أحد القادة الكبار في «الجيش الحر»، بسبب معرفة شخصية أو صلة قرابة.

الرسالة السابعة

هو رجل من ريف إدلب، قائد إحدى الكتائب المرابطة على معبر «الشيخ رز» الذي يربط بين حيي «الهلك» و«الشيخ مقصود». شاهدته لمرة واحدة، حين طلب الأهالي من إذاعة جامع عمر بن الخطاب، للاجتماع. طلب الشيخ الحضور لمناقشة مشكلة المياه وسبل حلها، لأجل كسب أكبر عدد من الحضور.

اعتقل صديق بعد عودته من تركيا، بسبب اعتراضه على تلغيم المبنى الذي يسكنه. هذا الاعتراض كان سبباً كافياً لاعتقاله، بتهمة جاهزة: شبّيح.

بدأ كلامه بالتهديد والوعيد لجميع الأهالي، وتحدث عن مخبرين وعملاء للنظام، ينوون تنظيم مظاهرة ضد «الجيش الحر» ويتذرع هؤلاء العملاء بأن قذائف الهاون التي يطلقها «الجيش الحر» على «مناطق النظام» قد دفعت النظام للانتقام بإطلاق صاروخ أرض ـ أرض على الحي عصر ذلك اليوم. حيث دمر الصاروخ طابقين من إحدى العمارات الكبيرة، وتسبب بأضرار في كل النوافذ ومغاليق المحلات وأبواب العمارات..

تحدث الشيخ «عبد المجيد» بنبرة ضابط مخابرات، وكأنه متقن لصياغاتها وتعابيرها، شعرنا بأننا نحضر درساً في التوجيه السياسي، في أحد معسكرات الجيش، أثناء أداء الخدمة العسكرية الإلزامية. وأبلغنا أن المعركة التي تخاض الآن ضد السلطة، هي المعركة الشرعية الوحيدة، ولا يقبل لأحد تعكير صفائها، مهدداً ومتوعداً الأهالي بالاعتقال والأقبية، والاعتقال مجدداً في حال الإفراج بواسطة تدخل كتائب أخرى.

والغريب كان إبلاغنا تكليف أحد المشبوهين بعمالتهم للسلطة، والمعروف عن عمله كشبيح، بالمكتب الأمني بالحي وما يتبع إليه، وأبلغنا بعد ذلك عن تعيين قائد جديد للعناصر في المعبر «معبر الشيخ رز».. ولم يبق لنا إلا أن نردد «بالروح بالدم نفديك يا شيخ..» بعد إعلان هذين البلاغين، طلب من أتباعه إحضار أحد الموقوفين وذكره بالاسم، فغادرت مجموعة من المسلحين، لتعود ومعها شاب في العشرين.

كان هذا الشاب قد ذهب مع مجموعة شبان آخرين، إلى مقر الكتيبة، طالباً منهم عدم إطلاق القذائف، لأنها تصيب المدنيين المقيمين في الطرف الآخر من المدينة، وتتسبب بالرد العنيف من السلطة، يكون المدنيون هم ضحاياه هنا.

وقف الشاب مرتجفاً، خفيض الرأس. وحين طلب الشيخ منه الكلام، تحدث بما يشبه الهمس «ذهبت إلى مقر الكتيبة، لأحدثهم في نقطة واحدة فقط، هي ضرورة مرافقة من يريد زيارة بيت غير بيته، للتأكد من عدم حدوث سرقة، ولم آت على ذكر القذائف على الإطلاق».

رد الشيخ عبد المجيد على الفور «خذوه، عليك التبليغ عمن ذهبوا معك إلى مقر الكتيبة للتذمر من القذائف». وختم بإبلاغنا أنه «لم يعد مسموحاً، من الآن فصاعداً، إرسال النساء إلى الأفران، وسيتم اعتقال أي امرأة تتحدث ضد الجيش الحر».

تكرم بعدها الشيخ بالسماح لنا بالتحدث، فتحدث أحد الرجال، أحد أعضاء مجلس الحي، عن ضرورة عدم التعرض للمدنيين، وعدم حمل السلاح في المناطق المكتظة بالسكان كالأسواق، وختم بأن كتائب «الجيش الحر» في أحياء أخرى لا تقبل مثل هذه الأفعال، التي تخيف الناس وترهبهم. كان رد الشيخ عبد المجيد «نحن لا نأتمر إلا بأوامر شيوخنا وقادتنا».

وطالب شاب تركماني، بضرورة توفير الحاجات الأساسية للناس، مثل أسطوانات الغاز المنزلي. رد الشيخ «بأننا في معركة مع العدو، وأنت تتحدث بتفاهات».

سمعنا بعد ذلك بعدة أشهر، باعتقال الشيخ عبد المجيد، من قبل الهيئة الشرعية، لكن لم يطل اعتقاله، وخرج ليعمل مع مجموعات من الكتائب المقاتلة، إلى أن وجد مقتولاً في صباح أحد الأيام.

لم يتقبل الناس قط شبيحاً سابقاً يرتدي بزة «الجيش الحر» ويتحدث باسمه، وأصبحت مع الزمن صفة السارق، أول ما يتبادر لذهن المواطن عند ذكر «الجيش الحر».




EXTREM

وعندي أمثلة كثيرة في الحي، منها مشاهدات الناس لأحد عناصر «الجيش الحر» وهو واقف على حاجز معمل «عوارض السكك الحديدية»، مع قوات الجيش والشبيحة، ينكل بأهالي الحي العابرين من هناك، وكان قبل ٢٤ ساعة يعمل في صفوف كتائب «الجيش الحر». إضافة إلى تقبلهم أعداداً غير قليلة من «الزعران»، قضوا معظم أوقاتهم في التعرض للفتيات ومضايقة طالبات المدارس. بهذه الممارسات وسواها، عجز الجيش الحر عن تقديم نفسه كبديل حقيقي للسلطة.

الأوراق التي أبقاها المحامي علي الرفاعي، قبل مغادرته مع أسرته إلى القاهرة أواخر شتاء ٢٠١٤

نحن في أماكن آمنة نسبياً، فلا يمكن مقارنة الهاونات وقذائف جهنم، بالبراميل وإغارات الطيران الحربي، وغدونا كما سوانا أسرى المآلات الحربية للصراع السياسي.

هاجر معظم أصحاب الرساميل الكبيرة من بداية الأزمة، مبقين على مجموعة من موظفيهم الموثوقين، ليتابعوا أعمالهم، قبل أن يغلقوها نهائياً، لتعثّر آليات العمل وفقدان الأمان، متسببين عن غير قصد بزيادة العاطلين من العمل. تبعهم أغلب من له علاقة قرابة أو عمل أو دراسة في بلد عربي أو أجنبي، مما سهل له ولعائلته أسباب الهجرة، وتبعهم كذلك الشبان، من المتخرجين الجدد في الكليات الجامعية، كمحاولة لإيجاد أفق جديد لحياتهم. وهناك من قرر الهجرة، نحو الأماكن الأكثر أماناً في المدن والقرى السورية، أو العودة إلى مسقط الرأس في القرية أو المنطقة التي كانوا قد هاجروا منها إلى المدينة. نزيف كبير في العقول والخبرات والرساميل، سيستغرق تجاوزه في المستقبل، وقتاً طويلاً، في حال توفرت له شروط سياسية واقتصادية مناسبة.

ينقطع التيار الكهربائي لأيام، وأحياناً لأسابيع، وحين يأتي بعد انقطاعه، يأتي لساعات، محكوماً بظروف وشروط متعددة، منها سيطرة الكتائب المقاتلة على المحطة الحرارية، ومنشآت توليد الكهرباء على نهر الفرات، فضلاً عن الأعطال الناتجة من القصف والإشتباكات، وسرقة الكابلات الكهربائية الرئيسية. استعاض الناس بالمولدات المختلفة الأحجام، عن تغذية شركة الكهرباء، وصار لزاماً على مركز بيع بالتجزئة (سوبر ماركت/ألبان/لحوم) أو ورشة صغيرة أو متوسطة، مخابر التحاليل الطبية عيادات التصوير الشعاعي اقتناء مولدة للحفاظ على استمرار أعمالها وإبقاء بضائعه ومواده دون تلف.

"الجيش الحر" لم يتقبل الناس قط، يرتدي بسالة الشبيحة سابقاً، ويتحدث باسمه، وأصبحت مع الزمن صفة السارق، أول ما يتبادر للذهن المواطن عند ذكر "الجيش الحر".

تواجه مقتني المولدة الكهربائية، مشكلة تأمين الوقود ـ بنزين/مازوت ـ والزيوت المعدنية، فضلاً عن الأعطال الدائمة، باعتبارها من منشأ صيني، أو مراكز تجميع تركية أو إماراتية. مما يجعلها عرضة للأعطال الذاتية، يضاف إليها ضعف خبرة الناس بالميكانيك.

وإن كان المستخدمون الاستثماريون، يضيفون أكلاف عمل مولداتهم وتصليحها إلى أسعار البضائع أو الأجور التي يأخذونها، فإن الاستخدام المنزلي للمولدات، يفرض توفير دخل شهري إضافي، يتراوح بين ٣٠٠٠ و ٦٠٠٠ ليرة حسب حجم المولدة، وأسعار البنزين في السوق السوداء.

بدأت تنتشر ظاهرة المولدات الضخمة، من مستثمرين، لأجل تغذية البيوت بخطوط كهربائية، لقاء مبلغ ٨٠٠ ليرة للأمبير الواحد في الأسبوع، بمعدل تشغيل ست ساعات يومياً، والأمبير يكفي للإنارة المنزلية المحدودة، وتشغيل تلفاز وأمور بسيطة أخرى.

تصل المياه من خلال المؤسسة العامة لمياه الشرب والصرف الصحي في المدينة، بمعدل ثماني ساعات كل ثمان وأربعين ساعة، في حال عدم الانقطاع التام للتيار الكهربائي، وفي حال حصوله، تنقطع المياه لثلاثة أو أربعة أيام متتالية. مما زاد أعباء الشرب والنظافة، وأنتج مهنة بيع المياه عن طريق الصهاريج، واعتُمدت تعليمات حكومية من المحافظة، تستوجب حفر الآبار في المساجد والكنائس والمشافي والحدائق للإسعاف في أوقات الانقطاعات القصوى.

أضحى الاعتماد على الغاز المنزلي بشكل أساسي لأجل الطبخ والتدفئة، ووزعت شركة الغاز الأسطوانة، في هذا الشتاء بسعر ألف ومائة ليرة، عبر لجان الأحياء والمختار، وفق نظام قوائم الدور، تدور خلال ثلاثة أشهر على الأغلب، والأسطوانة لا تكفي في هذه المدة، مما يدفع إلى شرائها من السوق السوداء التي تتراوح قيمتها فيها بين ٢٥٠٠ و٦٠٠٠ ليرة حسب قوانين العرض والطلب، المرتبطة بتأمين طرق الإمداد.

عانى الناس في شتاء ٢٠١٢ من فقدان المازوت بشكل كلي، إلا ما هو معروض في السوق السوداء، والكثير منه غير نقي، مزجه البائعون بأنواع من الفيول والنفط الخام، وتراوح سعر الليتر الواحد بين ٣٥٠ و٤٠٠ ليرة، كذلك حول الكثير مدافئهم إلى الحطب.

قامت لجان الأحياء مع بداية الشتاء، بتوفير حصة ٢٥٠ ليتراً لكل أسرة بقيمة ٦٥ ليرة لليتر الواحد، بعد

إثبات مكان الإقامة ودفتر العائلة، بمن فيهم النازحون من المناطق الشرقية الذين استأجروا بيوتاً في المناطق الغربية. ما لوحظ، هو عجز أعداد كبيرة من العائلات عن دفع القيمة المالية لهذه الحصة، وعملوا من فورهم لبيعها بالسوق السوداء، رغم حاجتهم الضرورية إليها. والمازوت لم ينقطع في السوق السوداء بضعف سعره الحكومي، وأنتجت هذه العمليات فئة جديدة، تنضم إلى فئات أخرى من أثرياء الحرب، ومعظمهم لا يكتفي برفع السعر، بل بغش المنتوج بمواد أخرى، تسببت في الكثير من الحرائق والموت.

أما ما يخص البنزين، فتبقى في حلب الغربية خمس محطات وقود، تبيع البنزين للمواطنين، في ظل ازدحام شديد للسيارات، وبإشراف وحدات عسكرية متنوعة، تغلب عليها الشرطة المدنية. ويأتي الكثير من المواطنين من دون سيارات، مع عبوات بلاستيكية، لتعبئة البنزين، لاستعماله في تشغيل المولدات الكهربائية المنزلية. يصل الازدحام لدرجة الانتظار لسبع أو ثماني ساعات، للحصول على الحصة من البنزين، بسعر مائة وخمس ليرات لليتر الواحد.

يحمل التجمع الكبير أمام محطات الوقود، نسبة عالية من المجازفة، لكونه عرضة لرمايات الهاونات، وقذائف جهنم (أسطوانات الغاز المحشوة بالمواد المتفجرة).

انتعشت بشكل كبير السوق السوداء، وأثرى تجارها من الإتجار بالمازوت والبنزين والغاز والخبز واللحوم ومنتجات الحليب والأدوية الطبية. أي من كل ما يشكل حاجة حيوية لاستمرار الناس في حيواتهم. وتتوفر معظم المواد التي يفتقدها الناس في هذه الأسواق، وبأضعاف مضاعفة من سعرها الحكومي. والجميع يعلم ضمنياً، كيف تصل هذه المواد للأسواق وتتوافر على الدوام. ويلاحَظ الإنفاق الاعتباطي للأثرياء الجدد، المتواجدين على الدوام في المطاعم والمقاهي، والتي كان بعضهم يحلم أن يكون نادلاً فيها.

تولّت عدة منظمات دولية تزويد المدينة بالمواد الإغاثية، عبر تسليمها لمنظمة الهلال الأحمر العربي السوري، التي تضعها في مستودعات لتوزعها عبر مجموعة من الجمعيات الأهلية، تقاسمت فيما بينها جغرافيا المدينة. تعمل هذه الجمعيات ـ الهيئات عبر متطوعيها، للكشف على واقع طالبي المعونات الإغاثية، وتنظيم جداول بعائلاتهم، لتوزع لهم حصصاً شهرية من المواد الغذائية ومواد التنظيف والفرش والأغطية.

يحمل التجمع الكبير أمام محطات الوقود نسبة عالية من المجازفة، لكونه عرضة لرمايات الهاونات، وقذائف جهنم (أسطوانات الغاز المحشوة بالمواد المتفجرة)

توفر الحكومة عبر المحافظة، الطحين المدعوم والمازوت والخميرة بالسعر الرسمي لأغلب المخابز، التي صارت تبيع الربطة المؤلفة من ثمانية أرغفة بسعر خمس عشرة ليرة، وتعاني هذه الأفران من الزحام الشديد، الذي يبدأ بوقوف الناس من أواخر الليل، أمام كوة الفرن المغلق، وتكلف مجموعات عسكرية بتنظيم الدور وضبطه، ويلاحظ وجود عائلات فقيرة امتهنت الاصطفاف بالدور بكامل أفرادها، ليبيعوه في ما بعد بأضعاف سعره، تعويضاً لافتقاد أربابها العمل. ويستغرق الوصول إلى دور الخبز عدة ساعات.

لم تعد ترد أغلب المواد الغذائية من أرياف حلب، التي تضررت محاصيلها الزراعية، وصعبت مهمة تصريف ما ينتج منها بسبب سوء أحوال الطرقات العامة، وشدة الاشتباكات.

توقفت معظم منشآت تربية الدواجن والأبقار، وأضحى إنتاج الحليب ومشتقاته، يعتمد على الحليب المجفف المستورد، وتصل هذه المواد عن الطريق العسكري العابر لبلدة «خناصر»، ولوحظ تضاعف أسعارها أربع او خمس مرات، عن أسعارها الحقيقية، وباتت تتوافر بشكل مقبول وبأسعار أقلّ من أسعار الشتاء الماضي ٢٠١٣، بعد تأمين طريق الإمداد المحمي من الجيش.

دخلت، لأسباب مختلفة، صناعة الملابس بأنواعها الداخلية والخارجية، في اختناقات حادة، أتت على معظم معاملها وورشاتها الكبيرة والمتوسطة، وبقيت الورشات الصغيرة، التي تمتلك فرصاً أكبر للمناورة. وبات الاعتماد على الملابس المستوردة شبه كلي، وترتبط أسعارها بالدولار، وأجور النقل ومكوس الجمارك، أو أجور المهربين. بدأت تنتشر، في مختلف أحياء المدينة، محلات بيع الألبسة المستعملة، والتي تلقى إقبالاً كبيراً، مع تساهل مديرية الجمارك ومديرية الصحة اللتين كانتا تمنعانها قانونياً.

يمكن اعتبار رواتب موظفي الدولة ومتقاعديها، الأكثر ثباتاً من عموم المداخيل. بينما تهاوى دخل جميع العاملين في القطاع الخاص على مختلف مستوياتهم (تجار ـ صناعيون ـ حرفيون ـ أصحاب مهن علمية ـ عمال).

اعتمدت هذه الفئات على مدخراتها النقدية، التي أكلها الارتفاع الشديد في سعر صرف الدولار، الذي وصل إلى أرقام غير مسبوقة وغير متوقعة (٣١٠ ليرات سورية للدولار وعاد ليستقر نسبياً على ١٥٠ ليرة)، ومدخراتها العينية،من بيع الذهب والمجوهرات والمقتنيات

الموروثة، كالسجاد والأواني الخزفية...مما يؤشر على مقدمات إنهيار هذه الفئة إلى الحضيض، مقابل صعود أثرياء الحرب، وتجار الأزمات، بخلفيات بعضهم الجنائية.

عادت جميع الدوائر الرسمية للنهوض بأعمالها، بعد تأمين مقرات جديدة ـ إضطرارية ـ وضمن أبنية غير مؤهلة بشكل تام، تعاني أغلبها من انقطاع الكهرباء والازدحام الشديد للمواطنين، ولجوء أغلبهم إلى مسيّري المعاملات المتعاملين مع الموظفين، الذين يتقاضون مبالغ مضاعفة لتسييرها.

تم نقل النازحين المقيمين في المدارس الحكومية إلى أحياء كانت قيد الإنشاء بمنطقة الحمدانية، وبقي قسم كبير من النازحين في المدينة الجامعية، وعاد بعضهم إلى قراهم. لوحظت حالة الارتياح العام لدى سكان الأحياء التي كانوا يتواجدون فيها، بعدما شكلوا عبئاً كبيراً عليها، ناتجة من اختلاف العادات والشطط السلوكي، وإزعاجات الحياة اليومية، مما تسبب في تغير المزاج العام الذي كان في حالة تضامن معهم في البداية ليتراجع مع مرور الوقت نحو حالات تشنج وعدائية.

بعد التغيب الجماعي لطلاب المدارس الحكومية عن مدارسهم، في العام الدراسي الماضي ٢٠١٢-٢٠١٣، التي خصصت كأماكن لإيواء النازحين من المناطق الشرقية والجنوبية، مما تسبب بمنع الدراسة فيها، باستثناء من توافرت لديه الإمكانات المالية لنقل أولاده إلى ما تبقى مفتوحاً من المدارس الخاصة.

تجاوز الطلاب في الصفوف الانتقالية، بعد خضوعهم لفحوص صورية معايير إستكمال انتقالهم للصف الدراسي الأعلى، وبعدما تم إخلاء المدارس الحكومية من النازحين، عاد الطلاب إلى مدارسهم لهذا العام ٢٠١٣-٢٠١٤، وبدأت معاناة أخرى، أبرزها عدم توفر الكتب المدرسية من مصادرها الحكومية، وقام تجار القرطاسية ببيع الكتب المدرسية بأسعار باهظة، نسبة لأسعار الكتب المدعومة حكومياً. أما المدارس الخاصة، فقد أمضت العامين الدراسيين الماضي والحالي بشكل طبيعي، ولم يلحظ ارتفاع في أقساطها، أسوة بالارتفاع العام للأسعار.

استمرت عملية التدريس في جامعة حلب، بغياب الاضطرابات الطلابية، مع انخفاض أعداد الطلاب لأقل من النصف، بسبب ارتفاع إيجار البيوت للطلاب القادمين من المحافظات الأخرى، وغياب السكن الجامعي الذي يشغله النازحون، والصعوبات البالغة في التنقل بين المدن والقرى مع تضاعف أجوره بما يقارب العشرين ضعفاً، وافتقاده الأمان. لوحظ كذلك التساهل النسبي في الامتحانات مع الطلاب.

ومع المعاناة الكبرى لدى المشافي في تأمين المازوت، لتشغيل المولدات الكهربائية، مع ندرته وارتفاع سعره، وغياب معظم شركات صيانة الآلات الطبية والنقص الشديد في قطع التبديل، بقي مشفيا الرازي والجامعة الحكوميان يعملان بطاقتهما القصوى. أما بالنسبة إلى المشافي الخاصة، فقد حافظ مشفى «القديس لويس» المعروف شعبياً باسم «فريشو»، على سويته العالية، واستمر المشفى الطبي العربي بالعمل، وأهم مزاياهما عدم انقطاع الكهرباء فيهما إطلاقاً، رغم الكلفة الهائلة لتشغيل المولدات. واستمرت عدة مشافي خاصة بالتوليد والجراحة النسائية بالعمل، ضمن شروط تقنين الكهرباء إلى حدود تمكين استمرار العمل.

وتأتي المعاناة الثانية للمشافي، بسبب هجرة أعداد كبيرة من الأطباء الثقات، الحاصلين على شهادات دولية عالية، وبرزت فئة جديدة من الأطباء، الذين لم يغادروا المدينة، وانتشرت شهرتهم حديثاً، ولوحظ عدم رفع هؤلاء لأجورهم، نسبة للارتفاعات الكبيرة في الأسعار، وحرص بعضهم على معالجة الفقراء مجاناً. أما بالنسبة إلى معامل الأدوية، فقد أغلق معظمها، بعد تعرضه للنهب أو فرض الأتاوات المنهكة، وعجز أصحابها عن توفير الأمان لعمالها وموظفيها.

يلاحظ ثبات معمل «أوبري» في العمل وعدم رحيل أصحابه، وتشهد الصيدليات افتقاد أعداد كبيرة من أدوية القلب والشرايين وبعض الأمراض المزمنة، وانخفاض فاعلية جرعات الدواء، وبات النقص يعوّض من مصادر غير محلية، مصرية على وجه الخصوص.

تعاني الأحياء من الاكتظاظ السكاني، بعد نزوح أعداد كبيرة للسكن فيها، وبرغم سفر وهجرة أعداد غير قليلة من سكانها، فأغلب البيوت مشغولة بعدة عائلات، يضاف إليها إشغالات المكاتب والأقبية والعيادات الطبية التي غادرها أصحابها. الطلب شديد على الإيجار مع ندرة لبيوت المعروضة، كذلك الإقبال على شراء البيوت والعقارات، رغم تضاعف سعرها عدة مرات، مع ندرة عروض البيع.

طرأ على الأخلاقيات العامة، تغيرات كبيرة وواضحة، وهو أمر متوقع في حالات الحروب والنزوح والفقر. أضحت عروض الدعارة مشهداً مألوفاً في الأماكن العامة، فضلاً عن الحضور العلني للمثليين في الأماكن ذاتها.

الفخ المشتهى
يوميات دمشقية ٢٠١٤

نائلة منصور

مدّرسة، دمشق - سورية.

من سبل مواجهة السيل الجارف، العارم بالانفعالات، المتاحة لك كفرد، عقلنة الأشياء، اجترارها والتنظير لها في داخلك كي تستطيع الحفاظ على الحد الأدنى من الوحدة العقلية والنفسية والجسدية. أن تخاطب نفسك قائلاً «الحياة الإنسانية، تعريفاً، ليست عادلة، ملايين البشر اختبروا قبلنا «محكّات» تاريخية كهذه وبقي منهم ناجون وشهود. لسنا أفضل من الهنود الحمر أو من الأرمن أو من الفلسطينيين أو من الكمبوديين أو أو... سيكون هنالك مخرج. دوام الحال من المحال». ولكن صدقني بعد كل جهود العقل تلك، ومهما كان موقفك، أكنت راصداً محصناً بتسييسك وانخراطك الفعلي بالأحداث، أم إنساناً عادياً مستنفداً وراء لقمة عيشه وأمان عائلته فإنك ستعود إلى قنوط عميق، في الصميم، لأن هذا أكبر من احتمال الفرد الواحد، بكل نزاهة وصدق.

شبح الزمن الهلامي

لم يبق الكثير من الأصدقاء في دمشق، وذهبت لتناول القهوة مع أحدهم. أصبحت مغادرة المنزل والتنقل ومجالسة الأصدقاء طقساً احتفالياً لا نستطيع التمتع به دائماً. في أسرار عن مهنتنا كمدرّسَين، قال لي: «نحن نشبه إلى حد ما مخرج الأفلام الإباحية المتقدم بالعمر ذاك، الذي اعترف في مقابلة صحافية بأنه مازال يخرج أفلاماً رغم تقدم عمره لمتعة مشاهدة الشباب في وضعيات ايروسية لم يعد هو قادراً عليها. نحن، المدرّسين، نشبهه في تسمرنا المراقب للأجيال المتعاقبة شباباً فشباباً أكثر، نتقدم في العمر دون حراك، في مكاننا نفسه، تجعل طزاجة الشباب المارة أمام أعيننا سنة بعد سنة المشهدَ متحركاً من حولنا ونحن ثابتون». لكلامه وقع وغصة أشدّ في هذه الظروف بالذات. نحن سمعان العامودي إذاً، ولكن دون جزاء روحي، والوقت لم يكن يوماً إلا غريماً غدّاراً في هذه الأرض. الوقت هو الأبد الذي سبق آذار\ مارس ٢٠١١ والذي مرّ كرفّة عين، عمرنا رفّة عين.

الوقت هو برهة الخوف والقلق من الاعتقال التي تتطاول دهراً. الدهر المحصور ببرهة، نتوسل فيها قناصاً ألّا ينهينا وننجي فيها قذيفة أن تغير مسارها عن أولادنا أو أن تنهينا دون عطب وتسويف يثقل على أحبتنا ويعقّد حياتهم. والوقت هو شبح الرجاء الهلامي نتوسله للصبر: الشهر المقبل، الاستحقاق المقبل، وقت الانتخابات الأميركية، في خريف العودة للعمل في أوروبا، بعد الانتخابات الإيرانية، قبل الانتخابات التركية، بعد المفاوضات النووية. حتى نصحو في لحظة ونكتشف مفجوعين أن شبح الرجاء خدعنا مرة أخرى وأن نتفة أخرى من أعمارنا دُهست تحت أقدام الزمن. وقد يكون الوقت المهدور عند الحواجز، حواجز المدينة التي

الوقت هو برهة الخوف والقلق من الاعتقال التي تتطاول دهراً. الدهر المحصور ببرهة، نتوسل فيها قناصاً ألّا ينهينا وننجي فيها قذيفة أن تغير مسارها عن أولادنا أو أن تنهينا دون عطب وتسويف يثقل على أحبتنا ويعقّد حياتهم.

تتشوه، هو الصورة الشفيفة المباشرة دون رمزية لعمرنا المدهوس. تلك المسافة في اللامكان واللازمان الممتدة ما يكفي لتذكّرنا بأن حياتنا ذرّات رماد تتطاير من أجسادنا. الانتظار عند الحاجز هو تعلم تجريبي لعلم الاحتمالات، احتمال الاشتباك، احتمال أن تفجر الشمس الحارقة

قريحة الجندي ليقتلنا ثم يقتل نفسه، لو كنتُ مكانه لخطرت لي الفكرة كل ثلاثين ثانية. الحاجز هو نقطة التماس الرقيقة التي لا تتسع لحياة الجندي، إلى أين يتجه بين وجهتي الموت؟

والوقت هو وقت الثورة الذي أخذنا من أنفسنا، من عائلاتنا لنكون بكل أرواحنا فيها ونصحو لنرى أولادنا وقد كبروا ثلاث سنوات ونيفاً دون أن نلتقط لهم صورة واحدة أو نثبت مراحل نموهم في أذهاننا كمقاومة للاستلاب وكملء نفسي يعيش الحاضر بكل كثافته. نصحو لنرى أن أولادنا اعتادوا أصوات الطيران الحربي دون خوف ظاهر بعد أن كانوا يرتعدون منه قبل سنتين، واعتادوا صوت القصف كخلفية صوتية يومية دون ارتكاسة تُذكر، فنُصدم لهول غدر الزمن المتواطئ الصامت. لا شيء أنبأ بقوة، لم يصرخ أحد ليخبرنا، لم يتوقف الزمن ليخطرنا! لا شيء أبداً، كل شيء في هذه القيامة استمر بالدبيب بتؤدة نحو أرواحنا وأرواح أولادنا، لم نكن محصّنين من شيء.

والوقت هو المفاوضات النفسية الممتدة إلى ما لانهاية حول «هل نبقى؟ هل نغادر؟». المغادرة هي إعلان الهزيمة الأخير تجاه ما انحزنا إليه وما التزمنا به، الثورة، هي خيانة لمن عوّل علينا وعلى بقائنا، البقاء الذي نضفي عليه شاعرية وغنائية إضافية بتسميته «صموداً» وهو ليس إلا البقاء في المكان المعتاد وعجزنا عن تغييره والتأقلم مع غيره قسراً. كيف نترك جيل المسنين وحده، أي قسوة وأي خيانة؟ وماذا عن «متلازمة الناجي» التي يتحدث عنها المهجّرون والمنفيون طوعاً وقسراً؟ المتلازمة التي كتبت عنها فادية قبل سنتين وكيف أنها تشلّها تماماً وتعطب كل الأفعال، هل سنحتمل؟ هل نبقى؟ بما يعنيه هذا الفعل من الاستعداد لدفع ثمن الخيار الباهظ؟ ثمن لا ندفعه وحدنا، بل نفرضه على جيل جديد، لا

> استعذبنا البقاء في دمشق للشهادة على التلاشي، وكأن للتلاشي والاندثار متعةً خاصة رغم رعبنا منه، لا علاقة لها بالمازوشية، هي متعة الكشف والتجلي

حول له ولا قوة ولم يختر أن يعيش الحرب. من أصعب الهوامات التي ترعبنا في خيار البقاء، بعد الموت، هي أن نعيش الاندثار والتلاشي والفوات، ترعبنا أمثولة «أهل الكهف»، يرعبنا تعبير «No man's land»، تشلنا فكرة الوحدة ورحيل الجميع قبلنا، ربما هذا ما يدفعنا إلى لوم الذين غادروا، لو بقوا لقوينا. ولكن الخيال الأقسى في احتمال البقاء هو فقد الأولاد.

والوقت هو المسار الذي تغيرنا فيه من ثائرين مفعمين برغبة الفعل والتغيير ولافظين لترسيمة العبودية إلى متعبين، والتعب، بعد معاينة وتجربة، هو الشرط الأول لعودة العبودية، ربما بأشكال أخرى.

امرأة ثمانينية تمشي أمامي، في زواريب الشعلان، بأقدام سكّرية محمّرة متعبة، تدير رأسها مع نسائم نيسان الدمشقية لتتأمل المشهد، المدينة، وكأنها تراها للمرة الأولى أو الأخيرة. فدمشق لا تنتهي غوايتها، شمسها، نسائمها، مطرها. المدينة ليست صاخبة، فارغة تقريباً. أنا هي وهي أنا، أفسّر وأعقلن، لا «أبطّل» تلك العادة السيئة، التنظير، ظناً مني أنها تقاوم الجنون، والجنون مقارنة بها عقل ورزانة وحصانة: «ليست سوى الوظيفة النفسية التعاطفية التي تجعلك تتمثلينها». لا! أنا هي وهي أنا. المدينة المتروكة والبقاء شاهداً يجعل من «بروفايل» العجوز على تخوم عمره أجمل الحالات، تباطؤ الإيقاع فيه غواية مقاومة تسارع الدمار، تضيق الفضاءات المشتهاة، يكفي متر بمتر للعيش النباتي ومراقبة المدينة من بعيد واختصار للحياة الاجتماعية الموّسعة، بعض الطعام وبعض الكتب وبعض الأحبة، أشياء تكفي وبعض اللامبالاة الحزينة الشفافة تجاه المآسي ومشاهد التسول الجديدة على المدينة، ليس اكتئاباً تماماً، هو نوع من الميلانكوليا الشاعرية. ويصبح للموت غوايته، قوة جاذبة مع اختلاجات في الأضلع نحو القذيفة الآتية، مثل الحب الأول والقبلة الأولى حين توجع الأضلع... واستحضار مستمر لمشاهد دفن الأحبة، نوع من «الروداج» النفسي، يشبه تمارين ما قبل الولادة التي لم تفدني بشيء حين جاءت ساعة الحقيقة.

ويصبح إدمان الحرب عميقاً. يشبه تلك الرغبة الطفلية بمشاهدة نهايات المسلسلات، الحلقة الأخيرة ضرورية وإلا فسنشعر بالفوات، يداخل كل ذلك نوع من التعفف عن كل شيء خارج هذا العالم المصغّر. استعذبنا البقاء في دمشق للشهادة على التلاشي، وكأن للتلاشي والاندثار متعةً خاصة رغم رعبنا منه، لا علاقة لها بالمازوشية، هي متعة الكشف والتجلي. ماذا ستعلمنا الأمكنة الأخرى بعد؟ المدن الكبرى الصاخبة والمكتبات الكبرى والديناميات الأخرى؟ نحن هنا عرفنا كل شيء. ثم هناك

متعة البطء واللاتنافس، الناس «المهمون» خرجوا ويمكنك أن تنظر في عيون من بقوا معك لتكتشفهم من جديد دون اعتمالات المدن الطبيعية. هو الفخ المشتهى.

خدمة ما بعد الموت

غريب كيف يتعامل المرء مع كثافة الموت وحضوره! لم يعد الهمّ هو الحزن والفراق بقدر ما أصبح همّاً إجرائياً صرفاً. تروي ريم أنها بعد رحلتها الشاقة المريرة في ممرات قسم الإسعاف في مستشفى المجتهد باتجاه البرادات كي تتعرف على جثة أخيها الذي تلقى رصاصة مجهولة، سُعدت لأن جثمان أخيها كان مكتملاً وليس أشلاءً كحال الجميع في تلك القاعة، وسعدت كيف تيسرت مراسم تشييعه ودفنه سريعاً في اليوم التالي.

حين توفي أبو عبد الرحمن، لم تشأ أم عبد الرحمن أن يُدفن زوجها في مقبرة بعيدة تعرّض أولادها لخطر الحواجز، هم الخارجون من دوما والمولودون في جبل الزاوية، أي أنهم من أصحاب الهويات الخطرة وقد تعرّضوا فعلاً للاعتقال عدة مرات بسبب الهويات لا بسبب نشاطهم المناهض للنظام. داخل المدينة وبعيداً عن تتالي الحواجز لم يجدوا قبراً لأبي عبد الرحمن. مقبرة «باب الصغير» مكتظّة، حتى أن الشواهد التي تحمل «هنا يرقد الضيف الفلاني» تبدو أكثر من الشواهد العادية، ومقبرة الدحداح في وسط دمشق اكتظت وأسعارها خيالية، لا يقدر عليها إلا أغنياء دمشق «داخل السور». تدبّر الشباب، أولاد أبي عبد الرحمن، المفاوضات حتى استطاعوا شراء قبر بسبعمائة ألف ليرة سورية وبمساعدة أصدقائهم.

عائلة أبي عبد الرحمن أوفر حظاً من كثير من العائلات، أوفر حظاً من الفلسطينيين الذين أجبروا على الخروج من مخيم اليرموك وحُرموا بالتالي من مقبرته ولا يحق لهم الدفن في المقابر الدمشقية لأنها تحتاج إلى «الطابو» فاضطروا إلى استئجار أراضٍ للدفن شرط أن ينقل الجثمان بعد مدة إلى مقبرة اليرموك أو الدفن في حدائق المنازل.

ميتات طبيعية، عادية، تحدث في دمشق، إلا أن الموت يأبى أن يكون الراحة الأخيرة، وأحياناً يأبى هذا الموت إلا أن يكلّل كل شيء بتراجيديا تحفر في ذاكرتنا إلى الأبد. هكذا كان موت أبي أسامة، هو الذي لم يغادر دوما في حياته، غادرها في عيد الأضحى من عام ٢٠١٢ بسبب قصف الطيران الشرس. غادرها في عمر الرابعة والثمانين وأقام مع عائلته في إحدى ضواحي دمشق الجنوبية. لم يحتمل فراق مدينته في الغوطة الشرقية ولم يحتمل فراق السوق في دوما، الذي قضى فيه سبعين عاماً ونيفاً تاجراً وحلوانياً، لم يحتمل الفراق وتوفي بعد عام تقريباً، وكان قد أوصى عائلته بأن يُدفن في دوما. إلا أن الحصار كان قد أخذ يضيق حينئذ. بعد مشقّة تمكنت عائلته من تلبية رغبته بمعجزة: غسلوه وكفّنوه وأودعوه سيارة أجرة دون مصاحبته، وحده. لم يقبل السائق بأن يسجّى المتوفى في مركبته، خوفاً من الحواجز، فقد يرغب أحد العناصر بالتأكد من الميت وهويته ومن شهادة الوفاة في الوقت نفسه، حسب نزواته ومزاجه، فركب أبو أسامه السيارة بكفنه سانداً رأسه إلى زجاجها، وبعد المعبر إلى دوما، تسلّم جثمانه الهلال الأحمر التابع لدوما مع باقي عائلته المحاصرة في الداخل ودُفن كما تمنى عند قدمي والده في مدفن العائلة. ما زلت أردد بعد أشهر من رحيل أبو أسامة أنه كان ملحمة «الجسر» الذي يصل، ميتاً، أطراف العائلة المشتتة في طريقه من دمشق إلى دوما.

يوميات، أمزجة ومقاومات صغيرة

الكل من حولي غير راض عن عمره الذي تزامن مع بداية الثورة، لو كنت أكبر! لو كنت أصغر! ولكل واحد طريقته في التعامل مع شرطه الجديد. من الأشياء المرهقة في زمن الحرب تباين ردود أفعال الأشخاص الذين يتشاركون الحياة والمسؤوليات، منهم من يفرد أشرعته للريح في استسلام وعطالة قد تكون منجّية، من يدري؟ ومنهم من يتبعثر في مهمات ومحاولات فعل وتأثير مرهقة، غالباً دون طائل يُذكر وبالتالي تحرق صاحبها. إذا كنا نتحدث عن أزواج فهل يمكن لأي زواج أن يواجه محكّاً أصعب مما نعيشه؟ البعض يغالي في رغبته بالتواصل والبعض يفرط في انطوائه وانعزاله.

كانون. صقيع. أستدعي كل الصور والخيالات والأفلام والذاكرة المتوارثة عن الموت برداً. عن الراهب الروسي الذي كان أبي يروي قصته، المسافر من غابات روسيا إلى أديرة المشرق الأرثوذكسية ليموت في صباح ثلجي ممدداً بسكينة وفي يده إنجيله فوق ندف الثلج. هل يتألم المحتضر برداً؟ أتذكر فيلماً يظهر أن البرد يجعل النعاس يدبّ في أوصال البردان وأطرافه فيموت بعد أن ينام. أتخفف لحين من الشعور بالذنب تجاه آلاف من السوريين المشردين دون مأوى وأكمل نهاراً آخر.

طبيب آخر غادر. يبدو أنه لم يبق في دمشق إلا عليا. هل عليا مهووسة بموسوعة غينيس للأرقام

القياسية؟ تريد أن تسجل اسمها كآلة فاحصة خارقة لآلاف الأطفال خلال ثلاث سنوات؟ اليوم ذكّرتني قائلة بأنها طبيب رواية «الطاعون» لألبير كامو الذي أراد في النهاية أن يمرض. هاجس عليا الطاعوني اليوم هو الجرب، الجرب المنتشر بسبب كثرة الاعتقالات والتهجير والنزوح وتعايش الأعداد الكبيرة في مساحات ضيّقة. تعود لبيتها كل يوم تغتسل (إن توفرت الكهرباء) وتحاول كل يوم شحذ همتها والاستيقاظ صباحاً لمقاومة الجرب وأمراض القرون الوسطى التي تجتاح البلد. عليا التي تكره جملة «it's too late» في الأفلام الأميركية، تسابق الريح كي لا تتأخر على أحد. ومع ذلك فشعور العجز لا يفارقها. في الخلفية البيضاء لعملها الجبّار أطفال يُذبحون في النبك،ومدنيون يعتقلون وحواجز حليقي الرؤوس، النازيون الجدد المنتشرون في مدينتي السمر بلحى كثة وجماجم حليقة.

عيد الفطر ثم عيد الأضحى ثم الربيع، المواسم تتعاقب والنساء مصرّات على وضع نقاط علّام موسمية تشير إلى بقايا حياة طبيعية دون كلل أو ملل، وبعناد ينكر نكراناً مطلقاً تدنّي القدرة الشرائية بشكل كارثي. جولة في أسواق الأطعمة قبيل العيد تجعلك تدرك أن ميشيل دي سيرتو كتب كتابه «المقاومة في الحياة اليومية» في أسواق دمشق. تطلب السيدة من بائع البهارات والقلوبات وزناً من الصنوبر لا تدركه الموازين المستخدمة، يحتاج إلى ميزان مخبري. تقول له «أريد بـ٥٠ ليرة صنوبراً لكبة العيد». حقاً ما أهمية كل ذلك بالنسبة لها أمام كل هذا الموت؟

عيد الفطر ثم عيد الأضحى ثم الربيع، المواسم تتعاقب والنساء مصرّات على وضع نقاط علّام موسمية تشير إلى بقايا حياة طبيعية دون كلل أو ملل،وبعناد ينكر نكراناً مطلقاً تدنّي القدرة الشرائية بشكل كارثي

دمار هائل عند مدخل برزة وفي طريقنا جنوباً إلى القابون عبر حي تشرين، استطعنا الدخول بعد الهدنة، طوال الطريق سؤالان ظلا ينخران رأسي: «كيف يمكن لكائنات بشرية أن تعيش في عشوائيات مثل حي تشرين؟» و«كيف عاد الناس رغم كل حجم الدمار هذا؟»، في وسط كل ذلك يحاول محمد أن يعلّم أطفال برزة والقابون ويحاول أن يفرض معايير جودة لتعليمه... وسط الدمار والعشوائيات الرمادية.

المواطِنة «لغة»

عجيب أمر اللغة، هي الوحيدة التي لا تموت. مهما قُمعت، تظل تظهر بألف لبوس ولبوس، تبقى قادرة على سلك كل المسارب، تعلن الهويات والانتماءات والمواقف مهما تستّر صاحبها، لكن الأغرب أنها في أحيان كثيرة، تسبق الجماعات في إعلان بعض الإجماعات غير المدركة بشكل واعٍ، هناك حس عام مشترك يتظاهر أولاً في اللغة. من منّا لا يذكر شيفرة انطلاق المظاهرات في الجوامع في بداية الثورة، التي كان يتحدث عنها الشباب؟ قبل ثلاث سنوات، قبل قرن؟ «فرعون» كانت الكلمة الشيفرة وكان الشباب يتهيأون بالتالي لخروج المظاهرة.

كنّا نعرف إن كان مخاطبنا موضع ثقة أم لا، رمادي التوجه أم لا،من نوع العبارات: «الله يفرّج»، «الأحداث»/ «الأوضاع» أو «الثورة». وكيف تراوحت التوصيفات الأكثر رواجاً في الشارع عند الناس العاديين من «ثورة» لـ«أزمة» و«أحداث» بحسب الزمن الذي مرّ وتغيير موازين القوى.

وكيف يمكن لصوت/حرف في اللغة أن يكتنز كل تلك الدلالات والشحنات؟ أصوات الإمالة الحمصية المتناوبة حيث «الايه» الشامية تُقلب واواً و«الياء» تُقلب «ايه» أو «واواً»، أصبح لتلك الصائتات بعدٌ آخر، بطاقة هوية جديدة تيسّر أمر حاملها أو تقتله، حسب المتلقّي. والأصوات دقيقة، تذهب بعيداً في تلاوينها لتمايز المدينة والريف والساحل والشمال والجنوب. كثيرون ذكروا أن بعض عناصر الحواجز كانوا يتحصّنون بلهجة الساحل لتقوية تمثلهم للسلطة رغم انتمائهم لمناطق بعيدة جداً عن الساحل. وكنّا نتندر بحكايات حاجز «البندورة» التي حدثت خلال الحرب الأهلية اللبنانية! لم نكن نعي أن لا هزل في بطش الأصوات والحروف.

عند الهجوم العسكري على منطقة من المناطق، كان يمكن تمييز موقف الراوي للحدث من تعبير بسيط. إن قال: «جوبر عم تاكل قتل» فهو أقرب إلى الثورة، وإن قال «عم يطهروا جوبر» فهو مؤيد، إذ التطهير من التأييد. وغريب إجماع البيئات الأكثر هشاشة وتأثراً بالدمار العمراني على أن الموضوع (موضوع الثورة ومكافحتها) لا يتعدى مخططاً عمرانياً يريد إتاحة الاستثمار العقاري لشركات إيرانية وروسية وصينية مما يتطلب، كمقدمة، نسف كل

عشوائيات المدن ومساكنها الشعبية، أي ما نسبته أربعون في المئة من مجمل عمران دمشق وريفها على سبيل المثال. مع أن مرويات الناس عن العمران ليست محض أساطير ولكن يبقى الغريب هو مصدر معلوماتهم. وكأن اللغة صاغت بشكل غير واع ما عجزوا في وعيهم عن فهمه وتقبله، أن تنسف حياتهم بهذه البربرية. دفاع نفس جمعي لعقلنة الأشياء تظهره السرديات. وفي استباقها لوعي الناس وتأقلمهم مع طفرات الأحداث وتغيرها السريع قد تبلغ اللغة أدراكاً من التواطؤ لا يمكن تحمله كأن تُخط لافتة ضمن الحملة «الانتخابية» الأخيرة باسم أهل الشام تقول «رح نكمل معك»!

أحياناً أتساءل ولكن هل لغة النظام مقموعة كذلك، تكبح مضامين أقسى مما تظهر؟ تتظاهر بوحشية تبدو أقرب إلى العفوية وعدم الإدراك، مع مرور الوقت تبيّن لنا الأيام أنها عميقة ومدركة وتبحث عن شرعنتها بإلحاح التكرار وفجاجة السلطة. هذا ما تقوله عبارات الحواجز والعبارات المتروكة على العمارات المدّمرة: «صغيرة يا كبير»، «حاربوك ونسيوا مين أبوك»، «الأسد أو لا أحد»، «الأسد أو نحرق البلد»، «اخترتم حرية التعبير واخترنا حرية التدمير»، «لا ترحمونا لأننا لن نرحم أحد»، «نحن لا نهاجم ولكننا نصبح وحوشاً ضارية إن هوجمنا»، «يريدون رحيلك ولا نرضى بديلك». ظهرت على قناة سما من فترة عبارة «دوما سرطان سوريا ويجب استئصال هذا الورم».

وقد يبلغ تساكن اللغتين، لغة النظام المشرعنة ولغة الإجماع الشعبية البدئية حداً بليغاً وطريفاً. في خريف ٢٠١٣، كان هناك لافتتان متقابلتان عند حاجز منطقة البحصة، بالقرب من سوق القرماني القديم، عند الحاجز كانت هناك لافتة تحض الشباب على عدم التهرب من الخدمة الإلزامية: «جيشك شرفك»، وفي الجهة المقابلة، كان هناك إعلان ضخم جداً عن معهد للدراسات السياحية يختتم إعلانه بعبارة «تأجيل الجيش مضمون» في إشارة إلى أن التسجيل في المعهد يتيح فرصة تأجيل الالتحاق بالجيش سنة دراسية كاملة. وليس بعيداً عن هاتين اللافتتين، كان هناك إعلان عن دورات لغة ألمانية بعنوان «دورات لم شمل ألماني» أي أن مضمون دورة اللغة يركز على اللغة الضرورية للمتقدم بطلب لم شمل مع أقربائه في ألمانيا.

والشرعنة والمأسسة في لغة النظام تتجلى هزلاً في إصدار وزارة الأوقاف كتاب «فقه الأزمة»، وفي لافتات حملة «سوا» الأخيرة، أن نجعل لـ«الأزمة» «فقهاً» هو تأطير وتحديد «على البارد» كما نقول في الدارجة، محاكاة لنظرة استرجاعية تشرعن الإحساس بالنصر. بغض النظر عن أن النصر واهم عملياً.

في لوحات إعلانية أكثر شاعرية انتشرت في دمشق، نرى بدوي الجبل يناجي دمشق، واقتباسات للشهيد رمضان البوطي يحثّ فيها على عدم الانزلاق نحو الفتنة، والالتزام بحيض الوطن.

على مستوى إنساني أبسط، تتكشف لعبة السلطة الطائفية في الأغنيات الشعبية التي نسمعها في الأوساط القريبة من النظام في سيارات الأجرة التي يمتلكها رجال أمن، من لطميات شيعية إلى حفلات خاصة مسجّلة تطول مقدمات الترحيب فيها لتشمل كل الإشارات إلى الطائفة العلوية.

تتكشف لعبة السلطة الطائفية في الأغنيات الشعبية التي نسمعها في الأوساط القريبة من النظام في سيارات الأجرة التي يمتلكها رجال أمن، من لطميات شيعية إلى حفلات خاصة مسجّلة تطول مقدمات الترحيب فيها لتشمل كل الإشارات إلى الطائفة العلوية

إحدى الأغنيات تبدأ بترحيب بالضيوف الحاضرين من نوع: «علوي بإذن الله»، «حيّوا شباب الزهرا»، «حيّوا المرقب العلوي»، «حيوا سيدنا سيد المقاومة حسن نصر الله وجيل محسن، وبشارنا بشار العرب»، «ايوه ايوه يا كرّار يا كرار يا حيدرة».

حواجز وهويّات وحدود

مذاهب وطوائف وملل وعشائر ومناطق وقوميات وفوق ذلك «شتات» و«داخل» و«داخل الداخل»، «محرر» و«نظامي». أتساءل أحياناً ونحن نكرر تجربة الفلسطينيين إلى حد ما، كيف تحمّلوا؟ «متشائلو» (اميل حبيبي) دمشق العاصمة، دمشق المربع الأمني مازالوا في مناطق النظام يعملون دون توقف على تحديد ماهيتهم و«زنوجتهم» دون جدوى. من هم؟ هم الضامن البشري لمربع النظام ورافعه الديمغرافي والاقتصادي؟ هم أعداء الغوطة الشرقية؟ يتساءلون ألف مرة في اليوم عن مكانهم الصحيح، ينتقلون

إلى الداخل المحرر حيث نجح النظام بتحويله إلى مكان صعب العيش وأحياناً شبه مستحيل، أم يمكثون حيث ولدوا وتربوا أم يهاجرون لبناء ذاكرة جديدة؟ في النهاية يبقون حبيسين في زنوجتهم ضمن هوامش تحددها الدشم الإسمنتية والحواجز وقذائف الهاون وديسبيلات القصف. أصبحنا نقرأ ما يكتب أصدقاؤنا في مخيّم اليرموك مثل عشّاق وجلين لا نجرؤ على التفاعل. التفاعل أصبح ضرباً من النفاق، فنحن في كبسولة فضائية منفصلة عنهم نرى بعضنا من خلال الزجاج الكتيم، فقط. هناك كبسولة للمحاصرين الجائعين في تجربتهم الداروينية الفريدة، وكبسولة للواقعين تحت قوات النظام مثلنا، وكبسولة للمحررين والمحتلين من داعش. وجملاً حياتية متوازية كهذه، كلها معاناة ولا تستطيع التقاطع.

إذا تناسينا التساؤلات الوجودية، تذكّرنا الحواجز في كل لحظة أننا لا نشبه بعضنا، هناك خانات تعرض صاحبها للاعتقال فوراً وتعسفياً، وهناك خانات قاتلة، وهناك خانات يسهل قتلها تحت التعذيب وخانات أرحم. هناك أناس جائعون وهناك أناس يقيمون أعراساً في فنادق وهناك أم أحمد التي فقدت ابنها تحت التعذيب وابنتها وحفيدين وصهراً في قذيفة هاون ومازالت تقول «الحمد لله، استفقاده الله رحمة»، هل يمكننا أن نلتقي كلنا في مكان ما؟ غير الموت العميم العادل؟

لم أكن أفهم خالي تماماً حين كان يقول «نحن جيل الهزيمة»، خالي الذي ترك امتحانات البكالوريا في ١٩٦٧ ليتدرب على السلاح ويدخل تل أبيب محرراً، حسب روايته. لم أكن أفهم عاطفياً ماذا يقصد لأن الأمر لا يعنيني ولا يعني جيلي، تعبير «جيل الهزيمة» كان جزءاً من عدّة، حاولنا تملّكها لاحقاً لدخول عالم الكبار المثقفين وكانت تترافق غالباً مع قراءة سريعة في «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» لسعد الله ونّوس. وفقط! هذا كل شيء.

اليوم أصبح لي «هزيمتي»، ولكنها مختلفة. فيها الكثير من السكينة والهدوء، نعم. هزيمة أن أشهد على كل هذا الموت ومن بين أنواعه الموت تحت التعذيب. الموت تحت التعذيب وأنا عاجزة تماماً. حزن مهول ولكن السكينة عميقة جداً لأن هزيمتنا ملموسة ومعاشة وحقيقية، هي سكينة «هكذا هي أمور الكون فتتدبروا»، راحة من تمثل تجربة كونية في الإنسان لا يهم بعدها إذا غادر أو أرجأ رحيله متقاسماً الموت مع من بقي. بعد هذا الضرب من الهزائم الحقيقية سيكون هناك بدايات جديدة. متأكدة.



من يوميات سكان «المربّع الآمن»

سلمى سالم

موظفة في شركة خاصة، دمشق، سورية

وصلت للتو إلى منزلي الكائن في قلب دمشق، فتحت الباب فاجتاحني شعور بالانفراج نسيت معه كل الارهاق والتعب. كنت اشبه بالعائد من الموت. بدأت بخلع ملابسي في الممر، ثم غرفة الجلوس، وصولا إلى غرفة النوم. عندما شرعت بفك حمالة الصدر التي التصقت بجسدي، نظرت إلى المرآة، كانت قد تركت أثرا محمّراً على أكتافي وأخماجاً خفيفة عند الابط من الخلف. تعجبت من قدرتي على تحملها ساعات طويلة. توجهت الى الحمام لأزيل آثار الانتظار المضني على الحواجز التي عبرتها في شوارع دمشق اليوم.

الساعة تشير الى السابعة مساء. خرجت في الساعة السابعة صباحا، اثنتا عشرة ساعة اغتصبَ منها الانتظار عند الحواجز خمس ساعات على الأقل. هذه المعاناة، ألم تعتادي عليها؟! سألت نفسي هازئة من تفاهة معاناة كانت طفيفة، غير الجديرة بالذكر، تماماً مثل آثار حمالة الصدر على جسدي التي أزعجتني بألم لا يستحق الذكر، بالمقارنة مع مأساتنا السورية. من المعيب الشكوى، ولو في مونولوج ذاتي من تبدّد اعمارنا على وقع الانتظار والتوتر المتواصل والخوف من كل شيء، وعلى كل شيء.

أنا من سكان المربعات الآمنة في قلب دمشق المزروع بغابات من رجال الأمن والعسكر المدججين بالسلاح. أنعم مع سكان منطقتي برغد التحرك والتسوّق وسط محمية عسكرية، لذا لا نملك حق الحديث عن المعاناة! الكارثة الوطنية تصادر الهمّ الشخصي، وتقذفه خارج تصنيف الوجع.

تعريف السوري السعيد

في سورية إن لم يفقد المرء كل ما يملك، وعدداً من افراد عائلته بين القصف والمعتقلات، لا تصنّف حالته في خانة الفجيعة، وفق معايير الحرب المفتوحة. السوري «السعيد» هو من فقد منزله وتمكن من دفع ايجار مأوى، والأكثر سعادة من حصل على لقمة عيشه دون اذلال، ولم يعد في عداد المحاصرين الذين يموتون جوعا على بعد كيلومترات قليلة من قلب العاصمة! وهو سعيد ومحظوظ ايضا، لأنه ليس بمتناول البراميل المتفجرة، وحمم المدفعيات وراجمات الصواريخ، وتكتمل سعادته اذا حالفته عناية إلهية ونجا من تغييب قسري، أو من الموت تحت التعذيب.

عدا عن هذا، لا ألم ولا معاناة، إذ أن الشقاء اليومي المحفوف بالمخاطر ليس سوى تنويع مترف على الفجيعة الكبرى، بالإمكان التعايش مع الخوف، بالصبر والتمرن اليومي على التبلّد، والسيطرة على ردود الفعل اللاإرادي، وتحييد تعابير الوجه ليبدو كتمثال شمع في غرفة جليد، حتى لو كانت حرارة الاحداث تصهرنا بنيرانها. هذا التمرين مفيد ومجرّب لاجتياز الحواجز وتحمّل تصرفات الجنود سواء الغاضبة أو المرحة والعابثة. بل ان تبلد الاحساس ضرورة لتحمل ما تفصح عنه مدوّنات العسكر على جدران المدينة، من جمل تتناسل من مقولتهم الأكثر انتشارا «الأسد أو نحرق البلد». وربما تمكن أيضا من مداراة شعور بالرعب من منظر حافلة بيضاء مركونة في الحي، وقد كتب عليها رجال الأسد بخط اليد «وحوش أمن الدولة. وحدة مكافحة الإرهاب. ٢٩٥. الاسد وسنحرق البلد» والى جانبها قلب اصابه سهم كيوبيد «حب الأسد أو لا أحد» بالطبع.

ولأجل هذا الحب القاتل كلما رأيت هكذا مشهد أحاول منع قلبي من الخفقان بسرعة الضوء، لأبدد الذعر من حملة اعتقالات بدأها للتو وحوش أمن الدولة في البناء الذي أسكنه. فمن يستطيع التكهن بالأقدار؟ ربما

كنت محظوظة واقتصر الأمر على تفتيش المنزل وقلب عاليه سافله، لكن الأمر ليس بهذه البساطة، إذا لم يكن هدف الحملة البحث عن مشتبه بهم وإنما طرد النازحين من البيوت المستأجرة في قلب العاصمة، فكل نازح مشتبه فيه حتى يثبت العكس، فهؤلاء لا يستحقون التمتع بنعمة الأمن والأمان في المربعات الخضراء.

قال لي جاري الشبّيح

قبل الاستسلام للرعب، عليّ البحث عن وسائل لإقناع رجال الأمن بأنني مواطنة صالحة مؤمنة بأن «سورية هي الأسد والأسد هو سورية» اقنومان متساويان في الجوهر. فإذا تمكنت من اقناعهم، يمكنني البقاء في قلب دمشق المسوّر بالعسكر، لأتحول الى كائن يهزّ رأسه ايجابا وإعجابا لكل وبكل ما يفعله ويقوله الوحوش، حتى لو كان أمراً بالإعدام!

قبل أيام، قال لي جاري الشبيح إن اغتصاب نساء «الارهابيين» وسط الشارع العام حلال، لأنهم كلاب ضارية! كان عليّ أن اهز رأسي أي نعم، الا أن انتمائي لبلدة لم يبق فيها حجر على حجر، عَبَث العسكر بأخص اشياء عائلتي وشردوا اخوتي، وجدت نفسي افتي بأن «جهادنا الأكبر في الحرب ألا نتوحش».

مضيت وانا على يقين بأنه لن يرحمني من وشايته، سيبلغ عني أقرب فرع أمن، لأني لم ابصم له بالعشرة، ولم أزايد على وحشيته، وأحلل تقطيع اجساد نساء الثوار ورميها للكلاب والقطط.

يلاحقني قلق قاتل، كلما سمعت وقع خطوات ثقيلة على الدرج، أو طرق بابي عابرُ سبيل، أو شحاذ انقطع رزقه في الشارع، فراح يطلبه من المنازل، او عصابة وجدت في أجواء الحرب بابا للاسترزاق، او جار عجوز يطلب المساعدة للعثور على غرض لا يعرف كيف سقط منه. هؤلاء وغيرهم يطرقون الأبواب، ويرفعون القلق الى الدرجة القصوى، من احتمال ان يداهمنا منتعلو البساطير «حماة الديار». في لحظة مباغتة تُعقَد اللسان وتستباح فيها الخصوصية. دقائق كأنها دهور لا تحسب من عمر الزمن، تنشط فيها الذاكرة عما اذا تم اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة استعداد لهذه اللحظة، وتبدأ مساءلة الذات: هل كانت آخر قناة رأيتها أمس التلفزيون الرسمي؟ ربما شغلوه واكتشفوا اني كنت اتابع احدى القنوات المغرضة. هل مسحت سجل التصفح في اللاب توب والموبايل وسجلات الدردشة التافهة وغير التافهة؟ ربما فتشوها. ماذا اقول اذا وجدوا بين اصدقائي أحد المغضوب عليهم؟ فعلوها كثيرا واعتقلوا اشخاصا اعرفهم، كان لهم أصدقاء ثوار، ونالوا من الضرب والرفس ما أنساهم حليب امهاتهم. لا لشيء فقط كي يبرروا سرقتهم لموبايل او لاب توب اعجبهم!! إذلال كفيل بجعلي أموت قلقا. شعور ينتاب كل من يعلن موقفا رافضا للقتل.

فقط في سورية من يرفض القتل يقتل، او يعتقل. قمة العبث.

لن اغادر

ما سلف ليس سوى تداعي لحظي لأفكار يهذي بها سكان المربعات الخضراء من ثلاث سنوات تقريبا، وأهذي أنا أيضا بها بلا كلل أو ملل. اصبحتُ جزءاً من تفكيري، القي جسدي على الكنبة لأشرب القهوة وارتاح من عناء يوم طويل بانتظار زيارة جارتي العصبية. والتي افتتحت الحديث معي بالسؤال: هل ستأخذين اللوحات والكتب معك عندما تغادرين؟

استفزتني ثقتها، وكأن مغادرتي أمر مفروغ منه. أجبت بنبرة تأنيب واستنكار: كم مرة قلت لك طالما قادرة على التحمّل سأبقى هنا، لن أغادر! الأدق لا ادري، قد تأتي لحظة أغادر فجأة بالملابس التي عليّ فقط، تماما كما غادر أهلي قبل عامين من مدينتنا الصغيرة المشتعلة.

- «وهل ستبقين الى تلك اللحظة؟».

- «ليس لدي خيار آخر. البقاء هنا وسيلتي الأخيرة للدفاع عن وجودي وانسانيتي، لدي حق بحفنة من تراب وطني يدفن فيها جسدي. بل أن يزرع هنا. حقوقي كلها انتهكت ولم يتبق لي سوى حق الموت هنا، لن اغادر الى بلاد ليست لي ولا لأحد من اجدادي فضل في بنائها. قيمتي الحقيقية هنا».

بادرتني بنظرة مستخفة وانفجرت تصرخ في وجهي: «عن اي قيمة تتحدثين؟ أهم شخص في هذا البلد ثمنه رصاصة، بإمكان اي مجنون مسلّح، أن ينتزع روحك من دون سبب، وبإمكان متخلف متوحش ان يفرم جسدك، دون أن يرف للعالم جفن، القيمة العليا في هذه البلاد للسلاح والنار. خمسون الف صورة لأحد عشر ألف معتقل قضوا تحت التعذيب لم تهز ضمير العالم، أكثر من مائتي الف قتيل، ملايين المشردين، أهلك من ضمنهم ولم يتحرك احد في العالم لوقف المجزرة، الكل يريدها

أن تستمر، هذه الأرض بركان يقذف حممه ويحرقنا من ثلاث سنوات، وطننا ارض براكين لا يسكنها أحياء».

واصلت صراخها واستنكارها وواصلت الاستماع دون أن اغير قناعتي رغم اقراراي بصحة كل ما قالته. المفارقة كانت عندما سألتها بعدما هدأت: هل أفهم منك انك ستغادرين. فردت بلهجة قاطعة :لا! لا أعرف، لا اتخيل نفسي خارج دمشق!

في حياكة الامل

اضحكتني اجابتها وتخيلت أني أنا التي ادافع بشراسة واصرار عن بقائي هنا قد أغادر صباح اليوم التالي! لا منطق يحكم افكار وتصرفات سكان المربعات الخضراء اليابسة. حالة من الشيزوفرينا أصابت الجميع، لم يعد أحد يعرف ما يريد، في لحظة يتوقف فيها الزمن وتنعدم الآمال بغد افضل، الغد الذي أصبح من يوم لآخر يزداد سوءاً.

> هذه الأرض بركان يقذف حممه ويحرقنا من ثلاث سنوات، وطننا ارض براكين لا يسكنها أحياء.

من ثلاث سنوات النقاشات ذاتها تتكرر وكل يتخندق وراء متاريسه، لا يريد التقارب مع الآخر الذي يشبهه حد التطابق، وان اختلفت الألوان. ولكن علينا أن ننظر ابعد من الغد ونعيد حياكة الأمل، والتأكيد للذات أن ما جرى في سورية ثورة حقيقية، لا بد منها، ولا مهرب، انه منطق التاريخ، وما نعيشه ليس سوى مخاض عسير قد يطول كثيرا لولادة الوطن الحلم، الثورة لم تنهزم، وان تلاشت في خضم الفوضى. انتصرت في اليوم الأول الذي كتب فيه اطفال درعا على الجدران، فليسقط النظام. كانوا ضمير المعذبين والمضطهدين، وكل ما اتى لاحقا من دماء ليس سوى تفاصيل، لن يذكر التاريخ سوى عناوينها العريضة.

هدير قذيفة تنطلق من مدفع على كتف جبل قاسيون تعبر من فوق راسي لتسقط جنوب دمشق، تقطع تسلسل افكاري واصحو مجددا على واقع أني الآن هنا داخل المربع الأخضر. وهناك على أطرافه، مواطنو بلدي ينزحون مثخنين بجراحهم، او يموتون تحت الانقاض، اتذكر مقولة شعبية: «من يأكل العصي ليس كمن يعدّها». ثلاث سنوات ونحن نعد التفجيرات والقذائف والبراميل والشهداء حتى صرنا كموظفي الامم المتحدة عاجزين عن العد، ولم تعد تعنينا القذائف التي تنطلق من سفح قاسيون لتصب حممها على بيوت اهلنا، ولم يعد بالشيء الذي يذكر سقوط قذائف هاون، او صواريخ محلية الصنع داخل المربعات الخضراء. لا يهمنا أن قتلتنا، أم لم تقتلنا، فلا أحد يموت ناقص عمر، الاعمار بيد الله وحده. نقولها بكل اطمئنان، دون ان نشغل بالنا، بينما نتأهب ونستنفر كل الطاقة التخيلية، في حال سمعنا صوت رصاصة واحدة تمزق سكينة المساء، فهذا امر غير عادي، فقد تكون اشتباكات او ملاحقة لمشتبه فيه، جميعها احتمالات تنذر بتفجر الاوضاع في المربع الأخضر. فتتداعى مع الاحتمالات صور من ذاكرتي الطرية للاشتباكات في بلدتي، والتنقل زحفا بين غرف المنزل هربا من منظار قناص لا يخيب، وتدخل القدر لحظة مرور رصاصة بجانب الرأس، والحصار وافتقاد الكهرباء والماء والغذاء ودمار المنازل والمدارس، وكل تاريخ الموت. لا ينقذني من تلك التداعيات سوى التنبه الى أني الآن هنا في المربع الأمني الآمن. حيث لا يطلق الرصاص الا للتعبير عن ارتفاع معنويات أرباب الحواجز بعد «نصر إلهي»، او تصريح «قائد عظيم».

أوجاع حمّالة الصدر

كل الأفكار تخطر في ثوان، اتنبه بعدها إلى الدماء تصعد ساخنة الى رأسي، فتصدّعه. أحاول العودة لممارسة أعمالي اليومية، اتواصل مع صديق طفولة اهنئه بسلامة وصوله مع عائلته الى مكان نزوحهم الرابع، فيأخذنا الحديث الى ذكرى حدائق منزل عائلته الواسع الذي دمر بالكامل، وقبل أن ينهمر الدمع سخيا، يخبرني بانه يعيش مع عشرين شخصا من عائلته في بيت طيني مؤلف من غرفتين وآيل للسقوط. أسعى لتغيير الحديث الكئيب وأسأله عن اطفاله وبالأخص المصاب بإعاقة دماغية، فيضحك بأن طفله ذو السبع سنوات يعيش أفضل ايامه لأننا جميعا اصبحنا مثله، اشاركه الضحك قبل أن نعود لنغرق مجددا بالبكاء.

ينتهي يومي بهذه النكتة السوداء. أتحسس موضع الألم الذي سببته حمالة الصدر لكتفي وظهري، وافكر كيف سأرتديها مجددا في اليوم التالي، احسب عدد الحواجز، والوقت اللازم لأقطعها ذهابا وايابا لأحصل على لقمة عيشي في المربع الآمن جداً المزروع بالقلق والمدفعيات.

أزمة اللاجئين وتشرذم سورية

عمر ضاحي

أستاذ الاقتصاد في كلية هاميشير في الولايات المتحدة

«إنّها أسوأ كارثة حصلت منذ انتهاء الحرب الباردة، كما أن حضارتها في حالة انهيار». هذا ما أعلنه المفوض السامي لشؤون اللاجئين السيد أنطونيو غوتيريز في حزيران/يونيو من العام ٢٠١٣. هكذا وصف الوضع في سورية. لم يكن ما قاله غوتيريز من قبيل التضخيم للحصول على معونة دولية أفضل، فإذا استعرضنا الوقائع التالية نجد أنه أكثر من محق. مليونان ونصف مليون لاجئ مسجلون لدى مفوضية اللاجئين خارج الحدود السورية، ملايين مجهولة العدد مشردة داخلياً، عشرة ملايين انسان بدأوا يصلون إلى حافة الفقر المدقع وهم بحاجة ماسّة الى كل شيء، بمعنى ان نصف سكان سورية تماما هم في المعاناة القصوى. طبعاً هذا عدا عدد القتلى الذي بلغ اكثر من١٦٠٠٠٠ من جميع اطراف النزاع. اما عدد المفقودين فغير معروف، وكثر يموتون بسبب الأمراض المزمنة لعدم توفر العلاج، او بسبب تدمير البنية الصحية التحتية.

غالباً ما يجري التعامل مع الصراع العسكري داخل سورية والمفاوضات السياسية بين الحكومة والثوار وحلفاء كل منهما من جهة، وأزمة اللاجئين من جهة أخرى، كقضايا منفصلة، وذلك لمجرد كون الثانية (أي قضية اللاجئين) النتيجة المأساوية للأزمة داخل البلاد. لكن في الحقيقة فإنّ قضية اللاجئين ليست منفصلة عن السياسة. كما أنّ رحلة اللاجئين وتجربة التشرّد والحلول طويلة الأمد لأزمة اللاجئين، من المرجّح أن تُعيد رسم الخريطة السياسية لسورية وللمنطقة كلها. ويجعل عددٌ من العوامل أزمة اللاجئين السوريين المتنامية شاقةً على نحو خاص.

تعقيدات أزمة اللجوء

أولاً، يشكل النزوح جزءاً من صراع أهلي شرس، خلّف دماراً هائلاً. بالتالي، تصبح العودة السريعة إلى الوطن غير واقعية، تماماً كما الانتظار حتى «انتهاء النزاع» لمناقشة مشاكل اللاجئين على المدى الطويل. إذ إنّ حشود اللاجئين والنازحين داخلياً تتطلّب مساعدة إنسانية واسعة النطاق وآنية لتلبية الحاجات الأساسية.

ثانياً، ثمة أعداد ضخمة من اللاجئين في خمسة بلدان على الأقل، أي مصر والأردن ولبنان والعراق وتركيا، الأمر الذي يدعو إلى ضرورة بذل جهد واسع النطاق، ومنسّق دولياً، بغية التوصّل إلى حلول دائمة. إذ إنّ أيّاً من هذه البلدان المضيفة ليس متلهّفاً لمنح السوريين إقامة دائمة، والعديد منها تعهّد تكراراً بألا يفعل ذلك. وتختلف أحوال اللاجئين باختلاف الدول المضيفة أو حتى باختلاف المناطق داخل الدولة المضيفة الواحدة. على سبيل المثال، يتمتع اللاجئون السوريون في مخيم الزعتري في الاردن بإقامة وطبابة وتعليم مجاني، على عكس اللاجئين المتواجدين خارج المخيمات، وتحديداً في عمان وأربد. إلا أنّ ذلك يأتي على حساب أمور أخرى، فقسوة المناخ والتضييق الأمني على اللاجئين تجعل الزعتري سجناً اكثر منه مخيماً للاجئين، والواقع أنّ أغلبية اللاجئين السوريين المتواجدين في المدن الأردنية قد رحلوا من الزعتري لعدم قدرتهم على تحمل عناء المعيشة بداخله.

ثالثاً، تحدث عملية النزوح بموازاة اضطرابات إقليمية، حيث بعض بلدان المقصد، إما يُعَدّ أيضاً من المشاركين الفاعلين في الأزمة السورية، وإما يخوض نزاعاً أهلياً خاصاً به، الأمر الذي يجعل وضع اللاجئين السوريين حرجاً. وأفضل دليل على ذلك هو التغيير الجذري الذي طرأ على معاملة اللاجئين السوريين في مصر بعد الانقلاب الذي أطاح محمد مرسي ورافقته حملة هستيرية عنصرية ضد الفلسطينيين والسوريين.

رابعاً، لا تنفصل حالة اللاجئين عن مسائل السياسة،

بما في ذلك التطييف المتنامي للنزاع السوري ونظرة المنطقة إلى هذه الحرب. والواقع أن هروب اللاجئين تحديداً هو أحد العوامل الرئيسة المؤدّية إلى توسّع النزاع خارج الحدود، إذ إنّ النازحين هم مؤشّرات إنسانية على قدرة النزاع السوري على إعادة رسم خريطة المنطقة، خصوصاً إذا لم تضمن عملية إعادة الإعمار عودتهم الى ديارهم.

خامساً، يجد اللاجئون السوريون أنفسهم عند نقطة تقاطع أنواع مختلفة من الهجرة القسرية، تشمل الترحيل بسبب الحرب، والتوترات الإثنية أو الدينية، إضافة إلى تدهور الحياة الاقتصادية والبيئية، إذ إنّ السوريين في البلدان المجاورة هم إما لاجئون أو مهاجرون شرعيون أو عمّال زوّار، وإما مهاجرون غير شرعيين. أخيراً، ثمة لاجئون يتواجدون في مخيمات رسمية أو غير رسمية، على طول الحدود وفي المناطق المدنية الكبيرة، ولاجئون ينتشرون بين السكان المحليين، وذلك حتى في بلدان مثل تركيا حيث كانت الاستعدادات لاستقبالهم أكبر. والحال أنه تصعب حتى مهمة إحصاء أعداد النازحين.

الحالة اللبنانية

هذه العوامل كلها يتردّد صداها في لبنان. على الرغم من انتشار اللاجئين في خمسة بلدان، تحمّل لبنان العبء الأكبر من النزوح الجماعي باستقباله أكثر من مليون لاجئ مسجّل أو ينتظر التسجيل. تزعم الحكومة اللبنانية أن عدد السوريين في لبنان بلغ المليون قبل تصاعد حدّة القتال. ويشير تقرير للبنك الدولي إلى أن الأثر الاقتصادي للأزمة السورية على لبنان كارثي، إذ إن الاقتصاد اللبناني يعاني خسائر تراكمية تُقدَّر بـ٧,٥ مليارات دولار على اقل التقديرات. كما أن تدفّق السوريين يرفع معدّل البطالة ويدفع الحكومة إلى اقتراض المزيد من الأموال لتلبية الخدمات العامة.

إضافة إلى ذلك، يرزح اللاجئون تحت وطأة المعاناة والتوترات اليومية. والعديد من المنظمات السورية غير الحكومية الجديدة التي أُنشِئَت لتأمين الخدمات، يديرها لاجئون سوريون من الطبقة الوسطى، ومن الحاصلين على تعليم أفضل نسبياً، منهكون تماماً هم أيضاً. ويعرب معظم اللاجئين عن رغبتهم في العودة أو إعادة التوطين لأنهم ما عادوا يحتملون البقاء في لبنان في ظلّ هذه الظروف الصعبة.. إذ إنّ تكاليف الحياة في لبنان تُعَدّ مرتفعةً للغاية مقارنةً بمثيلاتها في سورية، واللاجئون جميعهم يستنفدون مدّخراتهم. أما الأسوأ حالاً منهم فمحصورون في مساحات صغيرة غير آمنة وغير صحية، وهم يشكون الاستغلال المتمثّل بالأسعار المرتفعة للإيجار والغذاء والدواء. هذه المظالم هي نفسها المظالم التي يعانيها السوريون في الأردن، كما العراقيون المهجرون الذين لايزالون يعانون في مختلف البلدان العربية في ظلّ أمل ضئيل في إيجاد حلٍّ دائم لهم.

فضلاً عن ذلك، وصلت مع النازحين حديثاً أعدادٌ كبيرةٌ من الفلسطينيين الذين كانوا يقطنون المخيمات والبلدات في سورية منذ العام ١٩٤٨. هؤلاء يُحظَر عليهم قانوناً، بصفتهم فلسطينيين، اتخاذ الوظائف الرسمية في أكثر من ٧٠ مهنة. وتجدر الإشارة إلى أن لبنان يضمّ حوالى ٤٢٥ ألف لاجئ فلسطيني، ورفضُ توطين هؤلاء هو مطلب لا تنفكّ تكرّره الأحزاب السياسية من اليمين واليسار. وثمة توجّه (أو على الأقل تصوّرٌ) لدى منظمات الإغاثة غير الحكومية بتحويل أموالها من اللاجئين الفلسطينيين المتواجدين في البلاد إلى اللاجئين السوريين والفلسطينيين السوريين الوافدين حديثاً. في هذا الإطار، أجرت المؤسسة الأميركية لإغاثة اللاجئين في الشرق الأدنى (أنيرا) تقييماً لاحتياجات الفلسطينيين السوريين، ووجدت أن ١٠ في المئة منهم فقط يعملون في لبنان. تقول مديرة «أنيرا» في لبنان سمر اليسير إن هذه المعاناة كلّها تزيد من التوترات ضمن الجاليات الفلسطينية الحالية، وتشرح قائلةً إن استقبال لاجئ يعني مشاطرة الموارد مع شخص جديد أو أسرة جديدة، الأمر الذي يؤدّي إلى استنزاف موارد المضيف الضرورية. و«في حالة الفلسطينيين، أصبحت منظمة الأونروا مرهقةً إذ فتحت مدارسها لاستقبال اللاجئين الجدد. وبما أن هذه الجالية التي تعيش في لبنان هي الأفقر في المنطقة بأسرها، تحتاج هي أيضاً إلى الغذاء أو المال اللذين يجري توزيعهما»، تضيف. وتقول اليسير إنّ إيواء اللاجئين تبقى المشكلة الأكبر، إذ إن الإيجارات المرتفعة تستهلك معظم دخلهم.

وهكذا، على الفلسطينيين أن يتعاملوا مع هذه الصعوبات المحدّدة إضافةً إلى الأزمة متعدّدة الأبعاد التي يعانيها اللاجئون جميعاً. ومن الشكاوى المتواصلة شكوى تتعلّق بالتعليم. لوضع الصورة في إطار أوضح، يُقدَّر عدد الأطفال السوريين في لبنان عام ٢٠١٣، الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسابعة عشرة، بـ٣٠٠ ألف طفل. وفي الوقت نفسه، يبلغ مجموع الأطفال اللبنانيين المسجّلين في المدارس الرسمية في أنحاء لبنان كلها ٣٠٠ ألف طفل أيضاً. ومع أن الحكومة اللبنانية طلبت من المدارس الرسمية

قبول الأطفال السوريين، لا يتلقّى تعليماً فعلياً سوى ٣٠ ألفاً من هؤلاء الأطفال. يُذكَر أن بعض السوريين يعودون إلى ديارهم متَحدِّين الحرب فقط ليتمكّنوا من تسجيل أنفسهم أو أطفالهم في المدارس أو الجامعات.

صعوبات من كل الأنواع

يدير هاني جسري، من منظمة «جسور» السورية، ثلاث مدارس صغيرةً تضمّ كل منها حوالى ٢٠٠ طفل، واحدة في منطقة قصقص في بيروت، واثنتان في البقاع الغربي. يشرح جسري أنه كلما كان الأطفال أكبر سنّاً، أصبح من الأصعب عليهم النجاح في الامتحانات التقييمية في اللغتين الإنكليزية أو الفرنسية، التي تؤهّلهم لدخول المدارس الرسمية. وفي حين يستطيع الأطفال الأصغر سنّاً اللحاق بالدروس عن طريق «برامج التعليم المعجَّل»، تبدو فرص حصول تلاميذ ما بعد الصفّ التاسع على التعليم ضئيلةً. أما سعداء الحظ الذين حصلوا على تعليم، فيتصارعون مع متطلّبات المناهج المختلفة.

واقع الحال أن السوريين المتواجدين داخل سورية في المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة، يدرسون المنهج التقليدي، فيما يُتاح للسوريين المتواجدين في لبنان إما المنهج غير الرسمي للمنظمات غير الحكومية، أو برنامج المدارس الرسمية اللبنانية، وإما الدروس التي تلقّنها المدارس الدينية الخاصة اللبنانية او حتى تلك التي يشرف عليها الائتلاف الوطني السوري المعارض. وهكذا، يمكن أن يدرس الطفل نفسه منهجَين أو أكثر إذا اضطرّت أسرته إلى الانتقال. في هذا الإطار، يرى جسري أن نظام «الدوام المسائي» الذي صُدِّق عليه أخيراً خطوة إيجابية. فهذا النظام، الذي لم يُطبَّق بعد، يفرض على المدارس الرسمية الحالية تدريس الأطفال السوريين بعد الظهر. ومن شأن هذا التغيير نظرياً أن يتيح للمدارس استيعاب أعداد أكبر من الطلاب. لكن إلى أن يُطبَّق القانون، تبقى أعداد هائلة من السوريين من دون تعليم وعمل، وبمهارات قليلة. هذا العجز في التعليم، مُضافاً إليه معدّل البطالة المرتفع، يهدّد بنشوء جيل كامل من الأطفال الأميّين أو شبه الأميّين.

تطال تأثيرات الأزمة المستويات كلها، لا التعليم وحسب. تقول زينة حسن، من الهيئة الطبية الدولية التي تركّز على الصحة وحاجات الصحة العقلية، إن البنية التحتية اللبنانية وصلت إلى نقطة حاسمة، فبعض القرى يضمّ سوريين يفوقون اللبنانيين عدداً. وقالت حسن محذّرةً إن «المستشفيات في سهل البقاع لم يَعُد فيها أسرّةٌ كافية، وثمة مخاوف من تفشّي الكوليرا في المخيّمات غير الرسمية التي انبثقت في كل مكان، فضلاً عن نقص المياه والنظافة». كذلك يخشى العاملون في مجال الصحة أن تقع كارثة صحية عامة في أي لحظة، ولاسيما في المخيّمات غير الرسمية في البقاع. تشير حسن إلى أن المنظمات غير الحكومية ومنظمات الإغاثة الأخرى تلبّي عدداً مفرطاً من الحاجات الفورية، الأمر الذي يمنعها من التخطيط على المدى الطويل. فهي منشغلة باتخاذ خطوات بسيطة مثل الاستثمار في برنامج لمدة سنتين لتدريب السوريين على توفير الرعاية الصحية العقلية الأساسية، وهي وسيلة لتخفيف التكاليف وتوفير مهارات التنمية في الوقت نفسه.

الواقع أن استنتاجات حسن تدعم الفكرة القائلة بأن الأزمة في لبنان لا يمكن أن تُحلّ من خلال المساعدة الإنسانية وحدها. فاللاجئون كثرٌ ويائسون للغاية، ومن المرجّح أن يبقوا في البلاد وقتاً طويلاً. وكما يتراجع الاهتمام بسورية دولياً، كذلك ستنضب بئر التمويل. لذلك ينبغي أن يأتي الحلّ من مزيج من الاستثمار في التنمية على المدى الطويل والاهتمام بالحاجات الإنسانية الفورية. وفي الواقع، ثمة مؤشرات على أن المنظمات الدولية تقوم بهذا التحوّل، ولاسيما في الأمم المتحدة، إذ إنّ خطة الاستجابة الإقليمية السادسة الخاصة بمفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، التي ستحدّد نطاق الاستجابة خلال العام ٢٠١٤، يُرجَّح أن تدعم تحوّلاً نحو التركيز على تنمية المجتمعات المحلية. تقول سين بيرغبي من برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (الموئل) إن منظمتها، وبحكم صلاحياتها، تركّز على مسألة الإيواء، بما في ذلك تحديد الأبنية التي يمكن العيش فيها من جديد كمساكن جماعية كبيرة، والخدمات المُدُنية الأساسية، خصوصاً تلك المتعلقة بالمياه والنظافة. وتشرح بيرغبي قائلةً إن برنامج الموئل وضع نموذجاً للعمل مع البلديات في مجال البنية التحتية السكنية، بما في ذلك تحسين المياه، وتوليد الطاقة، وشبكات الصرف الصحي، وغيرها. هذه الاستراتيجية تفيد كلاً من النازحين والمجتمعات المضيفة الأكثر فقراً، وتكتسب أهمية خاصة لهذه المجتمعات التي تشعر عن حقّ بأنها تحتاج إلى الدعم بقدر ما يحتاج اللاجئون الآتون حديثاً.

اسطنبول

التقيت في اسطنبول بالبروفيسورة شناي أوزدين لمناقشة بحثها عن اللاجئين السوريين في شرق تركيا. عالمة

أنثروبولوجيا مهتمة بكيفية تسيير السوريين أمورهم الحياتية اليومية على المستوى المصغّر، في القرى الحدودية، وتحديداً في ما يخص الخدمات اليومية، و تعليم أطفالهم.

وتتفق اوزدين مع معظم المراقبين على أنه، على الرغم من معاناة العديد من السوريين داخل تركيا، فإنّ الأوضاع الإنسانية وكذلك نوعية الحياة العامة بشكلٍ عام أفضل إلى حد كبير منها في باقي دول الجوار التي تستضيف أعداداً كبيرة من اللاجئين. العديد من اللاجئين الذين التقت بهم أوزدين يدركون أنّ وضعهم أفضل، على الأقل مقارنةً بما يسمعونه من قصص مرعبة من لبنان والمخيمات الأردنية. المشكلة كما تقول هي أن موقف السلطات الحاكمة تجلّى بتقديم المعونات والإحسان إلى «الإخوة» السوريين بدلاً من إعطائهم حقوقهم كلاجئين. كانت الحكومة التركية بالطبع لاعباً أساسياً في الصراع السوري، بعدما كان للحكومة التركية علاقات قوية مع النظام السوري، ولكن سرعان ما حدث تحول جذري في موقفها بعد اندلاع الانتفاضة في آذار ٢٠١١. استمر الوضع على هذا النحو حتى أخذت الحكومة التركية موقعاً متقدماً جداً في مناهضتها للنظام، ففتحت حدودها لكلٍ من المعارضين السياسيين والمسلحين منهم. كما لعبت دوراً معقداً في كونها مضيفاً سخيّاً نسبيّاً للاجئين، فضلاً عن الأحزاب السياسية والجماعات المسلحة فضلاً عن كونها القناة الرئيسيّة لدخول الأسلحة والمقاتلين المعارضين للنظام الى الداخل السوري. ورغم الدعم الكبير الذي تحصل عليه الجماعات المتشددة من دول الخليج، يُعتقد أن لتركيا رأياً مهماً حول الدعم ونوعه، رغم أنها نفت مراراً تسهيلها دعم الجماعات الجهادية المتطرفة.

على أيّة حال، فإن قوة واستقلالية المناطق الكردية المتزايدة بقيادة حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD) وجناحه العسكري وحدات الدفاع الشعبية (YPG)، إضافة إلى ظهور الجماعات الجهادية المتطرفة مثل تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش) والذي وضع تركيا في موقف محرج، وبالرغم من أن الأتراك العاديين ليسوا من مؤيدي نظام الأسد، إلّا أنهم شعروا بأن الحكومة قد جرّتهم إلى فوضى لا نهاية لها. وازداد استياء الأتراك بشكل كبير من السوريين في المناطق الحدودية.

في الحقيقة، إن كل اللاجئين السوريين في نوع من مأزق قانوني، خصوصاً أن أيّا من دول جوار سورية (ولا سورية نفسها) باستثناء تركيا ومصر، هم من الموقعين على اتفاقية اللاجئين لعام ١٩٥١ ولا على بروتوكول عام ١٩٦٧، وهذا ما يضع اللاجئين في موقف حرج، إذ إن غالبيتهم لا يعرفون حقوقهم ويعيشون في حالة خوف دائمة من التهجير.

هنالك سؤال حول ما إذا كان اللاجئون السوريون سيعودون «بيوتهم» أم إلى «الوطن».

وقائع جغرافية جديدة

معظم اللاجئين يعبّرون عن رغبتهم بالعودة إلى ديارهم حالما يتوقف القتال، لكن إمكانية عودتهم بشكل سريع أو حتى عودتهم بالمطلق ضعيفة للغاية. في جميع أنحاء المنطقة، يتقابل اللاجئون السوريون مع الفلسطينيين والعراقيين والصوماليين والسودانيين والعديد من اللاجئين الآخرين حيث عاش بعضهم حياته كلها لاجئاً مع احتمال ضئيل للعودة.

على الرغم من أنّ الحرب الأهلية في سورية ستستمر لسنوات عديدة، فإن التقسيم الديموغرافي يجري بشكل متزايد حسب مناطق السيطرة. والواقع أن طريقة انتهاء الصراع او التسوية السياسية سيكون لها تأثير كبير في ترسيخ الانقسام او إعادة اندماج المجتمع السوري.

إذا انتهى الأمر بترجمة خطوط جنيف العريضة إلى مفاوضات ذات مغزى فهذا سيفتح إمكانية عودة اللاجئين. ولكن كما هو الحال مع غيرهم من السكان اللاجئين والذين هم ضحايا التطهير العرقي أو التهجير من الحروب الأهلية، هنالك سؤال حول ما إذا كان اللاجئون السوريون سيعودون إلى «بيوتهم» أم إلى «الوطن». شملت اتفاقيات السلام، كاتفاقية دايتون (Dayton) التي وقعت بعد حرب البوسنة شروطاً تقضي بعودة اللاجئين إلى بلداتهم الأصلية ولكنها لم تطبق الا في حالات قليلة وبتدخل من قبل القوات متعددة الجنسيات. وفي لبنان لم تحلّ قضية مهجري الحرب نهائياً رغم مرور ربع قرن على انتهاء الحرب، ورغم وجود وزارة خاصة لها. يجب أن تتجسد الإرادة السياسية في المجتمع الدولي كي يتحقق ذلك، وخصوصاً على المستوى الإقليمي، وذلك أمر مستبعد جداً نظراً لأن طبيعة الصراع بالوكالة بين السعودية وإيران من المرجّح أن تستمر خلال فترة «السلام». كما أن البلدان المضيفة للاجئين قد بدأت بالتضييق اكثر فأكثر على السوريين، وتزداد الأصوات المطالبة بإعادتهم إلى المناطق الخاضعة لسيطرة المعارضة بدلاً من قراهم ومدنهم الأصليّة. وفي حال حدوث ذلك، فإن ترسخ الانقسام الطائفي والعرقي لسورية سوف يزداد. من الممكن استبدال الحلم بدولة تعددية وديمقراطية وقائمة على أسس المواطنة بالنمط الضعيف والمجزّأ للدولة اللبنانية.

اقتصاد الحرب السوري

جهاد اليازجي

محلل اقتصادي سوري، مدير نشرة «Syria Report» الإلكترونية المخصّصة للاقتصاد السوري

بعد ثلاث سنوات على الصراع السوري الذي أودى بحياة حوالي ١٤٠٠٠٠ شخص على الأقل، انهارت معظم قطاعات الاقتصاد السوري. مع توسع العنف وفرض العقوبات، تم تدمير الموارد والبنى التحتية. وانهار الإنتاج الاقتصادي، وفرّ المستثمرون من البلاد. تتخطى نسبة البطالة الخمسين في المائة، ونصف السكان أصبحوا تحت خط الفقر. أما التضخم في أسعار الغذاء فقد ارتفع فوق المائة في المائة، ويتناقص بشكل كبير احتياطي العملات الأجنبية الذي تم تجميعه خلال فترة الفورة النفطية القصيرة في التسعينيات، كما أنّ العجز في الموازنة ارتفع من ٣٪ من الناتج المحلي الإجمالي في ٢٠١٠ إلى٣٣٪ اليوم. كذلك تراجع مؤشر التنمية البشرية إلى المعدل الذي كان موجوداً قبل ٣٧ عاماً. يقدر أنّه حتى مع النمو السنوي العام الذي يوازي ٥ ٪ سيتطلب الأمر ٣٠ سنة كي يعود الناتج المحلي الإجمالي في سورية لأرقام العام ٢٠١٠.

يحاجج هذا المقال بأنّه في ظل كلّ ما يحصل نجد أنفسنا أمام اقتصاد حرب يرسخ نفسه في البلاد، خصوصاً في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة، مما يخلق شبكات اقتصادية ونشاطات تجارية جديدة هامة تعتمد على العنف المستشري في البلاد للاستمرار. يقوم اقتصاد الحرب هذا بخلق محفزات جديدة لمن يستغلون الحرب للكسب المادي من أجل إطالة أمد هذه الحرب. تعتاش قطاعات هامة من الاقتصاد اليوم وتستمر بفضل الصراع، وتخلق شبكة واسعة من الأشخاص والمجموعات الذي لا مصلحة لديهم بانتهاء النزاع. لكن في الوقت نفسه، يتفتت الاقتصاد السوري مع انقطاع المناطق التي يسيطر عليها النظام وتلك التي تسيطر عليها المعارضة عن بعضها البعض. ومع بروز مصالح ومراكز قوى جديدة، أصبح من الصعوبة بمكان تخيل العودة إلى الدولة المركزية القوية التي كانت موجودة قبل النزاع. لكنّ هذا التفتت قد يكون جزءاً من الحل خصوصاً كطريقة للعمل باتجاه توافق وطني من أسفل الهرم حتى أعلاه.

أربع مراحل من الانهيار

بعد اندلاع الصراع في ٢٠١١، تراجع الاقتصاد السوري على أربع مراحل. المرحلة الأولى كانت مباشرة بعد بدء الانتفاضة، وشهدت اختفاء سريعاً للسياح، وخسارة كبيرة للثقة المحلية، ما أدى إلى تراجع سريع في الاستهلاك والاستثمار. في أيار ٢٠١١، بعد شهرين فقط على أول تظاهرة، تراجعت نسبة إشغال الفنادق في البلاد، وتراجع عدد التراخيص الاستثمارية التي أصدرتها «وكالة الاستثمار السورية» في النصف الأول من عام ٢٠١١ بنسبة ٤٣٪ مقارنة بالفترة نفسها من العام ٢٠١٠. رداً على ذلك، قامت الحكومة برفع الرواتب في القطاع العام، وخفضت من أسعار وقود التدفئة المدعوم أصلاً. في أيلول ٢٠١١، منعت الحكومة استيراد كل البضائع التي تترتب عليها رسوم جمركية تفوق ٥ ٪، وذلك من أجل توفير ما يوازي الستة مليارات دولار من العملات الأجنبية، لكنّها تراجعت عن القرار بعد ١٢ يوماً إثر اعتراض من رجال الأعمال. بدأت المرحلة الثانية في خريف العام ٢٠١١ مع فرض عقوبات غربية، مجملها أوروبي، على صادرات النفط الخام السوري، ما عزز العزلة الدولية للاقتصاد السوري. لقد كان الاتحاد الأوروبي السوق الأكبر للخام السوري الثقيل، في عام ٢٠١٠ اشترى حوالي ٩٠٪ من كل صادرات النفط السورية التي كانت تشكل ٩٠٪ من كل عائدات سورية من العملات الأجنبية. بالتالي،

أدت العقوبات إلى هبوط حاد في العائدات المالية. كما أنّ العقوبات الأخرى عرقلت الصفقات الدولية: أصبح العديد من المؤسسات الحكومية مثل المصرف المركزي، والمصرف التجاري السوري، ومؤسسة النفط السورية على اللائحة السوداء، ومنعت وزارة الخزانة الأميركية تقديم أي نوع من الخدمات للقطاع المصرفي السوري، ما أجبر المصارف السورية على اللجوء إلى استخدام عملات أخرى غير الدولار في معاملاتها. كذلك فرض كل من الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة عقوبات على عدد كبير من الأشخاص السوريين، ومن ضمنهم أهم رجال الأعمال في البلاد.

بحلول نهاية العام ٢٠١١، كان المصرف المركزي السوري قد استخدم أكثر من ثلث احتياطه من النقد الأجنبي، الذي وصل إلى ١٤ مليار دولار في كانون الأول ٢٠١١. لم يعلن المصرف حساباته وودائعه منذ ٢٠١١، لكن تقدر احتياطيات النقد الأجنبي اليوم بما بين مليارين وخمسة مليارات دولار أميركي. لكن، في بداية العام ٢٠١٣، استطاعت الحكومة السورية الحصول على مساعدة من إيران لتمويل الاستيراد، وخصوصاً تلك الخاصة بالمواد النفطية. هكذا لم يتم تحقيق الهدف المعلن للعقوبات الغربية – أي إجبار النظام على القبول

العديد من المستثمرين الذين وجدوا أنفسهم على اللائحة السوداء مقربون جداً من النظام السوري، بسبب الضرورة التجارية أو علاقات شخصية، وليسوا مهتمين بإنهاء هذه العلاقات

بالإصلاح السياسي. قلّة من المستثمرين الذين وجدوا أنفسهم على اللائحة السوداء انتقلوا إلى صفوف المعارضة. في الحقيقة، فإنّ العديد من المستثمرين الذين وجدوا أنفسهم على اللائحة السوداء مقربون جداً من النظام السوري، بسبب الضرورة التجارية أو علاقات شخصية، وليسوا مهتمين بإنهاء هذه العلاقات.

بدأت المرحلة الثالثة من انهيار الاقتصاد السوري في صيف العام ٢٠١٢، مع توسع الصراع ليشمل قلاع الاقتصاد السوري أي دمشق وحلب، اللتين تشكلان معاً ٥٠٪ من القطاع الصناعي في البلاد. لقد تأثرت القاعدة الصناعية لهاتين المدينتين بشكل كبير بالعنف الدائر في البلاد، خصوصاً في مدينة حلب، ما أوقف تقريباً كل الصادرات الصناعية. لقد كان هذا التوسع في العنف جزءاً من انهيار أكبر في حكم القانون والنظام مع تزايد التقارير عن الخطف والنهب، خصوصاً في منطقة حلب. أدى ذلك إلى هجرة واسعة للقطاع الصناعي والطبقة الوسطى، إلى تركيا ودول الجوار، حيث يمكن أن يبقوا لفترات طويلة.

أخيراً، بدأت المرحلة الرابعة في ربيع العام ٢٠١٣ مع استيلاء المعارضة على شمال شرق سورية، حيث توجد أغلب موارد النفط والحبوب. أدى ذلك إلى انقسام بين الجزء الغربي من البلاد (الذي يسيطر عليه النظام) والجزء الشرقي منها (الذي تسيطر عليه المعارضة). دفعت خسارة الشمال الشرقي الحكومة لزيادة اعتمادها على المنتوجات النفطية المستوردة وبالتالي على داعميها الدوليين. من أجل التحايل على العقوبات وتمويل عمليات الاستيراد تلك، أمّنت إيران وبشكل أقل روسيا، قروضاً ميسّرة، وحتى انها نقلت النفط الى سورية في حاملاتها الخاصة. في خلال هذه المرحلة، انهار سعر صرف الليرة السورية إلى أكثر من ٣٠٠ مقابل الدولار الواحد، رغم أنّه عاد وارتفع إلى حوالي ١٥٠ بعد قرار الولايات المتحدة عدم توجيه ضربة عسكرية على سورية.

مرونة في مناطق النظام

رغم الدخول في دوامة الصراع والانهيار الاقتصادي الكبير، فإنّ أغلب المناطق التي تقع تحت سيطرة النظام – مع استثناء حلب وبعض مناطق حمص – لا تزال تتمتع بالعديد من الخدمات العامة البسيطة مثل الماء، والكهرباء، والتعليم والخدمات الصحية، وكذلك يوجد فيها السلع الأساسية مثل الخبز والخضر والفواكه، وكذلك البنزين وغاز التدفئة. حتى أنّه من السهل الحصول على بعض السلع المستوردة مثل الأرز والسكر.

هذا التحسن في المناطق التي يسيطر عليها النظام يمكن تفسيره بعدة عوامل. أولاً، لقد أدى التراجع في الطلب العام – وهو نتيجة للتراجع في القدرة الشرائية للشعب وفي النشاط الاقتصادي وانخفاض عدد السكان بنحو ١٥٪ – إلى تسهيل عمل الحكومة في الاستمرار بتأمين السلع والخدمات الأساسية. ثانياً، لقد ساهم التراجع في قيمة الليرة السورية بزيادة قيمة احتياطيات النقد الأجنبي. ثالثاً، اتخذت الحكومة إجراءات مثل زيادة التعرفة الجمركية على السيارات المستوردة من أجل

الحفاظ على احتياطيات النقد الأجنبي – الإنفاق على استيراد السيارات يمثل واحداً من أهم مصادر الطلب على العملة. كذلك سارعت الحكومة إلى خفض الإنفاق الحكومي العام، مثل النفقات المكتبية، والوقود للسيارات الحكومية، والاستثمار كذلك مثل بناء مدارس أو مستشفيات أو طرق أو أنظمة صرف صحي جديدة، وكل ذلك كان يشكل ما بين ثلث الإنفاق الحكومي ونصفه.

كذلك استفادت سورية من ثروتها النسبية في الموارد الطبيعية واقتصادها المتنوع تاريخياً. كما لعب الإنتاج الزراعي الجيد خلال سنوات الانتفاضة الثلاث دوراً أساسياً في تأمين المخزون الغذائي للمدن. وأيضاً تموين مصانع إنتاج الكهرباء من الغاز الطبيعي المصنّع محلياً والمستخرج من الحقول الموجودة في مناطق نفوذ النظام ساعد في التقليل من فترات الانقطاع الكهربائي.

في الوقت نفسه، حصلت الحكومة على دعم كبير تمثل بالمساعدة المالية الكبيرة من حلفائها المحليين والأجنبيين. داخل سورية، حصلت الحكومة على مساعدة ومساندة من رجال الأعمال الذين يرتبطون مع النظام بشبكة مصالح كبيرة، وخصوصاً أقرباء عائلة الأسد، مثل رامي مخلوف الذي يعتبر أقوى وأثرى رجل أعمال في البلاد. وقد ساهم رجال الأعمال هؤلاء في الجهد الحربي الخاص بالنظام، عبر المساعدات المادية المباشرة، أو المساعدات العينية. يقال مثلاً إنّ النظام تلقى مبالغ مالية كبيرة من اثنين من رجال الأعمال هما محمد حمشو، وهو صهر ماهر الأسد، شقيق الرئيس السوري، ويعمل في قطاعات عدّة منها التجارة والصناعات المعدنية، والإنتاج التلفزيوني، وكذلك سمير حسن، الوكيل السابق لشركة «نستله» في سورية. كذلك قيل إنّ أصحاب شركات النقل وضعوا حافلاتهم بتصرف الجيش لنقل الجنود.

لكن لا يمكننا القول إنّ كل قطاع الأعمال توحد وراء النظام. على العكس، لقد ساند العديد من رجال الأعمال المعارضة. في صيف العام ٢٠١١، شاركت غرف التجارة في كل من حمص ودرعا ودير الزور بشكل أو بآخر في الإضرابات التي دعا إليها الناشطون المعارضون، فيما شارك بعض رجال الأعمال في دمشق في الإضراب الذي حصل في كانون الأول من ذلك العام. بعض أبرز الشخصيات في قطاع الأعمال أبعدت نفسها عن النظام من أجل تجنب أي نتيجة سلبية في موضوع العقوبات الدولية، وقد خسرت بذلك صفقات مالية كبيرة وواجهت عقاب النظام الذي أتى على شكل تجميد للأصول أو محاكمات باتهامات واهية. لكن قدرة النظام على تأمين مساندة جزء كبير من قطاع الأعمال عززت من دون شك موقعه. كما من المفيد الإشارة إلى أنّ المساعدات المالية للمعارضة كانت ستفيد النظام لأنّها ضُخّت في الاقتصاد العام للبلاد.

قدرة النظام على تأمين مساندة جزء كبير من قطاع الأعمال عززت من دون شك موقعه. كما من المفيد الإشارة إلى أنّ المساعدات المالية للمعارضة كانت ستفيد النظام لأنّها ضُخّت في الاقتصاد العام للبلاد.

كذلك، استفاد النظام من المساندة الاقتصادية الخارجية. كان للمساعدة الإيرانية أهمية خاصة – وهي جزء من التغيير الكبير في العلاقة بين الطرفين في السنوات الماضية. في العام ٢٠١٠، كان حجم التجارة بين الدولتين يصل إلى ٣١٦ مليون دولار، وفق مصادر رسمية سورية، وهو أقل بكثير من المستوى الذي كانت عليه مع الدول التي تدعم اليوم بنحو كبير المعارضة. في ذاك العام نفسه، كانت التجارة مع السعودية تبلغ ١،٣ مليار دولار و٢،٣ مليار مع تركيا. ومؤشر آخر أيضًا حصل في نهاية العام ٢٠١٠، فقد فتحت الحكومة السورية الباب أمام مناقصة دولية لمنح الرخصة الثالثة للهاتف الخلوي في البلاد. ومن بين الشركات الست التي تقدمت، وهي «أورانج» من فرنسا، و«توركسيل» من تركيا، و«كيوتل» من قطر، و«تلكوم» من السعودية، و«اتصالات» من الإمارات العربية المتحدة، و«توسعه اعتماد مبين» من إيران، استبعدت الحكومة الشركة الإيرانية فحسب، وهي التي قيل وقتها إنّها مرتبطة بالحرس الثوري الإيراني.

لكن في بداية تموز ٢٠١١، ظهرت تقارير عن مساعدة إيرانية محتملة بقيمة ٥.٨ مليارات دولار أميركي على شكل مال نقدي ونفط لنظام الأسد. ثم في العام ٢٠١٣ منحت إيران قرضين ميسّرين لدمشق قيمتهما ٤.٣ مليارات دولار أميركي. الأول بقيمة مليار دولار كان مخصصاً لتمويل الاستيراد والآخر لتأمين موارد النفط.

كذلك، يعتقد بأنّ روسيا تؤمن مساندة مالية واقتصادية لدمشق، لكن حجم هذه المساعدة غير واضح تماماً. احد جوانب التعاون بين البلدين كان محاولة التحايل على العقوبات الأوروبية والأميركية، خصوصاً على المصارف الرسمية السورية، والنظام المالي بشكل عام. في كانون الأول من العام ٢٠١١، بعد أسابيع من الإعلان عن هذه العقوبات، فتح المصرف المركزي السوري حسابات عدّة بالروبل في مصارف روسية هي VTB، وVEB، و «غازبروم بنك». استخدمت هذه الحسابات من أجل إيداع الأصول التي سحبتها المصارف السورية الرسمية من المؤسسات المالية الأوروبية.

في هذا الوقت، قدمت المنظمات الإنسانية الدولية

مساعدة اقتصادية كبيرة، بعدما منعت دمشق عملها إلا في المناطق التي تسيطر عليها، ومنعت على سبيل المثال دخول المساعدات عبر الحدود إلى مناطق المعارضة شمالاً. هذه المساعدة التي قدمتها المنظمات الدولية إلى جانب أهميتها لمن حصل عليها، فقد ساعدت على تخفيف عبء عدد من المسؤوليات عن كاهل الحكومة. طلبت الأمم المتحدة مساعدات في العام ٢٠١٤ بقيمة ٦،٥ مليارات دولار أميركي لسورية، وحتى لو لم تتمكن من جمع المبلغ كاملاً، فإنّه من المرجح أن تقوم الحكومة بوضع مسؤولية الحاجات الإنسانية للشعب على عاتق الأمم المتحدة، ومنظمات إغاثة أخرى.

بروز اقتصاد الحرب

إذاً حافظت السلطات السورية على سياستها بخفض النفقات إلى أقل حد ممكن، واستمرت في تلقي المساندة المالية من الحلفاء المحليين والدوليين، تمكنت من الاستمرار في دفع الرواتب وتأمين موارد السلع الأساسية لمؤيديها. لكن المناطق التي تسيطر عليها المعارضة وتشكل اليوم ما بين ٣٠ إلى ٤٠ في المائة من البلاد، لم تعد لديها أي مؤسسات رسمية، رغم أنّ الرواتب الخاصة بموظفي الدولة لا تزال تدفع. في هذه المناطق، لا يوجد كهرباء، وتختفي السلع، وتوقفت تقريباً كل النشاطات الاقتصادية الرسمية، ولا يجري تعليم الأولاد ولا يتلقون في معظم الأحيان لقاحات، وينتشر الفقر والمجاعة بشكل واسع.

في هذه الفوضى المنتشرة في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة، برز اقتصاد حربي يؤثر على تطور الصراع وعلى الفترة التي ستلي الحرب. مع انهيار الأمن، تكوّن اقتصاد جديد قوامه النهب، والخطف، والتهريب مصدراً مهماً للدخل. تبرز شبكات جديدة كلياً، وأحياناً غير شرعية، وتزداد قوة بعض المجموعات والأفراد على حساب الطبقة الاقتصادية التقليدية. في حلب على سبيل المثال، تم الاستيلاء على أصول مئات المصانع، وبيعت في مناطق أخرى في البلاد أو في جنوب تركيا. في هذا الوقت، طوّر الشمال الشرقي، بموارده الكبيرة من الزراعة ومصادر الطاقة، حياة اقتصادية خاصة به مع تنامي تجارة نفطية نشطة وإثراء طبقة جديدة من المشايخ القبليين والقادة المعارضين.

إنّ توسع اقتصاد الحرب في هذه المناطق عززه الصراع بين فصائل المعارضة من أجل السيطرة على مصادر مالية مربحة، مثل الحواجز، وحقول النفط، وأهراءات القمح.

لقد كان الصراع على حقول النفط في الشمال الشرقي دموياً، خصوصاً مع دخول فصائل مرتبطة بتنظيم «القاعدة» وقبائل عربية وميليشيات كردية وفصائل محلية في المعركة من أجل السيطرة. كانت «جبهة النصرة» و«الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش) الأكثر فاعلية في إدارة مواردهما. ويسيطر التنظيمان الآن على العديد من حقول النفط في منطقة دير الزور. كذلك فإنّ داعش استولت على مطاحن تنتج ما يكفي من القمح لإطعام مليون شخص في اليوم، واستغلت احتكارها ذاك لجني الارباح.

ويكون مصدر آخر للربح للفصائل المعارضة في فرض رسوم جمركية عند المعابر الحدودية ومراكز التفتيش. على سبيل المثال، يوجد أربع وثلاثون حاجزاً أمنياً منتشرة على الطريق بين حلب والحدود التركية التي يبلغ طولها ٤٥ كيلومتراً. في مدينة حلب، حصلت معارك كبيرة بين الفصائل المعارضة للسيطرة على حاجز «بستان القصر» الذي يفصل بين المناطق التي يسيطر عليها النظام عن تلك التي تسيطر عليها المعارضة، وذلك نظراً إلى الرسوم التي يمكن فرضها على البضائع التي تعبر من هناك. على معبر «باب السلام» على الحدود مع تركيا، فرض «لواء عاصفة الشمال» و«لواء التوحيد» اللذان يسيطران على المعبر، ألف دولار أميركي على كل شاحنة تعبر ابتداء من آب ٢٠١٣. ويقال إنّ «جبهة النصرة» جنت أرباحاً طائلة خلال سيطرتها على المناطق التي تمر فيها أنابيب النفط عبر فرض رسوم عبور، والسماح للنفط بالاستمرار في التدفق إلى المصافي النفطية التي تسيطر عليها الحكومة والموجودة في حمص وبانياس.

«جبهة النصرة» جنت أرباحاً طائلة خلال سيطرتها على المناطق التي تمر فيها أنابيب النفط عبر فرض رسوم عبور، والسماح للنفط بالاستمرار بالتدفق إلى المصافي النفطية التي تسيطر عليها الحكومة والموجودة في حمص وبانياس.

كذلك، تبرز فرصٌ تجارية من المعارك نفسها. خلال الحصار الذي استمر ستة أشهر لقاعدة «وادي الضيف» قرب إدلب، يعتقد أنّ «كتيبة شهداء سورية» التي

ترأسها جمال معروف، أطالت أمد المعركة عن قصد لأنّها كانت مصدراً للمداخيل من الداعمين الخارجيين. طالما كانت المعركة مستمرة كان قائد المجموعة يحصل على مساعدات من مانحين خليجيين لمساعدته على إنهاء المعركة لصالحه. في الوقت عينه، قيل إنّ قادة المعارضة كانوا يحصلون على رشى من قبل النظام للسماح له بإدخال المؤن لرجاله في داخل القاعدة.

في الوقت عينه، يمكن رؤية أمثلة عن اقتصاد الحرب هذا في المناطق التي يسيطر عليها النظام، حيث بقيت بعض مظاهر السلطة المركزية. الاعتماد المتزايد للنظام على الميليشيات اجبره على منحها استقلالية وقوة محلية متزايدتين، ما يعطيهم الحرية لنهب وسلب المناطق التي تنتقل سيطرتها من المعارضة إليهم، وبشكل أقل المناطق التي تقع تحت سيطرتهم المباشرة. في اللاذقية مثلاً، حَكَم هلال الأسد، وهو أحد أقرباء الرئيس السوري، المدينة لشهور ولجأ إلى الخطف لتمويل عملياته. في مدنية حمص، وفي أماكن أخرى، برز سوق للسلع التي سرقت من مناطق المعارضة (ويطلق عليه اسم «سوق السنّة» لأنّ المناطق التي تسيطر عليها المعارضة يقطنها أغلبية سنية).

لقد ساهمت العقوبات الغربية بشكل غير مقصود في تطوير اقتصاد حرب. أجبرت العقوبات المفروضة على كيانات رسمية ومستثمرين معروفين السلطات على السعي وراء وسائط جديدة لعملياتها الدولية، مما

أجبرت العقوبات المفروضة ضد كيانات رسمية ومستثمرين معروفين السلطات على السعي وراء وسائط جديدة لعملياتها الدولية، مما منح أفراداً جدداً الفرصة للإثراء.

منح أفراداً جدداً الفرصة للإثراء. الحكومة تمنح العقود لأحد الوسطاء الذي سيفتح شركة في سورية باسم «لا عقوبات عليه»، أو شركة واجهة في لبنان. لإخفاء تفاصيل هذه العمليات، تستخدم هذه الشركة سمساراً يتعاقد بشكل مباشر مع المزوّدين ويصدر أمراً بالدفع من مصرف خارج سورية في الغالب. في كل واحدة من هذه المراحل، يجري فرض رسوم جمركية، وهوامش جديدة للربح، ما يؤدي الى ربح كبير للوسيط، وارتفاع في سعر السلعة. العقوبات تسمح بالتالي لزبانية النظام بإثراء نفسها على حساب مؤسسات الدولة، مع ارتفاع سعر السلع الأساسية للشعب. بعبارات أخرى، تعزز العقوبات عناصر من النظام السوري على حساب الدولة وشعبها.

الهبوط في قيمة الليرة السورية خلق فرصاً جديدة أيضاً. غالباً ما تتقلب بنسبة تصل إلى أكثر من عشرة في المائة من قيمتها في اليوم الواحد، ويعود ذلك إلى مضاربين معروفين مقربين من النظام، ويستفيدون من الفرق بين السعر الرسمي وسعر السوق السوداء لليرة، ليجنوا أرباحا طائلة. لكن المضاربة في هذا القطاع المربح تبقى خطرة. في تشرين الأول ٢٠١٣، قام المصرف المركزي السوري بإغلاق شركة زهير سحلول وهو تاجر عملات يعرف باسم «ملك» سوق تبادل العملات، وينسب إليه إنقاذ الليرة السورية في العام ٢٠٠٥ بعد الهبوط في سعرها اثر اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري وانسحاب الجيش السوري من لبنان.

تفكك الاقتصاد السوري

إلى جانب نمو أشكال جديدة من الأعمال بسبب الصراع، نشهد أيضاً ظاهرة تفكك الاقتصاد السوري. إنّ المناطق التي تقع تحت سيطرة النظام السوري – أي المدن الأساسية إلى جانب الساحل ومحافظة السويداء في الجنوب — لم تعد موصولة بعضها ببعض. تسيطر المجموعات الكردية المسلحة على الشمال الشرقي وعلى جيوب أخرى حول حلب، فيما يسيطر على المناطق الباقية في البلاد العشرات من كتائب المعارضة المختلفة. في المناطق التي يسيطر عليها الثوار في الشمال، يتم استيراد معظم ما يحتاج إليه الناس من تركيا (أي السيارات، المنتجات النفطية، وبعض السلع الغذائية). كذلك، يجري بيع النفط الذي يستخرجه الثوار وكل المنتجات الزراعية عبر تركيا.

في المناطق التي تقع خارج سيطرة الحكومة، تم إنشاء مؤسسات جديدة للاهتمام بالحياة اليومية. في الغوطة إحدى ضواحي دمشق، تدير المجالس المحلية حياة المواطنين وتؤمن السلع والخدمات. في مدينة منبج تم إنشاء قوة شرطة ونقابة عمالية. في كانون الثاني ٢٠١٤، تم تشريع اللامركزية في المناطق الكردية (وهي كانت تمارس فعلياً منذ وقت طويل) مع إنشاء «حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي»، الأقوى على الأرض، لمجالس إدارية محلية لإدارة الحياة اليومية في ثلاث مناطق رئيسة تقع تحت سيطرته، في محيط مدينة القامشلي في شمال البلاد الشرقي، وفي جيبين شمالي حلب. في آذار ٢٠١٤، تم الإعلان عن إنشاء «المجلس الأعلى للإدارة المحلية»

وهو تجمع لمجالس محلية. رغم أنّ هذا التجمع كان واحداً من مجموعة أعلن عنها في السنتين الماضيتين، أكد ذلك ترسيخ موضوع اللامركزية. في البيان الذي أعلن من خلاله إنشاء المجلس، وردت عبارات عن سعي المجلس إلى العمل من أجل نقل سورية «من الدكتاتورية المركزية إلى الحرية اللامركزية».

كانت خسارة الشمال الشرقي لمصلحة المعارضة في ربيع العام ٢٠١٣ مسألة حساسة بالنسبة للنظام، نظراً إلى أنّ المنطقة تحتوي على ثروة البلاد من النفط وجزء كبير من موارده من الحبوب والمياه. رداً على الخسارة، سعى النظام إلى إعادة توجيه الموارد الاقتصادية لمناطق أكثر أماناً في البلاد. أعلنت الحكومة عن مشاريع جديدة في المناطق الساحلية الأكثر أماناً وشجعت المستثمرين على الانتقال إلى هذه المناطق. تضمنت هذه المشاريع إنشاء مطار مدني في طرطوس (رغم وجود مطار في اللاذقية القريبة)، وعدد من الكليات الجامعية، ومصنع لمعالجة النفايات الصلبة، ومركز لمعالجة التبغ. كذلك، تم توسيع المنطقة الحرة في اللاذقية من أجل استيعاب المستثمرين الجدد. وفي كانون الثاني ٢٠١٣، تسلّمت الحكومة قرضاً من إيران لبناء مصنع لإنتاج ٦٥٠ ميغاوات من الكهرباء في المنطقة الساحلية. إذا تحققت هذه المشاريع، وهو أمر غير مؤكد، ستزيد من جاذبية الساحل وتمنح النظام قاعدة اقتصادية بديلة للتعويض عن الخسائر في أماكن أخرى.

تزامناً مع هذه التطورات التي تساعد على زيادة اللامركزية، فإنّ قوات المعارضة تلقت دعماً خارجياً مهماً لتعزيز استقلاليتها وسيطرتها على الأراضي التي انتزعتها من النظام. أتى هذا الدعم بطريقتين: مساعدات إنسانية للتخفيف من معاناة الشعب وقد تم تقديمها من دول إقليمية ومنظمات دولية ومغتربين سوريين ومتبرعين من دول الخليج؛ ومساعدة عسكرية، قدمتها بشكل أساسي دول الخليج، وتحديداً قطر والمملكة العربية السعودية وتركيا، وكذلك ممولون أغنياء من الكويت والسعودية. وككل المعلومات المتعلقة بالمناطق التي تسيطر عليها المعارضة، من الصعوبة بمكان قياس حجم وكيفية توزيع هذه المساعدات.

إنّ كمية التبرعات من قبل الجمعيات الخاصة في الخليج، والتي تصل عبر شبكات غير رسمية، تعقّد المهمة. على عكس الطرف الحكومي، حيث تبقى التبرعات الخاصة محدودة، فإنّ شبكات خليجية كبرى ضخّت مئات الملايين من الدولارات للمجموعات المعارضة. في الكويت وحدها، بلغت المساعدات مئات الملايين من الدولارات، رغم أنّ هذه المبالغ قد لا تكون كلها من داخل الدولة. شجعت القوانين المرنة في ما يتعلق بتمويل الإرهاب العديد من المتبرعين الخليجيين لتحويل تبرعاتهم من خلال الكويت. وأبعد من تمويل صراع مسلح، فإنّ هذه الأموال استخدمت لتمويل مشاريع عدّة في مناطق المعارضة، مثل المستشفيات وآبار المياه والمخابز.

مع تزايد التفكك وتراجع سيطرة الحكومة المركزية على البلاد، استمر وجود بعض التفاعل بين المناطق التي يسيطر عليها النظام وتلك التي تسيطر عليها المعارضة. في حلب، بعدما هددت الهيئة الشرعية التي تتحكم بكل نواحي الحياة المدنية بقطع المياه عن مناطق النظام إذا لم تتحسن التغطية الكهربائية، تم التوصل إلى اتفاق بعنوان «المياه مقابل الكهرباء» بين الطرفين. في إدلب، قيل إنّ فصائل معارضة تسيطر على مخزون القمح عقدت صفقة مع مسؤولي الحكومة المحليين الذين يسيطرون على أربع مطاحن. في نيسان ٢٠١٣، برزت تقارير عن عقد صفقة بين جبهة النصرة والحكومة لتزويدها بالنفط بعد سيطرة الجبهة على عدد من حقول النفط في دير الزور. قد تمثل هذه الارتباطات الاقتصادية واحدة من وسائل قليلة ملموسة للتفاهمات المشتركة بين الأطراف المتحاربة.

رغم ذلك فإنّ الاستقلالية النسبية التي ربحها الفاعلون المحليون تخلق بشكل واضح مصالح قوية ومراكز قوة من المرجح أن تتصارع في المستقبل مع أي حكومة تريد أن يكون لها مقدار السيطرة نفسه الذي كان لدمشق قبل الحرب. سيكون موضوع السيطرة على الموارد الطبيعية، مثل النفط والماء، أو على المعابر الحدودية والمرافئ، مصدراً لمنافسة مستمرة. أكثر من ذلك، فإنّ العلاقة بين المناطق المختلفة والعاصمة، واعتماد كل منها على الأخرى، وكذلك مستوى الاستقلالية التي ستمنح للقوى المحلية ومستقبل المؤسسات التي أنشئت خلال الحرب ستكون كلها مصادر لخلافات نظراً إلى عدم رغبة أي من المجموعات والمناطق التي تعززت قوتها اخيراً بالتنازل طوعاً عما ربحته.

هل من حل؟

بعد ثلاث سنوات على بدء الانتفاضة السورية، لا يبدو أي حل في الأفق. لقد تحوّلت الانتفاضة التي بدأت كنداء من أجل حياة أكثر عدالة، وحرية، وكرامة، إلى حرب أهلية

طويلة. ومع تطورها، استغل النظام والمتمردون الديناميات المتغيرة للتأكيد على قدرتهم المستمرة في تأمين الموارد الخاصة بمعركتهم. لقد أصبح عدد متزايد من الأشخاص، من طرفي النزاع، يستفيدون بشكل مادي كبير من الصراع المستمر، مما يعطيهم حافزاً قوياً لإطالة المعركة التي يستفيدون منها. يعتقد اليوم أنّ العديد من الكتائب المتمردة تركز جهدها كلياً على عملياتها التجارية، وقد تخلّت عن القتال ضد النظام. بالنسبة لهؤلاء، وغيرهم أيضاً من الأفراد والمجموعات في طرفي الصراع، فإنّ الحرب المستمرة تخلق اليوم فرصاً مربحة لجني المال.

في الوقت عينه، فإنّ سيطرة الدولة المركزية قد أصبحت ضعيفة بشكل قاتل، واستولت قوى وفاعلون جدد على السلطة في البلاد. لقد تمكنت مراكز القوى الجديدة تلك من تعزيز قوتها عبر قدرتها على الوصول إلى الموارد الاقتصادية الأساسية، مثل النفط في الشمال الشرقي أو المعابر الحدودية على الحدود مع تركيا، مما وفّر لها الاستقلالية المادية، وساعد على إمساكها بالسلطة المحلية.

لقد كان السلاح الأبرز بيد أوروبا واميركا في هذه الفترة هو فرض العقوبات. ورغم أنّ هذا السلاح كان له تأثير مالي هام على تدفق عائدات النظام إلا أنّه لم يؤدّ إلى النتائج السياسية المطلوبة. لقد فشلت العقوبات بشكل كبير في تحقيق أهدافها السياسية، التي كانت تتمحور حول إجبار النظام على القبول بمطالب شعبه. في الوقت عينه، ساهمت العقوبات بشكل أو بآخر في تنمية اقتصاد الحرب، وذلك عبر تعزيز شبكات الموارد الجديدة التي نشأت لتخطي هذه العقوبات. كذلك منحت العقوبات نظام الأسد مخرجاً للثمن الشعبي للصراع: فقد كان لها تأثير إنساني عبر اختفاء الموارد وزيادة كلفة استيراد الطعام، والأدوية، والمنتجات الأخرى مثل معدات مصانع تدوير النفايات؛ وكذلك ساهمت العقوبات في تعزيز اعتماد النظام على الفاعلين الخارجيين وخصوصاً إيران.

في ربيع ٢٠١٣، قرر الاتحاد الأوروبي، وباعتراف جزئي منه بهذه التأثيرات، رفع حظره على صادرات النفط السوري بشكل جزئي، للسماح بتصدير الخام من المناطق الواقعة تحت سيطرة المعارضة. كان الهدف من ذلك خلق مصادر جديدة للعائدات، والتنمية المحلية، في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة. لكن في الممارسة، كان لهذا الإجراء تأثير ضعيف لأنّ أحد شروط رفع الحظر كان أن تذهب العائدات إلى «الائتلاف الوطني»، المجموعة المعارضة المعترف بها من قبل الغرب، وتتمتع بسلطة شبه معدومة على المجموعات المسلحة التي تسيطر على الأرض.

تحتاج أوروبا الآن إلى التفكير بشكل جدي بنتائج العقوبات. إذ فيما كان للإجراءات التي فرضت تأثير لا يمكن عكسه، ينبغي على الدول الأوروبية تجنب اللجوء إلى الإجراء المعتمد وهو فرض عقوبات جديدة لغياب أي بدائل، في حين تريد هذه الدول أن تتخذ موقفاً أقوى ضد نظام الأسد ومناصريه. نظراً إلى الكارثة الإنسانية العاجلة، يجب على الأوروبيين أنّ يعيدوا تقييم تأثير العقوبات دورياً، إذ فيما يوجد مخاطر جلية يمكن لزبانية النظام الاستفادة من ثغراتها، لا ينبغي أن يعرقل ذلك تطبيق «ليبرالي» لنظام العقوبات على أسس إنسانية. تحديداً، يجب التفكير بخفض الإجراءات الخاصة بالمعاملات التجارية والمصرفية من أجل تسريع وصول الدواء والطعام.

في هذا الوقت، ورغم أنّ الحرب الأهلية هي بشكل أساسي صراع من أجل السلطة السياسية، فإنّ على الأوروبيين أن يأخذوا بعين الاعتبار ظهور مصالح اقتصادية قوية أثناء معالجة ما يمكن القيام به لإنهاء القتال. بشكل محدد، فإنّ تفتيت الاقتصاد السوري يجعل من الصعوبة بمكان التفكير بإعادة بناء الدولة السورية المركزية الخاصة بما قبل الانتفاضة. مما لا شك فيه أنّ القوى التي ظهرت نتيجة لاقتصاد الحرب ستقاوم كل محاولات إعادة بناء سيطرة مركزية في سورية، ومن المرجح أن تساند هذه القوى تسوية تعتمد بشكل كبير على استقلالية سياسية واقتصادية محلية. رغم أنّ العديد من الأوروبيين قد يفضلون إعادة بناء دولة مركزية قوية، لكن ينبغي عليهم التفكير بفترة انتقالية قوامها الدولة غير المركزية.

نظراً إلى قوة الفاعلين المحليين المتزايدة، يجب على صانعي السياسات الأوروبيين العمل أكثر من أجل تعزيز قدرة المجالس المحلية في البلاد. بدأت نتائج هذه الجهود بالظهور، وينبغي الاستمرار بها بشكل فعال. لا ينبغي تركيز الجهود كلها في المساعدات الإنسانية، بل ينبغي التركيز على تأمين وسائل للاستدامة الخاصة بهذه المناطق ما دامت فكرة الإدارة السياسية الجديدة بعيدة. كذلك، يمكن لنظام سياسي غير مركزي جديد أن يكون جزءاً من الحل للصراع السوري، ويؤمن وسائل الوصول إلى توافق وطني جديد من أسفل الهرم حتى أعلاه.

سياسة الإخلاء
المستأجر القديم من مواطن الى عقبة

نادين بكداش

مصممة غرافيك وباحثة مدينية من : «أشغال عامة»

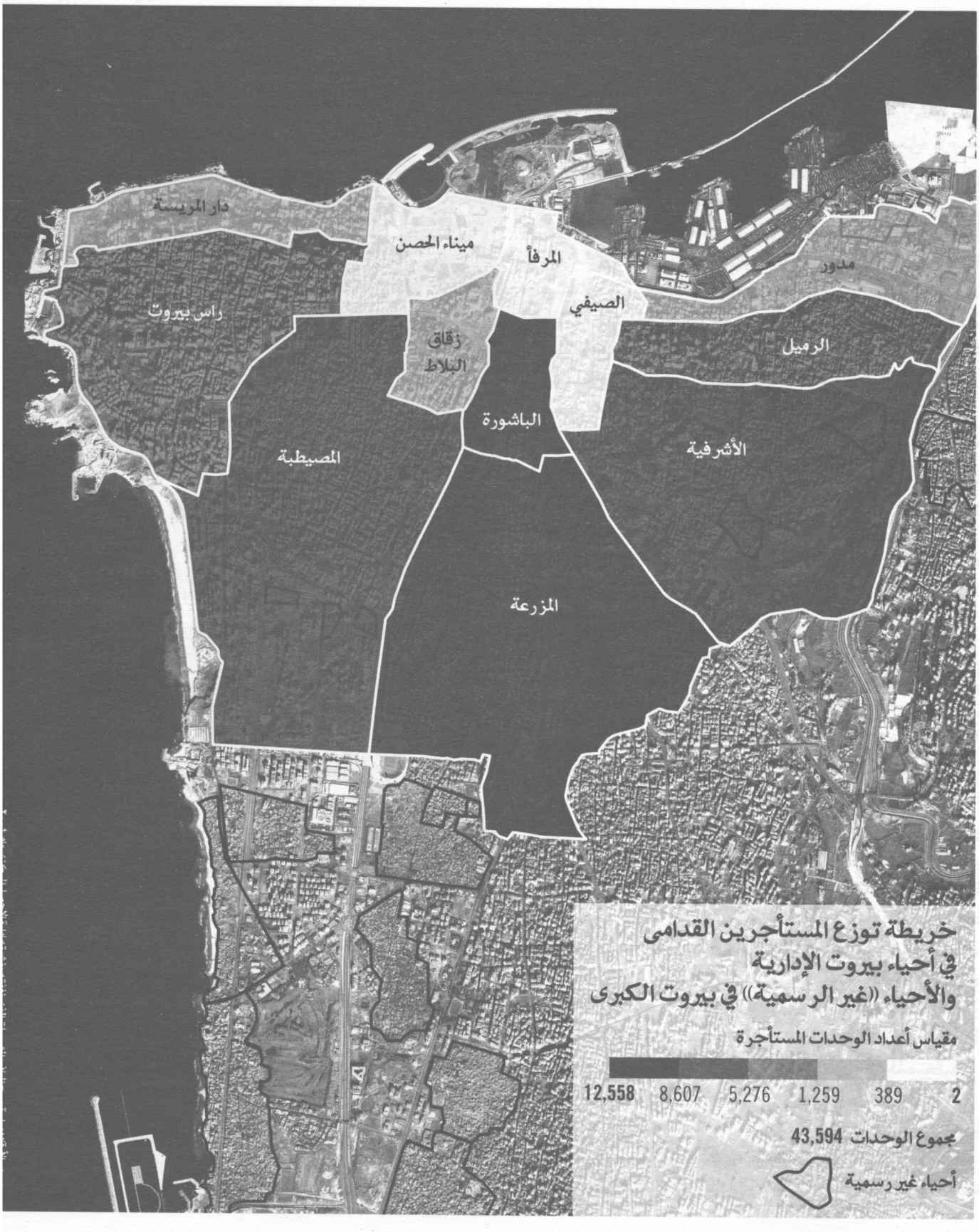
مع أن المستأجرين القدامى ظاهرون بوضوح في مشهد بيروت الحضري، إلا أنهم مغيبون في تصوّر جديد يُرسم للمدينة. يتصور الطامحون للحداثة أبنية عالية وحياة عصرية خاصة بعيدة عن الشوارع والعامة من جهة، بينما يهتم مناشدو الحفاظ على الأبنية التراثية فقط بخصائص الأبنية العمرانية وليس بالحياة الاجتماعية التي تنتجها الأمكنة. لا تعتبر وجهتا النظر أن نسيج بيروت العمراني الذي تكوّن قبل ١٩٩٢ لا يزال يشكّل أمكنة لسكن المستأجرين القدامى وعملهم، فقد مكّن قانون الإيجار القديم عدداً كبيراً من سكان بيروت (٧٧٪ في عام ١٩٧٠، ٤٨٪ في عام ١٩٩٦، ٤٩٪ في عام ٢٠٠٤) من البقاء في المدينة في ظل ارتفاع خيالي في أسعار الأراضي والشقق، وتدنّي مستوى الأجور. كما أن عقد الإيجار القديم تجاوز خطوط تماس رسمت ولا تزال ترسم بين الأحياء، مؤمّناً اختلاطاً بين الفئات الاجتماعية المختلفة (انظر خريطة المستأجرين في المدينة).

كان انهيار مبنى سكني في منطقة فسوح يوم الأحد في الخامس عشر من كانون الثاني من العام ٢٠١٢ ومقتل ٢٧ شخصاً، منطلقاً لحملة واسعة تشكك في شرعية المستأجر القديم وتهدف إلى إقرار مشروع قانون جديد للإيجارات القديمة، ينهي حقبة ٧٤ سنة من نظام ضبط الإيجارات. بدأ «تجمع مالكي الأبنية المؤجرة في لبنان» إطلاق تصريحات شبه أسبوعية يحمّل فيها قانون الإيجارات القديم المسؤولية كاملة عن انهيار المبنى معتبراً أنه يسمح للمستأجرين بالإستيلاء على الملك مقابل مبالغ زهيدة، في حين يتوقع من المالك أن يقوم بأعمال الصيانة.

يعتمد التجمع، الذي عمل أخيراً على تأسيس «نقابة مالكي العقارات والأبنية المؤجّرة في لبنان» وفق قرار صادر عن وزير العمل في ٣٠ كانون الثاني ٢٠١٣، على حجتين أساسيتين في حملته ضد «قانون ضبط الإيجارات». الأولى حجة دستورية تتحجج بأنّ قانون ضبط الإيجارات «الاستثنائي» يقيّد الملكية الخاصة، والثانية تتعلق بالتعويض الذي يجب على المالك دفعه للمستأجر في حال أراد إخلاء المأجور. فقانون الإيجارات القديم في لبنان قائم على مبدأ ضبط الإيجارات، أي إن المالك مقيّد بقيمة بدل الإيجار الذي تحدده الدولة وأيضاً بشروط محددة في حال أراد إخلاء المأجور. يرفض التجمع مبدأ التعويض، وينعته بالـ«فدية»، كون قيمة الإيجار القديم أصبحت منذ انهيار العملة اللبنانية عام ١٩٨٤ لا تشكّل مدخولاً فعلياً للمالك. أمّا ما يعطي الحملة دافعها الأساسي في هذه المرحلة فهو الحالة الطارئة التي ينسجها التجمع عن انهيار المباني. في هذا السياق حذّر التجمع من انهيار أكثر من ٥٠٠ مبنى في بيروت، نقلاً عن رئيس بلدية بيروت، بلال حمد. اليوم تشكّل «الحالة الطارئة» فرصة لفسخ عقد اجتماعي أساسي بين الدولة والمواطن - حيث أنه الإجراء الرسمي الوحيد الفاعل في تأمين السكن في مدن رئيسية مثل بيروت وطرابلس - ولترسيخ مفاهيم توسّع نطاق الملكية الخاصة وتفوّقها على حقوق أخرى في استخدام الأمكنة. يواكب ذلك خلق صورة نمطية تشكك في أهلية من لا يبرز سند ملكية، وبذلك تهمش أكثر من نصف سكان المدينة وتستبعدهم من عمليه انتاج الفضاء المديني لصالح تجار البناء وأصحاب المشاريع العقارية الكبرى.

رسم المدينة والإخلاء

علاقة السياسيين وتجار البناء وطيدة منذ تأسيس الجمهورية اللبنانية (فواز طرابلسي ٢٠٠٧)، مما ساهم


دار المريسة
ميناء الحصن
المرفأ
مدور
راس بيروت
الصيفي
زقاق البلاط
الرميل
الباشورة
المصيطبة
الأشرفية
المزرعة
خريطة توزع المستأجرين القدامى
في أحياء بيروت الإدارية
والأحياء «غير الرسمية» في بيروت الكبرى
مقياس أعداد الوحدات المستأجرة
12,558 8,607 5,276 1,259 389 2
مجموع الوحدات 43,594
أحياء غير رسمية

لاحقاً في خلق أطر قانونية تسمح بالبناء علي أي قطعة أرض للاستفادة منها في السوق العقاري (شربل نحاس ٢٠١٠) على حساب القيمة الاجتماعية والتاريخية للأرض والمصلحة المشتركة في المدينة (منى فواز ٢٠١٠).

تطورت تلك العلاقة وتجلت بتعديل قانون البناء عام ١٩٧١، والذي كان السبب وراء زيادة ارتفاع المباني في لبنان. ما نشهده اليوم من نشاط هائل في تجارة البناء هو نتيجة أيضاً لقانون البناء الجديد الصادر عام ٢٠٠٤ والذي سمح للتجار بالبناء أعلى وأكثر[١]. كما أن عدة قوانين مستحدثة زادت من عامل الاستثمار ونسبة البناء رافعة الحد الادنى للمساحات العقارية اللازمة لإنشاء المباني، مما يصب في مصلحة أصحاب العقارات الكبيرة، ويؤدي الى تهميش أصحاب العقارات الصغيرة وإخراجهم من عملية التطوير العقاري ويشجع أصحاب رؤوس الأموال على شراء عدد أكبر من العقارات في منطقة واحدة من أجل ضمها والاستفادة من القانون إلى أقصى حدوده.

يرافق عمليات التشريع التي تدفع نحو تغيير جذري في فضاء المدينة انتاج صورة معقّمة لبيروت يغيب عنها سكانها. كبرت الحاجة الى ترويج بيروت كمدينة عالمية عصرية مع إعادة إعمار وسط بيروت التي كانت نتائجها طمساً لعلاقات وممارسات اجتماعية واقتصادية وإخلاء سكانه لصالح مشروع سوليدير العقاري

يرافق عمليات التشريع التي تدفع نحو تغيير جذري في فضاء المدينة إنتاج صورة معقّمة لبيروت يغيب عنها سكانها. كبرت الحاجة الى ترويج بيروت كمدينة عالمية عصرية مع إعادة إعمار وسط بيروت التي كانت نتائجها طمساً لعلاقات وممارسات اجتماعية واقتصادية وإخلاء سكانه لصالح مشروع سوليدير العقاري[٢]. تتوسع رقعة هذه الصورة وتتناقل من حي الى آخر لتفرض مقاربة لنمط حياة محظور عن سكان تلك الأحياء. الواجهات الإعلانية لمواقع بناء الأبراج السكنية تتجاهل محيطها وتفرض مكاناً خيالياً يحتم قدرة شرائية عالية. تهدد هذه الصورة الأحياء التاريخية التي تحيط وسط البلد والتي لا يزال المستأجرون القدامى يشكلون نسيجها الاجتماعي. في تهميش الأبنية القديمة المتواضعة وحوالى نصف سكان المدينة القابعين تحت الإيجار القديم، تسيطر الصورة في إنتاج فضاء مديني خال منهم وتمهّد للإخلاء، موحّدة بذلك وضعهم الرسمي بوضع الأحياء «الغير رسمية» في الخطاب العام.

على الرغم من أن جزءاً كبيراً من أراضي بيروت محجوب اليوم عن سوق العقارات (كما في مدن أخرى مثل طرابلس) بفعل قانون الإيجارات (القديم) الذي لا يزال سارياً على الوحدات السكنية والمحال التجارية التي تم تأجيرها قبل عام ١٩٩٢، إلّا أن تركيبة السوق عرضت عدداً كبيراً من المستأجرين لعمليات إخلاء نفذت بفعل إجراءات قانونية وغير قانونية. فالإخلاء قد تم عند إنتاج الصورة، والترويج لصورة بيروت المستقبل هو ترويج للإخلاء، ممّا يخلق حالة عذاب بطيئة عند سكان البيوت المؤجرة بإنتظار الفاجعة (أو الخلاص) في تحقيق الإخلاء. فتصب ممارسات جزائية في خدمة الصورة ومسوغة لها: حفر يعرض بناء مجاور مسكون للإنهيار، هدم بناء بسبب التصدّع لبناء مجاور، تخريب بناء تراثي مصنّف عمداً إلخ. أما الإجراءات القانونية فتتحول الى نزاع في إظهار وثائق وتقارير فنية بين المستأجر والمالك. فالمالكون والمطوّرون العقاريين في تفاوض مستمر مع المستأجرين بالتزامن مع عمليات هدم لكتل مبان في أحيائهم. وقد تمكّن العديد من المطوّرين، الذين هم بدورهم مسؤولون سياسيون أم لهم إرتباطات وثيقة مع نافذين، في شراء منذ وقت طويل العديد من عقارات بيروت التي ما زال فيها أبنية يسكنها مستأجرون من مالكين صغار. فبفعل التسهيلات المقدمة للقطاع العقاري وانخفاض نسبة الضرائب على الأملاك العقارية، يستطيع أصحاب المشاريع الكبرى شراء عدد كبير من العقارات والإنتظار لحين يصبح السوق ملائماً لتنفيذ مشروعهم الجديد[٣].

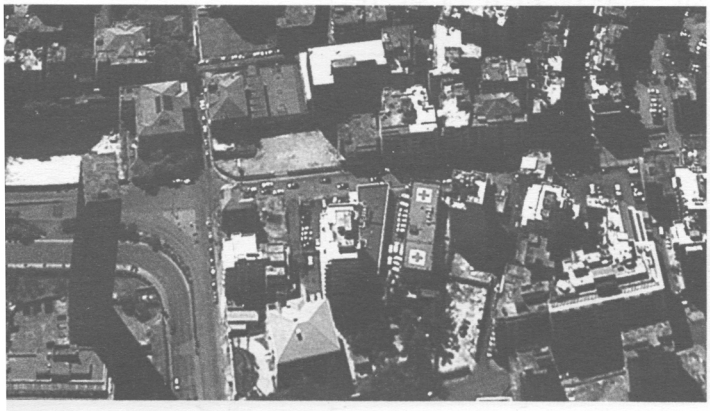
والجدير بالذكر أن التجمعات السكنية غير الرسمية ضمن بيروت الإدارية التي كانت تحميها الزعامات السياسية، بدأت تفقد الغطاء السياسي الذي أمنته هذه الزعامات لمصلحة شركات عقارية تملكها هي بدورها (صيادو الدالية، سكان وطى المصيطبة).

احتل التعويض مكانة أساسية في الدفاع عن الحق في السكن، خصوصاً انه ترسّخ كإجراء تقوم به الدولة اللبنانية ومستثمرو العقارات معاً لإخلاء مبانٍ تمهيداً

١ محمد فواز، «لهذه الأسباب أصبحت المدينة متوحشة وبهذه الشروط نوقف التوحش»، النهار، ١٠ أيار ٢٠١٤

٢ E. Verdeil «Reconstructions manquées à Beyrouth : la poursuite de la guerre par le projet urbain» *Les Annales de la Recherche Urbaine* No.91 (January 91): pp.65-73









لإقامة مشاريع عقارية كبرى. اشتهر وادي أبو جميل باسم وادي الذهب عندما تم إخلاء الحي من سكان لا يملكون عقوداً سكنية رسمية مقابل تعويضات باهظة. كما أنشئ في عام ١٩٩٣ «الصندوق المركزي للمهجرين» لإخلاء النازحين نتيجة الحرب الأهلية. حينها بدأت دعاوى المالكين لإخلاء المستأجرين. في قانون الإيجارات القديم ينطوي التعويض عند الإخلاء على عملية حسابية من نسبة قيمة متر العقار الذي يحدده السوق. سجل ٨٦٦٨ دعوى إيجارات عالقة في آذار ١٩٩٥[٤]. فالمالك القديم أيضاً يرى في عقاره فرصة لتأمين مستقبله ورفع مستوى معيشته في ظل حركة تجارة عقارات متزايدة، وقوانين تشجع على الإستثمار بالبناء على حساب قطاعات منتجة أخرى. في السياق نفسه ومع انسحاب الدولة من مسؤولياتها في رسم خطة سكنية شاملة، إقرار سلسلة الرتب والرواتب، تأمين ضمان الشيخوخة، فرص العمل وحاجات اجتماعية أخرى، يشكّل مفهوم التعويض الوعد الناقص من قبل الدولة ومصدر أمان وحيد للمستأجرين.

يتم التعاطي مع الأرض بشكل متزايد على أنها سلعة في سوق العقارات. اعتبار الأرض سلعة يجردها من بعدها الإجتماعي وإمتدادها التاريخي، عندها تصبح قيمة تبادلها في السوق العقاري الذي تتحدد بحسب كبرها وموقعها، يفوق قيمتها وفقاً لإستخدامها (سكن، عمل، زراعة، حيّز عام) (لوففر، ١٩٩١). لترويج السلعة تسود مفاهيم جديدة تعتبر عامل استثمار الأرض جزءاً من حقوق الملكية الخاصة وأن وضع إطار تنظيمي يحافظ على المصالح المشتركة في المدينة وقوانين ضبط الاستثمار كما الإيجارات، يصب في منطق مصادرة الملكية.

تفريغ العقد القانوني

عملياً بدأ تهميش المستأجرين عام ١٩٩٢ حين صدر قانون جديد للإيجارات يطبّق عند إبرام العقود الجديدة، بينما حصرت الدولة تدخّلها في ضبط إيجارات العقود القديمة. من خلال فصله عن السبل المستحدثة للوصول الى السكن (قروض السكن للتملك، وعقد الاستثمار) تغيّر معنى عقد الإيجار القديم من عقد إجتماعي حدد علاقة الدولة بالمواطن الى وثيقة تفاوض عند الإخلاء.

تدخّلت الدولة اللبنانية لتضبط بدل الإيجار الذي يحدده السوق ولتمدد العمل بالعقود المبرمة من خلال قوانين استثنائية للإيجارات منذ عام ١٩٤١، أي خلال

٣ Social and Economic Development Group Middle East and North Africa Region, «Real Estate Market Activity and Exposure of the Financial Sector in Lebanon» *Document of the World Bank* (15 June, 2010)

٤ المصدر: **المركز العربي للمعلومات** ١٨ نيسان ١٩٩٥

الإنتداب الفرنسي. كان هذا الإجراء تابعاً لنهج الدول الأوروبية في التعامل مع أزمة السكن التي خلفتها الحرب العالمية الأولى. كما أنه استُخدم لإكساب الدولة شرعية في الحكم من خلال اعتماد الرعاية الاجتماعية. فكما الصحة، والتعليم وتوفير فرص العمل، فإنّ السكن هو مسألة أساسية في تأمين حياة لائقة لرعايا الدولة ولكسب تأييدهم.

في الدول التي ابتعدت عن مفهوم الدولة كمصدر للرعاية الاجتماعية لتفسح المجال لسياسات نيولبرالية تعيد هيكلة الإقتصاد (مثال أميركا وبريطانيا)، بدأ إعطاء الأولية للملكية الخاصة والترويج لتملّك المنازل كوسيلة مضمونة للاستثمار على حساب الاستخدام الفعلي (مكان سكن أو عمل). رافق تعزيز الملكية الخاصة إضعاف لتنظيم الإيجارات. ومع ذلك طرحت العديد من الدول سياسات إسكانية تشمل على سبيل المثال لا الحصر، بناء مساكن شعبية، تخصيص وحدات سكنية لذوي الدخل المحدود عند تشييد المباني الجديدة للحفاظ على تنوع الفئات الاجتماعية في تلك الأحياء، فرض ضرائب تصاعدية على الممتلكات الخاصة، تغريم مالكي الشقق الخالية، وفي بعضها قوننة احتلال المباني الخالية أو المهجورة. إضافة إلى ذلك، ما زال ضبط الإيجارات الحل الساري المفعول في العديد من المدن الأميركية والأوروبية. وبذلك تجنبت هذه الدول تكوين تجمعات غير رسمية خارجة عن سيطرتها.

بدأت أزمة سكن مزمنة في لبنان، وخصوصاً في مدينة بيروت وضواحيها، منذ خمسينيات القرن الماضي مع غياب سياسات إسكانية وازدياد مفاجئ للسكان في بيروت حيث وصل عددهم في منتصف السبعينيات الى نحو نصف سكان لبنان. حينها كان واضحاً عدم التطابق بين البيوت المتوفرة ودخل الأسرة، بينما توسعت رقعة التجمعات السكنية غير الرسمية. نشأت هذه الأحياء مع هجرة أهالي الريف الى المدينة، حيث كان البناء غير الرسمي وسيلتهم الوحيدة آنذاك للوصول الى السكن والعيش في المدينة، حيث فرص العمل. أما اليوم فإن البناء في أراضي المشاع أو بشكل غير رسمي لم يعد متاحاً كوسيلة للوصول الى السكن في المدينة.

كان تدخل الدولة لحل هذه الأزمات آنياً، وفي كل مرة تفشل في رسم خطة إسكانية شاملة، خدمت المؤسسات العامة والتشريعات بصورة متزايدة مصالح نخبة اقتصادية تكمن في استثمار العقارات. من جهة أخرى استمر العمل في قانون يضبط الإيجارات كوسيلة تتيح وتحافظ على السكن الشرعي. نُظمت عقود الإيجار من الأربعينيات حتى سنة ١٩٩٢ على مبدأ ضبط الإيجارات وفق ما يسمى الآن «قانون الإيجار القديم»، الذي هو نقيض التعاقد الحر المفعول به الآن للإيجارات الجديدة. أصدرت الدولة أكثر من ٤٠ مرسوماً تُوازن مصالح المستأجر والمالك، فيما خلقت استثناءات لقانون استثنائي لتشجّع على الاستثمار في البناء. أهم هذه الاستثناءات صدر عام ١٩٦٧ وطبق بين ١٩٦٩ و١٩٧٤ وحرر إيجارات «المباني الفخمة» الموجودة والتي ستُبنى. أدى ذلك إلى عملية بناء صنفت جميعها بالفخمة، لهشاشة المعايير المتعلقة بالمصطلح والتي ارتكزت على ميزات كانت قد أصبحت شائعة في السبعينيات (ماء ساخنة، مصعد، تدفئة مركزية، حارس، علبة بريد) (صادق ١٩٩٦). في عام ١٩٧٤، تم إدخال نظام «الإيجار العادل»، وإنهاء مرحلة تحرير عقود إيجار الشقق الفخمة وإخضاعها لضبط الإيجارات، حيث تم إعادة درس احتساب قيمة الإيجار. ظل هذا النظام قائماً حتى عام ١٩٧٧ مع بدء الحرب الأهلية. ففي السبعينيات كان لبيروت أقّل نسبة تملّك مقارنة بالعواصم الأخرى في المنطقة، حيث كان ٧٧٪ من السكان مستأجرين و١٧٪ مالكين.

شهدت فترة السبعينيات[٥] نقاشاً عاماً عن دور الدولة في توفير الأمان الاقتصادي وفق حاجات المواطنين، بينما ارتفعت أسعار السلع وزادت مشاريع البنى التحتية الضخمة[٦]. حينها كان بدل الإيجار يمثّل قسماً كبيراً من مدخول الطبقة الوسطى. كانت الحاجة إلى السكن بأسعار معقولة في سوق الإيجار مناقشة عامة مفتوحة والعديد من الاقتراحات، التي كان من الممكن أن تؤدي الى سياسات إسكانية، كان يجري تداولها في وسائل الإعلام. على سبيل المثال، كان عدد الشقق الشاغرة في عام ١٩٧١ نحو عشرين ألفاً. اقترحت النقابات فرض نظام ضرائب يتم تطبيقه على البيوت غير المؤجرة. كما إقترحت هيكلة بلدية بيروت لتحدد مواقع الشقق الفارغة وتضمن تأجيرها في غضون سنة من إخلائها.

في أوائل الثمانينيات انهارت العملة اللبنانية، بدأ نزوح السكان وهرب المستثمرين، وكان سائداً مبدأ الخلو للحصول على عقد إيجار، وهو بمثابة دفعة أولى لشراء بيت.

حاولت الدولة إصدار قانون طوارئ سنة ١٩٨٣ لمعالجة تداعيات انهيار العملة على قيمة بدل الإيجار، لكنها جوبهت بردة فعل قوية من قبل النقابات والأحزاب

٥ في العام ١٩٧١، كان عدد السكان في المنازل المستأجرة في المدن الرئيسية حوالي ١٢٥٠٠٠ عائلة، مما يعني حوالي ٦٢٥٠٠٠ شخص، أي ما يمثل ٨٥ في المئة من سكان المدن. كان يقدر حينها أنّ ١٠ في المئة فقط من أصحاب الأملاك يعيشون في أملاكهم. خلال هذه الفترة، استخدم مصطلح «المستأجرين القدامى» للإشارة إلى العقود التي أبرمت قبل الاستقلال في ١٩٤٣، وقدر عدد هذه العقود بحوالي ٣٣ في المئة من مجموع المستأجرين. البقية، أي ٦٦ في المئة اعتبروا «مستأجرين جدد» مما يعطي فكرة عن الشريحة العمرية في مجموع «المستأجرين القدامى» اليوم.

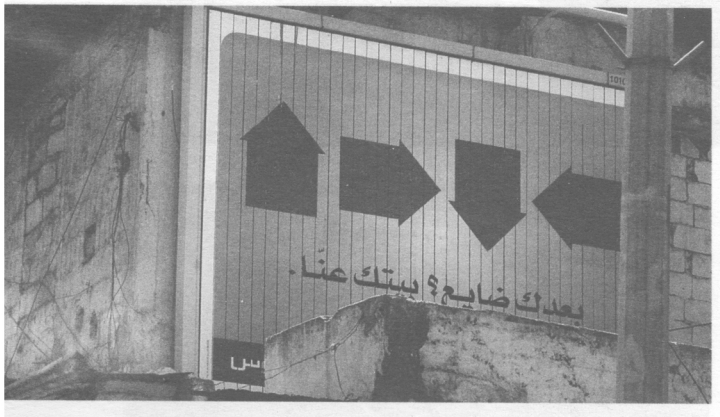
٦ المطار، تطوير الطرقات، أجزاء من مرفأ بيروت.

ومجموعات نيابية والهيئات الشعبية في ظل غلاء المعيشة والوضع الاقتصادي الصعب. في عام ١٩٩٢، حاولت الدولة استبدال قانون الإيجارات بقانون جديد، الا أن إضرابات عمّت المدن رفضاً لذلك. لكن هذه المرة استطاعت الدولة أن تحصر سياسة ضبط الإيجارات وأن تضمن أن عدد الوحدات «الإشكالية» لن يزيد، وأن تعتمد على الوقت كحل لا مفر منه. بذلك أخرجت الدولة اللبنانية المستأجرين القدامى من عملية تطوّر المدينة وأفرغت العقد القانوني من معناه السياسي. فأصبح المستأجرون في وضع يدافعون فيه عن حقوق خاصة مميّزة في حين أن أزمة الوصول الى السكن الملائم تشكّل حالة عامة لطالما كان المستأجرون المحرك الأساسي في فتح مناقشتها.

منذ سنة ٩٤، تضع «لجنة الإدارة والعدل» كل أربع سنوات مشروع قانون لتحرير الإيجارات. وعادة ما تجري «دراسة» هذه القوانين بعدم شفافية ووضوح، كما تتغيّر معاييرها وفق حركة تجارة العقارات. الفرق الجوهري بين المشاريع المقدمة يرتكز على إلزام الطرفين بمعادلة ٤٠٪ من قيمة متر المساحة المبنية يدفعها المالك إن أراد إخلاء المأجور و٦٠٪ منها يدفعها المستأجر للمالك إن أراد شراء المأجور. طبّقت هذه المعادلة بالتراضي في القليل من الحالات، إلا أن الدولة لم تدعم هذا الاقتراح من خلال دراسات لمعرفة الوضع الاقتصادي للمستأجرين والمالكين وكيفية دعم الطرفين لتحقيق ذلك.

على عكس ذلك، فإن القانون الذي صدر أخيراً (والذي أدّى الى نزاع حاد بين نقابة المالكين ولجان الدفاع عن المستأجرين لتثبيته من الأول وإبطاله من الثاني) هو كناية عن برمجة إخلاء المأجور عبر زيادة قيمة الإيجار تدريجياً وفق جدول زمني. كما تخلّص القانون من منطق التعويض إلا في حالة الإخلاء الفوري، ولكن بنسبة أقل ممّا يلزم به القانون الحالي. إصدار هذا القانون هو استكمال لحقبة من الزمن حيث أعيد تعريف مفاهيم عديدة، منها مفهوم الدولة. فالدولة النيولبرالية ليست المسؤولة الوحيدة عن تأمين حياة لائقة للمواطن وخطاب «واجبات المواطن» في صميمها كشرط اجتماعي لتحقيق عفوية نظام السوق» (هيلغرز ٢٠١٢). من هذا المنطلق «تفرض الدولة نفسها مصدراً تقنياً في الحكم يملك الحلول الأكثر كفاءة وعقلانية وواقعية للمشاكل» (هيلغرز ٢٠١٢)، مما يجمّد أي نقاش فعلي لتغيير سياسات تنجم عنها معاناة يومية، ويُخرج حق السكن من المجادلة السياسية.










انهيار مبنى فسوع البداية وليس النهاية
أبنيتنا في خطر الانهيار ؟


كفى كفى اربعين سنة
بيلاش يامستأجرين


تحرير الإيجارات
القديمة
الملاك الفقراء


انهيار مبنى فسوع البداية وليس النهاية
أبنيتنا فى خطر الانهيار ؟


المستأجرين أكلوا
حقوق المغتربين
لجنة المغتربين


يامستأجرين ادفعوا
حقوق المالكين ؟


أبنيتنا تنهار
ولسنا مسؤلين
قانون الإيجارات
الآمنة في أعناقكم

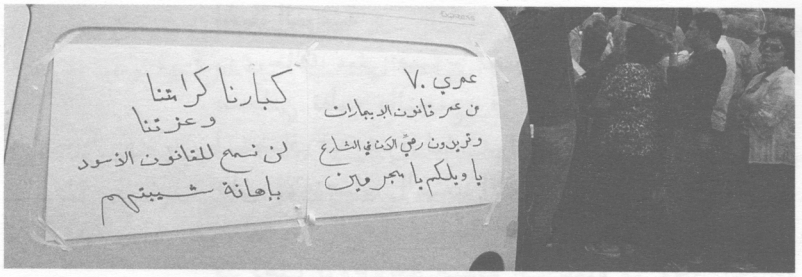

المالكون هم
الفقراء

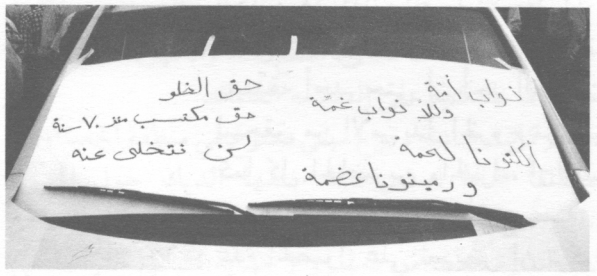

طبقوا
الدستور
أبنيتنا تنهار
ولسنا مسؤلين


وقع القانون
فخامة الرئيس

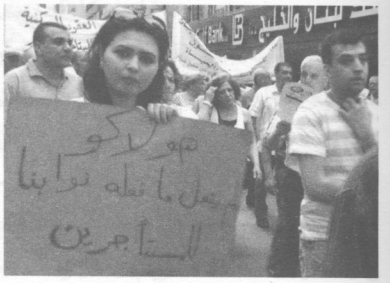

يامستأجرين ادفعوا
حقوق المالكين


عقودنا شرعية. دفعنا كل المتوجبات
لكن أنتم تسرقون
منا الإستقرار والحياة
لجنة المتابعة للمؤتمر الوطني للدفاع عن حقوق المستأجرين


كبارنا كرامتنا
وعزتنا
لن نسمح للقانون الأسود
باهانة شيبتنا
عمري ٧٠
من عمر قانون البلطجة
وتريدون رمي الكنة في الشارع
يا ويلكم يا بجرمين


ذوابل أمة
وذلل ذوابل غمة
أكلونا لحمة
ورميتونا عضمة
حق الظلم
حق مكتسب منذ ٧٠ سنة
لن نتخلى عنه


فخامة الرئيس
لا تتركنا لحيتان المال
الطعن بالمرسوم




من يحمي حقوق المستأجرين.....
أيها المستأجرون ..... ماذا تنتظرون؟
دافعوا عن حقوقكم
لجنة المتابعة للمؤتمر الوطني للدفاع عن حقوق المستأجرين


قانون الإيجار الأسود
بلطوه وائربوا حيتو


الشركات العقارية ماهية القانون التهجيري


المتأجرين القدامى
القانون يجعل
الغريب في وطنه


مبروك
للوبي العقاري
تحرير المستأجرين
من لبنان


مشروع قانون تحرير
العقود السكنية قبل تأمين البديل
فعلاً لا قولاً هو مشروع فتنة بين الأخضر واليابس


الإيجار كان للسكن
الإيجار استثمار

الحياة اليومية

روى مالك مبنى فسوح قصة انهيار المبنى خلال مؤتمر صحافي نظمه «التجمع» في ١٨ كانون الثاني ٢٠١٤ استضاف فيه خبراء ليشهدوا على مخاطر الإيجار القديم على الاقتصاد، البيئة، الاجتماع، التراث، والسلامة العامة. قال الرجل إن أخاه الذي يسكن في المبنى المنهار قد ذهب يوم الأحد صدفة إلى عمله في محل الخياطة الكائن في المبنى نفسه. لاحظ أن غبائر تتساقط من المبنى، فخرج منه وبدأ ينادي القاطنين للخروج. لم يصدّقه أحد. حتى أن أحد القاطنين صعد الى السطح ليتحقق من الأمر بدل الخروج من المبنى. يستنتج المالك، كما كل الحاضرين والخبراء، أن المستأجرين «مستغنين عن حالهم» وهذا هو الجشع بعينه، إذ إن مخاوفهم من عدم الحصول على تعويض إن تركوا بيوتهم يفوق ثمن أرواحهم. لا تجيب هذه الاستنتاجات - التي تحمّل الضحية المسؤولية - فعلياً عن سبب عدم خروج المستأجرين من المبنى المصدّع بعد انذارهم. تذكّر هذه التراجيدية برواية غسان كنفاني، «رجال في الشمس» التي تنتهي تاركة السؤال: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟» لينقذوا أرواحهم بدل الموت خنقاً، عندما تأخر سائق الشاحنة في نقطة الحدود الذي يهرّب الرجال الفلسطينيين الثلاثة الى الكويت. أهو الأمل بأن يعبروا هذه النقطة الحدودية وأن يصلوا الى الكويت، حيث الثروة والنفط، أم هو اليأس؟». هل لم يستطع قاطنو مبنى فسوح التخيّل أن المبنى سيقع فعلاً، أم أن لا مكان آخر لديهم للجوء إليه؟

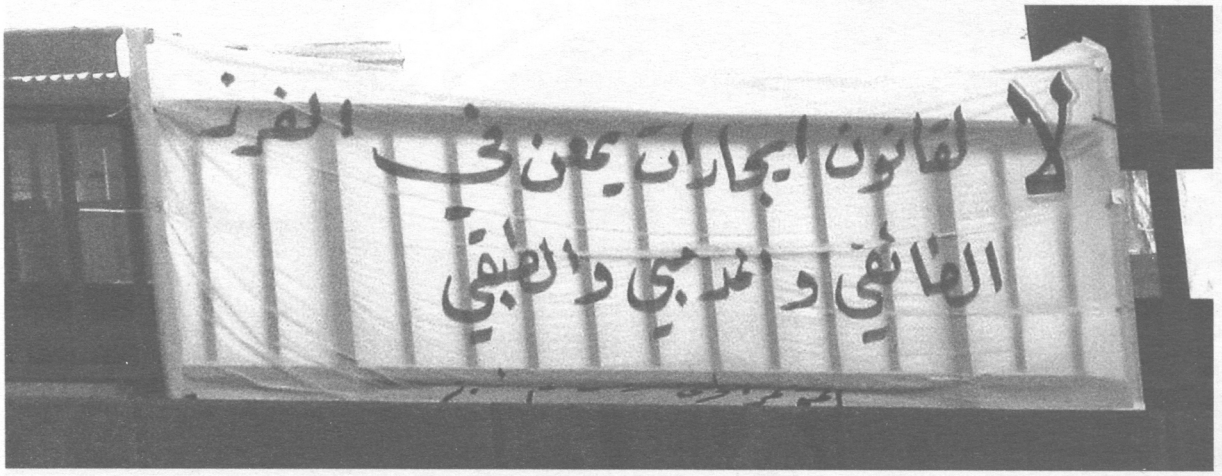
بالإضافة الى تجريم المستأجر، يخلق التجمع صورة نمطية له ويبلورها من خلال إطلاق افتراضات وادعاءات عامة: «محتل غير شرعي»، «عنده بيت بالمدينة وبيت آخر بالضيعة»، «أغنى من المالك وساكن بالمجّان»، «أولادهم يتعلمون بأحسن جامعات وأولادنا يصبحون في الغربة»، «شيوعيون، يصادرون الملك الخاص». يذكّر خطاب مماثل بالتصنيف السائد للأحياء الشعبية التي تعتبر غير رسمية في بيروت وضواحيها. من شأن هذا التصنيف أن يصرف الانتباه عن أماكن يعيش فيها الناس وفهم صراعاتهم اليومية للبقاء جزءاً من المدينة. أخذ هذه الصراعات بعين الاعتبار يشكّل شرطاً أساسياً في رسم سياسات وتخطيطات مدينية مجدية لأهلها.

انخرط المستأجرون في معركة إعلامية وقانونية للطعن في القانون الجديد. ظهر جيل السبعينيات والستينيات في شوارع أحياء مختلفة من بيروت (فرن الشباك، وطى المصيطبة، ساسين، مار الياس، الحمرا) ليرفضوا تهميشهم والظلم الذي يهددهم كما ليعيدوا رسم الصورة التي تتناقل عنهم. عمد المستأجرون إلى إظهار أعمارهم، علاقتهم الوطيدة مع أحيائهم وتنوعهم الطائفي والمناطقي.

مع أن المستأجرين يرمزون الى ثقافة دولة القانون بحكم عقد الإيجار الذي حتّم بناء علاقة سياسية بين المواطن والدولة خارج سيطرة السوق، إلّا أن شرعية هذا العقد مهددة اليوم عبر إخضاعه لمصالح خاصة غايتها إخلاء المباني والاستثمار العقاري.

من خلال ثلاث قصص إخلاء، الأولى لمبنى سكني قديم في منطقة عين المريسة، الثانية لمحل تجاري في منطقة الحمرا، والثالثة لتجمع سكني غير رسمي في وطى المصيطبة، تظهر هشاشة القانون كمصدر لتحقيق العدالة الاجتماعية، وعقم عقد الإيجار القانوني وانتقائية الدولة في فرض سلطتها.

فسكان بيروت من ذوي الدخل المحدود لا يواجهون خطر الإخلاء بسبب وضعهم القانوني، إنما جرّاء سياسات



تعتبر وجودهم عقبة في وجه التطوير العمراني. يؤدي ذلك الى ممارسات مجحفة ومهينة بحق السكان تمكّنها سياسات

مع أن المستأجرين يرمزون الى ثقافة دولة القانون بحكم عقد الإيجار الذي حتّم بناء علاقة سياسية بين المواطن والدولة خارج سيطرة السوق، إلاّ أن شرعية هذا العقد مهددة اليوم عبر إخضاعه لمصالح خاصة غايتها إخلاء المباني والاستثمار العقاري

تسخّر الشرعية والقانون لمصالح خاصة وتُدخل السكان في محنة إثبات «شرعيتهم» للبقاء في المدينة.

القصة ١: الإخلاء وخدعة السلامة العامة

في منطقة عين المريسة، حيث سعر متر الأرض يصل الى ١٢ ألف دولار، يقع مبنى الديك مطلاً على المتوسط ومقابلاً لجامع عين المريسة «الأثري». يتألف مبنى الديك من ثلاث طبقات كان قد سكنه: في الطابق الأرضي جانيت التي ولدت هناك في الأربعينيات، عناية في الطابق الثاني، وهي المالكة الوحيدة لشقتها، اما الطابق الثالث فسكنته جورجيت منذ طفولتها وبعد ذلك مع زوجها أحمد.

ذات يوم بعد الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز ٢٠٠٦، قرر الديك، مستغلاً الفراغ الإداري حينها، أن يهدم بناءً ملاصقاً للبناء الذي نحن في صدد الحديث عنه، ومن دون أن يحصل على رخصة هدم من بلدية بيروت، قام بذلك.

رفعت عناية دعوى ضد الديك متهمة إياه بالتسبب في تصدعات أصابت البناء الذي تسكنه، لكن سرعان ما أُسقطت الدعوى بعدما اشترى الديك حصّتها.. وتخلص من الحق العام أيضاً بدفع مبلغ زهيد من المال تعويضاً عن جرمه.

لم ينجُ الديك من تهمة الهدم غير القانوني فحسب، وإنما استخدم حجة تصدّع البناء ليبدأ عملية إخلاء البناء. فأتى في ٢٠١٠ بتقرير من مهندس مدني ينسب التصدعات الى قدم عهد البناء ويستنتج أن وضعه الحالي يشكل خطراً على السلامة العامة «فانهيار أجزاء من واجهاته نتيجة التصدع أمر ممكن والانهيار الجزئي أو الكلي للمبنى كذلك ممكن، خصوصاً في حال حدوث هزات أو في حال حفر عقارات مجاورة بشكل عشوائي، دون اتباع القواعد الهندسية التي تفرضها نوعية الأرض ووضع الأبنية المجاورة..».

لا تصدّق جورجيت «بدعة» انهيار المبنى. تقول: «أكيد ما بيوقع، معمّر على صخر». فهي تعرف عين المريسة عندما كان البحر يصل الى الجامع وقبل تشييد آخر جزء من الكورنيش في ١٩٧٣.

بدأت التهديدات للقاطنين بوجوب الإخلاء، ورافقها مجموعة إجراءات متمثلة بقطع الماء والكهرباء عن البناء «حفاظاً عليكم وعلى السلامة العامة».

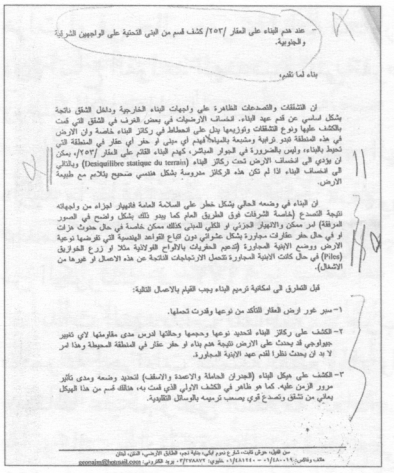
وكانت حادثة وقوع مبنى فسوح في منطقة الجعيتاوي، منطلقاً لحالة استعراضيّة خلقها الديك حول المبنى، محولاً جدرانه البيضاء الأنيقة ذات الشرفات مع القناطر – والذي صُنّف في «مشروع حماية المباني التراثية في محيط وسط بيروت» عام ١٩٩٦ كمبنى تراثي – الى لوح اعلانات يمرر من خلاله خطته لزرع الشك في متانة المبنى وأمانه. فطبع بالأزرق وبأحرف كبيرة على الجهتين الأماميتين للمبنى «خطر وقوف السيارات / خطر الوقوف في هذا المكان».

بدأ الإخلاء مع جانيت المرضة التي تسكن الطابق الارضي والتي تعرف الديك حق المعرفة، فقد كبرا معاً في ذلك الحي. لم تتزوج جانيت فأصبح البيت بيتها بعدما سكنته مع أهلها وتشاطرته مع زوجة أخيها التي كانت في رعايتها.

ضغط الديك مراراً وتكراراً على جانيت لإخلاء المنزل والقبول بالتعويض الذي حدده هو من دون الرجوع الى القضاء، مبرزاً لها مستندات موقّعة من كاتب العدل

وضّبت جانيت أغراضها، جمعت الكتب، أشعلت فيها النار وتركت الأثاث ليأخذه من يريد. وصلت صديقتها في الوقت المناسب لتجدها مرتدية ثوبها الأبيض ممددة على سريرها، بعدما حقنت نفسها بالـ«سبيرتو»، محاولة إنهاء حياتها قبل رحيلها عن ذلك المنزل.

كإثباتات لا جدل فيها بأن وضعها لا يوجب التعويض وبأن عرضه المادي المشترط بالإخلاء الفوري للمنزل هو أفضل ما قد تحصل عليه.



عقد هدم البناء على العقار /٢٥٣/ كشف قسم من المباني المتحقة على الواجهتين الشرقية والجنوبية.

بناء لما تقدم،

أن التشققات والتصدعات الظاهرة على واجهات البناء الخارجية وداخل الشقق ناتجة بشكل أساسي عن قدم عهد البناء، انفصال الأرضيات في بعض الغرف في الشقق التي قمت بالكشف عليها وفرع التشققات وتفريعها وبدل على الحطاطة في ركائز البناء خاصة وأن الأرض في هذه المنطقة تعتبر ترابية ومشبعة بالمياه/المياه التي دبيل أو حفر أبي عقار في المنطقة التي تحيط بالبناء، وليس بالضرورة في الجوار المباشر، كهدم البناء المقام على العقار /٢٥٣/، يمكن أن يؤدي الى انفصال الأرض تحت ركائز البناء (Deniquilibre statique du terrain) وبالتالي الى انفصال البناء لذا لم تكن هذه الركائز مدروسة بشكل هندسي صحيح يتلاءم مع طبيعة الأرض.

أن البناء في وضعه الحالي يشكل خطر على السلامة العامة فالمهيار اجزاء من واجهاته نتيجة التصدع (فاصلة) الشرفات فوق الطريق العام كما يبدو ذلك بشكل واضح في الصور المرفقة) لمر ممكن والانهيار الجزئي أو الكلي للمبنى كذلك ممكن خاصة في حال حدوث هزات أو في حال حفر عقارات مجاورة بشكل عشوائي دون اتباع القواعد الهندسية التي تفرضها نوعية الأرض ووضع الأبنية المجاورة (كدعم الحفريات بالأنواع الفولاذية مثلاً أو زرع الخوازيق (Pilot) في حال كانت الأبنية المجاورة تتصل الاارتجاجات الناتجة عن هذه الاتصال أو غيرها من الأشكال).

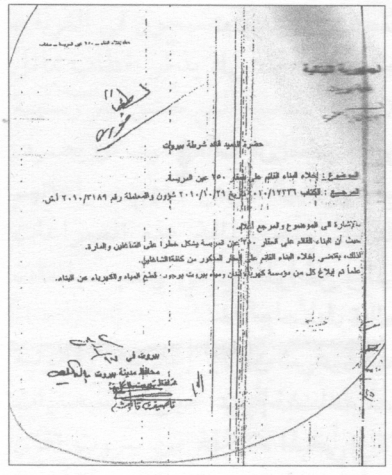
قبل التطرق الى امكانية ترميم البناء يجب القيام بالأعمال التالية:

١- سبر غور ارض العقار للتأكد من نوعها وقدرت تحملها.

٢- الكشف على ركائز البناء لتحديد نوعها وحجمها وحالتها لدرس مدى مقاومتها لاي تغيير جيوارجي قد يحدث على الارض نتيجة هدم بناء أو حفر عقار في المنطقة المحيطة وهذا امر لا بد ان يحدث نظراً لقدم عهد الابنية المجاورة.

٣- الكشف على هيكل البناء (الجدران الحاملة والاعمدة والاسقف) لتحديد وضعه ومدى تأثير مرور الزمن عليه. كما هو ظاهر في الكشف الأولي الذي قمت به، هنالك قسم من هذا الهيكل يعاني من تشقق وتصدع قوي يصعب ترميمه بالوسائل التقليدية.

من الفيلا حرش ثابت، شارع سمير قبلان، خلف الملجأ العسكري، الشياح، لبنان
ص.ب ١٩٨٠-١٤ - هاتف ٠٣/٢٣٨٨٧٧ - فاكس: ٠١/٤٨٤٤٤٠ - بريد الكتروني: aroosim@hotmail.com



الجمهورية اللبنانية
بلدية بيروت

حضرة السادة مالكي وشاغلي العقار رقم ٢٥٠ عين المريسة
السادة عماد الدبك – محمد أحمد حلواني – غابة الحوت

الطوابق: عين المريسة – مفترع من شارع ابراهيم قرب جامع عين المريسة

الموضوع: وضع البناء القائم على العقار ٢٥٠ عين المريسة.
المرجع: إخبار اسكم رقم ٠١٢/٥٤٧٠ – ٠١٢/٥٧٤٠ – ٠١٢/٧٣٦٣ – ٠١٢/٨٤٧٢ – ٠١٢/٢١٧٦ شؤون إدارية.

بالإشارة الى الموضوع والمرجع أعلاه،
وبالاستناد إلى كشف الإدارة على العقارين ٢٥٠ – ٢٥٣ عين المريسة،
ويعد درس إخباراسكم نعلمكم بأن ما قامت به الإدارة البلدية لجهة توجيه الإنذارات وطلب الإخلاء وقطع المياه والكهرباء عن البناء هو من سلب صلاحياتها وتطبيقاً للقوانين النافذة، الهدف الحؤول دون وجود خطر عليكم وعلى السلامة العامة، وبالتالي فإن إخباراسكم المذكورة بالمرجع أعلاه تكون في غير محلها القانوني وتفي سلامتكم والسلامة العامة من مسؤولياتكم وحكمكم وذلك بسبب عدم الإلتزام بتنفيذ تعليمات الإدارة.

أما فيما يتعلق بالنزاع القائم فيما بينكم فإن القضاء المختص هو الجهة الوحيدة لحله ويبقى عليكم الإلتزام بتعليمات الإدارة لحين البت به.

بيروت في
محافظ مدينة بيروت

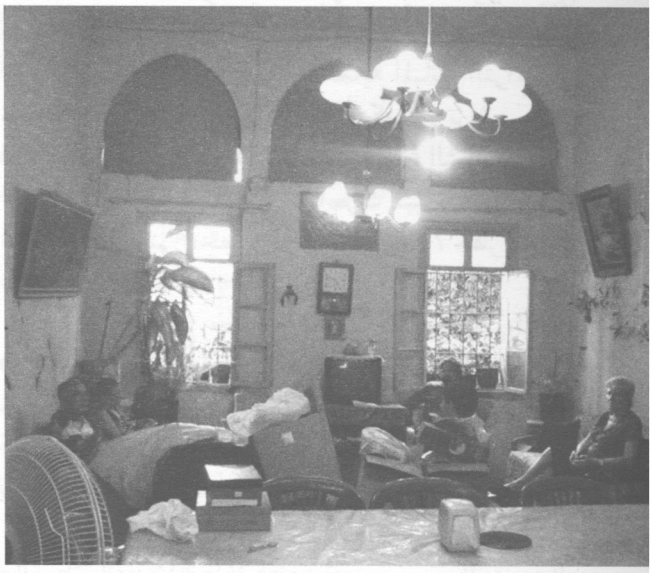
حضرة السيد قائد شرطة بيروت

الموضوع: إخلاء المبنى القائم على عقار ٢٥٠ عين المريسة
المرجع: الكتاب ٢٠١٠/١٢٢٦ تاريخ ٢٠١٠/١٠/٢٩ شؤون والمصلحة رقم ٢٠١٠/٣١٨٩ آنف.

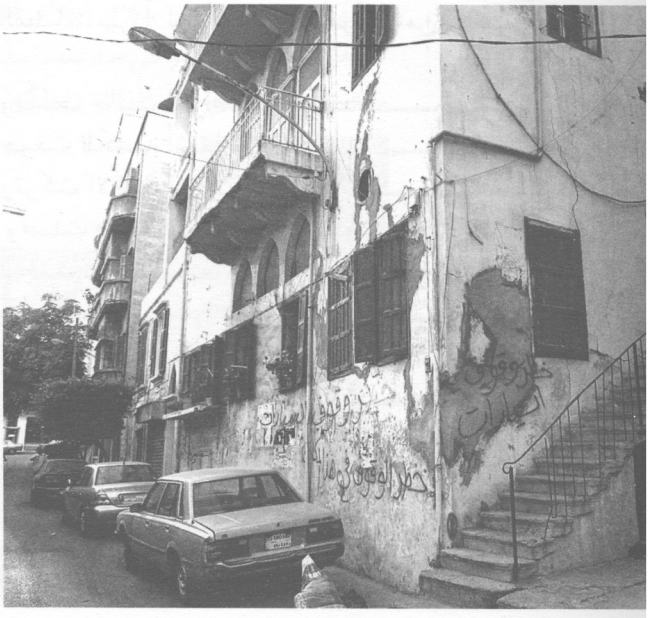
بالإشارة الى الموضوع والمرجع أعلاه،
حيث أن البناء القائم على العقار ٢٥٠ عين المريسة بشكل خطراً على المتاخمين والمارة.
لذلك يقتضي إخلاء المبنى القائم على العقار المذكور من كافة الشاغلين.
علماً أنه تم إبلاغ كل من مؤسسة كهرباء لبنان وحضرة بيروت شطح المياه والكهرباء عن البناء.

بيروت في
محافظ مدينة بيروت









بعد رفضها المتكرر للاخلاء، تجاوز الديك جانيت وأكمل مفاوضاته مع أخيها الذي قبل العرض ليتمكن من إكمال علاج زوجته، فتم التوقيع بموافقة جانيت المرغمة وقُسّم مبلغ التعويض بينها وبين زوجة أخيها.

وضّبت جانيت أغراضها، أغراض لا تعرف مكاناً آخر تكون فيه، جمعت الكتب، أشعلت فيها النار وتركت الأثاث ليأخذه من يريد. وصلت صديقة جانيت في الوقت المناسب لتجدها مرتدية ثوبها الأبيض ممددة على سريرها، بعدما حقنت نفسها بالـ«سبيرتو»، محاولة إنهاء حياتها قبل رحيلها عن ذلك المنزل.

بقي الطابق الثالث حيث محمد وجورجيت اللذان لم يصدّقا أن الديك يستطيع إرغامهم على الإخلاء. تابع الزوجان قضية بيتهما عبر القضاء آملين أن تطول الدعوى الى أن يصدر حكم التعويض وفق قيمة العقار الحقيقيّة وطول المدة التي سكنا فيها البيت، إذا ما لزم الإخلاء في النهاية. إلا أن الديك أبرز ورقته الأخيرة فجأة، وكان ذلك إنذاراً من قائد شرطة بيروت يقضي بإخلاء البناء من كافة الشاغلين بغية ترميمه، مع أن قضية الإخلاء الفوري مفصولة عن أهلية عقد الإيجار وإمكانية الرجوع الى البناء بعد الترميم الواجب إتمامه كما تفضي التقارير التي حصل عليها المالك، إلا أن محمد وجورجيت قبلا بالتعويض مقابل الإخلاء. لم يكن الزوجان ليخضعا ويقبلا التعويض الذي حدده الديك مقابل فسخ عقد الإيجار لو وجدا نفسيهما في بلد يحفظ الحق في السكن ويحاسب على الإنتهاكات. فقد كان من الممكن أن يعودا الى المنزل بعد الترميم، لكن كيف يدفعان إيجار سنة وقيمة الإيجارات الجديدة تتخطى الإمكانات؟ وما الذي يضمن أن عاصفة ما لن تلام على «سقوط» البيت؟

استند الديك في إخلاء القاطنين إلى ضرورة ترميم المبنى، بينما تجري العادة على أن يتم إخلاء المستأجرين القدامى في حالة الهدم. لكن الحصول على رخصة هدم لهذا المبنى بالتحديد أمر صعب لكونه بناءً مصنّفاً كقيمة تراثية، أضف الى ذلك أن الإخلاء في هذه الحالة سيأخذ وقتاً أطول إذا ما تم عبر القضاء، معطياً المستأجر قدرة على التفاوض على تعويض أكبر.

يستعرض الديك المستندات الملصقه على الجدران كما يستعرض السقالة التي ركّبها على المبنى ليعلن أنه بدأ مرحلة الترميم وليبدد الشكوك التي راجت بأنه خدع المستأجرين بقصة الترميم. يقوم بأعمال الترميم المزعومة شابان يحيطان المبنى بقضبان معدنية ويمررانها من داخل غرف المبنى بينما ينزعان ملابن الشبابيك والأبواب ويهدمان الشرفات ويزيلان درابزين الدرج ويقتلعان البلاط المزخرف من جميع الغرف. وإذا ما سئل الديك عن أسباب كل تلك الأعمال التخريبية للبناء، أجاب أنها بداعي الترميم.

اليوم شكل البناء من الخارج يثير الارتياب، فمن الداخل ورشة واضحة تسبق الهدم أو بالأحرى في مرحلة الهدم حيث جميع الغرف أرضها عارية من البلاط ومغطاة بالرمل وفي بعضها أحجار كبيرة منزوعة من جدران المبنى.

في هذه الأثناء وقعت أجزاء من بيت مهجور مجاور لمبنى الديك على يمين ميناء عين المريسة بعد ليلة عاصفة ليتبين بعد ذلك أن المالك قد أمر بهدمه.

القصة ٢ : التاجر، المالك، القاضي ولاريس

تقع «عنتوري ماركت» في شارع المقدسي، في الحمرا، بجانب «محمصة اديسون». زوج لاريس هو من بدأ مشروع السوبرماركت منذ ٤٥ سنة، وكان اخوه حينها ايضاً يملك محل حلويات مشهوراً بجانب محله. كما أنه استأجر لاحقاً شقة في المبنى ذاته لتصبح بيته الزوجي بعد زواجه من لاريس. في العام ١٩٧٨ اختطف زوج لاريس على خط تماس عين الرمانة / الشياح، وأصبحت لاريس وحدها تعيل ولديها سمير ونبيل من أرباح مبيعات المحل.

السوبر ماركت مقصود من قبل سكان المقدسي والحمرا، لكونه محلاً كبيراً ويبيع منتوجات قد لا تتوفر في المحال الأخرى المجاورة. كما أن للعائلة قصة قديمة مع الحي، وبنَتْ لاريس على طول تلك السنين علاقة طيبة مع محيطها وجيرانها.

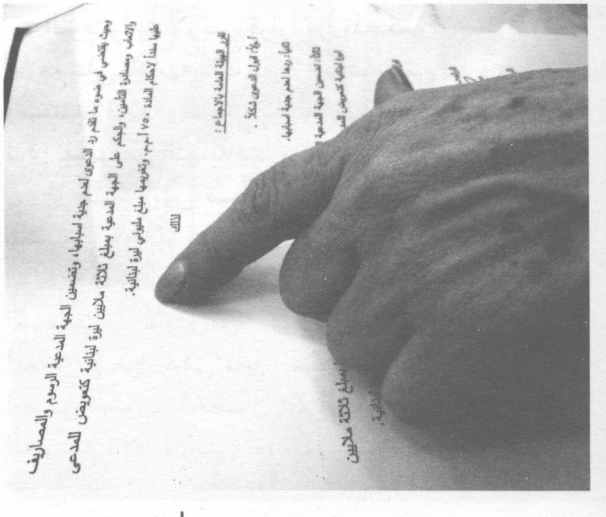
اليوم تواجه لاريس قراراً من المحكمة بالإخلاء، وتبدو عازمة على مجابهة ذلك القرار، مدعومة من المارة والجيران، ومستمدة قوتها وثقتها بما تفعله من كلماتهم المتفهمة، فهي ترى نفسها في النهاية صاحبة حق، تدافع عنه.

فقدت لاريس صمام الأمان عندما حكمت المحكمة بتعويض إخلاء بما لا يناسب غلاء المعيشة. رفع المالك دعوى لطرد لاريس من البيت والمحل كما باقي المستأجرين لأول مرة سنة ١٩٩٥، تزامناً مع إخلاء المهجرين من المبنى ذاته. استطاع المالك منذ ما يقارب الخمس سنوات الحصول على أحكام تناسبه من جهة التعويض، إنما لاريس تعتبرها غير عادلة للمستأجرين.




PaindOr
BAKED HERE
حضرة وزير العدل، سيدي القاضي، حضرات المستأجرين
هذه ليست سوبر ماركت آريال شارون
بقد سرقتم
٦ عائلات
بـ ٢٠٠٠ $ ؟؟؟
الله ظالم ظالم ظالم!


٦ عائلات
هذا الحاكم ليس له
علاقة بالعدل



لكن ظروف المستأجرين الخاصة وخطة المالك في التعاطي مع ساكني كل شقة على إنفراد حالت دون نشوء تضامن بينهم بما يصب في مصلحة قضيتهم.

ومنذ ذلك الحين، وفي كل مره يتم إخلاء شقة، يقوم المالك بتخريب أجزاء إنشائية في البيت ليظهر المبنى وكأنه غير مؤهل للسكن.

عشر سنين ولاريس تنتظر إصدار الحكم. أصابها الإحباط وهي على يقين أنها ستخلي البيت والمحل عاجلاً أم آجلاً. أصبح أملها الوحيد التعويض العادل. منذ سنة ونصف سنة، صدر الحكم وتحددت قيمة التعويض على أساس أن قيمة متر الأرض في الحمرا تساوي ٢،٢٠٠$ وهو ما ينقضه كل من يسكن في بيروت. بالمقابل تم تخمين متر الأرض من قبل الخبير المسجل في النقابة التي استعانت به لاريس بـ ١٢،١٥٠$. وفق ذلك وبعد بحث مكثف ومرهق قامت به لاريس وولداها على طول شارع المقدسي بتجميع مستندات تظهر تخمينات عقارات أخرى وأحكام تعويضات بمبالغ أعلى وعقود إيجارات جديدة بأسعار مرتفعة[٧] – قدّمت لاريس كل ذلك كإثباتات ـــ ورفعت دعوى تمييز لنقض الحكم.

بدّل المالك محاميه عدة مرات الى أن رسا على محامية، زوجها قاضي شورى الدولة، حصلت منذ سنة ونصف سنة على حكم لصالحه في قضية لاريس. قررت لاريس عندها رفع القضية أمام محكمة التمييز، اي طلب إعادة

> بدأت لاريس بإخلاء المحل خوفاً من تنفيذ إخلاء بالقوة يتلف بضاعتها. لكنها في غضون ذلك نقلت بعض أغراضه الى الشارع وسجّلت احتجاجاً علنياً.

النظر في الدعوى بناء على خطأ جسيم تم ارتكابه. الفارق الشاسع بين ما طلبته لاريس وما حكمت به المحكمة - الفرق بين ٩٠ ألف دولار و٩٠٠ ألف دولار - هذا هو الخطأ التي ترتكز عليه لاريس مرفقاً بالمستندات الثبوتية.

هي دقيقة في موقفها، فهي تعترض خصوصاً على تعويض المحل الذي يقسم المبلغ الى ٦٦ ألف دولار تعويض محل و٢٥ ألف دولار تعويض سنوات العمل. مبيعات هذا المحل تشكل مدخولاً شهرياً لخمس عائلات: لها، لولديها وعائلتهما (حيث تسكن إحداها معها في البيت فوق المحل) ولعائلات عاملين في المحل.

أسقطت الدعوى وغرّمت لاريس ٥ آلاف دولار جراء هذه الخطوة وتحملت الأتعاب. من الـ٩٠ ألفاً، تكون لاريس قد أنفقت أكثر من نصفها مصاريف دعاوى وأتعاب ومعاملات. «أنا ماني حدا وما بعرف حدا» تقول لاريس «ولكن أن أكون مدعوسة من الدولة اللبنانية ففشر فيهم».

جاءها الدرك ليغلقوا المحل بالشمع الأحمر ولينفّذوا الإخلاء. كانت قد أرسلت كتاب استرحام لتأجيل الإخلاء لكون الأولاد (أحفادها) «بعدهم بالمدارس». بدأت لاريس بإخلاء المحل خوفاً من تنفيذ إخلاء بالقوة يتلف بضاعتها. ولكنها في غضون ذلك نقلت بعض أغراضه الى الشارع وسجّلت احتجاجاً علنياً. وفي ضوء ذلك نُفّذ اعتصام يوم الثلاثاء ١ حزيران ٢٠١٤، حشد لها متضامنين مع قضيتها.

وبالرغم من أن كثيرين نصحوها بألا تقدم على هذا النوع من الخطوات الاحتجاجية إن لم تكن مدعومة سياسياً، إلا أن لاريس اعتبرت تعاطي الدولة اللبنانية معها أمراً شخصياً، فهي طالما كانت المواطنة المثالية الشرعية، وساهمت في تاريخ مجتمعها المحلي، وكانت جزءاً من مآسيه. وفي النهاية تقول لاريس «ما معنا مطرح نشتغل، ولا ليرة بجيبتنا، وما في محل نروح». استمرت لاريس في اعتصامها حوالى العشرة أيام، فعّلت خلالها اتصالاتها لرفع قضيتها من مسألة خاصة الى مسألة عامة مطالبةً بمحاكمة جديدة عادلة. بعد فترة أتت القوى الأمنية باكراً وتم الإخلاء.

القصة ٣: الإحصاءات وخدعة المساكن الشعبية

أثناء اجتماع «لجنة الدفاع عن حقوق المستأجرين» في مقر «الاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين في لبنان» في منطقة وطى المصيطبة، تظاهر سكان الحي المجاور، إثر استدعائهم على خلفية دعوى قضائية من شركة «الوطى العقارية» ضدهم (٥١ اسماً وكل من يظهره التحقيق مقيماً في وطى المصيطبة في العقار ٢٢٠٧) وصفت جرمهم على أنه «احتلال ومصادرة واغتصاب عقار واستغلاله مادياً» في سبيل «... إلزامهم بإخلاء العقار ... وإزالة جميع التعديات المذكورة على نفقتهم الخاصة، كما إلزامهم بدفع العطل والضرر وبدلات الإشغال عن الفترة التي شغلوا فيها العقار...».

منطقة وطى المصيطبة الشعبية هي أقدم تجمع غير رسمي في العاصمة وأكبرها ضمن بيروت الإدارية. تبلغ مساحتها ١٧،٠٠٠ متر مربع. تشير الصحيفة العقارية إلى أن شركة الوطى أصبحت تملك منذ عام ٢٠٠٩ العقار

٧ السفير، «عائلة عنتوري «ضحية» تلاعب قضائي بالسكن والعيش»، زينب ياغي - ٣١ أيار ٢٠١٤

نـذ فترة زمنية غير وجيزة، عَمَدَ المدعى عليهم المذكورين أعلاه، إلى التعدي على العقار المذكور إحتلاله ومُصادرته دون أي وجه حق أو ثمة مُبرر، بهدف الإستغلال المادي والتجارة، وتلك وقائع ثابتة ومؤكدة من خلال التقرير الفني المنظم من قبل الخبير المهندس جهاد الحجار المُرفق سورة عنه ربطاً (مستند رقم ٤) .

ن تلك التعديات والمخالفات الصارخة لأبسط القوانين المرعية الإجراء، تتمثل بإقدام بعض المدعى عليهم، وفقاً لما إستثبته الخبير المذكور على إستحداث إنشاءات وتركيب العديد من " التخشيبات" إستثمارها وتأجيرها دون أن يكون بحوذتهم أي سند تمليك أو أقله عقد إيجار، وأكثر من ذلك عَمَدَ بعض الأخر إلى المتاجرة بالعقار الآنف الذكر عبر تشييده بعض المساكن خلافاً للأصول والقوانين تي تُجيز ذلك، وبيعها أو تأجيرها مما ألحق بالعقار المُشار إليه، وبأصحاب الحقوق، أضراراً فادحة جسيمة مادية أو حتى معنوية .

وبما أن الأفعال الموصوفة أعلاه تؤلف الجرائم المنصوص عنها والمُعاقب عليها في المواد (٧٣٦ ٧ و ٧٣٨) عقوبات، والتي نصت على ما حرفيته :

« إذا أرتكب الجرم المذكور تسهيلاً لغصب أرض بالتهديد أو الجبر الواقع على الأشخاص عوقب الفاعل بالحبس من شهرين إلى سنة ..... »

(المادة ٧٣٦) ع .

« من لا يحمل سنداً رسمياً بالملكية أو بالتصرف وإستولى على عقار أو قسم من عقار بيد غيره عوقب بالحبس من شهر إلى سنة ..... »

(المادة ٧٣٧) ع .

أسس المعتمدة للإجابة على المهمة

- معاينة كامل الإنشاءات القائمة على العقار رقم ٢٢٠٧/المصيطبة من وحدات تجارية أو سكنية ووصفها بشكل عام وإجراء الكيول التقريبية من الداخل (حيث أمكن) أو من الخارج بهدف تحديد المساحة التقريبية لكل وحدة.
- سؤال شاغلي الإنشاءات عن مسوغ الإشغال والإستحصال على صورة عن المستند المذكور في حال وجوده وإبرازه إلينا من قبل شاغل أو مستثمر هذه الإنشاءات.

في الإفادة العقارية (مستند رقم ٤)

- العقار رقم ٢٢٠٧/المصيطبة عبارة عن "*قطعة أرض رملية محتوية على أشجار أشجار توت وبيت من حجر للسكن مؤلف من غرفتين وبيت آخر من حجر أيضا مؤلف من غرفتين* ".
- تبلغ مساحة العقار ١٣٠٨١ متراً مربعاً.
- دوّن على الإفادة العقارية قيود إحتياطية ببيع أسهم بعض المالكين لمصلحة المستدعية "شركة الوطنى العقارية ش.م.ل" على النحو التالي:

الرقم	التاريخ	القيود الإحتياطية	عدد الأسهم
٧٣٨	٢٠٠٩/٣/٦	عقد بيع حصة تيودور وجيزيل تيودور رزوق لمصلحة شركة الوطنى العقارية	١٣٣,٣٣٣
٧٣٩	٢٠٠٩/٣/٦	عقد بيع حصة انطوان الدكتور الفرد عطية ونينا الدكتور الفرد عطية وجوزيان الفرد عطية لمصلحة شركة الوطنى العقارية	٤٤,٤٤٤
٧٤٠	٢٠٠٩/٣/٦	عقد بيع حصة زينة أدمون بويز لمصلحة شركة الوطنى العقارية أعيد لإتمامه	١١٣,٦٩٧
٧٤١	٢٠٠٩/٣/٦	عقد بيع حصص نجيب وليلى ومنى باسيل طراد لمصلحة شركة الوطنى العقارية أعيد لإتمامه	٢٠٠,٠٠١
٧٤٢	٢٠٠٩/٣/٦	عقد بيع حصص كمال أنطوان سلامة ورشيد ونبيل وأمل ومي الياس أبي حبيب لمصلحة شركة الوطنى العقارية أعيد لإتمامه	٢٦٦,٦٦٦
٩١٠	٢٠٠٩/٣/١٩	عقد بيع حصص ماكي انطوان نحاس ونجيب وانطوان وميشال ونبيل جورج عرمان لمصلحة شركة الوطنى العقارية أعيد لإتمامه	٢٦٦,٦٦٦
١١٠٦	٢٠٠٩/٤/٢	عقد بيع حصص ليلى جرجي سعد وجورانا الياس رزوق وتيو الياس رزوق لمصلحة شركة الوطنى العقارية أعيد لإتمامه	٦٦,٦٦٦

مكتب المحامي وليد صفير

بناية أبي راشد – الطابق الرابع – خط الحمراء الرئيسي – شارع ميشال شيحا – القنطاري

خلوي : ٠٣/٣٣٢٣٩٠ – فاكس : ٠١/٣٧٢٥٤٦ – هاتف : ٠١/٣٧٢٥٤٥ – E-mail : walid_sf@hotmail.com

في ٢٠١١/٦/٢٧

لجانب قاضي التحقيق الأول في بيروت المحترم

(الرئيس عويدات)

شكوى مباشرة

مع إتخاذ صفة الإدعاء الشخصي

من المدعية : شركة الوطنى العقارية (ش.م.ل.) مُمثلة بشخص

مديرها العام الشيخ بهيج أبو حمزة

وكيلها المحامي وليد صفير بموجب وكالة وإذاعة تجارية مُرفقة صورة عن كل منهما ربطاً (مستند رقم ١و٢) .

ضد المدعى عليهم وهُم : ١- فادي أبو إبراهيم، علي فقيه، ذو الفقار رمو، عدنان الزعتري، أسامة الجوزو، ياسين حبال، أيمن ثابت، غسان الشمعة، مشاري أجود الجمال، محمد خشيش،خالد مرعي، حسين مرعي العبد الله، مصطفى الكردي، محمد وإبراهيم أبرقوني، أحمد الودع، عدنان حيدر، شربين سالم نصر، حنا وديع حيدر، نزار توفيق عربيد، ميمون حسين سلامة، صبحي يوسف رحال، محمد الحاج، قيس غربي الحسن، أمين أبو دياب، محمد عبد الحسن كوراني، خالد المنجد، مازن حسان سري الدين، علي حبحب، عبد المجيد الأشقر، بدر الدين دغمش، محمد دبيس، بلال حبحب، عبد طرد الحسن، سرمين جهجاه، شادي خلف، مريم عبد الله نجمي، بسّام عفيف رضوان، حمزر مشرف، وسام ماهر الكومي، خالد دعيبس،جواد حمادي، محمد عيسى، أحمد خازم، عبد محمد موسى، ربيع حلاوي، نايف نواف الشاعر، علي رافع، عماد الشاعر، علي فواز علبة.

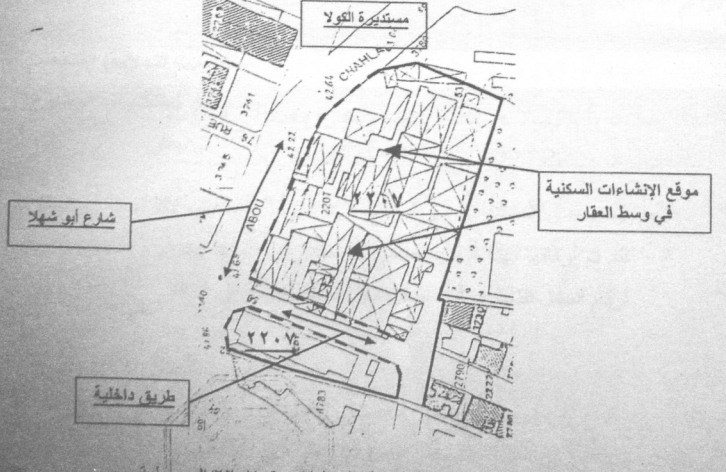
٢- كل من يظهره التحقيق .

مُقيمين في وطى المصيطبة في العقار /٢٢٠٧/ المصيطبة

نوع الجرم : إحتلال ومُصادرة وإغتصاب عقار وإستغلاله مادياً .

** **

ونبين موقع المحلات التجارية والمساكن القائمة على العقار رقم ٢٢٠٧/المصيطبة على الرسم التقريبي أدناه ونبرز ضمن المستند رقم ٦ بعض الصور الفوتوغرافية العامة والتي تبين محتويات العقار:



---- موقع المحلات التجارية القائمة على العقار رقم ٢٢٠٧/المصيطبة

رقم ٢٢٠٧ والذي تبلغ مساحته ١٣،٠٨١ متر٢، اي أكثر من ٧٥٪ من مساحة الحي. يحتوي هذا العقار على أحياء سكنية تسمى «الحي الشرقي» (أو حي التنك) و«حي الأكراد». كما يحتوي على العديد من المحال التجارية (انظر الخريطة).

تعتبر المنطقة مدخلاً لبيروت من جهة الجنوب، وموقعاً مناسباً للاستثمار العقاري. لكن الوضع القانوني للقسم الشعبي منها معقّد. فأصحابها خليط من أشخاص يملكون إثباتات رسمية وغير رسمية للملكية وللإيجار، وهي عبارة عن بناء غير شرعي وغير موصول بخدمات البنى التحتية التي تؤمنها الدولة، تتخلله أبنية وشوارع شرعية.

«أهل بيروت ضدنا ما بحبوا وجود هالأحياء الشعبية» يقول أحد السكان والفاعلين في «الحزب التقدمي الاشتراكي» وهو يشرح خلفية الاستدعاء القضائي. كان حديثه يتأرجح بين لوم زعيم الطائفة الدرزية وليد جنبلاط وبين توضيح متانة انتمائه للحزب والطائفة وثقافتهما. فلا يخفى على أحد أن صاحب «شركة الوطى العقارية» هو وليد جنبلاط، وأن عدم إخلاء هذا الحي سابقاً له دلائل تاريخية وسياسية. إذ إنّ السكان «غير الرسميين» لم يحتلوا الأرض إنما اكتسبوا الوصول اليها في مراحل زمنية عدة من خلال اتفاقات رعتها مصادر رسمية مقابل المال أو العمل. يعود تاريخ نشأة هذا الحي الى ما قبل العام ١٩٢٠ حين اتجه نحوه المهاجرون الدروز من أرياف حوران، جبل لبنان والبقاع الغربي، هرباً من المستعمرين الفرنسيين وبحثاً عن فرص عمل. توجهوا نحو وطى المصيطبة بما أن سكانه أصلاً ينتمون الى الطائفة الدرزية وتتم حمايتهم من الاضطهاد من قبل الإنكليز الذين بنوا ثكنات في المنطقة، ولفرص العمل التي يخلقها مصنع السكر الذي كان قائماً على العقار ٨ ٢٧٦٠. شهد الحي أول تصادم مع الدولة في منتصف الخمسينيات، حيث عملت الحكومة على إخلائه لتنفيذ أوتوستراد. دعم حينها كمال جنبلاط التظاهرات التي نظمها السكان وأدّت الى مقتل ٤ أشخاص (لبنانيان وسوريان من السويداء). ربط حينها كمال جنبلاط مصير الحي بمصير أحياء أخرى «غير شرعية» مثل الأوزاعي، الرمل العالي والنبعة. كما ساعد السكان على تعيين محامين لفرز الأراضي، وهنا يقول السكان إنهم اشتروا بعضها. ارتفعت نسبة البناء خلال الحرب (١٩٧٥ - ١٩٩٠) من خلال شراء رخص بناء من أشخاص فاعلين في المنطقة، كما زادت كثافة السكان. تغيرت التركيبة السكانية في بعض الأحياء حيث أجّرت عائلات عديدة انتقلت للسكن في مناطق أخرى بيوتها.

منذ العام ١٩٩٦ تحاول الدولة أن تضع دراسة تنظيمية للمنطقة. بدأت تلك الخطوة على أساس ضم المنطقة الى «مشروع إليسار» لبناء المساكن الشعبية. لكن لم تُذكر هذه الغاية في قرارات لاحقة من «المجلس الأعلى للتنظيم المدني» لاستكمال الدراسة. وفي النهاية لم تصدر أي دراسة فعلية من جهات رسمية بينما قام وكلاء من شركة الوطى العقارية بمسح المنطقة لاحقاً. استطاع هؤلاء جمع معلومات مهمة من السكان وإقناع بعضهم ببيع أراض وبيوت، اي التخلي عن أوراق ثبوتية مهمة كانت بحوزتهم، وإن كانت تلك الأوراق غير رسمية، مقابل مبالغ زهيدة. حصل ذلك على أساس أن مشروع مساكن شعبية يجرى تخطيطه للمنطقة، وأن السكان سيحصلون على شقق مقابل أسعار مخفوضة.

يعتبر سكان الوطى أنهم تعرضوا للخداع، وقد جعل ذلك ممكناً هوية الإشخاص الذين أجروا المسوحات، إذ كان في طليعة المروّجين للمشروع الإسكاني المزعوم مسؤولون وقياديون في الحزب التقدمي الاشتراكي. شكّل هذا المسح أساس الدعوى القضائية التي رفعتها الشركة عام ٢٠١١ لإخلاء السكان. الإطار القانوني الحالي الذي يشجع على الاستثمار العقاري خلق تناقض بين مصالح أبناء الطائفة ومصالح المطورين/السياسيين الخاصة. نجم عن ذلك تغيّر مفاجئ في التعامل مع الأحياء الشعبية من قبل زعماء سياسيين يرافقه تغيّر في الخطاب عن أهلية وجود ذوي الدخل المحدود داخل المدينة.

الإطار القانوني الحالي الذي يشجع على الاستثمار العقاري خلق تناقضاً بين مصالح أبناء الطائفة ومصالح المطورين/السياسيين الخاصة. نتج من ذلك تغيّر مفاجئ في التعامل مع الأحياء الشعبية من قبل زعماء سياسيين يرافقه تغيّر في الخطاب عن أهلية وجود ذوي الدخل المحدود داخل المدينة.

٨ M. Khalek «Consolidation and Meanings of Housing A Case Study of The Wata Al-Mussaytbeh Informal Settlement» *Thesis Master Urban Planning at AUB* (2005)

الدالية
حياة الروشة المخفيّة قسراً

عبير سقسوق

معمارية وباحثة مدينية من : «أشغال عامة»

صورة المكان، رواية الروشة

كانت صخرة الروشة في بيروت إحدى المحطات الأساسية لمستشرقي القرنين الثامن والتاسع عشر الذين وفدوا لاستكشاف الشرق الأوسط في ظل الحكم العثماني. تبرز الصخرة وتطغى بوضوح على سائر المشهد في الرسومات التي أعدّها أولئك المستكشفون الأوائل. وبين عامي ١٨٣١ و١٨٤٠ – خلال السيطرة المصرية على بيروت أثناء حملة محمد علي باشا على بلاد الشام – أطلق الكثير من الخبراء الفرنسيين الذين رافقوا ابراهيم باشا إسم «لا روشيه La Rocher» على هذا الموقع الصخري، بعدما كان يُعرَف سابقاً باسم «مغارة الحمام» (فاخوري ٢٠١٤).

عدد هائل من مخطوطات القرن التاسع عشر تصف بيروت من خلال صخرتها. في ذلك الوقت، كان ما يُعرَف اليوم بمنطقة الروشة عبارة عن مساحة زراعية شاسعة، فيها أنواع مختلفة من الزراعات. فحقول التوت كانت منتشرة على السهول المطلة على البحر، وأشجار الصبار كانت تفصل بين الحقل والآخر[١]. وبمطلع القرن العشرين، كانت حقول الخس وبساتين اخرى منتشرة في الروشة. بقيت المنطقة على حالها حتى خمسينيات القرن الماضي حين بدأت عمليات البناء فيها[٢]. كانت بيروت في تلك المرحلة تتحول إلى معلم أساسي للسياح في المنطقة، وكانت الناحية الأكثر جاذبية فيها باتجاه ساحلها: منطقة ذات بولفارات واسعة على الطريقة الباريسية، فيها أشجار نخيل، ومقاهٍ على الكورنيش تطل على البحر الذي تتلاطم أمواجه على هذه الكتلة الصخرية في خليج صخرة الروشة.

تظهر خريطة بيروت للعام ١٩٦١ فنادق فخمة عدّة أقيمت في منطقة الروشة وتطل على البحر: فندق «فيدرال» (Federal Hotel)، وفندق الكارلتون (Carlton Hotel)، فضلاً عن مبانٍ سكنية فخمة صممها معماريون مشهورون أمثال «مبنى شمص» لفيليب كرم، ومبنيي «شيل» (Shell) و«غندور» من تصميم واثق أديب وكارل شاير. ينتمي هؤلاء المعماريون إلى ما يسمى بحركة الحداثة في لبنان، التي تحدر روادها من عائلات ذات نفوذ اجتماعي وسياسي، وبخاصة العائلات الإقطاعية والطبقة البرجوازية المدينية (غندور ٢٠٠١). طغت هذه المباني الحديثة و«أساليب الحياة»[٣] التي روّجت لها على البطاقات البريدية لبيروت الستينيات. المطاعم المزدهرة والفنادق الفاخرة والمسابح الخاصة والمباني العالية والسيارات الجديدة، مع خلفية صخرة الروشة، كانت الوحيدة الحاضرة في البطاقات البريدية لبيروت، لا سيما في العام ١٩٦٧، السنة السياحية العالمية لبيروت. جميعها مثلت انعكاساً لاقتصاد وطني قائم على التجارة والخدمات على حساب قطاعات إنتاجية كالزراعة أو الصناعة.

الروشة هي أيضاً الموقع الذي انتقل إليه تجار أسواق وسط بيروت العتيقة مع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥. قصدت قلة من هؤلاء التجار الروشة عام ١٩٧٦، وتبعها تدريجياً الأصدقاء، وأفراد العائلة والتجار الآخرون جميعاً الذين حوّلوا رصيف الكورنيش الى سوق شعبي يستبدل أسواقهم في وسط بيروت. في العام ١٩٨٢، باشر رئيس بلدية بيروت آنذاك شفيق السردوك بتدمير عدد من أكشاك السوق بشكلٍ منتظم لمدة ١٢ يوماً، مستفيداً من عدم الاستقرار السياسي في البلاد بسبب الاجتياح الاسرائيلي. وبحسب السردوك، كانت الصورة السياحية للعاصمة هاجسه الأساسي وقد صرّح بأنّه «ضاق ذرعاً بحجبهم مشهد الكورنيش لسنوات كثيرة وأراد أن «يفتح قلب بيروت» من خلال إجلائهم»[٤].

١ لا يفهم «أسلوب الحياة» باعتباره ظاهرة ثقافية وحسب، بل أيضاً «أسلوب استدامة (اجتماعية واقتصادية) يضم المجتمع والمشهد الطبيعي في علاقة إنتاج جدلية» (غندور ٢٠٠٤)

٢ بحسب رالف بودنستاين في كتاب التاريخ، والمكان، والنزاع الاجتماعي في بيروت - *History, Space and Social Conflict in Beirut*، بدأت زراعة أشجار التوت لإنتاج الحرير في القرن السابع عشر في المناطق المحيطة ببيروت القديمة وتكثّفت خلال القرن التاسع عشر.

أما اليوم فالروشة، كما يُقال، هي أحد أكثر الأحياء كلفة في السوق العقاري في بيروت. أفقها مرصّع بالأبراج السكنية والفندقية الفاخرة (مثال «بحري غاردنز Bahri-Gardens وكارلتون ريزيدنسز Carlton Residences- وغيرها) إلى جانب لافتات العديد من المطاعم «العالمية» والمقاهي الراقية (مثال «كاي اف سي» KFC، و«بورغر كينغ» Burger King، و«غران كافيه» Grand Café، و«بوتي كافيه» Petit Café).

تستضيف احتفالات عيد النوروز الذي يحتفل به المجتمع الكردي المقيم في بيروت. ففي ٢١ آذار/ مارس من كل عام، تتحول الدالية إلى مساحة حيث يجتمع الآلاف، ويقيمون أكشاك طعام، ومنصة للموسيقى ويرقصون طوال اليوم حاملين أعلامهم الوطنية.

تعبّر الصور العائلية للدالية عن القصص التي لا تعد ولا تحصى والتي تروي أنّه منذ أربعينيات القرن الماضي كانت الدالية وجهة معروفة للتنزه والتفسُّح بالنسبة إلى

الروشة هي أيضاً الموقع الذي انتقل إليه تجار أسواق وسط بيروت العتيقة مع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥. قصدت قلة من هؤلاء التجار الروشة عام ١٩٧٦، وتبعها تدريجياً الأصدقاء، وأفراد العائلة والتجار الآخرون جميعاً الذين حوّلوا رصيف الكورنيش الى سوق شعبي.

ضمن هذا السياق التاريخي، في البطاقات البريدية المعاصرة وفي مواقع الإنترنت لمدينة بيروت، تُصوّر صخرة الروشة وحدها، منتصبة بشموخ وسط مشهدٍ افتراضي محايد، وخالي من الناس.

هنا تحديداً أقدّم لكم «الدالية»، منطقة في الروشة قد لا تجدون صوراً لها إلا في الألبومات العائلية. الدالية هي إحدى المساحات العامة الأبرز في بيروت، حيث تظهر أشكالٌ بديلة للسياحة. تتباهى الدالية بأكشاك غير رسميّة عديدة تتوزع على شاطئها ويؤمها الكثير من الزوّار للتمتّع بالبحر، والتنزّه، والسباحة، والمشي. إنّها مقصدٌ بارز للسباحين والغطاسين الذين يأتون من مختلف أنحاء بيروت لممارسة ش غفهم بالقفز عن المنحدرات العالية في مياه البحر المتوسط. كذلك، تشمل هذه المنطقة ميناءين محليين لصيد الأسماك، يشتهر أحدهما بتنظيم رحلات سياحية بالقارب على طول ساحل بيروت. ينزل المشاة الى هناك من خلال فجوة أحدثوها في درابزين الكورنيش، فيما تسلك السيارات طريقاً غير معبّدة بالقرب من مدخل فندق «الموفنبيك».

تضم الدالية فئات إجتماعية متنوعة، فيقصدها يومياً الصيادون البيروتيون، وزوّار كورنيش الروشة، وسكان الضاحية، واللاجئون العراقيين، والعمال واللاجئون السوريون، والمهاجرون والعشاق. كما يقول أبو العبد (وهو صيادٌ منذ زمنٍ طويل في الدالية): «أينما جلت بنظرك رأيت عشّاقاً؛ يجلسون على الصخور ويحدقون في البحر وفي بعضهم البعض. ليس لديهم مكانٌ آخر يقصدونه لذا يأتون إلى هنا». هذا فضلاً عن أنّها

العائلات من مختلف أنحاء بيروت الذين قصدوها للتجمع في الأعياد، وأيام الجمعة، وإحضار الطعام والشراب والنرجيلة، كما اصطحاب فردٍ من العائلة يعزف على العود، أو البزق، أو الطبلة. كانت تعرف هذه النشاطات باسم «السّيران»[٥]. الممارسات الاجتماعية والحياة اليومية التي تظهر من خلال صور مماثلة للدالية قد غُيّبت من مخطوطات القرن العشرين ومن صور السياحة في بيروت الستينيات. على الرغم من ارتباطها القوي بالصخرة، اخترنا ان نتجاهل الدالية من الرؤى المستقبلية لمدينتنا[٦]. ففي حين حافظ صيادو الدالية وروادها على حكاياهم وارتباطهم التاريخي بالمكان، ظلت أحلام الحداثة ورمز الصخرة يهيمنان على الروشة، حتى إنهما جعلا إسم «الدالية» غائب بالنسبة إلى معظم سكان المدينة.

هذا التغييب للمساحات الشعبية المفتوحة ومستخدميها

تضم الدالية فئات إجتماعية متنوعة، فيقصدها يومياً الصيادون البيروتيون، وزوّار كورنيش الروشة، وسكان الضاحية، واللاجئون العراقيين، والعمال واللاجئون السوريون والمهاجرون. والعشاق.

ترافق مع – كما أنه أنتج – تحوّلات في الملكية والتشريعات الراعية لشاطىء الروشة والتي سمحت بفرض واقع يتمثل بمنتجعات شاطئيّة، وفنادق مسيّجة بجدران وبوابات، على حساب المساحات الإجتماعية وحق الوصول إلى البحر.

٣ وذلك نتيجة لترسيخ قوانين تشجع التطوير العقاري. على سبيل المثال، قانون المباني للعام ١٩٥٤ الذي يسمح ببناء مباني أعلى.

٤ اقتباس من أطروحة ياسمين المشنوق بعنوان «المركز التجاري الجديد في الروشة: استنفاد القانون New Raouche – Shopping Center: Consuming the Code»، المقدمة في إطار إجازة في الهندسة، من الجامعة الأميركية في بيروت عام ٢٠٠٣.

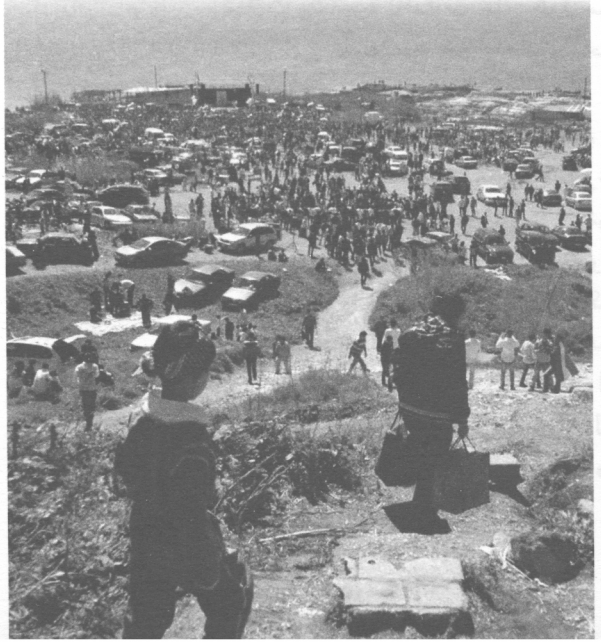
٥ أرشيف الموقع الالكتروني «يا بيروت Ya Bayrouth».

٦ نلاحظ كيف أنّ الكورنيش والدرابزين صمما بشكل

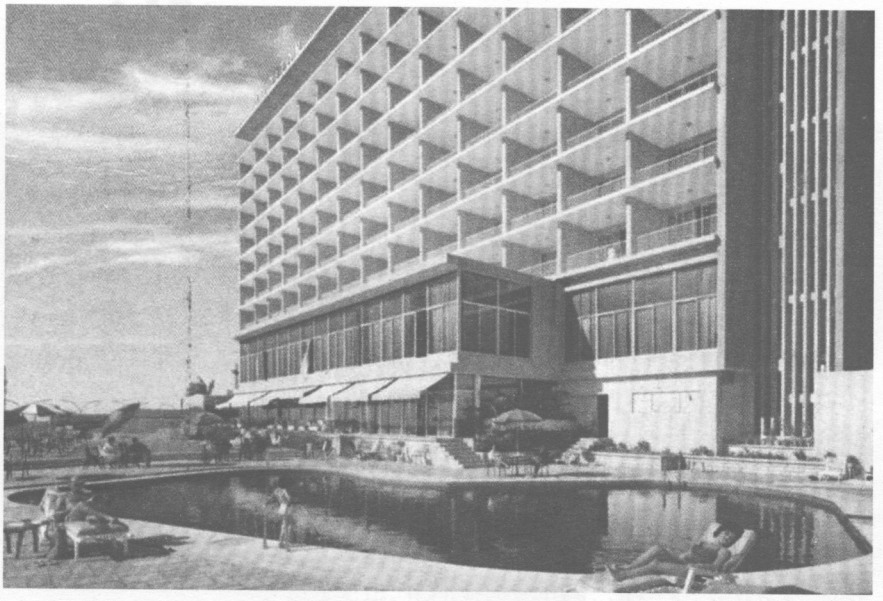




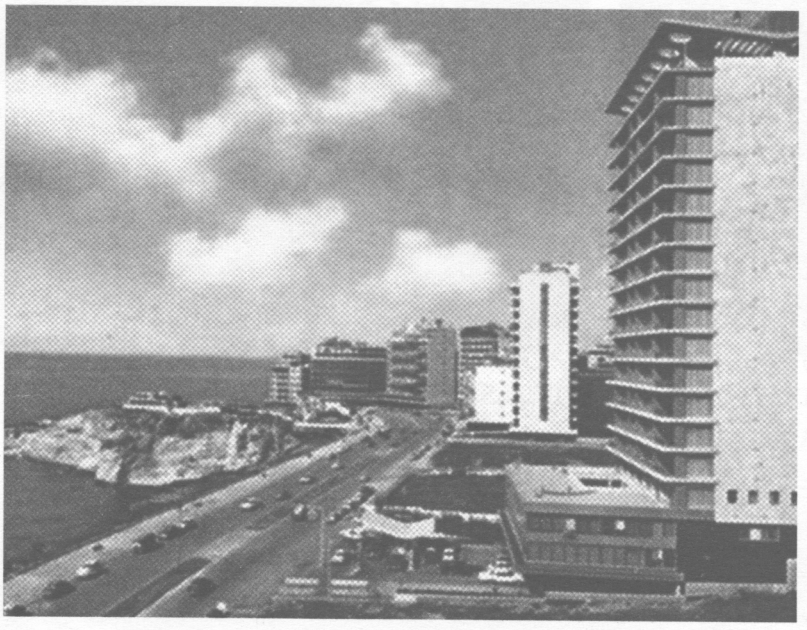
















تشريع المساحة، إنتاج الموفنبيك

في صبيحة اليوم الذي تلا زفافهما عام ١٩٥٥، اصطحب مروان زوجته إلى «مقهى الغلاييني»، وهو عبارة عن كشك خشبي صغير يطل على البحر حيث يجتمع الناس. سار الزوجان نزولاً على الدرج الخشبي الطويل الذي أقيم فوق المنحدر الصخري، وصولاً إلى ما يسمى «بركة الوحش». كان مروان وكثيرون آخرون زواراً دائمين لهذا الخليج وحوضه الطبيعي. كانوا يستمتعون بالسباحة فيه، وبالصيد في الخليج المجاور الذي يسمى «الراس» حيث تشتهر المياه بزرقتها، وشفافيتها، ونظافتها. هو الخليج ذاته الذي يشرف عليه فندق الكارلتون، والذي يظهر في بطاقات بريدية وصورٍ عدّة التقطت من غرف الفندق. يشكّل هذا الخليج امتداداً للساحل الصخري الممتد من الدالية إلى بداية شاطئ الرملة البيضاء. ضمن هذا الامتداد الصخري هناك العديد من الموارد الطبيعية مثال مغارة الفقم، ومغارة الحمام، ومغارة الوطاويط، وميناء الدالية، ونهر أبو شاهين، والمجرى، وعين التينة.

بالنظر الى تاريخ ملكية وتشريع هذه المساحات الطبيعية، نرى أنه منذ الأربعينيات، تم تسجيل الأراضي المتاخمة لشاطئ البحر في الروشة باعتبارها أراضي غير مبنية تعود ملكيتها إلى عائلات عدّة. فكان قد بدأ العمل رسمياً على مسح وتسجيل الأراضي عام ١٩٢٦ من قبل سلطات الانتداب الفرنسي. أدّت عملية تسجيل الأراضي إلى تغيير الممارسات المرتبطة بملكية الأرض وبالتالي خضع ساحل بيروت، كسائر أنحاء لبنان، إلى تصنيفات ملكية حديثة. فتحولت الأراضي التي عند واجهة بيروت البحرية إلى قطع أرض محددة وحصص فردية مخصصة لمالكين منفردين أو متعددين.

لكن بغض النظر عن وضع الملكية فيها، تم تصنيف منطقة الواجهة البحرية تحت الكورنيش من صخرة الروشة إلى الرملة البيضاء من خلال المخطط التوجيهي لبيروت لعام ١٩٥٤ باعتبارها منطقة يحظر فيها البناء من أي نوع كان. وبذلك، حافظت التشريعات المدينية الأولى على هذه المنطقة بصفتها مساحة عامة مفتوحة حيث الوصول إلى البحر مؤمّن[٧]. غير أنّه في العام ١٩٦٦، أجري تعديل على قانون تقسيم الأراضي، مما سمح بالبناء في ما يسمى «المنطقة العاشرة من المخطط التوجيهي»، مع حد أدنى من عوامل الاستثمار[٨]، وذلك لأغراض بحرية وسياحية وحسب، شرط أن يقدّم مالك العقار ٢٥٪ من عقاره إلى البلدية إذا بنى على الأرض. وبالتوازي، صدر مرسومٌ آخر عام ١٩٦٦، تماشياً مع قطاع السياحة المزدهر في الستينيات، وذلك لتسهيل البناء بمحاذاة الساحل اللبناني. سمح هذا المرسوم، رقمه ٤٨١٠، لمالكي العقارات المجاورة للبحر بإشغال الاملاك العامة البحرية، أي الأراضي الواقعة بين عقاراتهم الخاصة والبحر. لكن عندما صدر هذا المرسوم عام ١٩٦٦، استثنى المنطقة العاشرة من بيروت، للحفاظ عليها كمتنفس لسكان بيروت.

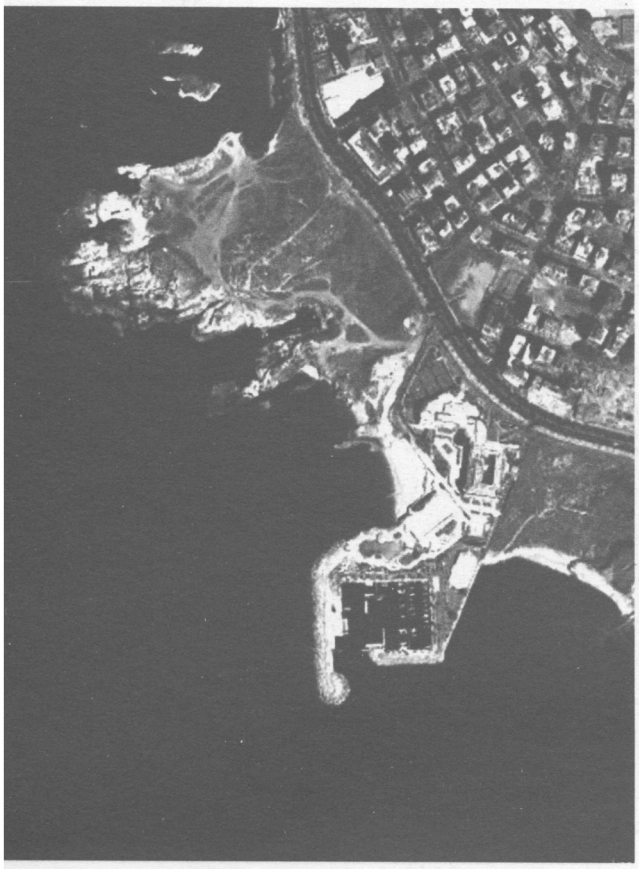
أما التحوّل الأكبر في ملكية هذا الخليج البحري والقوانين التي ترعاه فقد جرى في أواخر الثمانينات. في العام ١٩٨٦، اشترى رجل أعمال من عائلة الضاهر، تحت اسم «شركة ميريلاند»، جميع الأسهم من المالكين المتعددين الذين امتلكوا تاريخياً هذه الأراضي التي كان يطل عليها فندق «كارلتون»، حيث يقع مقهى الغلاييني. وقد كانت عائلة الضاهر، وهي جزءٌ من النخبة المالية في ذلك الوقت، على علاقة وثيقة بالسياسيين وبميليشيات زمن الحرب. وتباعاً لعملية شراء الأراضي، تمت صياغة المرسوم رقم ١٦٩ وإصداره عام ١٩٨٩ للسماح لـ«شركة ميريلاند» ببناء مشروع فندق ضخم في الخليج، بما يتعارض مع التشريع القائم. هذا المرسوم ألغى من قانون العام ١٩٦٦ البند الذي يفرض منح ٢٥٪ من الأرض إلى العامة، والأهم من ذلك أنه أتاح بإشغال الأملاك العامة البحرية في المنطقة العاشرة من بيروت، فيما كانت مستثناة في السابق من المرسوم ٤٨١٠/ ١٩٦٦[٩]. تأتي هذه التغييرات كمثالاً وقحاً عن كيفية مشاركة الجهات الخاصة في تنظيم المدينة عن طريق إصدار قوانين ومراسيم تخدم مصالحهم الخاصة وفي سبيل إعادة انتاج الحيّز المديني. في النتيجة، واستناداً إلى علاقة وثيقة تاريخياً بين القطاع العقاري والطبقة الحاكمة (طرابلسي ٢٠٠٧)، تمكّن الضاهر/ «شركة ميريلاند» من تأمين رخصة بناء لتشييد فندق «موفنبيك»، منتهكاً قوانين البناء وتقسيم الأراضي، ومدمراً ما كان خليجاً طبيعياً ذا استخدامات عامة متعددة.

ما زالت مفاعيل المرسوم ١٦٩/١٩٨٩ سارية إلى يومنا هذا لتسمح للمنشآت الخاصّة الاستيلاء على ما تبقى من مساحات عامّة في الروشة وبيروت، ليطال التهديد منطقة «الدالية».

٧ راجع أيضاً القرار رقم ١٤٤ الصادر عام ١٩٢٥.

٨ عوامل الاستثمار، ١٥٪ زيادة أفقية و٢٠٪ زيادة عامة.

٩ تجدر الإشارة إلى أنّ المرسوم رقم ١٦٩/ ١٩٨٩ ينص على أنّه «صدر استثنائياً من دون استطلاع المديرية العامة للتنظيم المدني، ولا بلدية بيروت، ولا مجلس شورى الدولة».





صورة جوية لبيروت عام ١٩٦٢.
المصدر: مديرية الشؤون الجغرافية في الجيش اللبناني

صورة جوية لبيروت عام ٢٠٠٩.
المصدر: غوغل إيرث



صورة للخليج الطبيعي قبل إنشاء فندق الموفنبيك.
المصدر:
www.delcampe.net

تجسيد الملكية، خصخصة الدالية

رداً على «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة» كمساحة عامة في وجه منتجع حصري شبيه بالموفنبيك، صرّح رئيس بلدية بيروت بلالً حمد في مقابلة معه بما يلي: «عليكم أن تعرفوا أن تلك المنطقة هي بمعظمها أملاك خاصة، ويمكن للمالكين أن يمنعوا الناس من الدخول الى أملاكهم الخاصة وأن يشيدوا ما شاؤوا من أبنية ومشاريع هناك»[١٠].

طغى النقاش حول الملكية على الكثير من الحوارات المرتبطة بالدالية باعتبارها مساحة عامة، خصوصاً في تصاريح المسؤولين الرسميين. ويستدعي هذا الجدال فهماً لتاريخ ملكية الدالية، وإعادة طرحٍ للمفاهيم السائدة في ما يتعلق بالملكية الخاصة.

خلال الحقبة العثمانية، كانت الدالية خارج أسوار المدينة. وكانت معظم الأراضي الواقعة خارج أسوار بيروت القديمة أراضي «أميرية»، أي ضمن نطاق السلطان. بعد إصدار قانون تسجيل الأراضي العثماني عام ١٨٦١، منح السلطان بعض الأراضي الأميرية إلى أعيان البلاد أو أصحاب النفوذ. فلنأخذ على سبيل المثال قطعة الأرض رقم ١١١٣ (العقار الأكبر في الدالية). يشير أرشيف المساحة إلى أنّ هذا العقار كان ملكاً للأمير سعيد إرسلان. فعائلة إرسلان كانت تتمتع بالنفوذ وقد حصلت بالتالي على امتيازات من السلطان. وعام ١٨٧٦، باع الأمير إرسلان هذه القطعة إلى علي شاتيلا. وبحسب سند ملكية «طابو» يعود تاريخه إلى عام ١٩١٦، أصبحت هذه الأرض ملكاً لعبد المجيد وعثمان شاتيلا اللذين ورثاها من والدهما علي شاتيلا. وأثناء تسجيل الأراضي الفرنسية، تم بالتالي تسجيل العقار رقم ١١١٣ ملكاً لعبد المجيد وعثمان شاتيلا. بحلول الخمسينيات، بات لقطعة الأرض أكثر من عشرة مالكين قد ورثوها. وعلى مر السنين، اشترت عائلات أخرى أسهماً في قطعة الأرض هذه، مثال عيتاني، وعرب، وحداد، ومطر، وعفيف، ومعوّض، إلى جانب الورثة، مما أدى إلى تقاسم الأرض بين مالكين عدّة. ولكن على الرغم من سندات الملكية هذه، ظلت أراضي الواجهة البحرية للدالية تعتبر أماكن عامة أساسية في المدينة وتستعمل على أنّها كذلك.

يستند الاستخدام الحالي للدالية كمساحة عامة الى السياق التاريخي لاستخدام المساحات المدينية في بيروت، حيث ينظر الى أراضي الواجهة البحرية كمساحات عامة رئيسية في المدينة تستخدم انطلاقاً من

١٠ أنظر مقالة صحيفة الأخبار على الرابط www.al-akhbar.com/node/207144

١١ راجع مقالة غير منشورة لعبير سقسوق بعنوان «تحدي السلطة الوطنية في بناء الحيّز العام: الدالية أو صناعة الامكنة العامة في بيروت»، موجودة على شكل حديث على الرابط التالي: www.youtube.com/watch?v=u5Flap4MOVQ.

١٢ مثال: بحث مجموعة «الدكتافون» بعنوان «هذا البحر لي» على الرابط التالي: bit.ly/dgOuHX.

◆ **٢٠١٢:** وضع بلوكات باطون في موقع الدالية من قبل وزارة الأشغال العامة لتوسيع ميناء الصيادين ← العمل لإنشاء الميناء توقف بسبب تحرك مالكي الدالية لكن البلوكات ما زالت حاضرة وكانت حيّز لتدخل فني عليها

◆ **أيلول سبتمبر ٢٠١٣:** دعاوى عند محكمة الأمور المستعجلة لإخلاء الصيادين من بيوتهم الغير رسمية ← تظاهر الصيادون وعائلاتهم للدفاع عن أرزاقهم

◆ **آذار مارس ٢٠١٤:** البدء بعملية إخلاء الصيادين وجرف بيوتهم بعد الإتفاق معهم على تعويضات

◆ **نيسان أبريل ٢٠١٤:** بدء مالكي الأرض بوضع سور حول موقع الدالية ممتداً على الكورنيش من صخرة الروشة حتى فندق الموفنبيك ← تحرك «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة» من خلال مؤتمر صحفي وتدخلات على السور

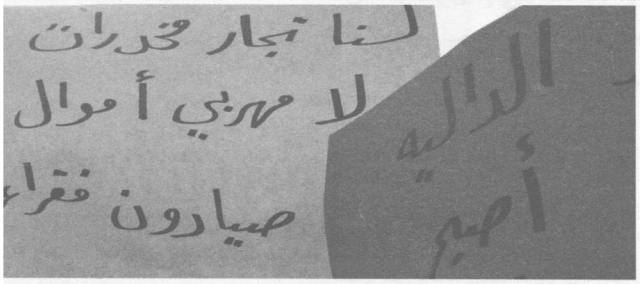
◆ **أيار مايو ٢٠١٤:** إضافة أسلاك شائكة الى السور ← متابعة تحركات الحملة الأهلية من خلال كتب موجهة الى وزراء معنيين ونشاطات في الدالية لتعزيز إرتيادها تحت شعار «موعد لاستعادة المكان العام في الدالية»

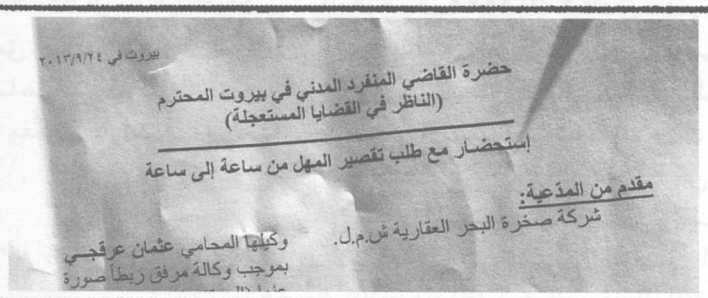
◆ **حزيران يونيو ٢٠١٤:** غرفة مراقبة تابعة لبلدية بيروت لحماية السور من أي تعديات ← الرد أتى من الحملة الأهلية خلال تواجد رئيس البلدية على كورنيش الروشة بيوم المحيطات العالمي، فتم وضع يافطة كبيرة أمام أعين الكاميرات عليها شعار «الروشة واجهتنا، داليتها مساحتنا، ارفعوا ورشتكم عن روشتنا»

◆ **تموز يوليو ٢٠١٤:** وضع حاجز حديدي من قبل المالكين، بتنفيذ من القوى الأمنية ← استكمال تحركات الحملة من خلال اقتحام برنامج «كلام الناس» عن حلم التطوير العقاري ببث مباشر من البيال، بشعارات مثل «حلم مدينتنا ليس بالتطوير العقاري بل بمساحات عامة وبحر مفتوح للجميع»

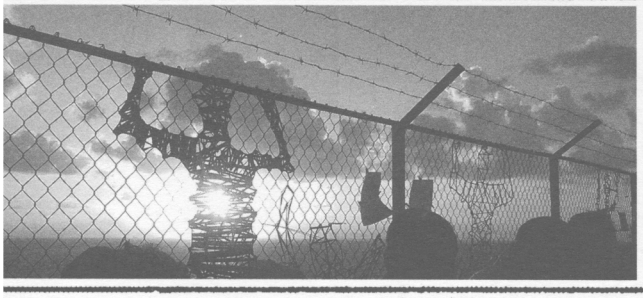





لنا تجار مخدرات
لا مهربي أموال
صيارون فقراء
الدالية
أصبح

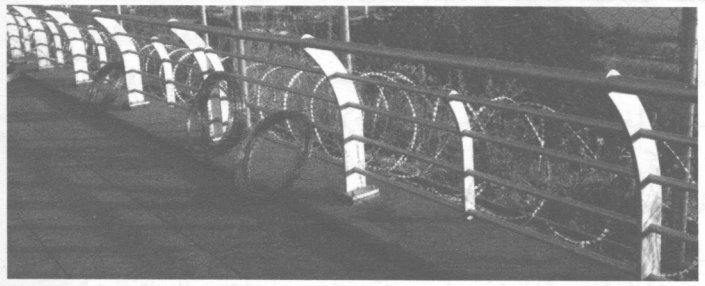

بيروت في ٢٠١٣/٩/٢٤
حضرة القاضي المنفرد المدني في بيروت المحترم
(الناظر في القضايا المستعجلة)
إستحضار مع طلب تقصير المهل من ساعة إلى ساعة
مقدم من المدّعية:
شركة صخرة البحر العقارية ش.م.ل.
وكيلها المحامي عثمان عرقجي
بموجب وكالة مرفق ربطاً صورة

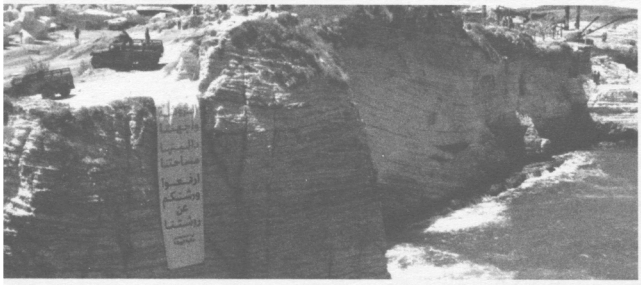

VOLVO

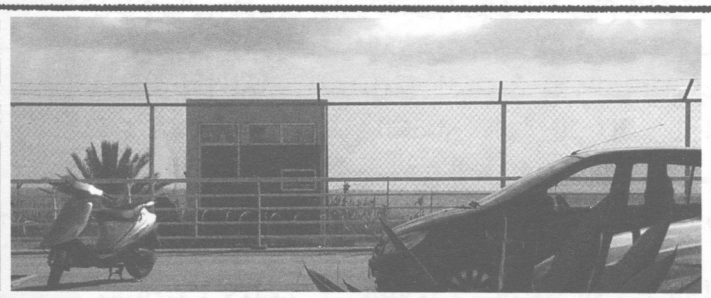


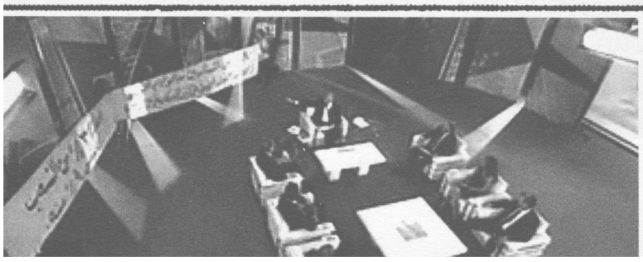



رفعوا ورشتكم عن روشتنا
نرعى لاستعادة الكان العام في الدالية











هذا المفهوم. لقد تمشّى سكان بيروت، وتنزهوا، وسبحوا، في كل بقعة على طول الخط الساحلي لبيروت، معتبرين أنّ الوصول إلى البحر، والاستعمال العام لأراضي الواجهة البحرية هو بمثابة حق أساسي لهم[11]. غير أن دراسات عدّة أجريت حول ساحل بيروت تناقش مفهوم ممارسات الملكية وتفرّق بين ملكية الأراضي من جهة واستخدامها من جهة اخرى[12].

تمشّى سكان بيروت، وتنزهوا، وسبحوا، إلخ في كل بقعة على طول الخط الساحلي لبيروت، معتبرين أنّ الوصول إلى البحر، والاستعمال العام لأراضي الواجهة البحرية هو بمثابة حق أساسي لهم.

لذا، يدفعنا استخدام الداليّة كمساحة مشتركة إلى طرح السؤال وحتّى التخلّي عن المفهوم الحديث للمكان العام المتمثّل بالملكية المقيدة، ويضع أمامنا احتمالات لفهم المساحة العامّة في بيروت كونها مساحات صاغتها ممارسات المستخدمين المتنوعّة. لدى النظر إلى الإطار التاريخي للمساحة المفتوحة في بيروت، نرى ان أماكن التنزه في الخمسينيات تضمنت أمكنة مثال حرج الاوزاعي، وحرج ساقية الجنزير، وكرم الأشرفية، ومزرعة العرب، وكرم شاتيلا في الروشة، ومينة زريقة في المنارة – جميعها مساحات مفتوحة، غير مقيدة، لا ترعاها الدولة الحديثة وغير محصورة بما نسميه «الحدائق العامة». بل على العكس تماماً، كانت نشاطات «التنزه» و«السيران» تُنظم في مواقع تتميّز بالانفتاح وغياب الحدود.

من هنا فإنّ المساحة العامة في بيروت هي تجسيدٌ «لجماهير» متنوعة وأكثر دينامية بكثير من المفهوم التقليدي للمساحة العامة المرتبط بالملكية. وتمثّل حالة الدالية حقاً جماعياً بالمساحة حيث يُمكن النظر الى مفهوم الملكية بتنوع أكبر وبطريقة اجتماعية أكثر (بلوملي ٢٠٠٤). بالتالي فإنّ مطالبات الناس المختلفة بهذا المكان هي بالفعل رافضة للغة الملكية المؤكدة ضمن حدود مكانية والتي تستثني «العام» من المساحات التي حوّلها روّادها الى فسحات إجتماعية.

بيد أنّ هذه المساحات الاجتماعية مهددة باستمرار. ابتداءً من العام ١٩٩٥، وفي عملية شبيهة بالتمهيد لإقامة فندق موفنبيك، اشترت ثلاث شركات عقارية (يملكها جميعها رئيس الوزراء الراحل رفيق الحريري) في يوم واحد الغالبية العظمى من الأسهم من مالكي عقارات الدالية. بالتوازي مع عمليات شراء الأراضي، تم اصدار القانون رقم ١٩٩٥/٤٠٢ الذي سمح لأصحاب الأراضي ذات مساحة تتعدى ٢٠ ألف متر مربّع بمضاعفة عامل الاستثمار للمشاريع الفندقية. في العام ذاته، تم إصدار مرسوم آخر يسمح بإشغال الأملاك العامة البحرية في هذه المنطقة في حين كان محظراً من قبل. فكما شهدنا في مثال الموفنبيك سابقاً، تم تركيب هذه التشريعات للانسجام مع المصالح الخاصة المباشرة ولتسهيل إمكانية بناء مشروع مربح في الدالية. والجدير بالذكر أنّ هذين القانونين لا يسمحان البناء وحسب، إنما والأهم من ذلك، أنّهما يضاعفان أسعار الأراضي التي تطبق عليها هذه القوانين؛ وهو شكلٌ من أشكال الاستثمار الذي تقوم به النخبة التجارية والمالية المتجذرة في المضاربات العقارية.

في العام ٢٠٠٤، بدأ ممثلون عن مالكي الشركات الثلاث بالتفاوض مع الصيادين حول التعويض الذي سيحصلون عليه مقابل إخلاء الموقع. منذ تسعة أشهر، أمرت هذه الشركات عينها بإجلاء الصيادين الذين يعيشون في الدالية وذلك استناداً إلى قرارات قضائية. خلال الأشهر القليلة الماضية، نجحت الشركات في التفاوض مع الصيادين، مانحة إياهم تعويضات تتراوح ما بين ٨٠ ألف ونصف مليون دولار أميركي، جارفة منازلهم ومخلية إياها. وأخيراً، سيّجت هذه الشركات الدالية بأسلاك شائكة، ربما تحضيراً لإغلاق الموقع أمام العامة. ومنذ حوالي الشهر، وضعت البلدية كشك لحراسة السياج بالإضافة الى حاجز على المدخل الأساسي للدالية.

حالياً، يسعى ممثلو الشركات جاهدين إلى بناء مشروع سياحي فخم في الدالية وذلك من خلال توظيف شركة هندسة معمارية قدّمت المشروع الجديد إلى بلدية بيروت. ويبدو أنّ المشروع الذي يجري التخطيط له سيتألف من منتجع فندقي وشقق فخمة ومركز تسوّق مع مرسى لليخوتٍ. ما زالت تفاصيل المشروع الجديد طي الكتمان بالنظر إلى السرية التامة المحاط بها. لكن بغض النظر عن التفاصيل، سيلغي هذا المشروع الوظيفة الاجتماعية لمنطقة الدالية، ويحوّل استخدامها العام إلى خاص.

انطلاقاً من الفكرة التي تفيد بأنّ الملكية من دون تجسيد هي مجرد شكل فارغ من المعنى (ديلاني ٢٠٠١)، نستطيع الاستخلاص أنّ التجليات المكانية للملكية –

من خلال إخلاء الصيادين والسياج والأسلاك الشائكة وغيرها – ضرورية لإعادة إنتاج الملكية، جاعلاً إياها واضحة وقابلة للتطبيق. من هذا المنطلق، بإمكاننا القول أن الدالية لم تتم خصخصتها خلال سنوات العشرينيات حين تم تسجيلها على أنها ملكية خاصة، بل في ٢٠١٤ عندما باشر مالكو العقارات بعملية الحد من استعمالها العام.

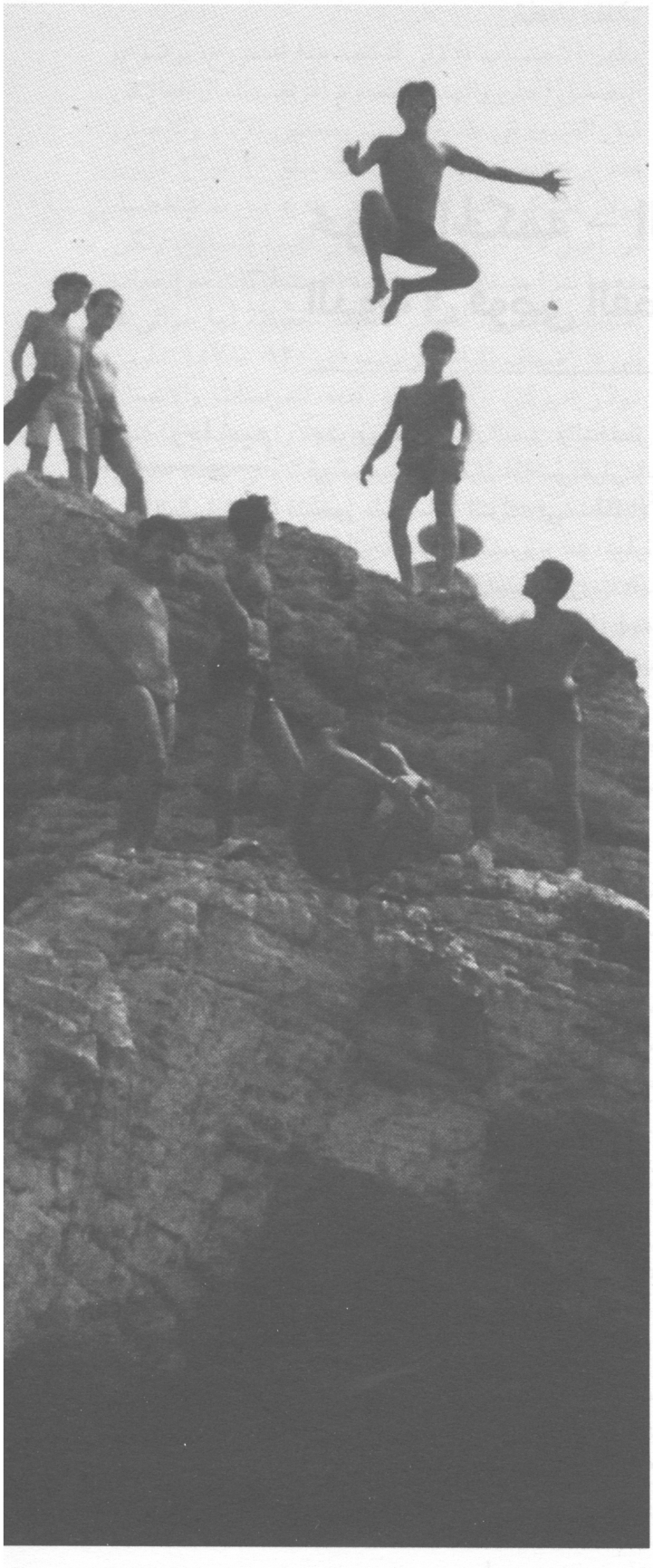
خلق المساحة العامة

يمثّل الحق الذي اكتسبه سكان المدينة في الدالية الأساس الذي تستند إليه نشاطات «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة». إنّه حقٌ مكتسب – أي أنّه حقٌ يصبح قائماً قانوناً أو مقبولاً بفعل الاستخدام الطويل أو مرور الوقت. ومن خلال الاعتراف بهذا الحق المكتسب، تكافح هذه الحملة بشكلٍ أساسي في سبيل تحويل مفهوم «الملكية لإستثناء العامة» إلى «ملكية لعدم استثنائها».

فضلاً عن ذلك، تركّز الحملة على أهمية إنتاج المعرفة في تشكيل رأي عام قادرٍ على الدفاع عن الدالية باعتبارها فسحة عامة. بالتالي، تعمل الحملة عبر وسائل إعلام مختلفة (مثال الانتاج المرئي، والبيانات الصحافية، والرسومات المعلوماتية، والفيديو، إلخ) في سبيل فتح نقاش حول مفاهيم الملكية، والإطار القانوني، وأهمية البيئة الطبيعية، فضلاً عن التدخلات المباشرة الهادفة إلى منازعة مفهوم التطور العقاري[١٣].

لكن في صميم النضال للحفاظ على الدالية كمساحة عامة يكمن نزاعٌ مرتبط بالمعاني وبصورة مدينتنا. فيما اخترنا طوال السنوات الماضية أن نصوّر صخرة الروشة وحدها، كانت الدالية حاضرة في حياة الكثيرين، مساحة عبّرت من خلالها فئات عديدة عن وجودها وشرعيتها كجزء لا يتجزأ من المجتمع. فيما اخترنا أن نخفيها من رواية مدينتنا ورؤيتنا المستقبلية لها، كانت الدالية هي المساحة التي حضنت وجمعت وأظهرت صيادي بيروت وسباحيها وعشاقها وفقرائها ومهمشيها. وأن نخسرها اليوم يعني أن يخسر روادها الحاليون شرعية وحق وجودهم في المدينة.

من هذا المنطلق، الدالية هي مساحة عامة بامتياز، وهي ما زالت – حتى الآن – مساحة مفتوحة، وغير مقيدة، وهذا بحد ذاته ملهمٌ. فعلينا الدفاع عنها، كمكانٌ طلقٌ وغير مقيّد! كمساحة خلّاقة فيها نمارس مقاومتنا للدفاع عن مدينتنا كما نريدها؛ فالدالية باتت لنا اليوم رمزاً مدينيًا ومشروع نضال سياسي.



١٣ مثال التسلل إلى البرنامج التلفزيوني «كلام الناس» في حلقة خاصة عن حلم التطوير العقاري. اقتحم أعضاء في الحملة البث المباشر حاملين لافتات تتحدى حلم التطوير العقاري.

محور «الحكمة – الترك»
الدولة في فوضى الفضاء العام

رجا نجيم

المنسق العام للائتلاف المدني الرافض لطريق محور «الحكمة – الترك»

تحت ذريعة تحسين السير والتخلص من الزحمة، اتخذ في سبعينيات القرن الماضي قرار بإنشاء ما يعرف باسم محور «الحكمة – الترك» في منطقة الأشرفية في العاصمة اللبنانية بيروت. المشروع هو عبارة عن طريق تخرُق المنطقة الشرقيّة من مدينة بيروت بمجموع ٦ خطوط سير (٤ رئيسيّة و٢ جانبيّة) وبطول إجمالي حوالى ١٠٠٠ متر، يشقّ طريقه ضمن منطقتيّ الرميل والمدوّر المأهولتين والمزدحمتين.

كذلك يشمل هذا المشروع بحسب مُخطّطه الأساسيّ إنشاءات جديدة مؤلّفة من نفق جزئيّ (ممرّ سفليّ) مع مداخله المُنحدرة بالاتجاهين (شرقاً وغرباً)، بمجموع ٤ خطوط سير ومسلك جانبي واحد من كلّ جهة (أي بإجمالي ٦ خطوط)، بالإضافة إلى تقاطع مستطيل فوق هذا النفق / الممرّ، بالاتجاهين نفسيهما لكن بإجماليّ ٣ خطوط سير فقط.

إنّ لهذا المشروع ظاهريّاً وبحسب تصريحات المسؤولين في مجلس الإنماء والإعمار وبلدية بيروت، هدفين رئيسيّين: أوّلهما إنشاء «خط ترانزيت» يصل الطرفيّن الجنوبي والشمالي من بيروت بضعهما ببعض بشكل مباشر. أمّا الهدف الثاني، فهو حلّ مشكلة زحمة السير ضمن مناطق الأشرفية، وذلك بتأمين مداخل ومخارج جديدة لها كما بتسهيل التنقّل الداخلي للسيارات ضمن أحياء المناطق التي يمرّ فيها هذا المحور.

أسباب رفض المشروع

يمكن القول إنّ تخطيط طريق محور «الحكمة - الترك» بجميع أقسامه وأجزائه وتفرّعاته ومُكوّناته هو نتيجة لمُقاربة إستراتيجيّة خاطئة، بالرغم من التعديلات التي أضيفت إلى تصميمه الأساسي. إذ إنّ كلّ الدراسات المُتعلّقة بكثافة السير في المدينة تُظهرُ أنّ السبب الرئيسي لمُشكلة الزحمة ليست شبكة الطرقات غير الكافية بل كثرة السيارات.

وضع التخطيط الأولي لهذا المشروع في العام ١٩٥٥، ومسار الطرقات ضمن مناطقه تمّ تحديدها منذ أكثر من نصف قرن استناداً إلى أسس ومبادئ لم تعُد صالحة إطلاقاً اليوم. لكنّ حتّى في ذلك الحين لم يكن من المُفترض أن ينفذ المشروع بواسطة هذا التخطيط، أي «اختراق قلب المدينة»، عبر وصل «البحر بالبر» أو «المرفأ بطريق الشام». وقد تم إنشاء أساس هذه الوصلة المفترضة، أي شارع ألفرد نقاش، في السبعينيات بدون الأخذ بعين الاعتبار الشروط والنتائج المُحتملة لجهة التطور العمراني والمدني والديموغرافي الذي كان يجب توقّع حصوله. ونظراً لوضع الشارع الحالي لم يعد من الممكن توسيعه أبداً. كما أنّه لم توضع أي «دراسة تخطيط مُدُني شامل» ودراسة الجدوى (feasibility study)، أقلّه في جزءيها القانوني والاقتصادي المالي (التكلفة المباشرة وغير المُباشرة)، وخصوصاً دراسة سير حديثة العهد تُغطّي وضع وحجم السير اليوم في كل مدينة بيروت، كما لم يجري التطرق إلى «البدائل المُحتملة».

الأهم أنّ بلدية بيروت ومجلس الإنماء والإعمار لم يفكرا بوضع دراسة كاملة لتقييم الأثر البيئي من جراء تنفيذ هذا التصميم، ولا حتّى أيّ قسم من أقسامها، إذ هي تشمُلُ: دراسة السير ومُحاكاة حركته وحجمه، التلوّث السمعي والبصري والهوائي والبيئة الجوّيّة والطبيعيّة والجيولوجيّة والبيولوجيّة، التأثيرات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة من أثريّة وتراثيّة كما على المساحات العامة من مساحات خضراء وغيرها. فكان على جمعيات المجتمع المدني بالتعاون

مع وزارة البيئة، إلزام البلدية ومجلس الإنماء والإعمار القيام بدراسة تقييم الأثر البيئي هذه، التي لم تنطلق إلّا في شهر كانون الأول من سنة ٢٠١٣ (أي بعد سنة ونصف سنة من تاريخ مرسوم تصديق المشروع) لكن التقرير لم يصدر حتى اليوم.

المجتمع الخاسر الأكبر من المشروع

من البديهي التأكيد أنّ المجتمع وسكان المنطقة سيكونان الأكثر تضرراً من تنفيذ هذا المشروع، وأصبح واضحاً مدى عدم مُلاءمته وحتّى كارثيّته، على الإطار الاجتماعي والمُدُني والبيئي، كما على الطابع التراثي المعماري (هدم كلي أو جزئيّ لحوالى ٣٠ منزلاً ما بين تراثي وقديم) والطابع النباتي (بتدمير مساحات خضراء شاسعة ونادرة تُقدّر بحوالى ١٠,٠٠٠ متر مربع). إذ سيتمّ القضاء على حيّز مدينيّ كبير ومأهول ذي طابع تراثيّ وبنسيج زراعيّ غنيّ ومُميّز. ولهذا المشروع تأثيرات سلبيّة جسيمة على المؤسسات الثقافيّة والتربويّة والاستشفائيّة. كما سينشأ عن تنفيذ هذا المحور نقص كبير بمواقف السيارات، مهما كانت أعداد المواقف التي ستقام.

كذلك المخطّطات الحاليّة لهذا المشروع مُتخمة بالأخطاء «التصميميّة الوظيفيّة» لعدم احترامها الأصول والمعايير، خصوصاً معايير السلامة، مثلاً: بالنسبة إلى عرض الطرقات الرئيسيّة التي لم توضع وفق المعايير الدوليّة، كما لا يحترم المشروع إلزاميّة ابتعاد المباني بمسافة ٦ أمتار عن الجسور، بالإضافة إلى أنّ تنظيم السير الداخلي في الأحياء المتواجدة ضمن حدود هذا الخط وضمن أطره المُجاورة، قد تمّ تصميمه في المُخطّطات الحاليّة، بواسطة طرقات ذات مسلك سير واحد فقط (خطّ سيارة واحدة) كما في مُجمل أقسام هذه الطريق (الخطوط الجانبيّة مثلاً) بدون أي مساحات إضافيّة لركن السيارات على طولها (حتّى لو بنحو مؤقّت). وستكون نتائج ذلك بكل تأكيد سلبيّة على السكان.

هذا المحور هو مشروع تقسيميّ للحياة ضمن المناطق التي يمرّ فيها. وهو مشروع تهجيريّ لأهالي هذه المناطق، الأمر الذي سيحصل حتماً أثناء تنفيذ الأشغال وبعد انتهائها. وذلك مُرتبط مُباشرة بعدم احترام التراجعات من قبل مُصمّمي هذا الخط، كأنّهم على علم مُسبق بأنّ المباني المُتاخمة للخط إن كانت مُشمولة بالتخطيط او لا، سيتمّ تهديمها وإعادة إعمار غيرها، ممّا سيؤمّن احترام التراجع المفروض قانوناً.

تكلفة باهظة

يظهر الاحتساب الأوّلي لتكلفة هذا المشروع، بوضوح، التضليل المُعلن والهدر المفضوح المُرتقب للمال العام من قبل القيّمين في بلدية بيروت ومجلس الإنماء والإعمار. فقد تم تحديد قيمة الاستملاكات بمبلغ ٣٠ - ٣٣ مليون دولار أميركي، كما أعلنه رئيس بلدية بيروت شخصّياً، من أصل ٥٥ - ٦٠ مليون دولار كقيمة إجماليّة، ولكن عندما يتمّ احتساب دقيق لقيمة الاستملاكات مع إنصاف أصحاب الحقوق، تُقارب التكلفة الحقيقيّة لها حوالى ٤ إلى ٥ أضعاف المبلغ المرصود، أي ١٢٠ - ١٥٧ مليون دولار أميركي. ومع إضافة كلفة الدراسات والأشغال التقديريّة (حوالى ٣٠ مليون دولار) تصبح التكلفة الإجمالية الإضافية اليوم، وبحدّها الأدنى فقط، حوالى ١٩٥ مليون دولار أميركي مع إمكانيّة أن تصل إلى أكثر من ٢٥٠ مليون دولار، لطريق طولها كيلومتر ونصف كيلومتر (بما فيها احتساب كلفة ما يُسمّى «التحسينات» ومرائب السيارات كما قيمة الفضلات، إضافة إلى قيمة رصيد بدل تعويض الاستملاكات القديمة، الخ). ممّا يجعلُ من هذه التكلفة «رقماً قياسياً» للفضائح الماليّة في تاريخ لبنان المعاصر.

النسيج العمراني وضمنه التراث، هو قسم أساسيّ من ثقافة الشعوب، والمحافظة عليه واجب وطنيّ، وجزء لا يتجزأ من مصلحة المواطن الإنسان في مجتمعه، كما إرث محميّ لصالح الأجيال القادمة، لاسيما كما هي الحال هنا بالنسبة إلى الأحياء التراثيّة التي لم يبق منها الكثير، ليس فقط في بيروت بل على طول مساحة الوطن والتي يجب إعادة ترميم مكوّنات العدد المتبقّي منها والحفاظ عليها كوحدات متكاملة غير مجزّأة.

حان الوقت لكي يصبح الهدف الأساسي لأيّة سياسة نقل ضمن المدينة وضواحيها، هو تعزيز «التنقّل السلس» (الحركيّة) وليس فقط تحسين ظروف حركة المرور (السير)؛ وذلك، من جهة، بتعميم مشاريع لحدائق ومُتنزهات ومرافق عامة أخرى، تؤمّن في الوقت نفسه مساحات خضراء عامة إضافيّة دائمة، ومن جهة أخرى، بدعم وترويج «النقل المشترك» (أقلّه لصالح كل بيروت وضواحيها)، بشكله العصري المناسب للإنسان ولبيئته، مع إقرار إلزاميّة تطبيق شروطه.

وهذا النوع من النقل (المُشترك)، الذي هو ليس فقط المحفز الأساسي والأقوى، بل وبالمطلق الحل الأفضل والأمثل لأيّ برنامج أو سياسة نقل صحيحة حاضرة أو

مستقبليّة، وذلك إن كان على المدى القريب، المتوسّط أو البعيد. فإن تمّت إدارته بشكل صحيح، تُضيف حتماً إلى صناديق جميع البلديات المعنيّة مبالغ طائلة، تسمح لها بالقيام بمشاريع إنمائيّة إضافيّة، تحسّن بواسطتها وضمن هذه البلديات، الإطار الحياتي للمواطنين كما للإنسان عامة؛ ومنها مثلاً القيام بشراء وتجهيز مساحات جديدة لمواقف عامة للسيارات على مداخل المدينة (بطريقة مركزيّة)، كما ضمن المدينة مع أفضليّة أن يتمّ تُشّييدها على أطراف الأحياء الداخليّة (باعتماد مقاربة لا مركزيّة)، بالإضافة إلى حماية جميع المناطق والأحياء التراثيّة باستملاك بعض العقارات الداخلية وتجهيزها كحدائق عامة ومراكز ثقافيّة وحتّى تثقيفيّة وسواها.

وبصورة عامة، وبغية تصحيح المسار والسير في الاتجاه الصائب القائم على «احترام المواطن الإنسان وبيئته»، علينا في مجال النقل والتنقل اعتماد خطة خمسيّة أو عشرية تستند إلى مبدأ وشروط «الاقتصاد المستدام» بمعناه العريض إن في مجال الصحة أو البيئة او التراث أو الطاقة او الاشغال، الخ. ذلك خصوصاً بهدف خدمة مصلحة الأجيال القادمة؛ وهذه الخطة لكي تنجح، يجب ان تنطلق وتقوم، كما هي الحال بالنسبة إلى سواها، على الخطوات والمراحل التالية: رؤية مستقبلية شاملة، تخطيط عصري، استشارة جامعة – دراسة دقيقة علميّة، تلزيم متوازن، تنفيذ جيّد مطابق، مراقبة مهنية ومحاسبة عقلانية.

المشروع البديل

عوضاً عن مشروع الترك يمكن إنشاء «منتزه فؤاد بطرس» على طول المساحة المُستملكة سابقاً مع بعض الإضافات في المساحات. ومن جهة أخرى يمكن بناء نفق مُقفل على طول «شارل مالك» وتأهيل تقاطع «الفرد نقاش/ شارل مالك»، بالإضافة إلى تأهيل التقاطعات الأخرى وبعض الإصلاحات الإضافية ضمن طرقات المنطقة الرئيسيّة. ومن أجل حل مشكلة السير يمكن إنشاء نفق كامل (بطريقة Tunnelier) على طول شارع شارل مالك وتجهيزه بمداخل ومخارج جانبية.

يتميز هذا المشروع البديل بأنّه ذو منفعة عامة، إذ يأخذ بعين الاعتبار المواطن وتحسين إطاره الحياتي بما فيه سهولة التنقّل، والمحافظة على وحدة المجتمع وعلى الطابع المُدني والتراثي الفريد لأحياء هذه المنطقة، كما أنّه ذو تأثير جيد على البيئة.

كان من الأحرى بأصحاب القرار إشراك أفراد المُجتمع الأهلي، خصوصاً القاطنين في هذه الأحياء، والمُجتمع المدني الناشط والاختصاصيّين المُدُنيّين والمعماريّين والبيئيّين والزراعيّين والتُراثيّين والآثاريّين ومُهندسي النقل والتنقّل، كل هؤلاء كان من الممكن إشراكهم في التخطيط لهذا المشروع للتوصل إلى تحسين حياة سكان هذه المدينة والحفاظ على حقهم فيها.



خريطة Egli عام ١٩٥٤ استناداً لخطة Ecochard – الطرق المخطط لها مشار إليها بالخطوط السوداء.

بلدية بيروت لا تعرض سوى 250 متراً تحت تسمية "بولفار"

لكنها تتعمد ألّا تعرض 850 متراً من المنحدرات والجسور وطرقات ضيقة جانبية على طريق فؤاد بطرس

وتخفي 400 متراً من المنحدرات والطرق التحتية والطرقات الفرعية والغير كافية على شارع شارل مالك، مما سيدمر خصائصه الفريدة.



الائتلاف المدني الرافض لطريق محور "الحكمة - الترك" (شارع "فؤاد بطرس")

THE CIVIL COALITION AGAINST THE HIGHWAY PROJECT "HEKMEH-TURK" AXIS (FOUAD BOUTROS ROAD)

STOP THE HIGHWAY

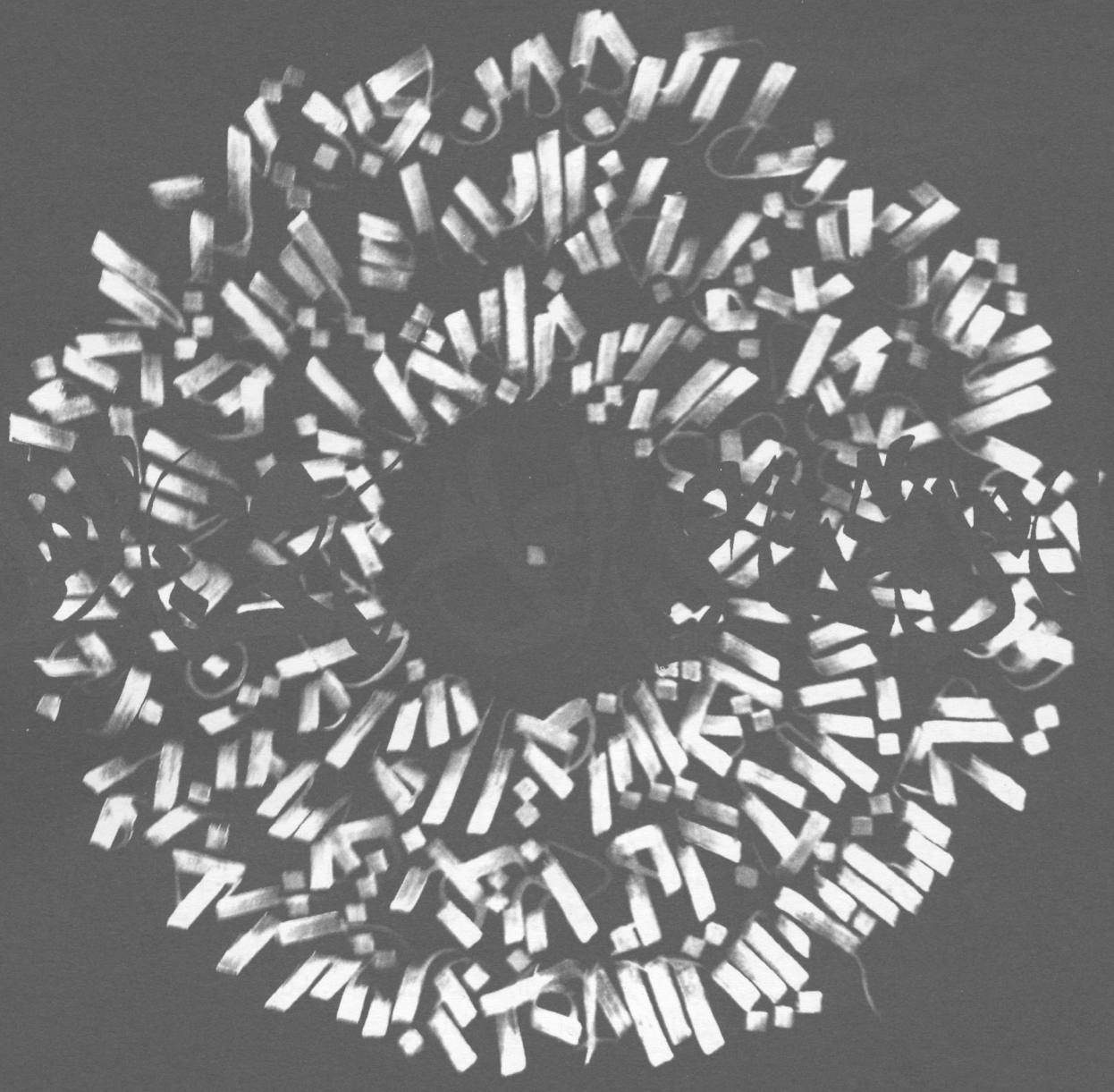
BUILD "THE FOUAD BOUTROS" PARK



الائتلاف المدني الرافض
لطريق محور "الحكمة - الترك"
(شارع "فؤاد بطرس")

THE CIVIL COALITION AGAINST
THE HIGHWAY PROJECT "HEKMEH-TURK" AXIS
(FOUAD BOUTROS ROAD)

STOP HIGHWAY
BUILD PARK



يا يمن

١٠٠ علي الرافعي:
الغرافيتي يلاعب الجدران
مازن السيّد

علي الرافعي
الغرافيتي يلاعب الجدران

مازن السيّد

كاتب صحافي ومؤدي راب من لبنان.

أعتقد أنّ المرة الأولى التي رأيت فيها علي الرافعي يستعمل الطلاء، كانت قبل أكثر من ١٧ عاماً في مدخل ما هو اليوم موقف السيارات الخاص بالمبنى الذي ولدنا ونشأنا فيه في طرابلس، شمالي لبنان. كنّا حينها قد حوّلنا هذا المدخل إلى ملعب لكرة السلة، بسلة منزلية الصنع وأرض ليس فيها أي بقعة مستوية، تغطيها الحصى وتعرقلها الحفر. تأقلمنا مع طبيعة الملعب، وبتنا نستبق ارتدادات الكرة على زوايا التضاريس المختلفة، لكنّ عليّاً أصرّ على طلاء خطوط الرمي وحدود الملعب بلون أزرق داكن. لا قياسات دقيقة، نعمل بما لدينا.

مساحة اللعب تلك، تختصر الكثير مما آلت إليه أمورنا. هي في الأصل انحسارٌ عن كرة القدم التي كانت لعبة إخوتنا الكبار المفضلة، يمارسونها في «البوَر» العديدة أو حتى على الأرصفة. جيلنا رأى هذه المساحات الكبيرة الفارغة تمتلئ بالباطون المتكدس لحركة البناء، وطُرد اللاعبون من الأرصفة تحت رشقات صراخ أصحاب المحال التجارية المستجدّة.

مساحة اللعب تلك، كانت على ما أذكر صراعنا الأوّل على حصّتنا من المجال العام، في مواجهة بعض سكّان المبنى الذين كانوا يمتلكون سيارات يخافون عليها من «غبرتنا»، ورفاهية قيلولة يخافون عليها أيضاً من «ضجيجنا» الذي بدأ يجتذب أطفالاً من شوارع وأحياء أخرى، فصار يقلق الغيارى على لباقة المبنى. حتى المطعم المقابل أطلق علينا كلبه الأسود الضخم مرة، فتسلق على أحد المولدات الكهربائية واختبأت أنا خلف بوابة حديدية.

لكننا لم نستسلم، بل أخذنا نحسّن ظروف اللعبة: سلّة دائرية تماماً، ثم كرة خاصة. ثم بدأنا نتمدّد، ومعنا مساحة اللعب في المدينة التي كان يغطّيها حينها لونٌ رمادي طوال فصول السنة. رمادي، إحباط وخوف. ثم نتساءل عن مصادر هذا الرماد، لأننا مع توسّع حركتنا في المدينة بتنا نلمسه أكثر.

كان يحدث أن نسمع في الليل صريخ ضحية تحت التعذيب في مركز «مار مارون» التابع للاستخبارات السورية (الجوية على ما أظنّ)، أن نتعرف إلى فتى فلسطيني يعرّفنا بالمخيّم ومآسيه، أن يخاف صديقٌ لنا شعره طويل من التوجه وحيداً إلى حيّ ما في المدينة. صار اللعب صعباً جدّاً، واصطدمنا بحواجز كثيرة راحت تثقل كاهل المدينة واكتافنا.

تزامناً، بدأ علي يمارس الغرافيتي في شوارع المدينة، وشرعتُ أنا في اكتشاف عالم الكتابة والموسيقى من خلال «الراب» بشكل خاص، فاستند كلٌ منا إلى نزعاته الداخلية في اختيار أسلحته ضمن الصراع على المجال العام، على العقول والأبصار والأسماع. لكنّنا لم نكن بعد قد تملّكنا استقلاليتنا، فوجدنا نفسينا في متاهات أكاديمية لا تعنينا كثيراً، إكراماً لعيون العائلة والمجتمع. سنين طويلة أمضاها كلٌ منّا محاولاً الحفاظ على نفسه، وتطوير أسلحته في ظلّ الإلتزامات اليومية تلك. حتى حان موعد العودة إلى الذات، إلى الفعل الذي إن هجره واحدنا تغرّب عن نفسه.

عاد علي بعد أكثر من ١٠ سنوات على واقعة طلاء الملعب، موجداً لنفسه أسلوباً خاصاً في الخط العربيّ المعاصر أو في الشخصيات التي بدأ ينثرها على بعض جدران المدينة، مرتكزاً على ثقافة واسعة كوّنها بنفسه في الفنون البصرية وأكملها بعام أكاديمي حين سنحت له الفرصة مجدداً.

الثورات العربية بعثت لنا رسالةً قوية: أن مئات الآلاف من مجايلينا العرب يريدون مثلنا استملاك حصصهم في المساحة العامة، حمايتها وتطويرها كما يطمحون. فشعرنا بنوع من الانتماء لم نكن نجده في الايديولوجيات القومية والإسلاموية التي اختبرناها باكراً ولمسنا تجوّفها وفراغ شعاراتها الطنّانة. انتماء لا يموت مع انتكاسة هذه الثورات واهتزازها، فهو سابقٌ لها يمارس حقّه في وجه استبداد الجماعات، جداراً تلو الجدار وعيناً تلو العين وأذناً تلو الأذن.

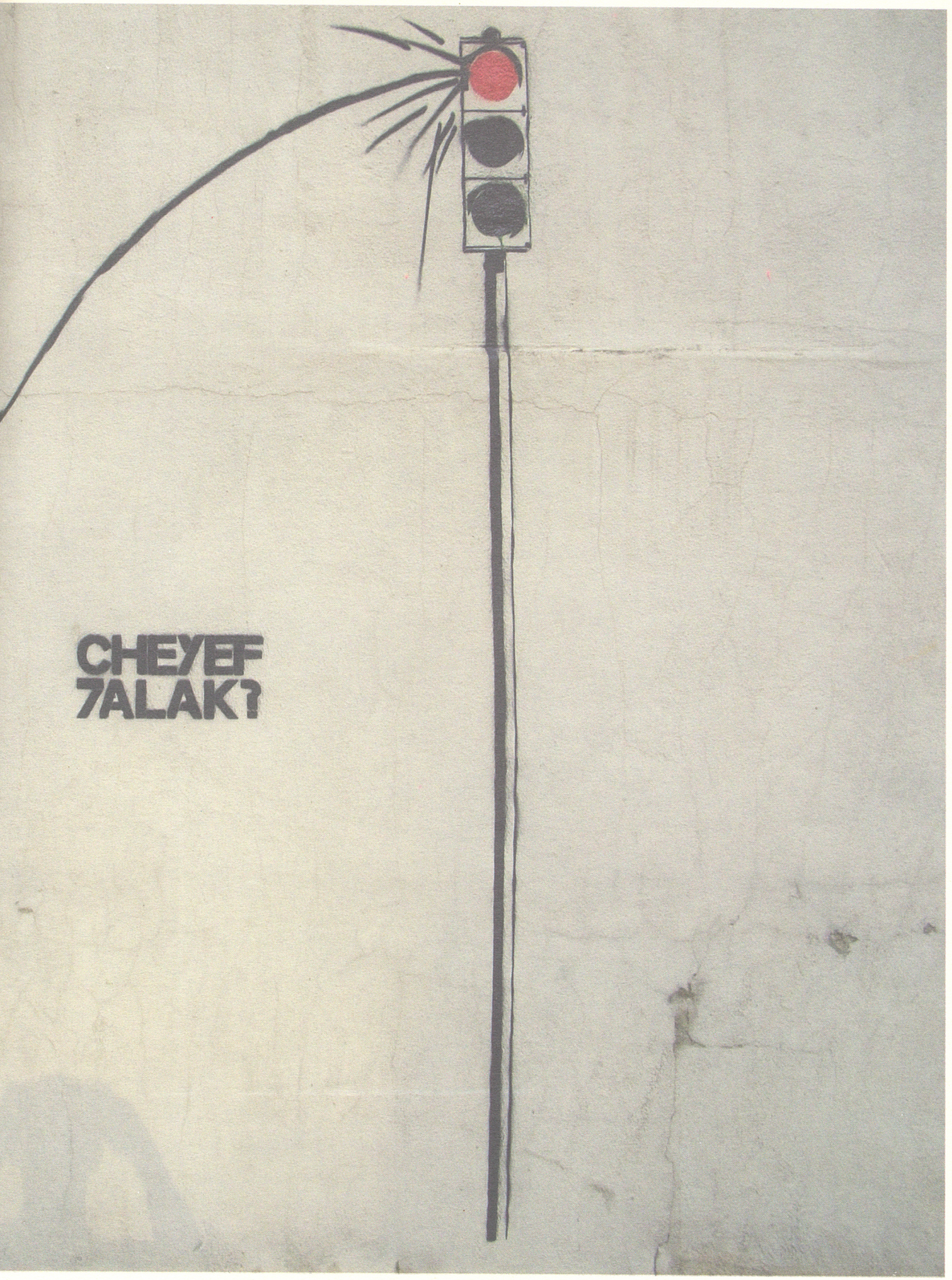




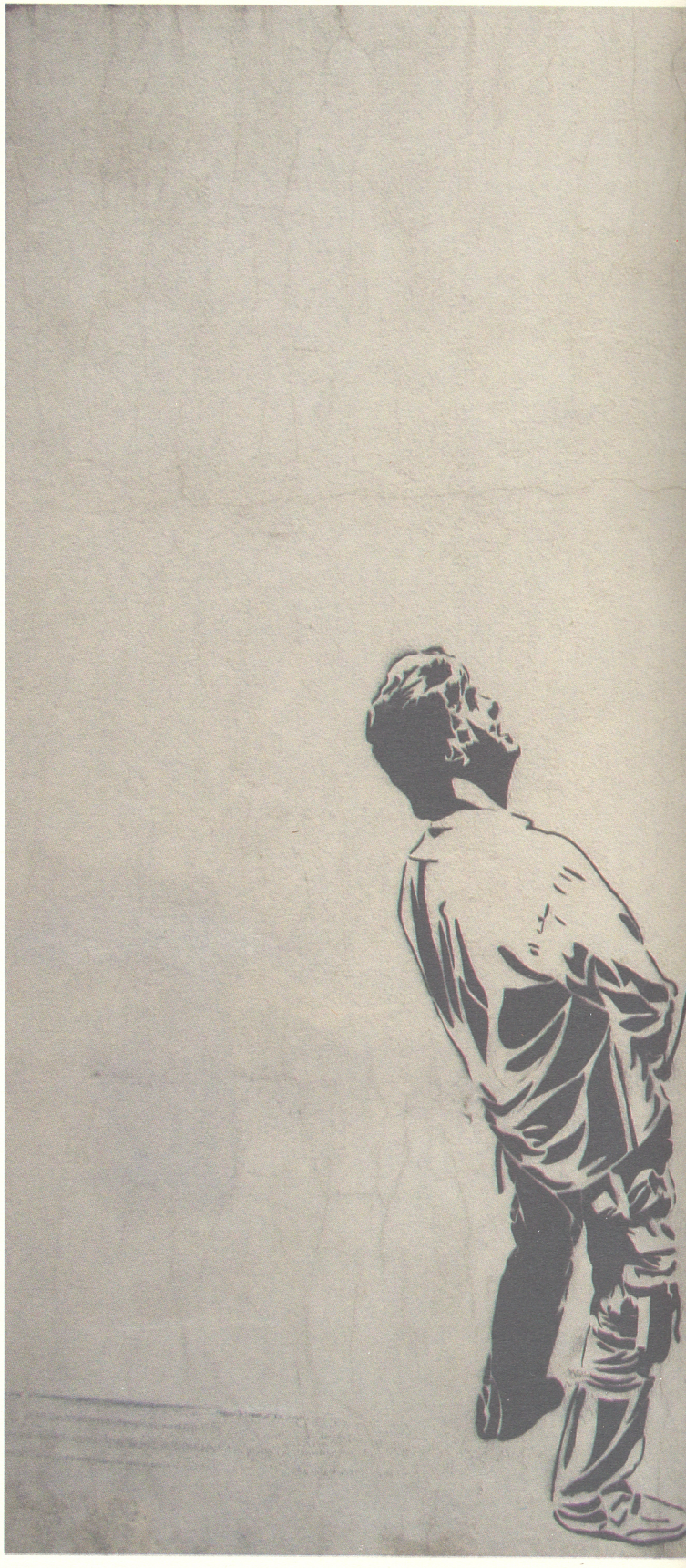

أنا

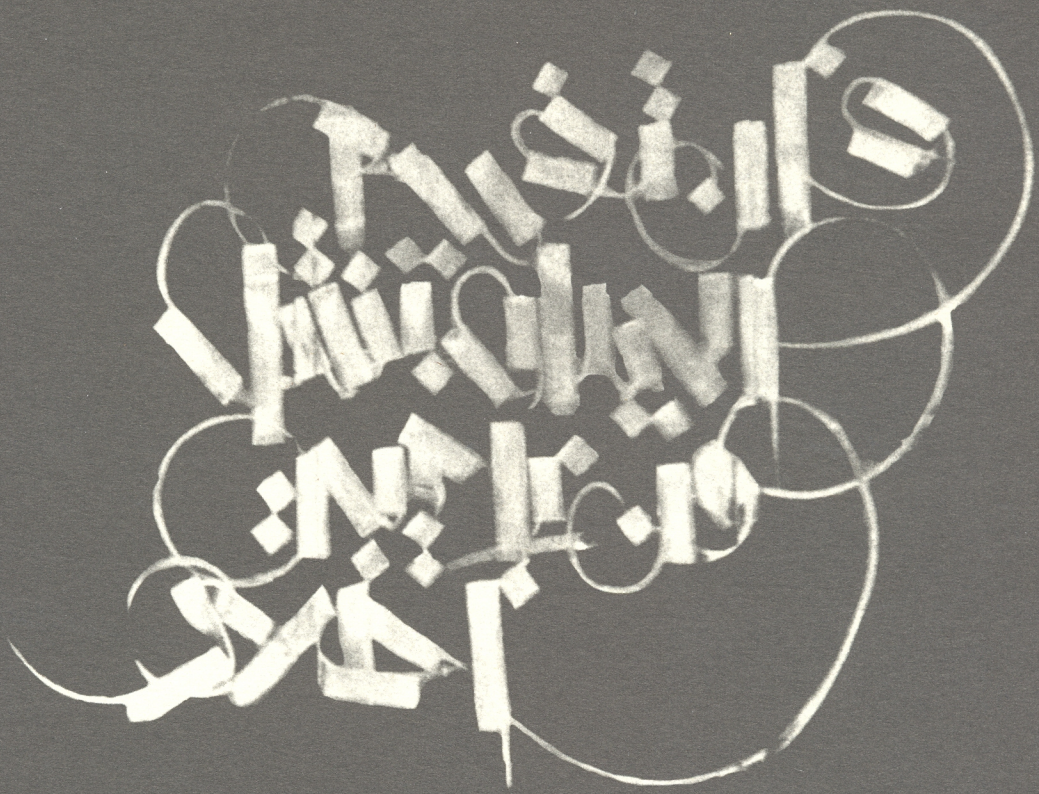




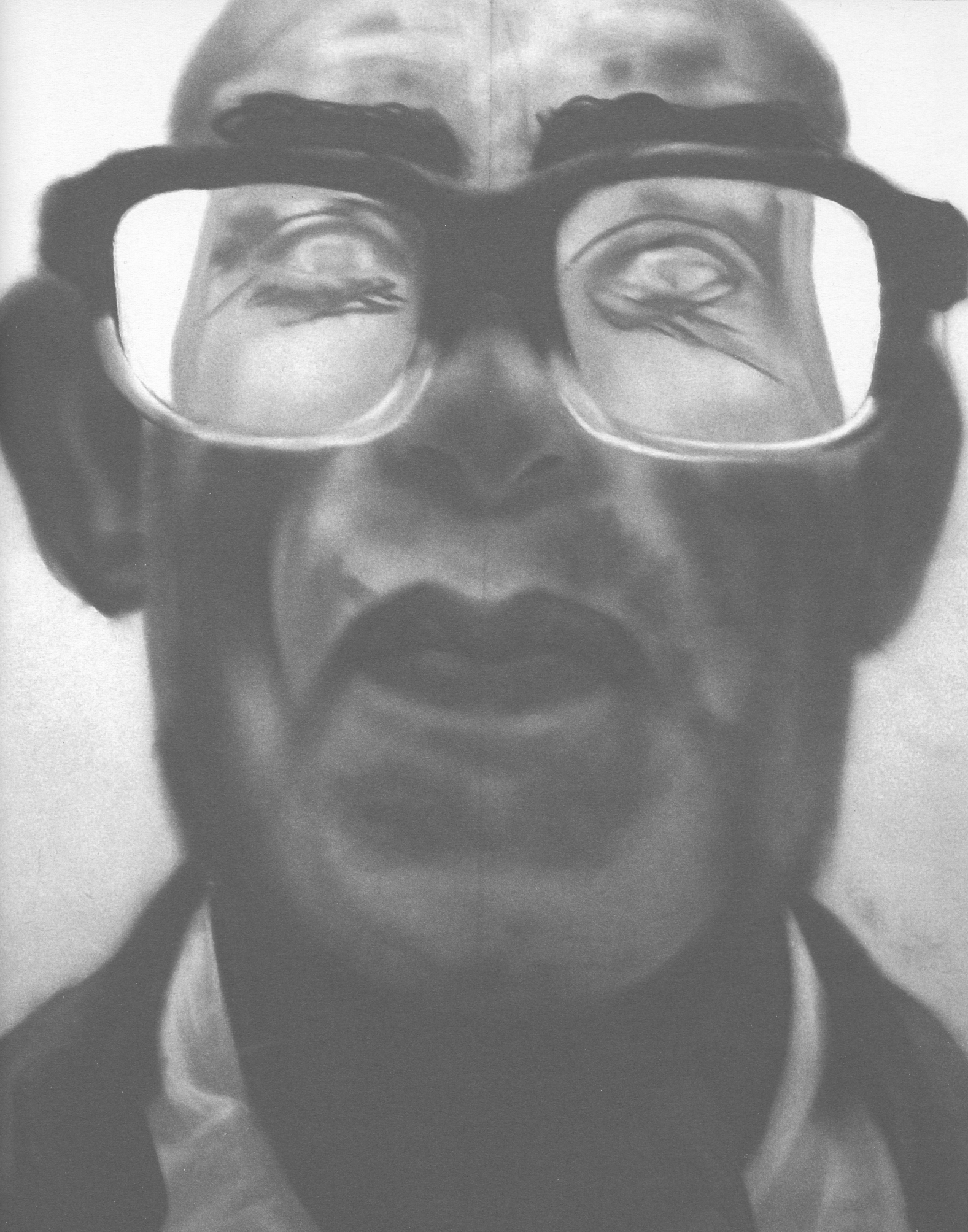

CHEYEF
7ALAK?

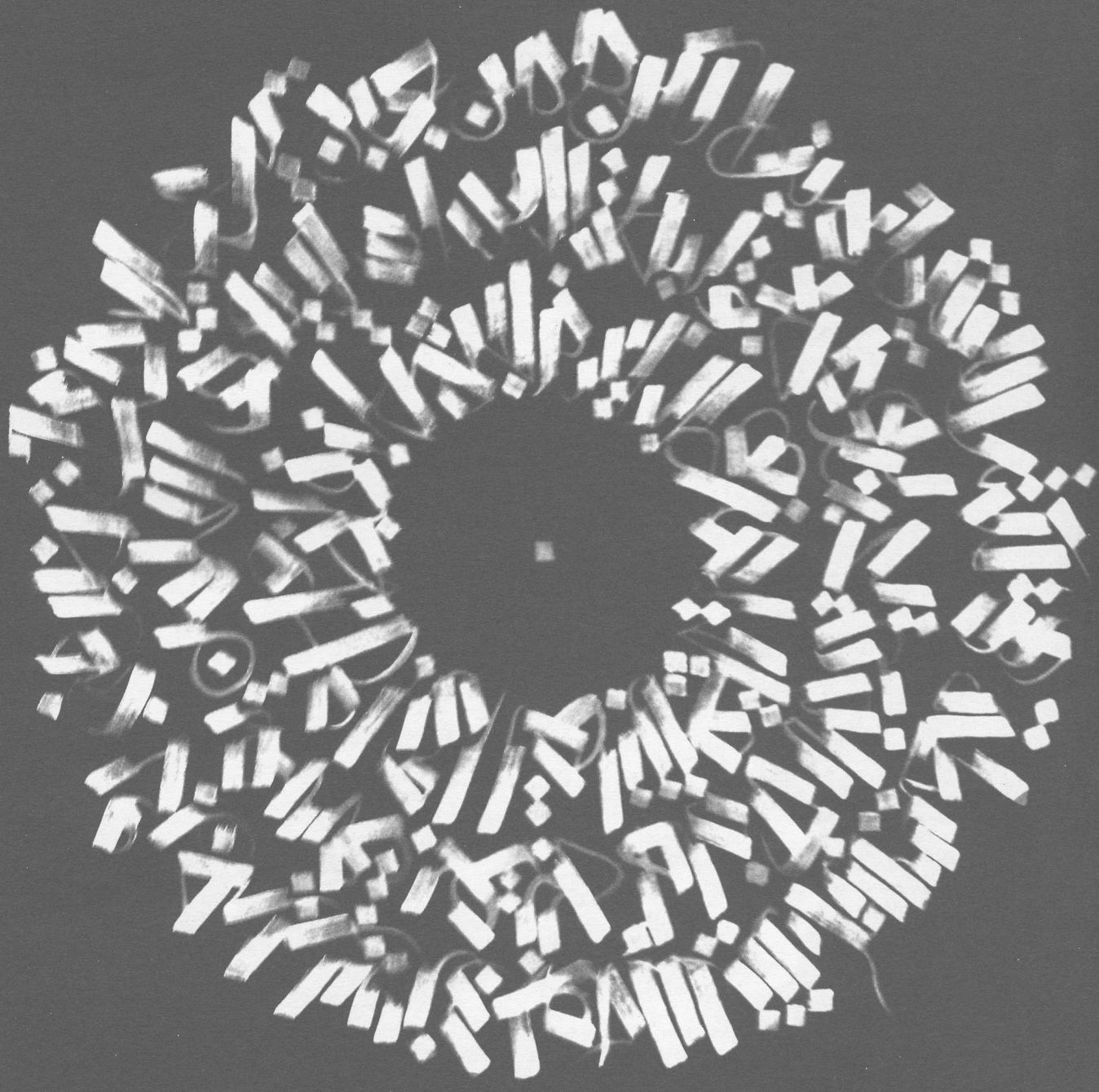

أحب
الفساد















الثورات شبابها

١١٤ **الثورة في مكان آخر**
إبراهيم شرارة

١١٧ **عائلة غزاوية في زمن الحرب**
أسماء الغول

١٢١ **شباب ما بعد الثورة**
رحيل دندش

الثورة في مكان آخر

إبراهيم شرارة
صحافي لبناني

ثمة أمر لافت أثاره الاعتداء على العسكريين في عرسال. كأن الحادثة تحوّلت إلى مناسبة للاحتفال بـ«الشعور الوطني» الذي اكتشفه اللبنانيّون فجأة. راحت كلمات التأييد وقصائد الغزل تنتشر بكثافة. ارتفعت أصوات تطالب الجيش بالضرب بيد من حديد. واستبدل الأكثر حماسة صورهم الشخصية على موقع «فايس بوك» بأخرى «وطنية» تَنافس أصحابها على إعدادها، مستعينين بمهاراتهم في العمل على «فوتوشوب».

من بين هذه الصور واحدة يظهر فيها وجه رجل يرتدي بزّة عسكريّة، ويحمل سكين ينتصب أمام علم لبنان الذي يحتلّ خلفية الصورة. وفي وسطها، عبارة كُتبت بخطّ أبيض تلوّن بعضه بخيط دم أحمر: الأمر لك!

كان ذلك تعبيراً عن تأييد مطلق للجيش، يستعين بشعار راج استخدامه وتعدّد مستخدموه في لبنان. لكن عبارة جديدة لافتة حلّت مكان شعار «الأمر لك» في الصورة نفسها، بكلمات بدت كأنها مقتبسة من «تجربة» أخرى: تفويض الجيش بمحاربة الإرهاب.

وهذه الصورة التي لاقت إعجاب عدد من متابعيها، جعلها أيمن غلافاً لصفحته الشخصيّة على «فايس بوك»، طوال أيام المواجهة العسكرية بين الجيش اللبناني والمسلحين «الغرباء».

أيمن، شاب لبناني، ولد في العام ١٩٨٧، وانضم إلى «فايس بوك» في نهاية العام ٢٠٠٨. درس في الجامعة اللبنانية في بيروت، المدينة التي يقول إنه يعيش فيها.

لا شيء في حسابه الشخصي يدّل على انتماء حزبي. ناشط اجتماعي كما توحي حركته على «فايس بوك»، وناشط على وسائل التواصل كما تؤكد مشاركاته الكثيرة التي تتسع مضامينها لتصل إلى الصراع في أوكرانيا!

في الخانة المخصّصة للوظيفة كتب ما معناه أنه «باحث دائم عن عمل»، أما خانة الديانة فأعلن فيها انتماءه إلى: الحرّية.

على صفحته الخاصة في «فايس بوك»، سنجد صورة لأيمن، نشرها بعد يوم واحد فقط على سقوط حسني مبارك، مع تعليق مختصر: «صباح الخير على الورد لي فتّح في جناين مصر». كانت العبارة السابقة قد صارت نشيد تلك المرحلة. لكن بدا من الصورة التي التقطت له أمام السفارة المصرية في بيروت، ومن التعليقات التي فاقت السبعين أسفلها، أن لها معنى خاصاً عند أيمن. كأنها كانت جسر عبوره إلى القاهرة وميادينها.

قبلها، نجد على حائط أيمن عشرات الصور والتعليقات وروابط أخبار ومقالات عن الثورة المصريّة، وثلاث صور فقط عن ثورة تونس، من بينها واحدة نشرها بعد هروب بن علي، وفيها لافتة تحمل شعار الثورة الشهير: الشعب يريد إسقاط النظام.

هذا أيمن في صورة أخرى، تبتعد مسافة شهر تقريباً. بدا مختلفاً هنا. تراجعت ابتسامة عينيه لتحلّ مكانها نظرة توحي بالإصرار، كما بالثقة. ويداه، خلافاً لانطلاقتهما الفرحة نحو السماء، في الصورة السابقة، كانتا تمتدان بحزم إلى جانب جسده الذي كان لا بد متعباً من مسير الكيلومترات الطويلة التي قطعتها تظاهرة إسقاط النظام الطائفي في ذلك اليوم.

في الصورة التي نشرها صديق على حائطه، يحتلّ أيمن ربع الكادر فقط. إلى جانبه تماماً، يظهر عنصر أمن، أدار ظهره لعدسة الكاميرا، وقد بدا منشغلاً بتنظيم سير المتظاهرين. وفي الخلف، وجوه لشبان وشابات اتسع لها كادر الصورة، تماماً في اللحظة التي كانت فيها

فتاة لفّت عنقها بكوفيّة تصرخ بقوّة، كما يوحي فمها المفتوح على اتساعه.

كان سقوط بن علي مفاجئاً، رغم الأيام الكثيرة التي فصلت بين انتفاضة الشعب ضد نظامه وبين هروبه. كان سقوطه مباغتاً ومدوياً، لكنه لم يكفِ لنصدّق أن أمراً بهذا الحجم يمكن أن يحدث بالفعل. أن رئيساً عربياً يمكن أن يترك نظامه ويهرب تحت ضغط الناس المتظاهرين في الشوارع.

ثم اشتعلت مصر.

أخذنا ننظر إلى الصور وقد صارت الآن حقيقة. صرنا ننشر صور شباب الثورة وأخبارها ونتابع صفحاتها الكثيرة التي أطلقت على «فايس بوك». كأننا كنّا، عندما ننضم إلى صفحات الثورة ونلصق صورها وأخبارها على صفحاتنا، نضع أنفسنا وسط الناس المحتشدين في الميادين. أو كأن الصور هذه تنقل ميادين القاهرة والإسكندرية ومدن مصر كلها إلى بيروت. ننظر إلى الصور البعيدة، ونبحث عن أنفسنا بين المتظاهرين، ونعرف أننا لن نجد ما نبحث عنه.

رحنا نخوض ثورات الآخرين بالوكالة. نقترب منها لنصير جزءاً منها، ليكون لنا دور بطولة في رواية سيسجّلها التاريخ.

كانت ثورة مصر صورتنا المشتهاة، وكانت أيضاً انعكاس عجزنا الذي أخفيناه خلف الاستعارة. وكانت كقصيدة حب جميلة تغري قارئها بالاقتباس. وقد اقتبسناها بالفعل.

حدث الأمر بسرعة. سقط مبارك، فنزل المئات من الشابات والشبان إلى شوارع بيروت. رحنا نردد هنا، في مدينتنا، ما كنا نشارك في ترديده افتراضياً هناك، في القاهرة وتونس. وما بدأ باقتباس أخذ يكبر. صار «الشعب يريد إسقاط النظام»، وصرنا نهتف في الشوارع، بصوت واحد، «ثورة، ثورة».

كان الشعب في مصر يخوض ثورته، وقبله وبعده في تونس وليبيا وسورية واليمن والبحرين، وكنا نخوض معهم ثوراتهم بالوكالة. لكن صارت لنا الآن ثورتنا نحن، وصرنا نلقي تحيّة احترام على «الورد لي فتّح» في ميادين بيروت.

صارت لنا الآن صورتنا التي لا بد ستغري آخرين بالاقتباس والفعل.

لم يفقد أيمن، في فترة «الثورة» اللبنانية، اهتمامه بالثورة المصرية. صارت تعليقاته ومشاركاته تتناوب بين الثورتين. نقرأ دعوة إلى المشاركة في تحرّك مقبل، ثم بعدها مباشرة نشاهد صورة من ميدان التحرير. نتابع نقاشاً عن مطالب



شباب الثورة، ثم نقرأ مقالاً عن طموح المنتفضين ضد النظام الطائفي وآفاقه. وبين هذا وذلك، يغرق حائطه بصور التظاهرات التي ملأت شوارع لبنان ومصر.

تداخلت أخبار «الثورتين»، حتى بدت شيئاً واحداً. كانت صورتنا عن أنفسنا تكبر أكثر كلما اقترنت بتلك الآتية من القاهرة وميادينها. ظلّ أيمن وفياً للثورة الكبرى كما وصفها في أكثر من تعليق، ثورة أم الدنيا، الصورة الأنقى، من دون أن يغفل متابعة تطورات «الحراك» في سورية والانتفاضة في البحرين. أما ليبيا، التي راحت تردنا منها قصص المسلحين فيها وصور المواجهات، فكانت بعيدة لا تصله بشؤونها وشجونها سوى تعليقات متفرّقة تحكي عن أحجار الدومينو والعقيد المجنون.

في منتصف نيسان من العام ٢٠١١، ينشر أيمن تعليقاً مقتضباً يشرح فيه موقفه من حملة إسقاط النظام الطائفي، ثم يختم بالإعلان عن انسحابه مما سيصير فجأة: «المهزلة».

بعد هذا التعليق، سيمتنع أيمن تماماً عن نشر أي مشاركة تتعلق بحملة إسقاط النظام على صفحته.

كان ذلك بعد أقل من شهر على تظاهرة الصنائع الشهيرة (٢٠ آذار\ مارس ٢٠١١)، التظاهرة التي مثّلت ذروة التحرّك، قبل أن ينتهي، سريعاً كما بدأ، إلى انقسامات واتهامات، ثم إلى الاختفاء.

انهارت «ثورتنا» سريعاً، لكن الصور الآتية من بلاد الثورات ظلت حاضرة. وكلما تراجعت صورتنا التي صنعناها فجأة، كلما مرّ عليها الزمن، كنا نزداد حضوراً في صور الآخرين. عدنا إلى لعب دورنا الأول. كان انكسار صورتنا وتراجعنا عن لعب دور البطولة في روايتنا الخاصة، في «ثورتنا» التي سقطت سريعاً، دافعنا إلى اشتهاء البطولة أكثر.

إذ أنّ الثورة، في مكان آخر، مستمرة. وكان لا بد أن نكون جزءاً منها. إنها الحاجة إلى الاحتفاظ بدورنا، إلى تأكيد المشاركة في صنع الحدث، إن لم يكن بالفعل، كما منّينا النفس يوم وقفنا ضد النظام هنا، فلا بأس إذاً بالوكالة.

كان التخلّص من عبء التجربة سهلاً وسريعاً. لم يحتج الأمر إلى مراجعة أو قراءة. فعدا قلّة ظلّت حريصة على ذلك، انفضّ كثيرون عن الحراك الذي صار الآن مجرد حدث عابر. بل إن شيئا ما راح يسود تعاملنا معه كان يوحي برغبة عارمة بتجاهله. كأن في تجاهل التجربة إنكاراً لها. كأننا في نسيانها الحاسم والسريع ننكر وقوعها، فنتخلّص من وزر فشلها. ولولا قدرتنا على العودة إلى الخلف، على مسار الخط الزمني لحياة أيمن الافتراضية مثلاً، لما كنّا عرفنا أصلاً أنه شارك يوماً في «الثورة».

كانت الثورة مستمرة، وكانت «ثورتنا» قد تجمّدت عند الصورة التي انتهت إليها. كان هذا إعلاناً فظّاً عن انفصال الصورتين، بعدما كانتا قد تقاربتا حد التماهي. خسرنا قصّتنا إذاً، وكانت خسارة كهذه مدعاة تمسّك أكبر بحياة الآخرين.

هكذا رحنا ننغمس فيها أكثر فأكثر. صار لنا مرشحون وتيّارات وتحليلات وآراء ننقسم حولها ونتبنّاها. نجد، مثلاً، على الخط الزمني لحياة أيمن الافتراضية، نقاشاً يمتدّ لأيام، عن خطر المطالب الفئوية على مسار الثورة، ومن بين المشاركات تعليقات تحدّد أولويات التحرّك وشروط تراكمه، وتحكي عن النضال وخيانة الثورة!

ثم بدأت تنتقل مخاوف المنتفضين في وجه الأنظمة إلينا، أو أننا كنا نتبنّاها. نحكي عن البديل وعن الخوف، عن المعارضات الفاشلة والتنافس، عن تفويض العسكر وعودة الفلول، عن الحائط المسدود وعن المواجهة والتسوية والهزيمة. وكان هذا امتداداً منطقياً بالنسبة إلينا. كنّا نخوض ثورات الآخرين، وكنّا نتقمص غضبهم وانفعالاتهم ومخاوفهم، وكان مسار كهذا لا بد أن ينتهي بنا إلى ما انتهى إليه الآخرون.

لكننا، بينما كنا نلتصق بحياة الآخرين أكثر فأكثر، كما التصقنا بها في زمن الحماسة والثقة بالقدرة على الفعل، ثم بما أثارته من مخاوف وما ولّدته من إحباط، كنا نترك عالمنا الافتراضي ونعود إلى حقيقتنا، إلى روايتنا الأصليّة: نضفي على تجاربهم التي خاضوها هم خلاصات تجاربنا نحن، نعيد تقييم الانتماءات هناك بحسب انتماءاتنا هنا، وننقسم، في مواجهة ما يواجهه الآخرون هناك، إلى جماعات وطوائف.

هكذا اكتمل التناقض، بين الصورة التي عدنا إليها، حقيقتنا التي عادت الآن لتصير أقوى، وبين الصورة التي ظننا أننا صنعناها لأنفسنا، يوم اقتبسنا صورة الآخرين فتحركنا لإسقاط النظام.

على حائط أيمن جملة شديدة الاختصار، نشرها قبل أسابيع، من دون أن يقرنها بزمان أو مكان أو مناسبة، فظلّت مجهولة النسب والسبب.

كتب أيمن ما يبدو أنها خلاصة تجربته الثورية التي زاد عمرها الآن عن ثلاث سنوات ونصف السنة: الشعب أسوأ من النظام.

عائلة غزّاوية في زمن الحرب

أسماء الغول

صحافية وناشطة فلسطينية من غزة

تحجّرت الدموع، حين تلقّيت مكالمة صباح يوم الأحد في ٣ آب/أغسطس ٢٠١٤ بأنّ عائلتي في مدينة رفح استهدفها صاروخان من طائرة الـ«إف ١٦». إنّه نصيب عائلتنا من الحرب التي لم تنته بعد، فلكلّ عائلة في قطاع غزّة نصيبها من الحزن والألم.

شقيق والدي، عمّي إسماعيل الغول لم يكن حماس، زوجته خضرة الغول لم تكن حماس، إبناهما وائل ومحمّد لم يكونا حماس، إبنتاهما هنادي وأسماء لم تكونا حماس، أطفال إبن عمّي وائل وهم مصطفى وملك وإسماعيل لم يكونوا حماس، كما لم يكن أيّ منهم من الجهاد أو الجبهة الشعبيّة أو فتح. كلّهم ماتوا بقصف إسرائيليّ استهدف منزلهم، عند الساعة السادسة والثلث صباح يوم الأحد.

يقع منزلهم في حيّ يبنا في مخيّم رفح. إنّه منزل أرضيّ سطحه مصنوع من الإسبست الرقيق، لم يكن يحتاج إلى صاروخي «إف ١٦» لتدميره. هل يقول أحدكم لإسرائيل أنّ منازل المخيّمات كان يكفيها قنبلة صغيرة لتدميرها وقتل أصحابها، وأنّها لا تحتاج أن تصرف المليارات لنسفها على ساكنيها؟

إذا كنتم تكرهون حماس، فمن تقتلوهم ليسوا حماس. إنّهم نساء وأطفال ورجال وكبار في السنّ كان همّهم أن تنتهي الحرب، ويتابعون حياتهم وتفاصيلها العاديّة. لكن أطمئنكم، أنتم تخلقون آلاف الحماس بل ملايين الحماس. كلّنا نصبح حماس إذا كان الأطفال والنساء والعائلات هم حماس، إذا كانت حماس عندكم هي المدنيّين والعائلات العاديّة، فأنا حماس وهم حماس وكلّنا حماس.

طوال الحرب، نقول أنّ هذا هو الأسوأ، وأنّها اللحظة الحاسمة، وما هو قادم أفضل. لن يقوموا بأكثر من هذا، فهذه لحظة الألم الحقيقيّة، لحظة الرعب القصوى، لكن يأتي دائماً ما هو أسوأ منها.

الآن عرفت لماذا صور الشهداء والجثامين مهمّة. ليست للرأي العام العالميّ، بل لنا نحن العائلات التي تبحث عن اللحظات الأخيرة لأحبّائها الذين ماتوا غدراً. ماذا كانوا يفعلون في تلك اللحظات؟! كيف يبدون؟!

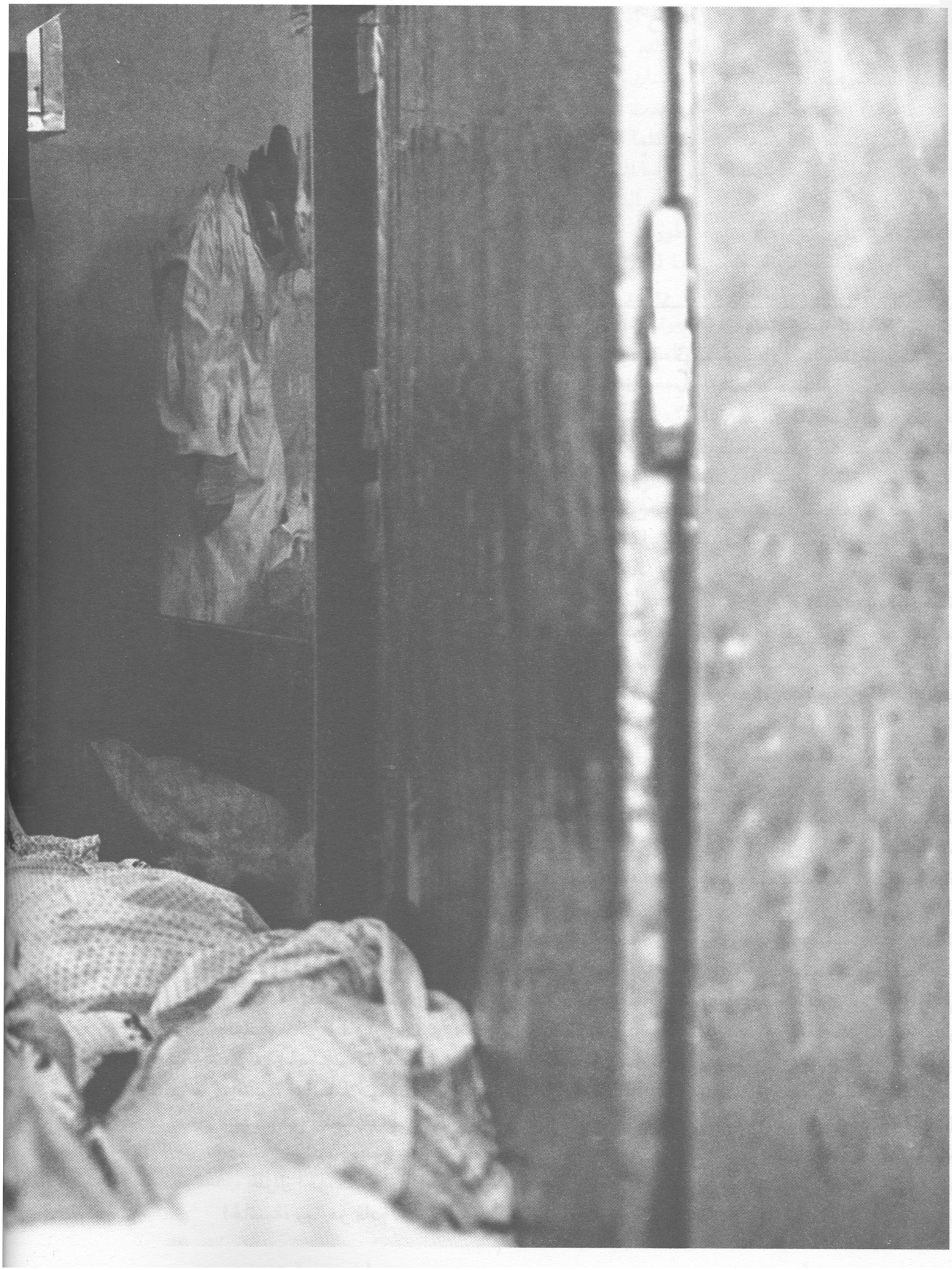
رأيت صورهم على مواقع التواصل الاجتماعيّ. كان أطفال إبن عمّي في ثلاّجة مخصّصة للمثلّجات «الأيس كريم». فقد تمّ إغلاق مستشفى «أبو يوسف النجّار» الرئيسيّ في رفح بعد قصفه بقذائف الدبّابات، وأصبح المستشفى الكويتيّ الخاصّ الذي زرناه السبت في ٢ آب/أغسطس٢٠١٤، مقرّاً بديلاً، ولا توجد فيه سوى هذه ثلاجة.

يقول مدير مستشفى «أبو يوسف النجار» عبدالله شحادة: «بعد إطلاق القذائف على البوّابة الرئيسيّة، قرّرنا نقل المرضى، ومنهم من خرج يركض على قدميه على الرغم من خطورة الوضع الأمنيّ بسبب الخوف. والآن، نعمل من هذه المستشفى غير المجهّزة».

تحوّل المستشفى الإماراتيّ المخصّص للولادة غرب مدينة رفح إلى حاوية كبيرة للجثث، فثلاّجة الخضار والفواكه هناك أصبح فيها العشرات.

على أرض المستشفى الإماراتيّ، رأيت جثثاً ملقاة، بعضها يحمل إسماً مكتوباً على صدره والبعض الآخر لا يحمل، كما من غير الممكن احتمال الرائحة من دون أن تسدّ أنفك، والذباب في كلّ مكان.

خرج إبراهيم حماد (٢٧عاماً) حاملاً جثّة إبنه أنس المكفنة (٥ أعوام) من ثلاّجة الخضار، ويقول لـ«المونيتور»، وهو يغالب دموعه: «مات بسبب قصف صاروخ طائرة استطلاع. وقد كان جثمانه هنا منذ





الأمس، وبسبب خطورة الوضع، جئت اليوم لأخذه».

أحمد الله أنّ أقاربي تمّ دفنهم سريعاً، ولم يبقى أطفال إبن عمي مصطفى وملك وإسماعيل طويلاً داخل ثلاّجة. كنت أخشى عليهم من التجمّد، ولكن أيّ تجمّد إذا كانت أرواحهم ترقد بسلام، ولم يبق لنا سوى صمت الموت وأجساد توقّفت عند لحظتها الأخيرة؟

لحظات الحياة والموت

في اليوم الخامس للحرب، حين ذهبت لأكتب تقريري في رفح عن قصف عائلة غنّام، مررت لزيارة بيت عمّي. رأيتهم والتقطنا الصور، وكانت أمل زوجة وائل إبن عمّي قد ولدت توأماً في الحرب هما مصطفى وإبراهيم. كانا ضئيلي الحجم، لكنّهما مثل ملاكين، شعرت أنّهما فسحة الأمل والنور.

لم أكن أعرف أنّه اللقاء الأخير. تمنّيت لو أنّني جلست أكثر وتحدّثت معهم أكثر. ضحكنا هنادي وأسماء وعمّي وزوجته وأنا. كانوا يتندّرون عن الصدفة التي جعلتنا نلتقي وسط الحرب، ولم يكن الاحتلال الإسرائيليّ وقتها قد بدأ جرائم حربه في رفح بهذه الكثافة.

غريبة هي النهايات، وغريبة كيف تتحوّل اللحظات الحيّة إلى ماض. فلن نراهم بعد الآن، أصبحت هذه الصور التي الْتقطتها للتوأم غالية، فقد استشهد شقّ من التوأم وهو مصطفى وبقي إبراهيم.

أتساءل كيف عرفوا من هو مصطفى ومن هو إبراهيم؟ إنّهما متشابهان إلى درجة كبيرة. فمن تعرّف عليهما بعدما استشهد والدهما، وأصيبت والدتهما التي ترقد في العناية المركّزة؟ من هو مصطفى؟ ومن هو إبراهيم؟ ربما تبادلا الحياة والموت...

في صور موتهم الأخيرة، كانت عيونهم مغمّضة، كانوا نائمين ومسالمين. لم يشوّهوا، لم يحرقوا، كما فعلت هذه الأسلحة الأميركيّة مع مئات من جثث الأطفال والمدنيّين قبلهم.

كنّا نفكّر، هل شعروا بالألم؟ كيف كان وقع صاروخ الـ«إف ١٦» الذي يحمل أطنان المتفجّرات، حين وقع على المنزل البسيط ومزّق ضغط الهواء أعضاءهم الداخليّة؟ ربما كونهم نائمين خفّف من الألم.

حين ذهبت إلى رفح يوم السبت، لم أر أحداً منهم. كتبت عن مقتل عائلة عياد أبو طه بقصف الطائرات، ورأيت جثّة الطفل رزق أبو طه البالغ من العمر عاماً واحداً والتي جاءت للتوّ إلى المستشفى الكويتيّ.

نظرت إليه مطوّلاً، يبدو كأنّه حيّ. تستطيع أن ترى أنّه كان يلعب قبل لحظات، متأنّقاً بسرواله الزهريّ. كيف من الممكن أن يهدأ إلى هذا الحدّ؟ إنّ جثامين ضحايا الحرب تختلف عن التلفاز. إنّها حقيقيّة جدّاً، وحاسمة جدّاً. تراها من دون مقدّمة إخباريّة، ومن دون موسيقى ومن دون شعارات...

الجثث ممدّدة في كلّ مكان، كأنّ كلّ شيء في الحياة كان ينتظر هذه اللحظة. فجأة، تصبح الحياة الشخصيّة خلف الموتى: الهاتف النقّال، والمنزل، والملابس، وعطرك وحمّامك اليوميّ. والأهمّ، يصبح الخوف من الحرب ماضياً.

تباعدت المسافات بين أنحاء قطاع غزّة الصغير، أصبح الخوف والموت يضاعفان من طولها، كما يضاعفان من طول الوقت، ولكنّهما يقلّلان من أعمار ساكنيها. لذلك، لم نستطع مشاركة بقيّة أفراد العائلة الجنازة. يقول لي خالي أحمد الغول عبر الهاتف: «الجميع ودّعهم لثوان بسبب الخطر المحيط، رأيت عيون الطفلة ملك مفتوحةً وكأنّها تسألني ما ذنبي أنا؟»

هناك، وعيت على الجندي الإسرائيليّ الأوّل، وكان يضرب جدّي ليجبره على محو الشعارات الوطنيّة عن جدار المنزل في المخيّم.

في ذلك البيت في مخيّم رفح، ولدت عام ١٩٨٢ حيث كان بيت العائلة الكبير. كبرت هناك وكبر معنا كلّ شيء، الانتفاضة الأولى، والمقاومة، ومدرستي القريبة التي كنت أذهب إليها مشيًا على الأقدام... هناك، رأيت المكتبة الأولى للكتب، وكنت أرى جدّي ينام على صوت أخبار الـBBC. هناك، وعيت على الجندي الإسرائيليّ الأوّل، وكان يضرب جدّي ليجبره على محو الشعارات الوطنيّة عن جدار المنزل في المخيّم.

والآن، نهاية المكان والذكرى حين يلقى بالأطفال إلى القبور باكراً، وتقصف المنازل ومعها الذكريات، ليرجع المواطنون إلى عهدهم الأوّل من التشرّد والضياع، وكذلك المخيّم. لا تسألوني بعد اليوم عن السلام.

شباب ما بعد الثورة

رحيل دندش

صحافية وناشطة لبنانية

أسئلة كثيرة لا تزال تطرح حول الثورات العربية. إجابات متناقضة حولها تعكس حجم القلق والآمال المعلقة على هبّة الشعوب العربية التي انطلقت من تونس نهاية العام ٢٠١٠. لقد انقسمت المواقف منذ اللحظة الأولى حول ما حدث، وأخذت الشكل الحاد بعد وصول رياح الثورة إلى سورية. سارع بعض المثقفين والمحللين إلى اعتبار الثورات العربية مؤامرة خططت لها الدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، وساقوا الأدلة لتأكيد صحة هذه الرؤية. وفي المقابل، هناك من اعتبر أن الشعب أراد الحياة أخيراً. وتبنّى هؤلاء تسمية «الربيع العربي» حتى بعد كل التدخلات الخارجية التي ركبت موجة الثورات وتحكمت بسيرها بما يخدم مصالحها.

يوجد طبعاً في كل من هذين الموقفين تيارات ورؤى تتفق على العنوان العام، ولكنها ذات متبنيات متناقضة. إذ على سبيل المثال، هناك من بين الذين هللوا للربيع العربي مَن طمح بدول ديمقراطية حديثة، أما آخرون فقد اعتبروه اللحظة التي طالما انتظروها لتحقيق حلم الدولة الدينية، وأعني بذلك الإخوان المسلمين والسلفيين والفرق الإسلامية الأخرى.

وبالفعل جاءت نتائج الانتخابات التي حصلت بعد الثورات العربية لصالح الإسلاميين. دفع ذلك الكثير من المثقفين إلى تفسير النتيجة بغياب ثقافة الديمقراطية عند الشعوب العربية. وقرأنا الكثير من الاحتجاجات التي تقول إن مخرجات صناديق الاقتراع ما هي إلا ثمرة للثقافة السائدة، وهكذا فإن الديمقراطية أنتجت وجهاً آخر للاستبداد.

المشكلة كانت لدى هؤلاء مشكلة ثقافية، ما يتطلب بناء وعي ديمقراطي شعبي فكرياً وثقافياً يحدث نقلة نوعية في العقلية القائمة وهي التي تفرز نتائج مختلفة، وبذلك نعيد للديمقراطية مفهومها الصحيح من دون أن تختزل كما رأينا ذلك في مصر، كآلية للوصول إلى الحكم، سرعان ما انقلب عليها الإخوان لتثبيت سلطتهم. الأمر الذي ولّد صراعات داخلية وانقسامات سياسية وشعبية بلغت الذروة حين دعم الشعب بأغلبيته وصول العسكر إلى السلطة. وبذلك عدنا إلى تلك الثنائية المؤلمة التي لا ثالث لها: إما الدولة الدينية الشمولية وإما العسكر.

حديث الربيع والخريف أصبح ممجوجاً لفرط استهلاكه جدياً وإنشائياً. ما الذي حصل؟ ما الذي أرادته الشعوب حقاً؟ هل أرادت الآخرة أم الدنيا؟ هل أرادت الديمقراطية أم الأستبداد؟ هل أرادت العيش الكريم والنهوض الاقتصادي أم استبدال فاسد بفاسد آخر بحجج وشعارات مغايرة وربما مدغدغة تتستر على فساده؟

اليوم حتى هذه الأسئلة تبدو مترفة عندما زاحمتها أسئلة أكثر جذرية في ظل التطورات الدراماتيكية الأخيرة. أنظمة تمعن بالإجرام. رؤوس تحز على وقع نداء «الله أكبر». إبادات جماعية. تهجير جماعي. تشتت. إقامة الخلافة الإسلامية. الإرهاب والحرب على الإرهاب. داعش! من هم هؤلاء؟ من أين أتوا؟ هل هم حقيقة أم مزحة سمجة؟ هل هم عمل استخباراتي؟ هل هم دخلاء أم أصيلون؟ هل لديهم بيئة حاضنة؟ لماذا اكتسبوا تأييداً شعبياً في بعض الأماكن؟ هل يمثلون الإسلام؟ ثم أين هي المواقف الصريحة من قبل التيارات الإسلامية المفترض كونها معتدلة مما يدعو إليه ويقوم به هؤلاء؟ طبعاً نحتاج اليوم إلى موقف صريح من الإسلاميين بعيداً عن لغة العموميات والخطابات السهلة الجاهزة التي ترفض الإرهاب وتدينه دون أن تفككه وتراجع استناداته. نحتاج إلى إجابات مفندة

وجريئة، إذ إنّ داعش في ممارستها للعنف والإرهاب تجتمع حول دعاوى تنتسب إلى مقولات تجد أسسها في نصوص إسلامية رئيسية.

السؤال المطروح بقوة: كيف نتعامل مع الماضي (التراث)، فلا حاضر ولا مستقبل بدون ماض، ولكن ألم يحن الوقت لنأخذ من الماضي ما يساعدنا للحاضر والمستقبل؟ طبعاً هذا كلام جميل، يردده المثقفون العرب، ولكن كيف يصبح واقعاً؟ ألا يجب أن تستوقفنا شروط قيام الديمقراطية في الغرب أو شروط حصول القطيعة مع العقلية الدينية الاستئصالية؟

لو أخذنا من التاريخ الفرنسي فقط مذبحة سان بارتيليمي ١٥٧٢ حين ذبح الكاثوليك في ليلة واحدة ٣٠ ألف بروتستانتي، هل كنا لنتصور أن نتحدث عن إمكانية تعايش سلمي بين البروتستانت والكاثوليك؟ ثمة جدل كبير بين المفكرين حول أسباب هذه التحولات الكبرى التي صنعت الغرب الراهن في كل قوته وتقدمه. فمنهم من

في مصر سرعان ما عدنا إلى تلك الثنائية المؤلمة التي لا ثالث لها: إما الدولة الدينية الشمولية وإما العسكر

يعيد ذلك إلى الإصلاح الديني الذي بدأ مع لوثر، وفتح الأبواب أمام قراءات مختلفة للنص الديني أسست لقيام مفهوم التسامح ونبذت فكرة احتكار مذهب بعينه للحقيقة الدينية، ومنهم من رد ذلك إلى الثورة الصناعية الكبرى وما أفضت إليه من نتائج كبرى، لاسيما على الصعيد الاجتماعي. أسست مختلف الشروط لولادة المجتمع الجديد على أنقاض المجتمع المتقاتل مذهبياً وطائفياً في سيرورة شهدت قفزات وارتدادات عديدة.

ليس ثمة شرط واحد للتحوّل، فالإصلاح الديني والثقافي أساس، التطوّر الاقتصادي وقيام المشاريع التنموية أساس، كما الالتفات لخصوصيات مجتمعاتنا وأوضاعنا أساس كل ذلك في سبيل تحقيق التحولات الجذرية.

سأتحدث عن رؤيتي كشابة عربية وليس بصفات أراها مهلهلة على الكثير من مدّعيها. في ذلك الحين عندما أسقط تحرك الشعوب بعض دول الاستبداد أعاد ذلك الأمل إليّ شخصياً، أنا التي مثل الكثيرين من أبناء جيلي نحمل الغضب والإحباط جراء أوضاعنا العربية المنهزمة تحت نير الاستبداد من جهة ونير إسرائيل ومن يقف أمامها وخلفها من جهة أخرى. جئنا إلى العالم ومنذ تفتق وعينا عشنا عار مجتمعاتنا وكأنه لا حيلة لنا أمامه سوى الندب والشعر، وفقدنا الأمل بتغيير الأوضاع. كنا نردد كالببغاء كلاما صدقناه عن أن العرب جبناء، لا يقدمون ولا يؤخرون. كل الذي حصل أدهشنا، أعاد لنا الثقة بأنفسنا ومنحنا الأمل، لا بل رفع من سقف المتوقع لدينا أننا سوف نصبح شعوباً ديمقراطية ومنتجة وسنستعيد فلسطين؛ جرحنا العربي. لكن التطوّرات أعادتنا من جديد إلى الواقع المؤلم.

اليوم الوضع خطير جداً؛ إرهاب عابر للحدود، حروب باسم الله، تفكك وتمزق عربي، حركات انفصالية، بات الناس يلعنون الثورة، العالم يتفرج ويتآمر، المال النفطي في أعلى مراحل توظيفه، إسرائيل تتوحش أكثر فأكثر ما شهدناه في غزة أكبر دليل.. وحده الحاكم اليوم هو القلق والخوف والنظر بسوداوية إلى المستقبل. أي عاقل لديه رؤية استشرافية للمستقبل كان ليتوقع أن هذا العفن التاريخي سيطفو على السطح وسيتفجر بهذا الشكل المريع الذي نشهده.

لقد أدركنا بعد وقت ليس بالطويل أن ما يحصل نتاج طبيعي، الاستبداد الذي حكم لعقود خلّف وراءه بنى عميقة. المعركة الآن في الكشف عن هذه البنى الراسخة ثقافياً وسياسياً ودينياً ووجدانياً، وهنا يكمن دور المثقف الكشّاف غير المرتهن للأنظمة والأحزاب العلمانية والدينية. والمؤلم أن هناك حاجة لتعريف المثقف، وهذا شجن آخر.

في أي اتجاه يذهب التاريخ؟ هذا الجواب رهن بمدى عملنا وتضافر جهودنا. فحتى لو استفتينا هيغل في أوضاعنا وهو المتفائل بحركة التاريخ سيقول لنا ليس لكم سوى أن تعملوا. اليوم ليختار كل منا الجبهة التي يستطيع أن يقدم فيها ويجتهد في ذلك، لاختصار أكثر ما يمكن من الألم حتى تستكمل الثورات التي أعادت الأمل. من نحن؟ نحن الذين نرفض الاستبداد أكان علمانياً أم دينياً، ونرفض الارتهان للخارج ونسعى إلى فك ارتباطاته التي تستغل مقدراتنا. نحن الذين نريد دولاً ديمقراطية حديثة عادلة لا تعادي الدين وتؤمن قولاً وفعلاً بحرية الضمير والمعتقد، دولاً تهتم بالعيش الكريم لمواطنيها وتشجع الابداع. دولاً توسع المجال العام وتفتح المجال أمامه لينمو. مجالاً عاماً يكون كما عرفه الفيلسوف الألماني هابرمارس. حيّز يجري في خلاله تبادل الأفكار العمومية والمعلومات والنقاش في المجتمع بحرية دون أن تتحكم به الأجهزة الاستخباراتية القمعية والطائفية أو العرقية وكل ما من شأنه تضييقه.

«ماركس غسان الرفاعي»
هل العودة الى النص الاصلي تجديد أم تجميد؟

فواز طرابلسي

العودة الى ماركس في كتاب غسان الرفاعي[1] أقرب الى لون من الاصولية ترى التجديد في العودة الى النص الاصلي المقدّس، واستلهام مثال السلف الصالح، كرد فعل على الهزائم، أو في مواجهة المنعطفات التاريخية. يشكو الكتاب لذلك مما يشكو منه كل نزوع أصولي: الافتراض بأن اللاحق موجود سلفاً في السابق أو محاولة إرجاع المتغيّر والمتعدد الى الاوحد الثابت.

يوجد منهج مقابل لا يحول دون العودة الى «الأمهات» وانما يشتغل أيضاً وخصوصاً على تأويلات تلك النصوص الأصلية والتفسيرات المختلفة لها. فلو أن النص الماركسي الأصلي واضح وعابر للأزمان، في مفترضاته ومقولاته وطروحاته ومكتشفاته، لما احتاج إلى كل هذا الكم من الشارحين والمفسّرين والمجتهدين على مرّ نحو قرن ونصف قرن من الزمن.

استغربتُ أن يكون الباحث الرئيسي الذي يساجل ضده المؤلف مجهولاً في الكتاب مع أن غسان ليس ينكر عليه الإجلال ولا الاحترام ولا الزمالة الفكرية أو الرفاقية. اقتضى الامر أن أشارك في ندوة لنقاش الكتاب في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي لكي أكتشف عن طريق محمد علي مقلّد أن المعني هو الباحث العراقي فالح عبد الجبار. مع ذلك، سأحصر نقاشي بنص غسان الرفاعي على الرغم من أني قد ألتقي مع هذه الفكرة أو تلك من كتابات عبد الجبار.

بحث في الفلسفة

مهما يكن، فإن هذه المقاربة الأصولية تحكم علينا البحث والسجال في فقه الماركسية أكثر من أي شيء آخر. مع أن الدافع الى الكتابة مشدود الى ما هو آنيّ ومعاصر، أعني الثورات العربية وما كشفته من ثغر في أوضاع اليسار، حسب المؤلف، وما استدعته من ضرورات لتجديده، يتسم الجهد الفكري في الكتاب، منذ البداية، بالنضال على المستوى الفكري/الفلسفي ضد ما يعتبره المؤلف انحرافين متوازيين في الماركسية: الدوغمائية والتجريبية. والإعلان منذ البداية هو أنّ التعاطي مع الرأسمالية سوف يتم بما هي ظاهرة كونية، ما يوجب تناول قضايا «تشوبُها شُبهةُ الفلسفة» (ص٢١). ليس يقتصر الامر على الشبهة، المقاربة الفلسفية هنا، أي إنها جوهرية تجريدية وعلمية لأنها ترى الى رأس المال على أنه جوهر وقوانين لا يغيّر منه الحدثان كثيراً، اي لا يتأثر كبير تأثر بـ«الظاهرات والمسارات الثانوية التي تتالى عليه عبر مساره التاريخي» (ص٨٧)، نستطيع ان نتبيّن سلفاً أن هذه المقاربة الفلسفية ليست مقاربة تاريخية.

يتعاطى غسان الرفاعي مع الماركسية بما هي حلقة عليا في تطور الفكر الفلسفي خلال ٢٥ قرناً. وأول مأخذ للمؤلف على فالح عبد الجبار أنه لا يرى فيها إلّا نظرية لتحليل النظام الرأسمالي ونقده والبحث عن الإمكانات التاريخية لتجاوزه (ص٣٨). فالتهمة الرئيسة الموجهة لفالح أنه يلغي الماركسية بما هي فلسفة حتى لا نقول إنه يلغي الفلسفة ذاتها. ويدور الخلاف هنا بين نظرية المعرفة والنظرية. وتتوالى حلقاته في ثنائيات عدة: المادة/الوعي، الفلسفة/علم الاجتماع، الحتمية/الضرورة، التجريد أو التخصيص، العام/الخاص، فضلاً عن ثنائية رأس المال/العمل بما هي الجوهر الكوني للماركسية.

على سبيل الاختصار وتوفير الوقت، سأتوقف عند مساهمتين

١ غسان الرفاعي، ماركس. دون دوغمائية. دون تفريط، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٣. المقالة نسخة موسعة عن مداخلة حول الكتاب القيت في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت، في ٣ ابريل ٢٠١٤

للمؤلف. تتعلق الواحدة بالتجربة السوفياتية والثانية بالعولمة.

المادة والوعي بين الطبيعة والتاريخ

الفصل الاول مخصص للمقاربة النظرية وتحديداً للمادة الديالكتيكية وعلميتها التي تقول بأبدية وأولوية المادة على الوعي ونظرية الانعكاس:

معقّدة من التمثّلات والأفكار والترسيمات لهذا الواقع. بعبارة أخرى، الفكر لا يعكس الواقع على نحو مستكين وإنما يفسّر هذا الواقع. بل إن الفكر عند البشر ليس يكتفي بتفسير الواقع وإنما هو ينظّم كل الممارسات الاجتماعية الفاعلة في هذا الواقع، ومن هنا

في «نقد السوفياتية النظرية»

يقدّم غسان الرفاعي أربع نقاط رئيسة في نقد ما يسمّيه «السوفياتية النظرية».

١ لم تميّز السوفياتية النظرية، بل خلطت، بين طرفي نقيض: قوى الانتاج وعلاقات الانتاج

ويدور الخلاف هنا بين نظرية المعرفة والنظرية. وتتوالى حلقاته في ثنائيات عدة: المادة/الوعي، الفلسفة/علم الاجتماع، الحتمية/الضرورة، التجريد أو التخصيص، العام/الخاص، فضلاً عن ثنائية رأس المال/العمل بما هي الجوهر الكوني للماركسية

الدماغ البشري جزء من المادة والوعي هو الفاعلية الأرقى للدماغ البشري. ومن البراهين الرئيسة على أولوية المادة على الوعي اثنان:

الاول هو انعكاس المادة في الوعي، لا العكس. أي انعكاس الواقع المادي في دماغ الانسان وتحوّله الى أشكال من الفكر؛

والثاني هو تخلف المعرفة، او تباطؤها، قياساً للواقع..

والحال أن هذه النظرية العلموية الجبرية التي سادت في الماركسية المُسَفْيتة والمبنية بالدرجة الأولى على «ديالكتيك الطبيعة» عند انغلز تشكّل الأساس الفلسفي للدوغمائية لكونها تحوّل المادية الدياكتيكية الى قوانين طبيعية حتمية وحيدة الجانب.

وقد تولى العديد من المفكرين والباحثين والاقتصاديين والمؤرخين وعلماء الاجتماع والإناسة الماركسيين نقد هذه الصيغة للمادية الجدلية مؤكدين أنّ البشر لا يعيشون علاقاتهم بالواقع المادي المحيط بهم إلّا من خلال شبكة

مساهمة الفكر في إنتاج وقائع جديدة. بايجاز: الفكر يسهم في تغيير الواقع. هذه هي مقولة ماركس في أطروحته الشهيرة عن فيورباخ. ولاحقتها قوله بأن الأفكار عندما تتجذر في الجماهير تتحول الى قوة مادية. وهذا ما يميّز بين النزعة المادية في الماركسية عن منوعات النزعة المادية الأخرى..

حقيقة الامر أن غسان الرفاعي يقيم التضاد بين المادية الجدلية والمادية التاريخية. أي إنه يخلط بين علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقة الإنسان بالتاريخ. هكذا يصوغ عالم الاجتماع الماركسي موريس غودلييه العلاقة الجدلية بينهما: «إنّ الطبيعة موجودة، وقد وجدت وسوف تظل موجودة، خارج الإنسان، خارج فكر الإنسان، وبغضّ النظر عن الإنسان، على الأقلّ في ذلك النطاق من الطبيعة الذي لم يروّضه الانسان بعد. بالمقارنة، فالعلاقة الاجتماعية لا يمكن أن توجد إلا في شكلها المزدوج: داخل الفكر وخارجه معاً، أي بما هي واقع مادي وفكري في آن معاً»

في صياغتهما التجريدية عند ماركس. مع أن المقصود هنا ليس واضحاً تماماً، يمكن الاكتفاء منه بأن التشديد مجدداً هو على التجريد.

٢ استنتجت «السوفياتية النظرية» من التوازن الدولي بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي استنتاجاً غلطاً بأن شروط الثورة قد نضجت على الصعيد العالمي. وهي ملاحظة نقدية مستغربة تنطوي على مقدار غير معقول من العدمية، أي أنها توحي أن الغلط غلط وجودي: قامت ثورة اكتوبر الروسية قبل نضج ظروفها. أو أنها قامت على امل تفجير الثورة العالمية وقد اخطأت في الحساب والتقدير. والواضح أن «السوفياتية النظرية » - قيد الممارسة العملية - تخلّت عن فكرة الثورة العالمية منذ سنواتها الاولى وإنها في حقباتها الاخيرة، بُعَيد الحرب العالمية الثانية خصوصاً، باتت قوة محافظة على التوازن الدولي

بدلاً من السعي إلى تغييره.

٣ «السوفياتية النظرية» دوغمائية والستالينيون متحجّرون لأنهم حوّلوا الحتمية التاريخية في الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية عند ماركس الى «قَدَرية إقتصادية» (٩٦-١٠٢)

٤ عند الانتقال من «السوفياتية النظرية» الى التجربة السوفياتية، يستخدم المؤلف مصطلح «ظاهرة التوجّه الاشتراكي». ولست أفهم لماذا يستخدم المؤلف مفردة «ظاهرة» بدلاً من التوصيف العادي والدقيق لما جرى في الاتحاد السوفياتي: ثورة نجم عنها تجربة ونظام. مهما يكن، يأخذ المؤلف على الظاهرة أنها وُلدت على «قاعدة محلية متخلفة». قد يظن المرء أول الأمر أن المقصود بتخلف القاعدة المحلية هو تخلف القاعدة الاقتصادية لروسيا. غير أن المؤلف يرى التخلّف في «البناء الفوقي» إذا جاز التعبير. ثمّة نظام جديد وُلد قبل أوانه مثل الطفل السبيعي. وهذا التخلف يفسّر عند مؤلفنا، في ما يفسّر، «تخلف التجربة الديمقراطية» حيث لم تنجح «الظاهرة السوفياتية» في تحويل الديمقراطية العفوية المتمثلة بالسوفياتات [أي مجالس العمال والفلاحين والجنود] الى «ديمقراطية من نوع جديد». (ص ١١٢).

ديمقراطية متخلفة أم دكتاتورية؟

هكذا تكاد مقولات «التخلف» و«الظاهرة» «والجمود الستاليني» تستغرق كل التقييم الفعلي للتجربة السوفياتية. وهي لا تسلّمنا أي تقييم للأداء الاقتصادي لـ«ظاهرة التوجه الاشتراكي» لأن الحديث عن «التوجه الاشتراكي» يبدو أنه يجري خارج المسار التاريخي للتجربة بإنجازاتها والنواقص والأزمات وأسباب الانهيار. فعلى صعيد المسارات الفعلية، مثلاً، حاولت التجربة السوفياتية الإجابة على «التخلف المحلي» الاقتصادي-الاجتماعي-الثقافي (على افتراض مقولة لينين أن روسيا متقدمة سياسياً) عن طريق عملية تصنيع وتحديث واسعة النطاق ومتسارعة الوتيرة ومتوحشة الأساليب، وقد تمّت عملية «التراكم الاشتراكي الأوّلي» تلك بالدرجة الاولى على حساب الفلاحين. حتى ليجوز القول مع المؤرخ الماركسي البولوني إسحق دويتشر إن ستالين أخرج روسيا من الهمجية بوسائل كانت هي نفسها همجية.٢ اقصد هنا أن بالإمكان النظر الى التجربة، اي تجربة، من منظار ما حققته وليس بالضرورة ما ادّعت تحقيقَه أو سعت إلى تحقيقِه. علماً أن تقييم التجربة السوفياتية، فيما عدا مسألة الديمقراطية، مؤجّل عند غسان الرفاعي، كما سوف نرى.

اما على الصعيد السلطوي والسياسي فلست أجد كبير معنى في القول إن التجربة السوفياتية «تجربة ديمقراطية متخلفة». أفضت ثورة اكتوبر، خصوصاً بعيد وفاة لينين العام ١٩٢٤، وبعد تصفية حقبة الديمقراطية المجالسية، وفكّ التحالف مع «الاشتراكيين الثوريين»، الحزب الاوسع تمثيلاً للفلاحين، الى نظام حكم الحزب الاوحد، ودكتاتورية الزعيم الاوحد، وهو نظام ارتكز على قاعدة عسكرية-امنية، وعلى تحكّم الجهاز البيرقراطي بمقدرات البلاد. والدكتاتورية نقيض الديمقراطية وليست تخلفاً عنها. والمؤلف الذي يأخذ على التجربة أنها فشلت في الاستعاضة عن الديمقراطية «العفوية»، أي الديمقراطية السوفياتية - المجالسية، بصيغة «ديمقراطية جديدة» يتناسى أنّ الصيغة الديمقراطية الجديدة هي تلك الديمقراطية المباشرة ذاتها حيث يفترض أنّ الناس تنتخب فيها مندوبيها بلا وسائط وحيث مركز القرار هو الجمعيات العمومية لكل المندوبين المنتخبين تجري فيها محاسبة المندوبين وتغييرهم إذا أخلّوا بالتفويض الذي أعطاهم إياه ناخبوهم، بغضّ النظر عن المهل الزمنية.

على أن ما يبعث على الحيرة حقاً في التجربة السوفياتية، بعد خروجها منتصرة من الحروب الأهلية وحروب التدخل، والتراجع عن «شيوعية الحرب» الى «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي أعادت الاعتبار لعدد من أوّليات السوق وللملكية الفردية في الريف خصوصاً، ما يبعث على الحيرة في تلك الانعطافة الاقتصادية هو لماذا لم تترافق مع انعطافة سياسية، أي لماذا لم يتم التراجع من الديمقرطية المجالسية نحو ديمقراطية برلمانية قائمة على المساواة السياسية والقانونية والسيادة الشعبية وتعددية الأحزاب ووسائل الإعلام ومبدأ تداول السلطة (على ما اقترحتْ روزا لوكسمبرغ على لينين ان يفعل). والحال أن هذه النقلة من المجالسية الى الدكتاتورية قد أورثت الشيوعيين وكثيراً من اليساريين تراثاً متراكماً من التوجس من الديمقراطية المسمّاة

٢ راجع نقد التجربة السوفياتية في العدد الاول من مجلة «بدايات»، بيروت، ربيع ٢٠١٢.

منذ ذلك الحين «برجوازية »، حتى لا نقول العداء السافر لها، حيث أدّى ويؤدي رفض «برجوزيتها» الى دفع قطاعات واسعة من الشيوعيين واليساريين الى تأييد أنظمة الاستبداد والدكتاتورية العربية.

في مكان آخر، كل ما نحصّله في الكتاب عن أسباب سقوط التجربة السوفياتية، هو تشديد المؤلف على أنها سقطت بسبب أخطائها الداخلية المعيّنة أعلاه. والمقصود أنها لم تسقط لأسباب خارجية هي المنافسة بين «ظاهرة التوجه الاشتراكي» السوفياتية والمعسكر الرأسمالي. ومع أن المؤلف لا يعيّن لنا تلك الأخطاء التي أدّت الى سقوط التجربة - اللهم الا اذا اراد اختزالها بـ «الديمقراطية المتخلفة» - بل يدعونا الى دراستها بعد ربع قرن من سقوطها، إلا أنه لم يشرح لنا لماذا تنجح البرجوازية في تجاوز أزماتها وتفيد منها لكي تبتدع تطويرات النامية (ص١٨٣) وتزيد من التناقضات والأزمات المستعصية والمتفاقمة وقد باتت أكثر استعصاءً وأشدّ وطأة على ضحاياها. وهذا طبعاً صحيح. إلا أنّه يساجل ضد نقّاد العولمة ممن يريدون إصلاحها على اعتبارهم أصحاب أمنيات يسهمون في تأبيد توحشها. انظر في هذا المجال ردّه الحازم على انتقادات العالم الاقتصادي الاميركي جوزيف ستيغلتس واقتراحاته الاصلاحية. ولا معنى لهذه الحدّة في رفض أي إصلاح أو أي تدرّج ومرحلية في النضال ضد العولمة الرأسمالية إلا الركون إلى ان الرأسمالية المتعولمة سوف تنهار لا محالة بناء على القدرية الاقتصادية ذاتها التي ينتقدها غسان الرفاعي في الدوغمائية الستالينية.

العولمة بين الجوهر والأعراض

ومع أن المؤلف يعترف ببعض الخصائص الجديدة للعولمة، إلا أنه يصرّ على أنها أقرب الى ظواهر وأعراض لجوهر واحد وتناقض أصلي.

الفقاعة المالية: يتعاطى المؤلف مع غلبة رأس المال المالي على الاقتصاديات العالمية على أنه لا يغيّر شيئاً من قانون القيمة ولا من آليات الاستغلال حيث الطبقة العاملة هي آلة لإنتاج فائض القيمة، والبرجوازية آلة لتحويل الفائض الى رأس مال. مع أنّ ثمة آلة جديدة لتوالد رأس المال تستولد المال بواسطة المال (الريع) دون المرور بالاقتصاد الحقيقي، أي إن قانون القمية لم يعد يختزل آليات تراكم رأس المال. وفي حين اكتفى ماركس بالاستدراك أن رأس المال التجاري يسهم في تحقيق فضل القيمة المتضمّن في السلعة مع أنه لا ينتج فضل قيمة بذاته، إلا أن منطق توالد رأس المال المالي، عبر «الفقاعات المالية»، والاتساع المذهل للقطاعات الريعية في عصر العولمة، وخصوصاً في بلادنا العربية، يفترض التوقف قليلاً لإعادة النظر في شمولية وكونية نظرية فضل القيمة.

التفريع الصناعي: وهو أحد أبرز تحولات العولمة الذي تخطّى قسمة العمل الإمبريالية السابقة بين بلدان صناعية تستورد المواد الخام والمنتجات الزراعية وتصدّر السلع المصنعة، وبلدان مصدّرة للمنتجات الزراعية والمواد الأولية ومستوردة للسلع المصنّعة. والدافع الأبرز نحو التفريع الصناعي وانتقال مصانع بلدان الشمال الى بلدان الجنوب هو بحث رأس المال المتعولم عن أيدٍ عاملة رخيصة وحاجته للاقتراب من المواد الأولية والهرب مما فرضته النضالات العمالية والنقابية من قيود على رأس المال ومن مكاسب وتنازلات وانتزعت من ضمانات الثبات في العمل والضمانات

يشدّد الرفاعي في ظاهرة العولمة على أنها تعزّز كونية الرأسمالية وتنمّي تبعية البلدان النامية وتزيد من التناقضات والأزمات المستعصية إلا أنّه يساجل ضد نقّاد العولمة ممن يريدون إصلاحها على اعتبارهم أصحاب أمنيات يسهمون في تأبيد توحشها.

تزيدها توسعاً وعنفواناً (على ما يقول فالح عبد الجبار، ص ١٠٠) فيما أزمة «السوفياتية النظرية» و«ظاهرة التوجه الاشتراكي» أدّت الى انهيارها؟

العولمة

يشدّد غسان الرفاعي في ظاهرة العولمة على أنها تعزّز كونية الرأسمالية وتنمّي تبعية البلدان

الصحية والاجتماعية وتعويض البطالة وتعويضات نهاية الخدمة، وأنظمة التقاعد، الخ.

اقتصاديات المعرفة

يتناسى المؤلف أن هذا التحوّل لا يُختزَل بكونه تكثيفاً لاستثمار رؤوس الأموال في البلدان النامية وأنّه يعلن انتقال الرأسمالية الصناعية ذاتها الى طور التحكّم بالمعرفة واحتكارها، ما بات يسمح بنقل العملية الانتاجية خارج بلدان الشمال ما دامت الارباح والريوع تتحقق خصوصاً من خلال التحكّم المعرفي في قمم العمليات الاقتصادية، أي الانسحاب التدريجي من قطاعات الإنتاج والتوزيع المباشرين والاتكال المتزايد على عائدات احتكار التكنولوجيا المتقدمة، وفي المقدمة منها المعلوماتية، وعلى الريوع المتأتية من براءات الاختراع وما شابه. ويغفل المؤلف أيضاً أن لهذا التحول مترتبات عديدة أبرزها:

١ إضعاف الطبقات العاملة من حيث الحجم والموقع والفاعلية في البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة، وتعزيز العنصرية فيها تجاه العمالة الاجنبية. فمع أن التصنيع في البلدان النامية يسمح بزيادة ملحوظة في فرص العمل، إلّا أنه وسّع نطاق الهجرة الى بلدان الشمال وزاد أعدادها؛

٢ اتساع نطاق الفقر المزمن وارتفاع أعداد البشر المهمشين الذين باتوا يعيشون خارج جزر العولمة الرأسمالية؛

٣ اتساع البطالة وتحوّل «العمل» إلى مطلب بذاته، وليس أدلّ على ذلك من الأولوية التي أعطيت لهذا المطلب في الثورات العربية، وهو لم يسبق أن ظهر بوضوح على جدول أعمال المعارضات العربية التقليدية، بما فيها اليسارية، ومطالبها والبرامج؛

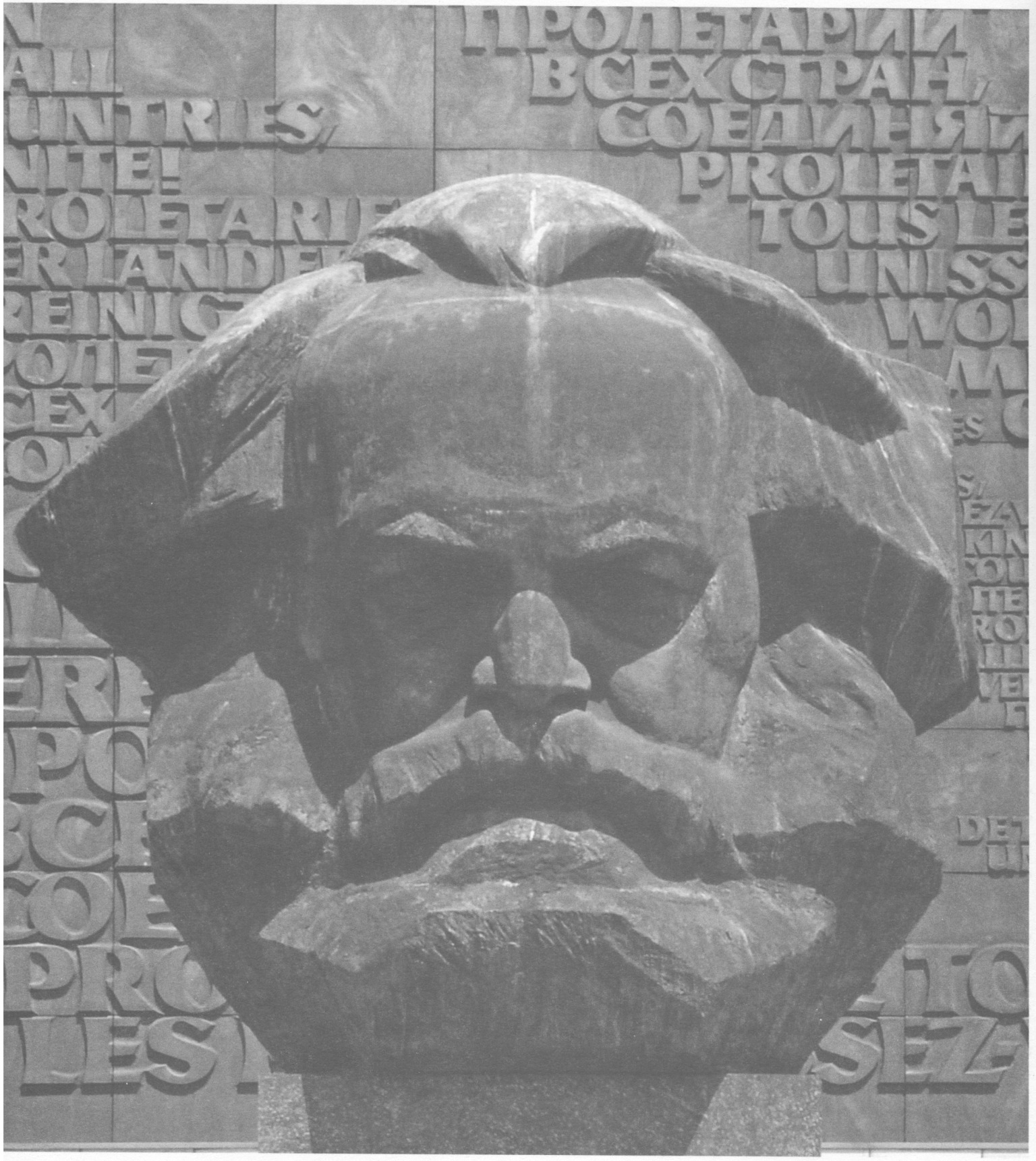
٤ تهشيش العمل ذاته=، وفرض الرأسمالية المتعولمة، العودة الى انماط سابقة من العمالة، ومنها العمل الموسمي والمياومة والعمل على القطعة والعمل المنزلي، الخ.

ولا بد من القول هنا إن هذه التحولات تمسّ توقّعات، بل تنبؤات، رئيسة عند ماركس حول الاستقطاب المتمحور على تناقض رأس المال والعمل. فقد توقع ماركس أنّ تطور الرأسمالية سوف يؤدي الى تقلّص الأقلية التي تملك ولا تنتج، وتوسّع الاكثرية التي تنتج ولا تملك غير قوة عملها، فيما تزول الطبقات الوسطى بين شرائح تنهار الى أوساط الطبقة العاملة وشرائح ترقى الى مصاف البرجوازية. بناءً عليه، تكون الثورة الاشتراكية، عملية بسيطة تجري بموجبها «مصادرة المصادرين/سرقة السرّاق»، حسب تعبير ماركس، وتكوّن دكتاتورية البروليتاريا تحقيقاً للديمقراطية الكاملة حيث الاكثرية تنتزع السلطة من الأقلية تمهيداً لمسار مآلُه الأخير انتهاء الصراعات والانقسامات الطبقية واضمحلال الدولة وانتقال البشرية من عالم الضرورة الى عالم الحرية. إن هذا التوقع هو الذي ينبني عليه تصوّر البروليتاريا بما هي الطبقة الكونية التي بتحررها تتحرر البشرية كلها. يغفل غسان الرفاعي أي إشارة الى انهيار هذه النبوءة وما تستتبعه من خلاصات وأبرزها ضرورة إعادة النظر الجذرية في دور الطبقة العاملة الشمولي الخلاصي.

الهواجس تجاه علم الاجتماع

والخلاصة الأبرز للنص هنا هي الجزم بالانهيار الحتمي لنمط الإنتاج الرأسمالي بحكم تناقضاته الداخلية (ص١٥٢) علماً أن السببية الجدلية تُدخل الإنسان والإرادة في الحتمية (ص١٥٥-١٥٦). حقيقة الأمر أني لم أجد أي فارق بين هذه العودة الى اللازمة التي تتكرر منذ إعلان تأسيس الأممية الشيوعية مطلع القرن العشرين والتي تعرّف «العصر» على أنه عصر انهيار الرأسمالية (وانتصار الاشتراكية) من جهة، وبين «القَدَرية الاقتصادية» التي ينسبها غسان إلى السوفياتية النظرية من جهة أخرى.

الحال أن التجريدية الفلسفية تعطّل على كل ما في الماركسية من حيوية بما هي، بالدرجة الأولى، نظرية لإنتاج المعارف لتفسير العالم من أجل تغيير العالم حيث اكتفى الفلاسفة، والمذاهب الأخرى المختلفة، بتفسيره. وإني أخشى أن يكون غسان الرفاعي قد أحال الماركسية الى اقتصاد سياسي، حسب التعبير السوفياتي، مع أنها نقد للاقتصاد السياسي وليست مذهباً من مذاهبه. ذلك أن الإسهام الرئيس لماركس وانغلز يكمن في نظرية الاقتصاد الاجتماعي، ما يحيل الى دراسة علاقات الإنتاج والطبقات في آليات تكوّنها وتحوّلها ومسالك صراعاتها ودور ذلك في إنتاج التاريخ وصنع


ПРОЛЕТАРИИ
ВСЕХ СТРАН,
СОЕДИНЯЙТЕСЬ!
PROLETAIRES
TOUS LES
UNISSEZ
WORKERS
UNITE!

البشر لأنفسهم بأنفسهم. والسبب في ذلك هو قراءته البدائية لعلاقة المادة والوعي. هنا يعبّر المؤلف عن تطيّر غريب من علم الاجتماع، الى درجة اتّهام عبد الجبار بأنه يغلّب علم الاجتماع على الفلسفة، وإني أرى في ذلك التطيّر الوسوسةَ السوفياتية النظرية والتطبيقية إياها تجاه علم الاجتماع (السوسيولوجيا) على اعتباره مذهباً برجوازياً. مع أن النطاق ووجود الاتحاد السوفياتي ذاته) ورأسمالية دولة «اشتراكية» عطّلت قسماً كبيراً من آليات عمل الرأسمالية، الخ. ولا فارق بين عمل يدوي وذهني، الخ.

المراتب الاجتماعية والطبقات

وإذ يخطر لفالح عبد الجبار التذكير بالمراتب الاجتماعية قبل الرأسمالية (مراتب الجاه المختلفة، حيث المصدر الاجتماعي بين الطبقات البرجوازية وبين أجهزة تمثيلها السياسية والايديولوجية.

ولما كان الموضوع هو العودة الى ماركس فلنُلقِ نظرة واحدة على كتاب «١٨ برومير للوي بونابارت » لماركس لنكتشف الفارق بين ماركس الداعية، أبي الطبقتين الجوهريتين في «البيان الشيوعي » للعام ١٨٤٨، وماركس وقد نبّهته

لا يحضر في الفلسفة الماركسية ـ أو في فقه الماركسية ـ لا المجتمع ولا الدولة/السلطة السياسية ولا الطبقات. إنْ هي إلا ظواهر لجوهر، أو حدثان لثبوت. تكتفي هذه الاقتصادوية بتوكيد التناقض الرئيسي بين راس المال والعمل وبين امبريالية وبلدان نامية تابعة

كارل ماركس هو من أوائل مؤسسي هذا العلم، ومع أن علم الاجتماع، على قولة أحدهم، يمكن النظر إليه على أنه مجموعة من الملاحظات والهوامش على كتابات ماركس وإنغلز. وحقيقة الأمر أن الفلسفة في «السوفياتية النظرية» هي التي ألغت علم الاجتماع لا العكس.

هكذا لا يحضر في الفلسفة الماركسية ـ أو في فقه الماركسية - لا المجتمع ولا الدولة/السلطة السياسية ولا الطبقات. إنْ هي إلا ظواهر لجوهر، أو حدثان لثبوت. تكتفي هذه الاقتصادوية بتوكيد التناقض الرئيسي بين راس المال والعمل (مع ال التعريف للتجريد والتعميم)، وبين امبريالية وبلدان نامية تابعة. ويحل هذا التناقض محل الدراسات العينية للمجتمعات والطبقات والسلطات والسياسة. فلا فارق مثلاً بين رأسمالية ريعية ورأسمالية إنتاجية ورأسمالية اجتماعية (دولة الرعاية، التي فرضتها نضالات عمالية واسعة والجماعات الإثنية، والدينية والطوائفية والمذهبية، والعرقية، والقبائل، والجندرة، الخ.) وتشابكها بالتكوينات الطبقية، وما يتضمنه ذلك من عقبات فعلية في مسارات الصراعات الطبقية وما يُحدثه من تعديلات عليها، لا يولي غسان الرفاعي كبيرَ اهتمام لهذه المراتب كلها على اعتبارها ليست قائمة حصراً على ملكية وسائل الإنتاج، فيحيلها الى البناء الفوقي والايديولوجي (١٤٥) وكأن البناء الفوقي (يعني السياسة والسلطة والعنف ومعها الايديولوجيا) من النوافل قياساً الى جوهرية البناء التحتي. علماً أن ماركس وإنغلز (حتى لا نتحدث عن غرامشي وبوخارين وروزا لوكسمبرغ والعشرات من الماركسيين الحديثين والمعاصرين) أوليا المراتب أهمية في الصعيدين السياسي والسلطوي وفي تبيّن الأصل الريفي والزراعي والرعوي للأجهزة السياسية للبرجوازية ولاحظا التفارق من الثورات الاوروبية للعام ١٨٤٨ ذاته الى أهمية الصعيد السياسي وأخرجته من الاقتصادوية الشيوعية المبدئية باتجاه التأمل والتفكير في التركيبات والمسارات الطبقية المعقّدة وفي مفارقات التمثيل السياسي للطبقات حيث حزبان ملكيان في فرنسا، مثلاً، تولّيا تمثيل البرجوازيتين المالية والصناعية. وبعد ذلك سوف يتابع ماركس هذا التفارق في المصدر الاجتماعي بين البرجوازية وأجهزتها السياسية، مبيّناً كيف أنّ دولة بروسيا شكلت النواة لتوحيد البرجوازيات الالمانية ولقيادة عملية التوحيد القومي، وكيف أن أرستقراطية الأرض المتوسطة تولّت التمثيل السياسي للرأسمالية البريطانية الصاعدة، الخ. وسوف يغزل أنطونيو غرامشي على المنوال ذاته في دراسته عن الوحدة الايطالية في منتصف القرن التاسع عشر حيث تتولى بييدمونت توحيد النوى البرجوازية الايطالية المتفرقة وقيادتها في عملية التوحيد القومي.

عوامل الاستغلال

وغريب أيضاً أن لا يرى غسان الرفاعي من عوامل استغلال غير مُلكية وسائل الإنتاج والحرمان منها. فلا مكان في هذه الترسيمة العائدة للرأسمالية الصناعية المتقدمة لكل ما يميّز التشكيلات الاجتماعية في بلادنا، أعني ملكية رأس المال المالي، واقتطاع الريوع، والربح التجاري والخدماتي، والاستغلال من خلال السوق (الاحتكار بما هو شكل من أشكال الريع)، والفوارق الناتجة من تباينات المداخيل، وعن التفاوت في رأس المال الاجتماعي والثقافي - فهذه كلها لا يُحسب لها حساب في عالم الاستغلال الرأسمالي مادامت غير منتظمة في الثنائية الجوهرية إياها. للمناسبة: كيف نعيّن التناقضات الطبقية وأواليات الاستغلال في بلد كلبنان إذا بقينا في نطاق تناقض رأس المال/العمل وحده؟

أغرب ما في الأمر أن هذه الخلاصات الفلسفية التي يريدها غسان الرفاعي تجريدية وكونية، تهبط بنا فجأة الى مضامير لا مقدمات لها في النص: الدعوة الى استظهار الجوهر الاقتصادي-السياسي (الطبقي) لرأسمالية العولمة (٢٣٧)؛ التحذير من التفاؤل بالأهداف الحقيقية لتدخّل الإمبرالية وتبرير تدخلها باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان. وهذا يفترض تصديق القول الامبريالي لا الفعل. أليس من تجارب تثبت كذب هذه الادعاءات، حتى لا نضطر للاستمرار في التحذير وإقناع الناس بأن الامبريالية تنوي فرض الديمقراطية علينا؟ وهي تقوم منذ أن كانت في المنطقة، على الدكتاتوريات العسكرية منها والملكية وحكم السلالات والاوليغارشيات النفطية؟

أمّا لائحة القضايا المطلوب التفكير فيها فطويلة وعظيمة الشأن والأهمية: القومية، الدولة، الدين، الخ. بعد كل هذا العمر؟ وإليها يضاف الآتي على الصعيد العملي:

- المطالبة بمقاربة نوعية واستراتيجية جديدة شمولية هجومية-دفاعية ضد العولمة على كل الجبهات، هكذا دون أي جهد لتعيين القوى المطلوب أن تقوم بهذه المهمة، وبغض النظر عن نوعية الهيئات المنوط بها هذه المهمة المتفارقة في تعريفها (هجومية-دفاعية) المطالبة بأن تخوض تلك الستراتيجية: هل هي الاحزاب الشيوعية؟ الاحزاب من النمط الطليعي الجديد؟ جبهات وطنية ديمقراطية واسعة على الطريقة إياها؟ منظمات غير حكومية وهيئات أهلية؟ وما العلاقة بين هذه الأخيرة والعولمة؟ وإلى أي مدى حلّت محل الأحزاب وعرقلت نشوءها أو إعادة تكوينها أو حتى تجديدها وإعادة تأسيسها؟ فضلاً عن سؤال ساذج: أي منطق للقول بوجود استراتيجية أصلاً، إذا كانت تخلط بين الدفاع والهجوم؟
- تنويع وتدريج أشكال النضال وأساليبه وعدم الاقتصار على الكفاح المسلح تحديداً فقط (٢٤٠-٢٤٢) والتحذير من وحدانية الكفاح المسلّح رجع صدى لأيام الستينيات والسبعينيات عندما كان لتلك الوحدانية رواج وحضور عملي. وهذه مهمات، يمكن قراءتها، متوّجةً بإعلان العصر عصرَ انهيار الرأسمالية وانتصار الاشتراكية، في أي تقرير حزبي أو خطاب في مؤتمر أو بيان عن اجتماع مكتب سياسي أو لجنة مركزية منذ الستينيات من القرن الماضي، بما فيها استعادة صيغة تعدد أشكال النضال وعدم الاقتصار على العمل المسلّح، فترجع أصداء سجالات الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي مع مقولة «حرب الشعب طويلة المدى» التي طرحتها تنظيمات اليسار الجديد من وحي العمل الفدائي الفلسطيني.

في الخلاصة، كنت ولا أزال أتوقع من غسان الرفاعي، القائد والمفكر والمناضل في الحزب الشيوعي اللبناني والحركة الشيوعية العربية والعالمية على امتداد ٦٧ عاماً من حياته، وأتمنى له طول العمر، مثلما أتمنى عليه أن يقدّم لنا سرداً وتقييماً لتجربته الحياتية والفكرية الغنية يسهم بهما في نقل دروس تجارب جيله الى الأجيال الشابة الجديدة على أمل اجتذابها الى يسار حيوي عميق التجذّر في شعبه، خلّاق نظرياً، أي منتج للمعارف عن مجتمعه وأنظمته الاقتصادية والسياسية والثقافية، مساهمةً منه في التغيير-الشامل، يسار يرقى الى مستوى تحديات العولمة ويستخدم المخيّلة لالتقاط كل جديد وابتكار اشكال جديدة من التنظيم الشعبي ومن أساليب التواصل والتعبئة والنضال، في مجرى النضال من أجل تجاوز الرأسمالية الى حياة جديدة ونظام جديد يحقق أخيراً مصالحة الحرية مع المساواة والمساواة مع الحرية.

روجية عسّاف يقرأ لهاني فحص
«لا معنى للدين إلّا في الحبّ»

روجيه عسّاف

مخرج وممثل مسرحي، لبناني. من رواد المسرح العربي التجريبي الحديث. اسس «فرقة الحكواتي» ومسرح «دوار الشمس». من مسرحياته «مجدلون»، «عبر وابر»، «ايام الخيام»، «جنينة الصنايع». من اعماله الكتابية «سيرة المسرح: اعلام واعمال» في عدة اجزاء.

هو أسلوب يقوم على إدخال مسرحية داخل مسرحية، يؤدي إلى بنية مركّبة تتداخل فيها حالتان متباينتان تبعاً لغرض فنّي أو فكريّ يضعه الكاتب.

وهي براعة أدبية حيث يختبر الكاتب (وهو شاعر يكتب عن الشعر) لعبة المرايا، انعكاسات الشعر المختلفة على الحالات المعاشة، تارة في مرآة الذاكرة وطوراً في مرآة اللحظة الراهنة، تارةً في مرآة الذات وطوراً في مرآة الحيّز العربي. تتبدّى الصور الشعرية من خلال منظار جديد يُظهر ألواناً كانت خفيّة أو أبعاداً تبدّل الأفق.

العلاقة بين القارئ والشاعر هي من أهم العناصر في الصيغة الفكرية الفنّية المقترحة. الشخصية المركزية هي القارئ، لا وجود للشعراء وللشخصيات الأخرى إلّا من خلال قراءته لهم أو لأشعارهم. هاني فحص هو القارئ ونحن نقرأ قراءته، فعندما ينتقل إلى الحروب وآثارها أو إلى المفارقات الفقهية والسياسية، ننتقل معه إلى قراءة الدين والسياسة لكأنّنا نتبع مرشداً يأخذنا من مكان إلى آخر، نعرّج معه على النجف أو على بيروت أو على الجنوب، ولا نشعر بالانقطاع أو الغرابة. ذلك لأنّ جميع العناصر التي تُعرض علينا (الواقعية والشعرية، الفنّية والفكرية) تشكّل جدارية واحدة، تدخل في تكوين رؤية واحدة. هذه الرؤية هي رؤية نقديّة. النقد الحقيقي، النقد الذي هو تجربة معرفية، إذ إنّه يُضيف خطاباً إلى الخطاب الشعري أو الفكري، ويضع هذه المعرفة في صيغة شعرية أدبية قابلة للتواصل ومثيرة للالتذاذ.

لا يوجد فصلٌ هنا بين النقد وتذوّق الشعر، فالتداخل بينهما هو الحركة الحيّة التي تنطلق من المعرفة وتُنتج معرفة، معرفة متّصلة عضويّاً بمعرفة الشاعر والشعر في عناصره الفكرية والجمالية. معرفة لا تقتصر على لحظة القراءة بل تمتدّ إلى التذكّر والتأمّل وتصبّ في الحسرة والغضب وتتجاوز الكسل الفكري حتّى الانتهاك.

يعجبني انتهاؤك للنمذجة، في الدين والسياسة، في حين أنّ الدين يبتعد عن الشعر، والسياسة تشوّه الدين. تذكّرنا بأنّ الدين جميل وأنّ الفعل الديني هو الحبّ. تذكّرني بالأسباب التي جعلتني أكتشف أنّ الإسلام ديني والتي يكاد انخسافها الراهن يجعلني كافراً، تثبّت يقيني أنّ الشعر والفنّ لا يحتكرهما التقدّميّون الذين يرون في الدين تخلّفاً وأنّ الدين لا يمتلكه الذين يحصّنونه في التعقيم والكتامة. من خلال توارد القوّة الإيمانيّة والطاقة الشعرية، لقد أبرأت مفهوماً كاد يتلاشى في قاموس الدين، ألا وهو الحبّ.

لا يمكنني إحصاء كم مرّة تتكرّر هذه الكلمة في صفحات الكتاب. حبّ الشعر والشعراء، حبّ الجمال، حبّ المرأة، حبّ الطبيعة، حبّ الأوراق التي تكتب عليها، حبّ الكلمات التي تدوّن بها مشاعرك وأفكارك، حبّ القارئ الذي سيتلقّى كلماتك. أخرج من كتابك ويبدو لي أنّ المعادلة بديهية: لا معنى للدين إلّا في الحبّ، وأي عمل خال من الحبّ هو كفر.

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي.
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صارَ قلبي قابلاً كلَ صُورةٍ.
فمرعىً لغزلانٍ ودَيرٌ لرُهبَانِ.
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائف.
وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآن
أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهتْ.
رَكائبُهُ ، فالحبُّ ديني وإيمَاني

ليس الشعر بالضرورة ديناً ولكنّ الدين بالضرورة شعرٌ. لأنّ الدين بالضرورة جميلٌ، وعمامتك هنا لتؤكّد ذلك.

♣

هاني فحص، «اقتراض الشعر لا قرضه»، دار سائر المشرق، بيروت، ٢٠١٤. ألقيت في «المجلس الثقافي للبنان الجنوبي»

خالد خليفة وحكاية العار السورية

ماء أحمد الجندي

كاتبة وناشطة من سورية.

يستكمل خالد خليفة في روايته «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» ما بدأه من سرد لحكاية التراجيديا السورية، في رائعته «مديح الكراهية»، فكأنه يكتب فصلاً من فصول الحكاية السورية الأشد قتامة وسوداوية من تاريخ سورية الحديث، عندما تولى حزب البعث السلطة وما استتبع ذلك من تفكك للمجتمع وقمع للحريات وتشويه للثقافة وتفريغها من مضامينها التحررية والإنسانية و ترييف للمدينة وإنتهاج سياسة إفساد من لم يفسُد بعد.

الرواية تشريح للمجتمع السوري المحكوم بالإيديولوجية السلطوية المنافقة، بلغة جريئة، صادمة، شعرية، يفكك بها الروائي آليات الخوف والقمع، فيدخل إلى العوالم السرية للمجتمع ويكشف عن المسكوت عنه .باختصار، هي ملحمة تروي مأساة قتل الإنسانية.

المتن الحكائي-السردي يروي حكاية أسرة قتلت أحلامها وأصاب أفرادها الضياع والتحلل، تتوازى مع سيرة مدينة حلب التي انتهكها حزب البعث وصادر تاريخها وعراقتها وجمالها بعدما غزاها الريفيون القادمون من أقاصي الجبال ليعيثوا بالمدينة فساداً وترويعاً وترهيباً.

هذه الأسرة، المكونة من الأم التي هجرها زوجها وهي في ريعان الصبا، لتجد نفسها وحيدة ومنسية، تعيش مع أولادها سوسن ورشيد والراوي.

يستهل خالد خليفة روايته بموت الأم وينهيها بموت الابن رشيد، وهما مؤشران سرديان على فقدان الأمل والحياة .سوسن، هي الشخصية المحورية في الرواية وبؤرة السرد وصلة الوصل بين عالمين متناقضين، عالم الفساد بضباط المخابرات رجال الأعمال الجدد و عالم المعارضين . هي الفتاة الجموح، المتمردة المثيرة والمرآة الكاشفة التي تعكس جوانية الشخصيات بعلاقتها بهم وعلاقتهم بها. استفزها ضعفها، بعدما سكن فواز مقابل منزلهم وهو الشخصية الممثلة للقاعدة الاجتماعية الرثّة الملتفّة حول النظام، فأغلق كل المنافذ والنوافذ المطلة على حقول الخس والفضاءات الرحبة.

لم تجد سوسن سبيلاً لتحمي نفسها من سطوة هذا العالم الا بالانتساب إلى حزب البعث وفرقة المظليين. تنجح بإغواء منذر الضابط الذي وقع في غرامها، تتماهى بالمستبد وبالقوة لتهرب من خوفها. يقول الراوي على لسانها :لم تعد سوسن تحتمل سماع صوت إخوة فواز، ينشدون الأغاني الممجدة للحزب والقائد طوال الليل، لم تعد تحتمل رؤية مذيعي الأخبار في التلفزيون الرسمي يقرأون نشرة الاحوال الجوية وكأنهم يعلنون الحرب (ص ٤٢).

أما رشيد، الهش، الخانع، الذي اكتشف الانوثة باكراً، فينتهي به المطاف مقاتلاً مع جماعة أبو قتادة في العراق وعندما قبض عليه الأميركان، ادعى أنّه مسيحي ووشى برفاقه فتم الإفراج عنه.

الخال نزار، الشغوف بعالم الموسيقى، يسافر إلى بيروت ويجري استغلاله والعبث بمقطوعاته الموسيقية والمتاجرة باسمه ليُطرد من بعدها من العالم الماجن لبيروت الليل، هذا العالم الذي تربطه أوثق الصلات بسماسرة نظام البعث من المثقفين والمقاولين.

جان الذي ينتمي لأسرة عريقة من الطبقة الوسطى، هو الشخصية المضيئة في الرواية، يعود إلى مدينته حلب، وقد طُرِد من سلك التعليم لأنه لم يرضخ لإملاءات

خالد خليفة، «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة»، دار الآداب، بيروت، ٢٠١٣.

البعث، لنشهد في ما بعد تهتكه وخراب روحه وإنغماسة بعلاقات مع فتيات عالم الليل .جان، الذي يعيش مع والدته المريضة، التي اختارت عماها في اللحظة المناسبة أمام سطوة الاستبداد وفائض القوة والانحطاط الفكري والأخلاقي وعسكرة المجتمع وترييفه، فإزدادت خراباً وإنحداراً بالتوازي مع خراب المدينة واغتصابها. ولم باختصار، إنه التكامل والتكافل بين الأضداد.

والراوي العارف بمصائر الشخصيات وجوّانيتها، يسرد دون أن يتدخل، ويترك للحاضر أن يضيء الماضي،

يكتب جان لزوجته أن المدن تموت كما البشر وأنه لن يكون أحمقاً لينجب ولداً إلى شوارع هذه المدينة القذرة التي تحولت الى مكان للقتل.

كي لا ترى العار واختار زوجها عيسى عبد المسيح موته كي لا يرى العسكر يكممون الأفواه بقانون الطوارئ والمحاكم الاستثنائية .يكتب جان لزوجته أن المدن تموت كما البشر وأنه لن يكون أحمق لينجب ولداً إلى شوارع هذه المدينة القذرة التي تحولت الى مكان للقتل.

نوعان من المثقفين

عبر السرد، يلحظ القارئ شخصيتين متضادتين للمثقفين :المثقفين الإيجابيين الذين رفضوا أن يكونوا شهود زور على خراب المدينة تكن ردة فعل الشخصيات هي الثورة على الوضع القائم .جعلها فائضُ القوة شخصياتٍ متحللة، تنحدر نحو القاع وتتصالح مع ثقافة العالم السفلي للمدينة .لم يتم إنتاج خيارات ايجابية ترتقي بالشخصيات وتجعلها تستعيد معنى لوجودها، بل ازدادت اغتراباً واستلاباً وغاصت في الوحل وتحولت إلى مسوخ ووجدت في الجسد آلية تعويض وتفريغ للرغبات المكبوتة.

هي شخصيات تذهب إلى قدرها صاغرة، مسيّرة لا مخيرة، يفسّره ويعلله، وينتقل بحرية من شخصية إلى أخرى وكل شخصية تلقي المزيد من الضوء على عوالم سرية وسردية .وسوف تفرض تعدديةُ الأصوات إيقاعها بالتخلي عن الترتيب الخطي للأحداث، دون أن يشعر القارئ بالضياع والتفكك، راصداً الأقوال والأحاسيس والافعال والحركات في الزمان والمكان.

صفوة القول أن الرواية تعلن موت مجتمع تحكمه ثنائية العسكر والإسلاميين .هذه الثنائية القاتلة التي تحكمت بمصائر شخصيات، بقيت أسيرة الانتقام من الذات ومن

الرواية تعلن موت مجتمع تحكمه ثنائية العسكر والإسلاميين. هذه الثنائية القاتلة التي تحكمت بمصائر شخصيات، بقيت أسيرة الانتقام من الذات ومن الأخر، من موقع الرفض والتمرد السلبي فكانت السكاكين أدوات للانتحار والقتل والخلاص الفردي

وتحولاتها، وإختاروا المنافي والهروب من المدينة التي سكنتهم في الغربة، من جهة، ومن جهة اخرى، مثقفي السلطة الذين تواطأوا مع نظام القتل كشخصية جابر في الرواية، الذي افاد من شعار التطوير والتحديث وبدأ بالاستثمار الثقافي والعقاري على حساب المثقفين الحقيقيين وفقراء المدينة.

لم تصمد الشخصيات في الرواية تستحق الشفقة، لأنها ببساطة، ضحايا الخوف والقمع .سوسن التي تزوجت من ميشيل الشاذ، ومنذر الذي تحول الى شيخ وجد ضالته في خطابات حسن نصرالله الطائفية، ورشيد الذي قرر إنهاء حياته شنقاً بعد عودته من العراق - فكأن حزب البعث أكبر منتج للضحايا لا ينفكّ يزوّد الإسلاميين بقوافل من الشباب اليائس، التائه .

الآخر، من موقع الرفض والتمرد السلبي فكانت السكاكين أدوات للانتحار والقتل والخلاص الفردي.

والرواية أقرب ما تكون إلى بحث سوسيولوجي وحفر عميق في بنية مجتمع ينذر بحتمية وضرورة الثورة التي اندلعت بعد كتابة الرواية بزمن ليس ببعيد بعدما أضاء خالد خليفة وبذكاء سردي الأسباب الحقيقية الكامنة والضرورية للثورة.

محمّد دكروب يحاوره بالعامّيّة أَحمد عُلَبي

انا السمكري، الفوّال، الحمّال، بائع الياسمين

أحمد علبي

عمل أستاذا لمادة الأدب العربي الحديث في الجامعة اللبنانية. كتب في الأدب والنقد والتاريخ عن طه حسين وثورة الزنج في العصر العباسي. آخر مؤلفاته «رئيف خوري، داعية الديمقراطية والعروبة» (٢٠١٣).

هذا جزء ثانٍ من الحوار الطويل الذي أجريته، منذ زمن بعيد، مع صديقي الراحل محمّد دكروب. أمّا الجزء الأوّل فقد أخذ طريقه إلى العدد الخاصّ الذي أصدرته مجلّة «الطريق»، تكريماً لذكرى مَنْ كان رئيساً لتحريرها عقوداً من الزمن، بحيث ارتبط اسم كلّ منهما بالآخَر. وما يميّز هذا الحوار أنّه، كما شاءه دكروب، انعقد باللغة العامّيّة. ولم نرغب في ردّه إلى الفصحى، لأنّ في هذا الصنيع تكلّفاً وخروجاً بالكلام عن سَمته الأصليّ المحبّب. ونخال أنّ عامّيّتنا اللبنانيّة مفهومة على العموم، فليس فيها الاستعصاء الذي يجابهنا في العامّيّة العراقيّة مثلاً.

وأهدت لنا جريدة «السفير» كتابها الشهريّ عن حزيران ٢٠١٤، العدد: ١٥٠، فإذا هو «الوجه الآخَر» للأديب العراقيّ الفائق الإبداع، فؤاد التّكرلي. ويدور الحوار خلال هذه الرواية الجميلة بالعامّيّة. ووجدتُ بعض العَنَت في تفهّم الحوار بدقائقه، وإن كنت قد حصّلت المعنى تقريباً. على كلّ حال تباحثت بهذا الموضوع، المنعقد حول العامّيّة اللبنانيّة، مع الصديق فوّاز طرابلسي، رئيس تحرير «بدايات» التي سوف تحتضن هذا الحوار، وكيف أنّ قرّاء المجلّة من غير اللبنانيّين قد يجدون صعوبة ما في فهمه، فكان الحلّ الذي أبداه فوّاز لطيفاً ولبنانيّاً بعض الشيء: يدبّروا حالهم! ونخال أنّ العامّيّة المصريّة مألوفة تماماً على آذاننا، وذلك بحكم أنّ مصر هي أمّنا جميعاً، والحِضْن الكبير الذي نفيء إليه في الملمّات؛ كما أنّنا عِيال على الثقافة العربيّة التي أشاعتها منذ زمن النهضة، ومن ضمنها المسرح والسينما والفنون على أنواعها. كذلك غدت العامّيّة اللبنانيّة لطيفة الوقع على الأذن العربيّة من الماء إلى الماء، لأنّ الإنجاز العظيم الذي قام به الأخَوان رَحْباني خلال مسرحهم الاستعراضيّ الباهر، وصوت فيروز العجائبيّ الذي أطلقاه؛ فضلاً عن تراث الشحرورة صباح، وصوت وديع الصافي الداوي في الآفاق؛ هذه كلّها ساهمت بالتأكيد في تقريب العامّيّة اللبنانيّة إلى قلوب العرب أجمعين.

وبعد، ففائدة هذا الحوار مع الصديق الراحل أنّه يلقي الضوء على نحو ساطع على نشأة محمّد دكروب البائسة المعذَّبة. كذلك كان من حظّه أنّه عرف المدرسة الجعفريّة، المباءة التي قامت بدورٍ حيويّ في اليَقظة العلميّة في محيط جبل عامل، وليس في صُوْر وحدها، وكان من ثمارها مجلّة «المعهد» التي سوف نُلمّ بتاريخها خلال الحواشي. وقد علّم في الجعفريّة، وهي التي حملت للتبريك اسم الإمام جعفر الصادق، طائفة مميّزة من الأساتذة. فإنعام الجُندي تعاطى التعليم في قاعاتها. كذلك علّم فيها أديب بيروت محمّد عيتاني، الذي لم يعرف البتّةَ تكريماً يليق بعطائه وذلك من أقرب رفاقه إليه. وإن لم أكن مخطئاً فالفنّان الراحل ميشال المير، والذي كان يتّخذ في لوحاته تسمية ملمير، قد نزل صُوْر، وأخاله علّم الرسم في هذا المعهد الذي غدا تاريخيّاً. وفي ثنايا هذا الحوار، الذي لا يخلو من طرائف وتشويق، وخصوصاً أنّ الكلام ينعقد فيه مع إنسانٍ كان الظَّرْف إحدى سماته، في ثناياه إيضاح مخلص كيف وفد كاتب عربيّ إلى يَنْبوع الشيوعيّة، من غير خَطابة ولا تزويق. فالحياة نفسها بما تحمل من قساوة وحرمان، والثقافة التي تفتح العين والعقل والحواسّ على حقائق الوجود، كلاهما يتقاطعان ويتداجان على استيلاد الوعي. ثم تأتي ممارسة الكتابة عند محمّد التي صهرت العوامل كلها تحت أَسَلة قلمه الذي بات مشرعاً لكلّ جميل وإنساني.

ليس وراء نشر هذا الحوار مجرّد استذكار لمحمّد دكروب أو مرثاة له. فبقاء ذكر الكاتب رهن بالكتب الجيّدة التي يتركها غذاءً روحيّاً للذين يتعرّفون إلى اسمه وتراثه في مقبل الأيّام. ودكروب قد أورثنا عدداً ليس كبيراً من الكتب، ولكنّها نافعة وطريفة السبك وتدلّ على جهد ميمون. دعك من أنّه وصل ليله بنهاره في التحرير الأدبي طَوَال عقودٍ من الزمن، وذلك في «الثقافة الوطنيّة» الآفلة، وجريدة «الأخبار»، وفي «الطريق» العريقة. وفي هذا التحرير الأدبيّ يتمثّل كدحه وتفانيه وإخلاصه، وذلك خلال زمن مضى كان مَنْ يمارس الإشراف على مجلّة أدبيّة أو صفحة ثقافيّة يقوم بالعمل من ألفه إلى يائه، أي أنّه يحرّر بمفرده ويصحّح وينهض بالإخراج. فالمجلّة هي نتاجه ووليدة سهره الطويل وعيونه المضحيّة. وإذا كان هناك من كتاب يعتزّ به محمّد ونعتزّ بدورنا به فهو عمله الجميل «جُذور السنديانة الحمراء، حكاية نشوء الحزب الشيوعيّ اللبناني (١٩٢٤-١٩٣١)»، وذلك في طبعته الثالثة ذات الإضافات والتدقيقات الوافرة، وخصوصاً ذات المقدّمة الجليلة الجديدة التي تستغرق خمسين صفحة عامرة بالنُّضج والاستنارة (دار الفارابي، بيروت ٢٠٠٧). ويطيب لي أن أستعيد بتواضع، ههنا، الإهداء المؤثّر الذي خطّه محمّد دكروب لشخصَيْ: إلى الباحث الدؤوب والمدقّق، أحمد عُلَبي، صديق الصبا والأيّام السعيدة وأحلام ذلك الزمان، مع كلّ تقديري (٢٧ حَزِيران ٢٠٠٧). الشكر لك، محمّد دكروب، والأحلام متجدّدة يا صديقي.

◆ طيّب منبلّش من بداية الرحله، يعني من شاطىء صور إذا صح، بظن إنت ولدان بصور محمّد. إمتى تاريخ ولادتك؟

◆ سنة ٢٩. بتقول إمّي بنص شعبان، عالتذكره ما في شي، بس في السنه. مرّه حاولت أنا وسفيتا مرتي نقارن الأشهر حسب الأشهر الشرقيّه لحتّى نشوف. فقدّرنا هيك إنّو بكانون التاني، مطلع كانون التاني ٢٩ هيك. بس لا في محل النفوس دوّرت بصور.

◆ إنتو عائله من صور؟

◆ نحنا عائله لوحدها بصور، ما في بيت دكروب غيرنا بصور. منين جايه؟ ولا حاولت أبداً، يعني في كتار بحاولو يشوفو شجرة العيله. ما بس أنا، كلّنا ما قمنا بأي محاوله لمعرفة مين هوّي بي بيي جد بيي كذا إلى آخره. بس في عائلة دكروب يلّي بعدّة قرى بالجنوب بقولو إنّهم بيقربونا.

◆ صار في عدّة محمّدات، بتتذكّر بالماضي كنت تمضي: محمّد إبراهيم دكروب.

◆ كان واحد محمّد دكروب كان ياكلها قتله بإسمي عالحدود السوريّه على زمن الوحده. فبتذكّر إجو أهلو أو ناس قريبينو إنّو يا عمّي طيّب شو ذنبنا كان هيك بيضربوه، بركي بتعملّك شغله. شو بدّي إعمل يعني، أو يغيّر إسمو أو ما يرحش عسوريا. يعني روح انضرب محلّو لأ. كانو يضربوه بيقلّهم: هيداك محمّد دكروب غيري عكروت شيوعي كذا. أنا آدمي. ينزلو فيه!

الوالد الفوال

◆ طيّب إنتي والدك بتذكرو؟ شو كانت مهنتو؟

◆ بذكرو طيّب. والدي كان أمّي، ما بيعرف أبداً يقرا. كان فوّال، مطلع حياتو فوّال. كان عندو دكان صغيري، يعني مش فوّال فوّال. وكنت أنا فتره طويله إشتغل عندو. بس بيي كان صوتو حلو، وكان يأدّن، وكان يسكر، يسكر منيح، وكان بيقولولو بالبلد نكتجي، يعني مجالسو كان هيك مطلوبي. الى درجه السيّد عبدالحسين شرف الدين، يعني سيّد الشيعه، كان بهديك الفتره دائماً يستدعيه ليجلسو جلسات، بس يشترط عليه ما يكون سكران. بيعرفو إنّو بيسكر. فيروح يقعدو هيك، ينكّت، ويروي شعر، إلخ. حتّى عمل هيك، بعدنا حافظينلو بالبيت، قد ما يسكر عمل هيك قصيده، منها:

إدفنوني وادفنوا الخمر معي ——————
واجعلوا التعريص فوق المقبره ——————

هيدي بتذكّرني دائماً ببيت لشو إسمو ناظم حكمت بيقول: ما بعد موتي بتمنّى تحطّو فوق قبري شناتين بنات! فيعني بيي لا يقلّ عالميّة.

◆ سبّاق أبوك. طيّب لأي عمر بقيت بتذكر أبوك؟ قدّيش كان عمرك لـمّا توفّي والدك؟

◆ مش عارف تمام. بتذكّر كنت طلعت من المدرسه. كنت طالع. أنا درست لحد قبل صف السرتفيكا بسنتين بمدرسة الجعفريّه، ما درستش بغيرها[1]. كانو هونيك يهتمّو فيي منيح، يعني عبدالحسين شرف الدين[2] كان يعرفني ويهتم بيي، وكان يقولولو إطلع الأوّل التاني بالصف. وكنت بشكل خاص إحفظ قصص دروس الدين، خصوصاً القصص، يرويها إلنا الشيخ جواد شرف الدين صهرو

للشيخ عبدالحسين. يدرّس دين ويرويلنا هالقصص المشوّقه. كنت إحفظ هالقصص وإرويها. وكان الشيخ جواد مسمّيني شيخ الصف، بمعنى الشيح الديني، مش إنّو شيخ ريّس الصف. وكان لفتره طويله مدير المدرسه جعفر شرف الدين، كمان جعفر كان يهتم فيي، كان شايف إنّو عندي بعض ميول أدبيّه كتابيّه، لدرجه في ما بعد لمّا طلّع مجلّة «المعهد»، كنت طالع من المدرسه، صرت أكتب فيها. هلّق بحكي عنها. أدّت دور منيح. حتّى بتذكّر السيّد عبد الحسين مرّه كنت بالمدرسه لحالي، يوم جمعه، وهو موجود كان لحالو بالمدرسه عبيتوضا. شافني. قرّبت بستلّو إيدو، زي العاده. صار يحكيني إلخ. بعدين مد إيدو عجيبتو وأعطاني كميّه من المصاري. بتذكّر يومتها كان إلها قيمه، ربع ليره أقل، أكتر، فرحت فيها كتير، إنّو عطاني السيّد بالذّات.

◆ كان عندك مشاعر دينيّه يومتا؟ نشأتك دينيّه؟

◆ كنت حتّى روح صلّي، إضهر من البيت الصبح بكّير قبل أدان الصبح، حتّى روح صلّي جماعه ورا السيّد عبد الحسين. وبنفس الوقت ميّل على الفرن شوف، وطل على قدرة الفول كانت تنحط بقلب النار يلّي بينقام من الفرن. تنحط طول الليل، الصبح بتكون مستويّه. فكان من الضروري دائماً قدرة الفول بالليل أو الصبح ينحطّلها مَيْ وتتحرّك مشان ما تحترق، أو تحريك الجمر. كان بدها طلّه على المحل. دايماً كان بيي بيعملها. أحياناً أنا ميّل لمّا روح عالجامع صلّي. كنت هيك حريص صلّي جماعه حتّى بإيّام الشتي. بعدني ما بتذكّر مشاعر دينّيه، مجرّد إنّو والله طرافه، ما بتذكّرش الحاله.

◆ قدّيش كان عمرك؟ عشر سنين؟

◆ تقريباً. أنا مشكلتي ذاكرتي من ناحية العمر لمّا عملت كذا مش.

◆ بشكل تقريبي. تعرف ولد خلّص الابتدائي قبل سنتين من نهاية المرحله وقتذاك.

◆ بتذكّر تمام لمّا فرض عليّ بيي إطلع من المدرسه حتّى عاونو بالمحل.

◆ إنت كبير العائله؟

◆ لا في أكبر منّي خيي. كان بيشتغل سنكري. كان بيي بحاجه إلي ووضعنا فقرا. فرض عليّ إطلع من المدرسه، رغم محبّتو الكبيره إلي. ما بتذكّر يوم أبداً أهنت من بيي على الإطلاق. كان دائماً صديقي وصديقنا كلّنا يعني، وحتّى ما بتذكّر أي يوم أهان إمّي قدّامنا أو أهان حده مننا.

◆ رغم إنّو كان يسكر؟

◆ ما يجي عالبيت سكران. أكبر قتله نلتها منُّو بحياتي كنت ما بعرف شغلي هيك عملتها، قام شدّني من دينتي وبس. حتّى تقلّو إمّي أوقات: محمّد عمل كذا وكذا بدُّو قتله، بدُّو كذا. يقرّب يمسكني من دينتي ويبوسني.

◆ إمّك عايشي؟

◆ عايشي مع أختي.

◆ والدك تزوّج مرّه واحده، أنتو أخوه كلكن من أم وأب واحد؟

◆ إي. طيّب طلّعني بيي من المدرسه لأنو بحاجه إلي بالمحل، رغم معرفتو إنّو أنا بالمدرسه ماشي حالي وبطلع الأوّل. ألح وأنا عارضت كتير، وبتذكّر بكيت كتير بهديك الفتره حتّى إرجع عالمدرسه. وبعدني بتذكّر تماماً بأي محل كان بيي وإجا جعفر شرف الدين [٣]، مدير المدرسه، وكنت أنا موجود، يترجّى حتّى إرجع عالمدرسه. كان بيي بيقولولو أبو خليل. في إلي خي أكبر من «العبد» مات وهو صغير إسمو خليل. فيقلّو: يا أبو خليل، إبنك كذا، وعبيطلع الأوّل، ونحنا منحبّو، ما تقضيلو على مستقبلو. ما كان يقتنع ويرددلو كلمه: إنّو أنا أمّي وبيقولو عنّي إنّي منيح وذكي وبعمل شعر وبنكّت، وبيّك نفسو بيدعيني عالبيت حتّى نحكي. شو بكرا بيصير زي بعضو. شو يعني لحيعمل إذا أخد. وكنت مبلّش طالع. أنا بلّشت طالع وأنا بالمدرسه.

من أرسين لوبين إلى كتب الفلسفة

◆ شو كنت تطالع؟

◆ كل شي. أكتر شي في هديك الفتره كان في شي إسمو روايات الجيب: أرسين لوبين وجيمس ردنج والروايات العالميّة ملخّصه [٤]. كنت هيدي مدمن على قراءتها. وروايات «البدائع» التي كان يطلّعها فؤاد حبَيْش، كنت إقراها كمان. كنت إقرا في فتره لاحقه شوي أيّ كتاب أعثر عليه. بتذكّر قاري كتير من سلسلة «إقرأ» يلّي كانت بتطلع. كنت إقراها. اشتغلت في ما بعد، هلّق بذكرك شو، فكنت إشتغل سقّا إسقي الشغّيله بمشتل زراعي إسقيهم مَيْ. فخلال عمليّة إنّو ما لازمهم كنت إقرا. يوميي كنت إقرا كتاب. وحتّى عاهد نفسي إنّو إقرا الكتاب، يجي يخلص الوقت قبل ما إقرا الكتاب، صير قفّي صفحات حتّى سجّل على حالي إنّي قرأت الكتاب يعني [٥].

◆ هذه مرحله بعد ما تركت المدرسه؟

◆ مرحلة القراءه القويّه هيي بعد المدرسه. كنت أحياناً جرايد إقرا. ما عوف أي شيء. يعني حتّى كان عندي صبر على قراءة الأشياء يلّي ما إفهمها، يعني بعدني بتذكّر

في تلك الفتره قرأت بعض الأشياء لعبدالرحمن بدوي: أرسطو، نيتشه، إلخ. بدون ما إفهم أي شيء، وإقراها بكاملها، يلّي باقي بذهني منها بعض قصص حياة هالناس، بس فلسفاتهم لأ، بس يعني إستوعب قصصهم وأصبر. ما حاول إفهم شو، بس إقرا. كان كأنّو عبسابق الزمان حتّى خلّص صفحات، فهمتها ما فهمتها مش كانت تفرق معي. بعد مرحلة الشغل عند بيي كفوّال كنت يعني استلمت المحل، إعمل فول وحمّص وكذا. بعمل لحد هلّق فول منيح، وأحياناً بدعي الشباب لهون على فول. علقت ذات مرّه دعيتهم. كان حسن حمدان سمعان إنّي والله بعمل فول منيح، صدف إنّو الفولات مش مناح، ابن الكذا لحد هلّق بيقول إنّي أنا ما بعرف إعمل فول. بعد مرحلة الفول اشتغلت بدكّان خيي سنكري، عند عبد. وسنكري أتقنت المهنه منيح، ومضى فتره كان يجينا مصاري مش بطّال. وصار خيي يترك المحل عليّ.

◆ بهالوقت كان والدك توفّي حتّى تركت صنعة الفوّال؟

◆ يمكن إي. بعد ما توفّي اشتغلت سنكري، بعد متذكّر وقت توفّي والدي، توفّي بالضبط من كترة السكر. وبأواخر حياتو صارتلو حاله نوع من الصوفيّه الدينيّه. وإجا علينا فتره كنّا كتير فقرا، وهو تعطّل شغلو، صار في فوّالين حديثين إلخ. فترك الدكّان وهجر. مضى فتره ما نعرف وين هوّي. صار عندو نوع من الصوفيّه وهجر البلد، ومضت فتره ما نعرف وين؛ أنا هالشي كتبتو مرّه في قصّه بعنوان «جاروفه يا سمك». وهيي شبكه كبيره، لأنّو هوّي لمّا فقر صار يشتغل صيّاد مشارك بالجاروفه. وضعف نظرو أشبه بأعمى. ضاع، راح عفلسطين، بعدين إجا على بيروت، إلخ. ما نعرف وين هوّي، تركنا من اليأس يعني. فأنا اشتغلت يومتا عدّة مهن. المهم هوّي بعد ما رجع على صُوْر وبطّل السكر، فصار يتفتت الكبد تبعو، قلّو حكيم كان عندنا إسمو الدكتور فرحات، كل إلّي يعرفن فقرا يحكّمن، قلّو: بدك ترجع تشرب شويّة عرق وإلّا بتموت. قلّو: ما بدي إشرب خليني موت بدون ما إشرب. ومات من عدم الشرب. أنا متذكّرو أوّل ما كنت قاعد حدّو، هيك مشهد في ذهني، لأنّي كنت حبّو كتير لبيي وإنس إلو باستمرار، دايماً كنّا أصدقاء ويحكيلي.

◆ إنت إلى حدّ ما طبعك طالع لطبعو؟

◆ هو كان كتير يعزّني، نقعد نحكي.

◆ لأنّو كان يشوف فيك صورتو. إخوتك الباقيين: عبد، فخر، علي، بعاد جدّاً عن المرح كطبيعه.

◆ بعد مرحلة الفول اشتغلت عدّة مهن قبل ما اشتغل سنكري. عملت، زي ما قلتلّك سقّا في المشتل الزراعي، صرت بيع خبز. إمّي تعجن الخبز وتخبزو، بيع بالسوق. بعدني متذكّر المحل يلّي كنت بسّط فيه وبيع.

طفولة كادحة... وياسمين

◆ إمّك كدحت معكم عمليّاً، وهلّق هيي كبيره.

◆ إمّي كدحت ولا تزال. اليوم كبيره، ومع هيدي ما تقبل إلّا تشتغل، ما فيها تقعد، مع إنّها أصيبت بالأحداث. إجت قذيفه حد بيتنا، من ضغط القذيفه كانت قاعده على البلكون عليت ووقعت وكسرت إجرها. كنت بيع خبز، حتّى بتذكّر مرّه إجا لعنّا، ما بعرف يمكن خلال الحرب، جنود تابعين للجيش الإنكليزي، قبارصه بشكل خاص، فعسكرو حول صور، فصرت أنا روح بيعون خبز وزيتون. بهديك الفتره ازدهرت تجارتي، صرت بيع كتير. بعدين اشتغلت بيّاع فلافل، يلّي بقلولا طعميّه، كمان إمّي كانت تعملن بالبيت، مش بسّط بالشارع، إحملهم على صينيّه مع خبز وملح ودور فيهن، وإصرخ على الفلافل. وبعت ياسمين، كان عندنا ياسمينه بالبيت. كمان عن مرحلة بيع الياسمين كتبت ذات مرّه قصّه في «الثقافة الوطنيّة[6] إسمها «عقد الياسمين[7]». أكتر هالمراحل كاتبن بقصص مش محطوطه بالمجموعه[8]، جايين بالثقافه الوطنيّه.

◆ إنت متل ما عبلاحظ، طفولتك مادّه قصصيّه حلوه، بتظن إنت استغلّيتها أدبيّاً؟

◆ لأ، ما كتير، لأ، يعني بعد ما استغلّيتها.

◆ الكاتب الملاحظ ذكرياتو طفولتو بتمدّو بمَدَد غريب.

◆ كتبت بعض أشياء، بعدين تبيّن إنّو يمكن صار عندي قناعه بإنّو «العدّه الفنّيّه» عندي مش كافيه، تركت، يمكن إرجعلها يمكن، ما بعرف بضل عندي.

◆ الملاحظ إنّك كتبت القصّه مرحلة نشأتك الأدبيّه، لمّا عرّفني عليك محمّد عيتاني، ذات يوم مساءً، عرّفني عليك على أساس إنّك قاصّ.

◆ يومتا كنت أغلب القصص إكتبها من حياتي الخاصّه وحياة يلّي حولي.

◆ كيف تركت القصّه فجأةً، ما عدت تعاطيت أبداً، تركتها مرحله ثم رجعت كتبت قصص قليله قصّه قصّتين؟

◆ بعد ما طلّعت «الشارع الطويل» نشرت شي سبع تمن قصص كانو شويّه أفضل من الشارع الطويل يلّي كتير مليان، مش بس شعارات، فيه اصطناع للأحداث،

فيه تخيّل ذهني ببعض الأحداث، بس ما بعرف. كان يومتا كتير في جدل حول القصّه والفن القصصي وإلخ. صار عندي زي قناعه ذاتيّه إنّو عدّتي مش قويّه. فأترك هالقصص، يمكن بعدين.

◆ مع إنّو كاتب القصّه مشكلتو يكون عندو أفكار وعندو موضوعات، وإنت حسب نشأتك الأحداث موفوره. غوركي نصف إنتاجو حول ذكرياتو، أكيد طبعاً عبيكتبن بشكل أدبي وليس بالشكل الذي حدثت[٩].

◆ الواحد ما بيعرف تماماً إمتى وشو سبب إنقطاعو يعني ما تماماً بيعرف، يمكن أحياناً في سبب مباشر بخلّيه يوقّف ما كان يجب أن يوقّفه يعني، يمكن، يمكن لو استمرّيت لكنت توصّلت إلى إتقان أكتر. لأنّو أنا يعني بعد السنوات الطويله مؤمن إنّو الواحد مهما تثقّف مهما كان مثقّف كبير ما بيصير كاتب رأساً، بيصير كاتب خلال عمليّة الكتابه. بيكتشف السر تبعها، يمكن لو استمرّيت لكنت توصّلت إلى نوع من الإتقان يرضيني أنا. على الأقل يعني قصصي كانت مضطربه. بس المهم هالفترات في حياتي عكستها في بعض هالقصص.

بتذكّر لمّا كنت بيع ياسمين كنت نادي عالياسمين: ياسمين، ياسمين. بتذكّر مرّه، ما بنسى هالمشهد، كنت ماشي بالشارع مش معي ياسمين ورايح لمحل. شوي اكتشفت إنّي عبصرخ ياسمين ياسمين وما معي ياسمين. اطّلعتْ ما حدن منتبه يعني حولي. بس ركضت إنّو هلّق بقولو عنّي مجنون، بهرّكض في تأكيد لهالنفس الجنون. بتذكّر بالنسبه للياسمين في يعني ملاحظه بهديك الفتره، ما كنت لاقيلها تفسير. أكتر الناس يلّي بيشترو منّي ياسمين هنّي الفقرا يلّي بيقعدو على القهوه بيلعبو طرنيب والبحّاره يلّي كانو يقعدو هنّي على شط البحر وبيلعبو. كون جايي من بعيد عبصرخ ياسمين، تعا يا ابن أبو خليل حطّلنا ياسمين، إلخ. في قواهي بيقعدو فيها هالتجّار كذا، روح لهونيك ما بتذكّر واحد اشترى. وإتساءل: طيّب ليش؟ الفقرا والبحّاره كانو يشمّو الضمّه بشكل يعني بدّن ياكلوها، ويقولو: خَيْ! ويحط الواحد منن حدّو الضمّه يلعب وبمسكها ويقول: آه! طيّب هيدا شرّا وهيدا شرّا. ما بحبّوش يشمّو الريحه؟! الياسمين كان عندنا شجرة ياسمين. وبنجيب قش تبع نخل، منقصقص تبع البلح ومنعمل شناغيب منهن، ونشكّل الياسمينه الزهره بقلب الشنغوب. فبتطلع زي المروحه المطبّقه. لما تتفتّح تصير زي البوكيه. فكنت أنا بيعن بهالشكل، مش متل هلّق بخانق بيعملوهم. فإعملهم وحطن بصحن هيك. والصبح بكّير نعملهم، تجي عشيّه يكونو مفتّحين. أنا بيعن خصوصاً بعد الضهر.

اشتغلت كمان بيّاع ترمس. كنت بيع ترمس بالخمّارات، الناس بيسكرو يتسلّو بالترمس. وكنت نادي: أحلى من اللوز يا ترمس. كمان هالمرحله بيع الترمس كتبتها. وبتذكّر إنّي كنت يومها بدّي إعمل مجموعه وعنوانها: أحلى من اللوز. بتذكّر كانت إيّام الحرب التانيه وبمرق طيّارات، وبعدني متذكّر بمرق واحد بنادي: طفّو النور، سكّرو الشبابيك. بعدني متذكّر طابع النداء، وهيدي كمان كاتبها بقصّة «أحلى من اللوز»[١٠]، وناشرها بالثقافه الوطنيّه. هيدي بعد «الشارع الطويل» يلّي صدر ٥٤.

عامل بناء وسنكري

◆ عندك نسخه من«الشارع الطويل»؟

◆ إيه، وحيده. اشتغلت كمان عامل بناء، مش بالمعنى المهني، وإنّما إنقل حجار ورمل على راسي. بتذكّر ذات يوم هيك من التعب صرت إبكي وأنا عبنقل على راسي الحجاره. مش متذكّر كل الإيّام، بس متذكّر هالمحطّه حامل قفّه فيها حجاره وطالع ونزلو دموعي.

◆ من الضيق النفسي؟

◆ لا، مش من الضيق النفسي، من التعب العضوي، الضيق النفسي ما بتذكّر عانيت هالمأساويّه، كان هيدا الشي الطبيعي. كان التعويض عن المدرسه القراءه المستمرّه واستمرار علاقتي بالمدرسه الجعفريّه بالذات، إلى درجه كان علاقتي بالمدرسه وعلاقتي بالطلّاب ممكن أكتر بكتير من بعض الطلّاب. حتّى ساهم بالجمعيّات داخل المدرسه، الجمعيّات الخطابيّه ساهم فيها كأنّي لا أزال بالمدرسه، وكانت إدارة المدرسه ما بنظرولي إنّي خارج المدرسه، رغم إنّي مش منتمي إلها. ولمّا صرت سنكري فكان طلّاب الجعفريّه بالذات بعد ما يحلّو من المدرسه يمرّو على المحل عندي بعد الضهر تلاته أربعه أصدقاء بعدني متذكّرو، نقعد نحكي ونتناقش. وهيدا كان بنرفز خيي أبو ابراهيم كتير. كان بنرفز من مطالعاتي، لأنّي كنت لمّا مفيش شغل إقعد إقرا. كان يقول: القرايه بالدكّان بتقطع الرزق! كيف بتقطع الرزق يا خيي؟ إنت كمان هيك بتفكّر؟ يقلّي: يكون واحد جايه بدّو يشتغل شغله بشوفك عبتقرا وبشوف جارك هونيك مش عبيقرا عميشتغل، بروح لعندو وبيبطّل يجي لعندك. كان دايماً نقار، ولمّا يجو طلّاب المدرسه كمان يسدّو الدكّان يجن وبنرفز. كان مان. وكانت هيدي دايمه المعركه معو.

◆ كان مزدهر الشغل يعني؟

◆ في فترات كان في شغل منيح وفي فترات يعني. شغل السنكري كان مركّز إلو علاقه بالتنك، ما متل

شغل السنكري اليوم تصليح حنفيّات. كنّا نعمل أباريق، نوّاسات، مزاريب، إلخ. كل الأشياء يلّي إلها علاقه بالتنك، تصليح بوابير الكاز، قدّاحات. بهديك الفتره كنت إخترع شغلات بالتنك. مرّه عملت، مش اخترعت، زي ما يلّي بيعملو فيها غزل البنات. عملت واحده منها على إيدي وصرت إعمل فيها، اشتغلت يومين تلاته وبعدين من الحماوه فرطت. بس متذكّر منيح إنّي اشتغلت مدّه طويله حتّى إعمل فرد مسدّس. كانت سنوات ٤٧، ٤٨، كان غرض المسدّس حتّى ندّرب عليه ونروح عفلسطين. وبالفعل إجا يوم هربت أنا وصديقي يلّي بعدو هلّق موجود وإسمو حسن محيي الدين. فكتبت رساله، مرّه عثرت عليها، ما بعرف هلّق وينها، لا بد أعثر عليها. كتبت رساله إلى إمّي وإنّي أنا رايح على بيروت على مكتب الهيئه العربيّه العليا بدّي حارب بفلسطين، بدّي كذا وبدّي كذا، شارحلا ليش. وما تحزني عليّ.

◆ كنت عايش بالهمشاعر القوميّه وبهالاندفاع القومي؟

◆ كنت قومي متعصّب. وبهديك الفتره كنت ضد الشيوعيّه.

◆ مين كان ناشط سياسيّاً؟ بلّشت توعى وقتها سياسيّاً؟ شو كان عمرك ١٨ سنه؟

◆ بهالسن الواحد بيعمل ثوره وبخلّصها تاني يوم يعني. لمّا هربنا لنحارب بفلسطين إجينا على بيروت ورحنا على المركز هونيك، ما كانو يقبلونا، فرجعنا حزينين على صُوْر.

◆ ليش رفضوكم؟

◆ ما بتذكّر ليش.

◆ والفرد المسدّس؟

◆ كنا نروح نتمرّن على الفرد على شط البحر، وكمان فرط الفرد.

◆ منيح ما فرط فيك.

◆ استعملتلّو الرفّاص وإبره وإلخ. ، رجعنا حزينين يومتا على صور وارتاحت إمّي.

◆ إمّك أمّيّه، يا محمّد؟

◆ لا إمّي بتقرا شويّه، وبتقرا أدعيه، صارت بتقرا صحف وبعض شغلات يلّي كنت إكتبها. بهديك الفتره كان يؤرّقنا شي، يعني هالطلّاب يلّي يجو لعندي عالمحل. كنّا لازم نعمل عمل ينقذ الأمّه العربيّه.

من البعث إلى القومية إلى الشيوعية

◆ مين كان مؤثّر فيك سياسيّاً؟

◆ كان في تأثير للبعث. وأنا بشكل خاص تأثّرت فترة شهرين تلاته بالقوميّين السوريّين لمّا إجا أنطون سعاده على لبنان. بطّلت تأثري فيه لمّا إجا على صور. حضرت جلسه، فلقيت إنّو في نوع من التمثيل بأحاديثو. بدون مناقشه لشو الأفكار يلّي قالها.

◆ يعني نفرت منّو شخصيّاً، مع إنّهم هوّي كانو بيقولو إنّو شخصيتو جذّابه.

◆ رحنا منشان هيك. يمكن هذا العامل يلّي خلّاني ما شوف هالصوره يلّي أعطوني ياها، لأنّو كان عنّا صوره بذهنّا إنّو آسر وجذّاب وكذا، فرحنا طيبّ ما لقينا.

◆ ما سَحَرَكْ؟

◆ فلمّا ضهرنا صرنا نتناقش، طيّب شو ما سحرنا، كس إخت هالشغله يعني. تأثّرنا أكتر شي بالبعث.

◆ مين كان من رُوّادو بصور؟ إنعام الجندي كان هونيك؟

◆ إنعام مرّ فتره كان إستاذ بالجعفريّه. الغريب إنعام يلّي بعدو لحد هلّق تقريباً ما كتير تقدّم عن هيديك الفتره.

◆ بالعكس تراجع قياساً للتطوّرات.

◆ الغريب كان له نوع من التأثير الرومنطيقي.

◆ هوّي لأنّو خلوق.

◆ يعني ما عندوش هالفكر المقتحم المنطقي، بس عندو تأثير عاطفي. وهو شخصيّاً كان عندو تأثير عاطفي ومحبوب، كانو يحبّو الطلّاب. وكنت أنا مش طالب، بس كنت على علاقه فيه. حتّى بتذكّر لمّا جيت هون عبيروت كنت في جلسه معو في أحد المطاعم عميفهّمني شو الوحده العربيّه وليش نحنا بدنا وحده عربيّه. وكانت الطاوله بلاط، قام قلم رصاص وصار يرسم خارطة البلاد العربيّه، وإنّو شو يلّي بيفرّقها، ليش ما تكونش وحده طالما هولي كلّياتهم وحده. وبتذكّر مرّه جمعني حد الجامعه الأميركيّه بسعدون حمّادي ما غيرو. بس شفت صورتو تذكّرتو. شو حكَيْنا ما بعرف.

◆ نفس السَّلَطه القوميّه.

◆ فكنّا بهديك الفتره حاطين رساله على ضهرنا إنّو بدنا نتجسس على الشيوعيّين.

◆ كانو ناشطين بصور؟

◆ إيه.

◆ يعني الخيّاط المناضل رفله أبو جمره كان موجود؟

◆ إيه، نروح بالليل عالرمل هيكي ننتظر إمتا يجو يجتمعو.

◆ ليش كانو يجتمعو على الشط؟

◆ في مرّات على الشط. ما فيش هدف توصيل رساله لجهه، بس نحنا عمنراقبن. كنّا خايضين معركه ضدّهم. ويلّي عنّف هالمعركه هوّي أحداث ٤٨. والمؤسف صدف وجود بعض شيوعيّين هالفتره في صور فهمو الحكايه

كلّها بقفاها، وقالو بعض أقوال استفزازيّه للمشاعر القوميّه للعرب. وطبعاً قوّلوهم أشياء كتيره. ونحنا ساهمنا. من جملة الأشياء يلّي قلتها لرفله أبو جمره، ونحنا عمنتناقش، قلّو إنتو قياصره. بهديك الفتره كنت بلّشت إنشر قصص بـ «التلغراف» يلّي كان يطلّع عدد يوم التنين، ويُشرف عليه رئيف خوري.

دكروب المشبوه

◆ كان صار هونيك «إخوان عمر فاخوري»، إثر خلاف رئيف خوري ورفاقه مع الحزب بسبب قرار تقسيم فلسطين الذي أيّده السوفيات، وكانو يشرفو على صفحات التلغراف الثقافيّه يوم الاثنين.

◆ يعني هنّي مستلمينا، ولمّا صارو إخوان عمر فاخوري كانو فيها، فحوّلوها إلى إخوان عمر فاخوري. كنت إبعت عالتلغراف، فرفله أبو جمره كان يقرالي، نتناقش. يقلّي: يا محمّد إنت شيوعي. قلّو: فشرت، واحد متلك، أنا عربي. يقلّي: ما نحنا عرب. قلّو: فشرت، إنتو قياصره. يقلّي: إنت يا محمّد بس تكتب شيوعي، وبس تحكي فاشستي. بدّك تصير شيوعي. قلّو: فشرت، إلخ. دائماً كنت لاحظ نقاشو معي يختلف عن طابع نقاشو مع الآخرين. هو كان يتميّز بهديك الفتره إنّو محبوب حتّى من أعداؤو السياسيّين. كان خدوم، آدمي، وكان معروف عنّو إنّو مناضل، كل ما يصير شغلي يعتقلوه يضربوه، ويضل كما هوّي ما تفرق معو. فكان هيدا عاملّو احترام. خلال نقاشي معو يهاجم الآخرين بعنف، أنا يهاجمني على أساس كأنّي من عضام الرقبه. وهيدا ينرفزني أكتر.

◆ إنّك مشبوه!

◆ يعني مش معقول. إلى أن لمّا نقلت على بيروت، ونقلت بواسطة حسين مروّه، ذاكر شوي منها بالكتاب يلّي عملنا عن حسين مروّه. كاتب هونيك شغلات. بالمناسبه كريم مروّه كان كمان بالمدرسه الجعفريّه، وأنا صادقتو من المدرسه الجعفريّه، ما كنّاش طلّاب سوا، كان هوّي طالب، وأنا كنت طلعت ولكن، متل ما قلتلّك، على صله بالمدرسه. كان كريم من الشباب يلّي عندهم هالفكر القومي إلخ. حتّى في عندي رسائل من العراق منّو أحياناً بهدّدو فيها. رسائل باعتلياها من العراق. راح سكن مع حسين مروّه وعيلته بالعراق. وهونيكي بدأ يكتب كريم مروّه، بدأ يدخل بالحياة السياسيّه، وبالعراق بالضبط تحوّل. قبل ما يتحوّل كان يبعتلي رسائل، بالضبط في ٤٨ بهجوم الجيوش العربيّه على فلسطين. باعتلي رسالة يمكن عشيّة الهجوم، فيها حماس هائل، إنّو خلص. بعدها عندي الرساله. فعن طريق كريم بمراسلتي معو تعرّفت على حسين مروّه. كان هوّي يقلّي عمّي بيكتب وبيعمل وإلخ. ومهتم بأخبارك وعمبيتبّع أخبارك. عن طريق كريم تعرّفت على حسين مروّه بالمراسله. إلى أن كان ذات يوم، يمكن في ٤٩ تقريباً، كنت قاعد بالمحل عمبطقطق، بيتقدّم منّي رجل شب، نحيف، طويل شوي: مرحبا محمّد، أنا حسين مروّه. أهلا وسهلا، قعد. أنا بالمقال يلّي كاتبو قايل: مدّيت إيدي سلّمت عليه، ولا تزال أيدينا متشابكه حتّى اليوم. كان أبو نزار جايي من العراق ورايح على صور، لأنّو عيلة بيت كريم بيّو وإخوتو كانو بصور. راح لعندن. أوّل مرّه راح لعندن إجا لعندي. كان في خيّو لكريم، إسمو مرتضى، خيّاط، دكانتو بأوّل الشارع يلّي فيه دكانتي أنا كسنكري، فدلّو عليّ. ما بدّو يجي مع حدن، إجا لحالو وقلّي: مرحبا محمّد، أنا حسين مروّه. هيك. وحكينا ما بعرف شو بالضبط. عن طريق حسين مروّه، كان هوّي بيشتغل بـ«الحياة»، وكان بيعلّم بمدرسة الإصلاح ببيروت. كان المشرف المالي على مدرسة الإصلاح واحد إسمو محمّد علي المسكي، تاجر ورق. كنت أنا حاكي مع حسين مروّه إنّو أنا بدّي إطلع من صور، بدّي إشتغل ببيروت، بدّي شوف الدني. في ضيقه يعني بوضعنا. فحكى مع محمّد علي المسكي إنّو يشغّلني عندو. وبَعَتْ ورايي، إجيت اشتغلت بالمحل محاسبجي، تصوّر، أنا محاسبجي!

◆ ما لخبطلّو بالحسابات؟

◆ بالمحل تعلّمت الجمع والضرب. وقصقص ورق بنفس الوقت، ورق كياس وطرحيّات. لهديك المحل كان يجي دايماً محمّد عيتاني. هيدا المحل جنب سينما كريستال، يلّي عملنا فيها احتفال أوّل أيّار. كنت أنا متعرّف عليه بصُوَر، علّم بصور. هلّق بحكيلك تعرّفي بمحمّد، هي وحدها قصّه. فعن طريق أبو نزار انتقلت على بيروت. كانت أفكاري يعني بدأت، قبل ما انتقل على بيروت، كانت بدأت أفكاري تتغيّر شوي، بعد هزيمة ٤٨ والإشيا يلّي صارت، وأنا كنت إقرا. ومن خلال مطالعتي بـ «التلغراف» صار في نوع من المراسله مع رئيف خوري، كان يهتم فيي.

مراسلات وحكايا

◆ كان رئيف خوري يكتبلك؟ عندك رسائل منّو؟

◆ عندي رساله من نسيب المتني. فكنت إبعت قصص ينشرلي ياهم رئيف بمحل منيح. بس كنت لاحظ هونيكي يكتبو بقلم الأستاذ هاشم الأمين، بقلم الأستاذ قدري

قلعجي، بقلم محمّد إبراهيم دكروب. ذات مرّه شو عملت أنا. كتبت بقلم محمّد إبراهيم دكروب، جبت قلم رصاص وأضفت الأستاذ كأنّو محرّر عاملها. طلع بالأسبوع التالي بقلم الأستاذ محمّد إبراهيم دكروب. كيّف وصار أستاذ. فمرّه بعتلّو قصّه عن حياتي كسنكري. ما بتذكّر شو كان عنوانها. بس يبدو هوّي رئيف خوري غيّر العنوان وكتب: أديب وسنكري. وقلّي هوّي بعدين حتّى إلفت النظر. بهديك الفتره بدأو الشيوعيّين هون يتساءلو مين هوّي محمّد دكروب يلّي عبينشط بالتلغراف؟

◆ كانو على عداء مع صفحات «التلغراف» الثقافيّه يلّي كان يشرف عليها رئيف ورفاقو كل اثنين بعد خلافهم مع الحزب.

◆ تأكدّلي هالشي من رساله عثرت عليها ذات مرّه، أو حدن من الحزب عطاني ياها، وهيي بخط نسيب نمر، بقلبا غير نسيب نمر بإمضاء حركي. يقلّهم عرفت إنّو محمّد دكروب هوّي بيشتغل سنكري في صور، كويّس وليس محايداً أو شي من هالنوع. فعرفت من خلال هالورقه يعني إنّو يبدو سائلين مين هيدا.

◆ لكان استخباراتي من زمان نسيب!

◆ إيه، متقنها على عدّة جبهات، يمكن هالورقه موجوده غير عندي.

◆ بتتذكّر إسمو الحركي؟

◆ ما بتذكّر، ناسي. يبدو من تأثير «التلغراف» هيكي وقراءاتي بدأ فكري شويّ، مش يبطّل قومي، يصير مش عدوّ للشيوعيّه. ولكن فكرة العربي والوحده العربيّه ما راحت من ذهني، وبقيت ولا تزال. وبعدين تبيّن نحنا، بعد ما صرنا ماركسيّين، اكتشفنا إنّا نحنا الأكتر عروبه. فبتذكّر لمّا جيت عبيروت وطبيعة الحال اتصلت بحسين مروّه. فبدأت من خلال حسين مروّه إتعرّف على هالأجواء، وبدأت أكتب. كان في صفحة التلغراف، وكان في «الطريق» قبل «الثقافه الوطنيّه». بدأتْ كتاباتي كان فيها بهديك الفتره نوع من النغم الرومنطيقي، لأنّو كان في جريدة «الصرخه» يومتا كلّها كدس مقالات سياسيّه، فكنت أكتب أنا هالقطع الرومنطيقيّه يلّي فيها نوع من العاطفيّه. فبدأت إلفت نظر الشيوعيّين العاديّين يلّي بيقرو. وبالمناسبه يمكن يلّي أنا معتز فيها إنّو كتاباتي لفترات طويله كانت تلاقي صدى عند هالناس بالذات، ولا تزال بعض كتاباتي تلاقي صدى عند عامّة الناس. رجعت على صور وأنا يعني صاير شيوعي بس مش بالحزب. رجعت بتذكّر.

◆ رحت عند رفله أبو جمره دوغري (ت ١٩٩٥).

◆ من السيّاره رحت عند رفله. مرحبا رفله. قلّي: ما قلتلّك، بدون رد علي مرحبا. ما قلتلّك، أهلا وسهلا فيك، لك مبيّن عليك. أنا قلّو: كيف عرفت إنّو أني لحصير هيك؟ يا خيي إقرا الشي يلّي بتكتبو في «التلغراف»، بعدين إسمع كلامك غير شكل. ما بدّاش عبقريّه.

بدّي إحكيلك فترة مجلّة «المعهد». من يومين إجاني رساله رجّعتني للمعهد. وذكّرني صاحب الرساله بالإشيا يلّي كاتبها وأيّا سنه كاتبها. واحد إسمو حسين شرف الدين هوّي مدير الجعفريّه هلّق. عبيعمل أطروحه عن الجو الثقافي والفكري في صور بهديك الفتره، وخاصّا من خلال مجلّة «المعهد». مجلّة المعهد يلّي كان يطلّعها جعفر شرف الدين من المدرسه. لكن إطلالتها أكتر من المدرسه. كان يكتب فيها كتّاب آخرين.

◆ في محيط صور؟

◆ لا، أكتر من محيط صور، من الجنوب، بعض مقالات يطلبن هوّي من بولس سلامه وغيره. كان طابعها أكتر من مجلّه شهريّه تصدر عن مدرسه.

◆ استمرّت سنوات؟

◆ لا، لا. يمكن سنه مش أكتر[١١]. بدأت أنا أكتب بعض مقالاتي فيها. أربع خمس مقالات. مقال منهن هيكي بذكّرني بعنوانو: هذه المادّه الحاكمه. عمبحكي فيه روحانيّات الواحد إذا قعد على الرمل لحالو كذا واتصل بالعلياء إلخ. ، وشغلات من هالنوع. بس في مقال تاني هيدا إلو هيك دلالتو بعنوان: رساله إلى فنّان. حضرتو غلطان فيها وكاتب: رساله إلى فتاة. سنة ٤٨. الفنّان إسمو يوسف محمّد رضا، مترجم كُتُب رصينه، هيدا كان يومتا كاتب كتاب من نوع الشعر المنثور إسمو: جحيم الأرض. رمزيّات وإلخ. فأنا كتبت هالرساله بعنيه هوّي إنّو لوين إنت رايح، ما في ببلادنا كذا وكذا، شو هالأشياء والرمزيّات. فيه بؤساء وفيه ما بعرف شو، في كذا وكذا. وبذكرلو أسماء بعض الكتّاب، يمكن منهن غوركي، يلّي كتبو عن البؤساء. يومتا ما كنتش بعد صرت زي البشر.

◆ بس هيدا وعي فطري تلقائي يلّي وصّلك في ما بعد، مش القناعات الفكريّه يلّي وصّلتك.

◆ في عندي بحياتي نوع من المواكبه، يعني حياتي والمطالعات. ما إجيت إلى الشيوعيّه فقط عن طريق كوني بائس، ولا عن طريق فقط القراءات. كانو متزاملين. يعني نفس الوقت يلّي أنا عبعاني البؤس والفقر وإلخ. كنت طالع وكنت شوف بنفس الوقت. كنت شوف بضوء وضعي. إقرا كمان من خلال وضعي. هو أول ما بدأت أنشر بتذكّر قطع صغيره في جريدة «الحياة» في الصفحه

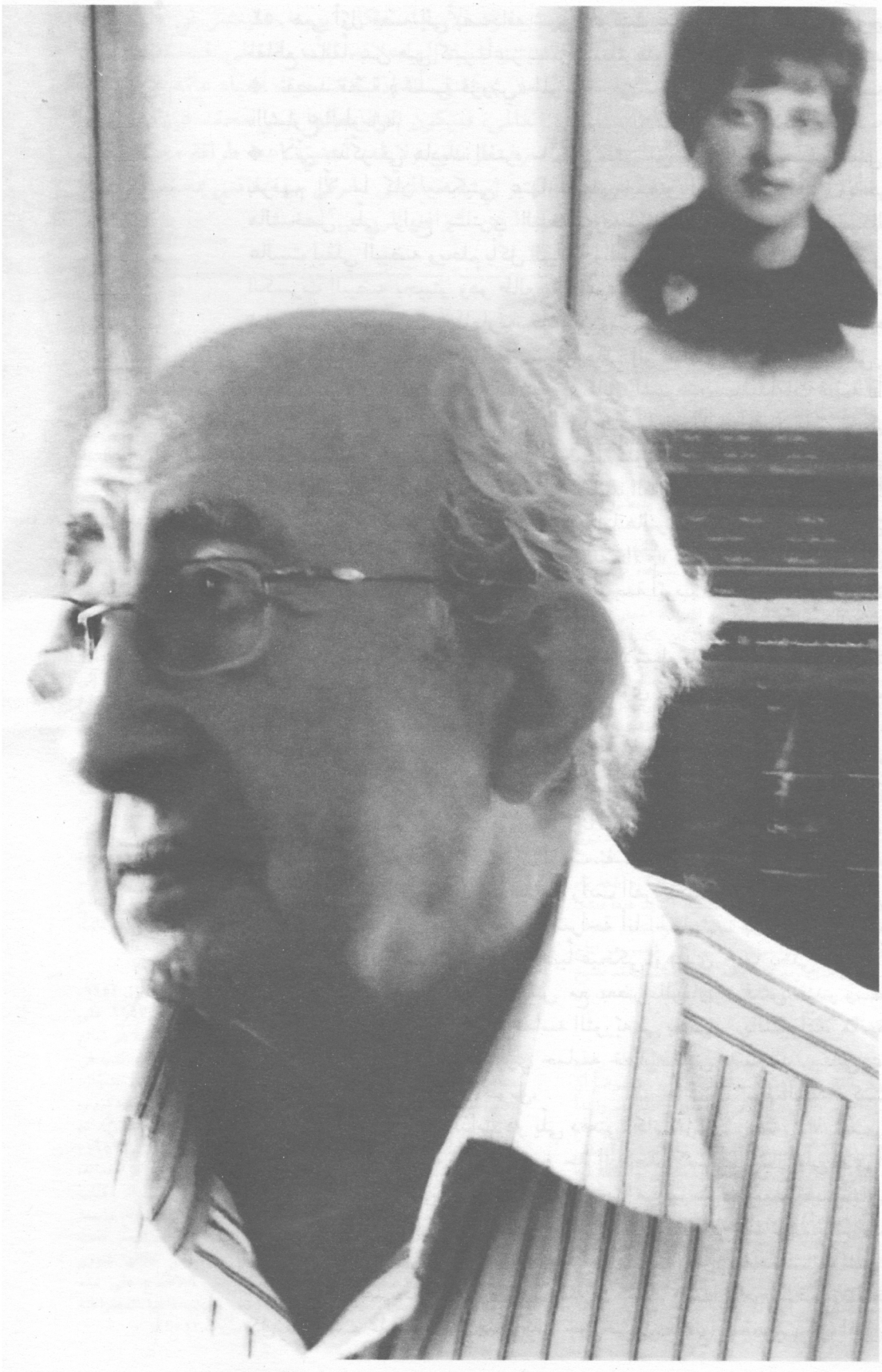


الأخيره نطالب فيها بإصلاحات للبلد. في الصفحه الأخيره كان في زاويه لمطالب الناس أو شي من هالنوع. أنا وتنين تلاته نكتب ونبعت صفحة يُنشر منها خمس ست سبع أسطر. روح اشتري الجريده وجرايد تانيه وإحملها تحت باطي، يعني صرت إستاذ. فصار هونيكي يعني إسمنا فلان وفلان عمبيكتبو بالجرايد وعبيطالبو بحقوق البلد. وعملنا يومتا هيك نوع من الحركه. بتذكّر أنا كتار يقولولي هيدا هيك بتروح ما بتكفّي واستمرّيت. بدأت بهالنوع من الرسائل، وبعدين صرت أكتب بالمعهد، بعدين بـ«العرفان». كتبت مقالين تلاته، سلسله ورا بعض، ما بعرف بأي عنوان، عبحكي عن الجيل الطالع والعلم وإلخ. وما بعرف كذا، وشو لازم يصير مدارس، وسبيل الإصلاح. بهالمقال كان الشيخ أحمد عارف الزين[١٢] يضع تعليقات ضمن المقال نفسو بين أهلّه. بقول بالمقال بعدني متذكّر: هذا الجيل الضائع، فيعلّق: الضائع هو الكاتب وحده (التحرير)، كان يومتا مقال حديث الجنوب. وبتذكّر أنا إنطباعي عن هالشي كتير ظريف. يعني ما أخذتو إنّو بهدله. ما بعرف شو عمبقول في محل تاني إنّ الكذا هو كذا. فجاء المحرّر ليقول: هذا غير صحيح! ناشر عرضي بالمقلوب. بس إنطباع هالشي عندي كان ظريف. وكان المقال حديث التحزّبات.

دكروب الكاتب والرفاق

◆ إنتِ صار عندك شعور إنّك لحتعمل كاتب؟

◆ من يومتا، من أوّل ما بدأت أنشر بالتلغراف قصص، بدأت حس إنّو خلص صير كاتب. يعني بدأ تفكيري إنّو هون طريقي. بس كيف بدّي أوصل حتّى صير بس أكتب، ما إعمل هون وهون. حطّيت بذهني إنّو هيدي طريقي. وكان إلحاحي على أبو نزار ليدبّرلي شغل في بيروت هدفي لأقدر يعني إنخرط بجو الكتابه تتصير هيدي شغلتي، مش أي شغل آخر يعني. المهم كان التدرّج: صفحة «الحياة»، «المعهد»، «العرفان»، «التلغراف». ثم بدأت أنشر شويّه في «الصرخه» إلّي بتطلع كل أحد. نشرت فيها بعض شغلات، ومنها مقال عن غوركي. وأكتر ما بتذكّر تمام، ومارس عليّ تأثير من ناحية الشيوعيّين، كان يوم الأحد كنت شوف شيوعيّين يبيعو هالجريده. وكتير تأثّرت مرّه، كان العدد فيه مقالي، وكان الشباب عبيبيعو. وكان يمارس عليّ نوع من الرومنطيقيّه، يعني هول الشباب يلّي عبيبيعو الجريده عبيوزّعو مقالي. بعدني في هاديك الفتره كمان، وعن طريق حسين مروّه نشرت أول قصّه إلي بالطريق في





٥٢. هيي أوّل قصّه إلي بصحافه شيوعيّه. كنت عبنشر مقاطع سابقاً، بس هيي كتير باعتز بنشرها وبأثرها.

◆ تقصد قصّة «خمسة قروش» الموجوده في مجموعة «الشارع الطويل».

◆ لأنّي بتذكّر في هاديك الفتره ما بقي حدن من يلّي بعرفهم إلّا ما كان يحكيني عنها، ويبقى بذهنو إنّو هالشخص يلّي رايح يشتري البيضه وفجله، ورايح عالبيت ليقلي البيضه ويحلم بأكل البيضه والفجله عليها. انكسرت البيضه بجيبتو وهو طالع بالتراموي. كان كتير تعليقات من شيوعيّين وهالمعارف، كانو يقرو، وأنا بالفعل بعدني حد هلّق مستغرب كيف حسّيت حالي إنّو الناس صارو بيعرفوني. يعني كتار كنّا نروح، كانو الشيوعيّين بيعملو رحلات عالأرز كذا. وين ما روح هيدا محمّد دكروب، خمس قروش كذا، بشكل عجيب. هلّق الواحد بيكتب عشرات الأشياء ما حدن بيقلّو يعطيك العافيه، ما حدن بيشتمو! بالفعل كانت ظاهره. بتذكّر تماماً هالنوع من التأثير. مع تأثير حاسم بهديك الفتره لرواية «الأم» عليّ. يعني رواية الأم كانت هي الدفعه الحاسمه، ترجمة أيّوب.

◆ مع إنّها ترجمه رديئه؟

◆ ما باقي بذهني شي، باقي بذهني ملحمة الأشياء يلّي فيها. إنطباعي مهم عن المقدّمه الطويله يلّي هوّي كاتبها، أيّوب، إنطباعي كتير منيح عن المقدّمه. ما بعرف هلّق اذا أعدت قراءة المقدّمه كيف يعني بكون.

◆ هلّق ما راح تعجبك لا المقدّمه ولا الروايه المترجمه. ترجمة أيّوب رديئه جدّاً. بتنفّر. يعني أنا قريتا وقريت «أسرة أرتامانوف» لـ غوركي في الوقت نفسه، ترجمة منير بعلبكي. مع إنّي كنت شب صغير، رأيت الفرق كبير جدّاً وهائل بين الترجمتين. وبعدين صراحة أنا الحماس الموجود في رواية «الأم» ما عجبني. أدبياً عبحكي. وهيدي حكاية الحماس خلقتلي وجع راس مع بعض الرفاق الشيوعيّين يلّي كانو متّخدين بالحماسه الثوريّه في بعض الأفلام السوفياتيّه، وهي في نظري حماسه خطابيّه ليس لها عمق إنساني. والموضوع طويل.

◆ يبدو هيدا الحماس بالذات هو يلّي دفعني. كانت زي الدفعه الأخيره أو نقطة التحويل من حد إلى حد. كنت مستوي، وإجا غوركي دفشني دفش. صرت من يومتا أنشر في «الطريق»، وكان يومتا مشرف على الطريق يبدو وصفي البنّي وخصوصاً محمّد معصراني. طلبت منّو مقال مؤخّراً، فقلّي دخيلك من مليون سنه ما كتبت. وإنت كل ما إجيت على موسكو بتحركلي جروحي. بتخلّيني إبكي ليالي. رحت خلص. هو مترجم بموسكو. بعتلّو قصّه ومقال ناشرن قديماً، أوّل ما نشر بالطريق، وقلتلّو: بدّك تكتب غصبن عنّك. بدّو يكتب ذكرياتو مع الطريق وعلاقتو معها.

◆ وصفي البنّي من جماعة خالد بكداش؟

◆ بالفترة الأخيره صار مش من جماعة خالد. انتهى بس محرّر بوكالة تاس السوفياتيه. استمرّيت بالنشر بالطريق قصص وبعض مقالات. كنت بنفس الوقت عبشتغل عند المسكي. وبدأت أتصل بهالمجالس عند حسين مروّه، محمّد عيتاني. ومن خلال محمّد عيتاني طُلْ على علي سعد، أحمد أبو سعد، أحمد سويد لبدايات قصّة «أسرة الجبل الملهَم».

◆ لا بأس نحكي علاقتك العريقه بمحمّد عيتاني.

◆ طبعاً. تعرّفت على محمّد عيتاني بصُوْر. بس كيف؟ لمّا كنت أنشر بالتلغراف هديك الوقت صدرت مجموعه قصصيّه لرياض طه، عنوانها: شفتان بخيلتان. رياض طه كان طالع طلعتو بالصحافه، فكتبت عن المجموعه مقالات كتير.

◆ إطراء بالتأكيد.

◆ أنيي ما عجبتني لا المجموعه ولا الإطراء.

(كلام بالروسيّه بين محمّد وزوجته سفيتا التي تريد الخروج للتبضّع، فطلبت مالاً من محمّد، ففتح أحد الكتب، حيث يودع عُملته الورقيّه وأعطاها ما تريد).

طبعاً محمّد كتب؛ ويومتا كتب واحد من بيت حماده من بعلبك، فقال مدائح. فأنا كتبت مقال ناقش حماده وبكتب عن «شفتان بخيلتان» من كعب الدست. بتذكّر بجريدة «كل شيء» طلع مقال بقلم محمّد عيتاني مدائح بالمجموعه، متل ما بتذكّر ومنطبع بذهني. محمّد بس يمدح ما بخلّي كلمه إلّا ما بقولها، وبس يذم كمان يعني. ما فيش عندو وسط. تغزّل كمان برياض طه. فأنا هاجمتو بالتلغراف، ما بعرف مين رد عليّ. بهديك الفتره إجا محمّد عيتاني على صُوْر إستاذ بالجعفريّه. بتذكّر تماماً يوم التقينا، كنت في مكتبه كان يبيع فيها كُتُب ياسر نعمه، وإذ شب لابس أبيض بعدني بتذكّر، حتّى يعني المقال يلّي بدّي أكتبو عن محمّد بذهني ببلّش بالأبيض. قميص أبيض وبنطلون أبيض، وعينان يعني مكسكسين هيك. الأبيض عاملو طوال المقال. برمز لتصوّري أنا عن محمّد. أنا كتير بحبّو كإنسان. عرّفوني: محمّد عيتاني، محمّد دكروب. ما بعرف مين قال للتاني إنّو، وبلّشنا رأساً نحكي عن المعركه حول رياض طه، كانت بعدها طازه.

وبتذكّر عبقلّو: شو هالمدائح! طيّب صديقنا شو بدّك تقلّو. زي ما هوّي محمّد. إنّو صديقنا كذا. محمّد عيتاني بدأت العلاقه فيه من هيديك الفتره. وعن طريق محمّد عيتاني أو على الأصح عن طريق ذاكرة محمّد عيتاني عرفت على الأقل أسماء وأجواء الأدب العالمي، لأنّو كان يومتا نَهِم للقراءه ويستوعب، بمعنى بيحفظ، يعني عندو ذاكره حديد. بيجي بيحكي الأشيا يلّي بيقراها وبيسرد الأسماء. وكان يومتا عمينشر في «الأديب»، ينشر أشياء إلها علاقه بالأدب العالمي. فمحمّد من هون يعني دخّلني. أنا إذا كنت بعرف أشياء عامّه عن الأدب العالمي، فبيكون النافذه إلها تبعي محمّد عيتاني. أنا ما بعرف فرنسي ولا لغه أجنبيّه. عدا طرافة محمّد، كنت كتير إستفيد بالمعنى الحرفي من علاقتي بمحمّد. إتثقّفت. عدا عن التوافق الروحي[١٣].

الهوامش

١ في حوار نشره كامل جابر، عقب رحيل محمّد دكروب، في جريدة «السفير» (٢٨ تشرين الأوّل ٢٠١٣، ص ١٨) يذكر محمّد أنّ أستاذين في المدرسة الجعفريّة غمراه برعاية خاصّة هما: أحمد حجازي الملقّب بابن البادية (ت. ١٩٧١) وزكي بيضون (ت. ١٩٧١) والد الناقد الضّليع والأديب عبّاس بيضون. وعندما أخذ محمّد دكروب يكتب قصصاً مستوحاة من بيئته عن البحّارة والشغّيلة والمسحوقين، كان يعرضها على أحمد حجازي، ابن البادية، ليقرأها ويعطيه رأيه فيها. «فيصحّح لي، من دون أن يشطب كلمة، ثم يشرح ويوضّح، حتّى تعلّمت منه كثيراً في تلك الفترة». وابن البادية هو، فضلاً عن التصحيح، الذي شجّع دكروب، الفتى الطموح، على النشر. وهكذا بعث محمّد بقصصه الأولى إلى رئيف خوري، الذي كان يُشرف، كلّ اثنين، على الصّفحات الثقافيّة في جريدة «التلغراف» لصاحبها نسيب المتني. وقد كان ابن البادية يكتب في مجلّة «المعهد» الصادرة عن المدرسة الجعفريّة، وقد وقعنا له فيها على مقالات غزيرة بلغت ٤٤ نصّاً. كذلك كان يكتب في مجلّة «العرفان» الشهيرة الصادرة في صيدا.

٢ هو عبدالحسين شرف الدين (١٨٧٣ – ١٩٥٧) أحد أعلام الشيعة في جبل عامل، الذي عاد إليه بعد إقامة مديدة في العراق حيث درس في النجف ونال درجة الاجتهاد المطلق. وفي صُوْر كان مقصد جميع الباحثين عن حلول فِقْهيّة. ومن جملة مساعيه التعليميّة أنّه أنشأ الكلّيّة الجعفريّة عام ١٩٣٨، وقد صار لها صيت واسع. وكان وطنيّاً صادقاً ناصب الانتداب الفرنسيّ العداء، وله دور ملحوظ في مؤتمر وادي الحجَيْر عام ١٩٢٠ الذي حضّ على مقاومة المحتلّين. وهو من دُعاة الوحدة السوريّة بزعامة الملك فيصل. وقد اضطهده الفرنسيّون وأحرقوا داره ومكتبته النفيسة، فاضطر إلى مغادرة لبنان هرباً من حكم الإعدام الذي استصدروه ضدّه. رُزق ستة أبناء، بينهم جعفر الذي قاد الكلّيّة الجعفريّة، وصدرالدين الذي أصدر مجلّة «الألواح» في بيروت. ترك السيّد عبدالحسين شرف الدين ذخيرة من الكتب والرسائل، قاربت الثلاثين، وهي تتناول مسائل فقهيّة واجتهاديّة جمّة. ومنها كتاب «المراجعات» الذي تكرّر طبعه، وهو نتاج مناظرات بين السيّد عبدالحسين الذي وَفَدَ على مصر عام ١٩١١ وتَلْمَذَ لشيخ الأزهر عهدذاك سليم البشْري، وكان عالِماً ضليعاً؛ فالكتاب حصيلة البحث بين الرجلين حول الإمامة على نحوٍ خاصّ.

٣ وُلد جعفر شرف الدين ابن السيّد عبدالحسين في بلدة شحور عام ١٩٢٠ وتعلّم في صُوْر، وذلك إبّان عهد حافل بالأحداث السياسيّة الجسام، وخصوصاً أنّ والده كان مناضلاً جَسُوراً ضد الانتداب فلاقى التنكيلَ والتشريد. وابتدأ جعفر ارتشاف العلم في صور، وذلك في كُتّاب السيّد نورالدين الأخوي عام ١٩٢٧، «وقد اتّخذ ـ كما يترجم السيّد جعفر سيرته في المجلس الثقافي للبنانَ الجنوبيّ بتاريخ ٥ أيّار ١٩٨٣ ـ من بيته مكاناً لهذه المدرسة اقتطع لها صحن الدار الواسع، واحتفظ لعائلته بغرف البيت. كان يجلس إلى طاولة على كرسيّ يُشرف منه على التلاميذ، ويعطي توجيهاته بصوت يُشيع الهدوء ويبعث الرهبة، فلا تسمع إلّا أصواتاً هامسة تتدارس أجزاء القرآن الكريم. وربّما تسمع صرير الأقلام الحجريّة تخطّ الحروف على ألواحها. وحَلَقات أرقى من هذه وتلك هي حَلَقات تحسين الخطّ وضبط الإملاء». وآل الأخوي عائلة إيرانيّة المنبت، معروفة في شيراز، وقد نزلت صُوْر. ثم ارتقى جعفر التلميذ من الكُتّاب إلى المدرسة الرسمية في صور حيث أمضى ستّة أعوام. و«تحوّل كيس الكتب إلى حقيبة، وقضيب الرّمّان أو الخيزران إلى مسطرة. هذا من حيث الشكل. أمّا من حيث الأساس فقد تغيّر جذريّاً، إذ أصبح لكلّ مادّة أستاذ». وفي عام ١٩٣٨ تسلّم السيّد جعفر المدرسة الجعفريّة التي أرسى أساسها والده السيّد عبدالحسين، والتي غدت لاحقاً الكلّيّة الجعفريّة. «وبقيام الجعفريّة انتهى عهد الكتاتيب في صور، وانتقل أبرز أصحابها أستاذنا السيّد نورالدين الأخوي إلى الجعفريّة».

٤ يقول محمّد دكروب في الكلمة التي ألقاها، إبّان الاحتفال بتكريمه في «الحركة الثقافيّة ـ أنطلياس» عام ٢٠٠٨: «وكنت في ذلك الزمان مهووساً بقراءة روايات الخيال العلميّ، مغرماً بالابتكارات العلميّة المستقبليّة، وبالتنقّل السهل بين النجوم والكواكب والسماوات العُلى... على أنّني جرّبت بنفسي، كتابة قصّة في الخيال العلميّ، واخترعت ـ داخل القصّة طبعاً ـ جهازاً يتنبّأ بما بعد الإنترنيت: تخيّلت جهازاً فيه شيء يشبه شاشة سينمائيّة صغيرة، وفيه أنبوب يوجّه شعاعه الخفيّ إلى رأس شخص ما، فينقل الشعاع إلى الشاشة صوراً لما يدور في دماغ هذا الشخص ـ فتاة غالباً وشابّ أحياناً». «هذه القصّة أرسلتها في حينه إلى مجلّة كانت تصدر في القاهرة باسم «قصص للجميع»، ويبدو أنّ هذا الاختراع العجيب قد أعجب رئيس تحرير المجلّة فنشر القصّة في مكان بارز».

٥ هذا النهم إلى القراءة رافق محمّد دكروب في غضون حياته المديدة، وكان من المألوف أن نراه يذرع الشوارع وهو مستغرق في القراءة، ولا يخشى على نفسه تعثّراً أو مفاجأة غير محمودة. يقول لكامل جابر في الحوار الذي نشره عنه في «السفير»: «لأنّني قرّرت أن أعلّم نفسي، وصرت أستعير الكتب من هنا وهناك، وأقرأ حتّى خلال سيري على الأقدام. وبقيت هكذا طَوال عمري أقرأ الجريدة وأنا أجوب أرصفة بيروت». ومن العلامات اللافتة على هذا الحرص عند دكروب على القراءة والتثقّف أنّه شرع، كما يذكر في الحوار المتقدّم، منذ ١٩٤٥، يبتاع مجلّة «الكاتب المصري» الشهيرة، والتي كان يرأس تحريرها طه حُسَين؛ وكانت هذه المجلّة الراقية الجديدة على القارئ العربيّ تبيع في صُوْر ١٥ عدداً!

٦ «الثقافة الوطنيّة» مجلّة تقدّميّة صدرت ببيروت في ١٩ كانون الأوّل ١٩٥٢. وكانت في سنتها الأولى وحوالى شهرين من الثانية، أي عام ١٩٥٣ على العموم، جريدة أسبوعيّة ثقافيّة سياسيّة. وكانت بحجم صغير، كما هو شائع حاليّاً في الصحافة؛ وتقع في ٨ صفحات، وثمنها ١٥ قرشاً. وقد كتب في عددها الأوّل: حسين مروّة، جورج حنّا، محمد جواد مغنيّه، رِضْوان الشهّال، إنعام الجندي، منير مغنيّه، علي سعد، مصطفى فرّوخ، ومحمّد إبراهيم دكروب (هكذا كان محمّد يكتب اسمه في البداية، ثلاثيّاً، ثم عدل إلى الثنائيّ). ثم تحوّلت الجريدة إلى مجلّة شهريّة، من آذار ١٩٥٤ حتّى تشرين الثاني ١٩٥٩، أي خلال ستّ سنوات. وقد ساهمت على نحو نَشِط في معركة الحداثة، وشارك في الكتابة فوق صَفَحاتها أبرز الأدباء العَرَب من شعراء وكتّاب قصّة وباحثين؛ بحيث غدت في سنواتها الأخيرة مجلّة راقية، دسمة، واسعة الانتشار، وخصوصاً في لبنان وسورية. ويمكن أن نعتبر أنّ هذه المجلّة كانت الورشة الأولى التي عمل فيها محمّد دكروب، وتعلّم من خلالها شؤون التحرير والتبويب ومختلف شجون العمل الصّحَفيّ (للاطّلاع على نبذة وافية حول هذه المجلّة، راجع ـ أحمد عُلَبي: رئيف خوري، داعية الديمقراطيّة والعُروبة، حاشية ص ٢٣٥ و٢٣٦، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٣).

٧ نشر محمّد دكروب قصّة «عقد الياسمين» في مجلّة «الثقافة الوطنيّة» (س٦، ع٢ (١٥ شباط ١٩٥٧)، ص ١١ ـ ١٤). وهي تشي بموهبة قَصَصيّة، وقد استمدّها من صميم حياته عندما كان في مستهلّ رأسه صُوَر. وإن كان لنا أن نأسف فلأمرين: أوّلهما أنّ محمّداً مارس كتابة القصّة في مطالع حياته الأدبيّة، ثم هجر هذا النوع الأدبيّ الجميل والممتع وذلك على نحو نهائيّ. وقد أخطأ في تركه القصّة، لأنّ ما كتبه، وهذه القصّة مثال على ذلك، شيء لطيف وينبئ بموهبة واعدة. على أيّ حال، دكروب نفسه عبّر في ما بعد عن ندمه البالغ وحُرقته على ما أقدم عليه. الأمر الثاني المؤسف أنّ محمّداً أسقط من حسابه حياة معذّبة حافلة بالمهن الكثيرة وبالكدّ وبالشقاء وبمفارقات الدنيا، عاشها في بلدته، وكان حريّاً به أن يُفيد منها في أدبه القَصَصي، ولكنّه هدرها وأضاعها. وهذه القصّة «عقد الياسمين» مشبعة بجو صُوَر الشعبيّ وبمقاهيها وبحّارتها، وتشيع فيها الكلمات العاميّة الاصطلاحيّة الشائعة والحوار العاميّ المعبّر الخاطف. زِدْ أنّ لغة القصة سلسة، ناصعة، تنساب برقّة؛ وتُفصح عن هواجس الفتى يوسف، بائع الياسمين، وتطلّعه الشغوف البريء بفتاة أحلامه مريم.

٨ أصدر محمّد دكروب مجموعة قصصيّة واحدة هي «الشارع الطويل»، وقد احتوت على ثماني قصص، وتقع في ١١٢ صفحة من الحجم الوسط، دار القلم، بيروت ١٩٥٤. وقد مهرها رِضْوان الشهّال برسومه التزيينيّة الجميلة. ومعظم هذه القصص نشرها محمّد دكروب في مجلّة «الثقافة الوطنيّة»، قبل إصدارها ملمومة الشمل في كتاب.

٩ يقول محمّد دكروب، منهياً حوارَه مع كامل جابر في «السفير»: «إنّها حرقة في قلبي، لأنّ حياتي كانت غنيّة بشكل يمكن أيّ روائيّ أن يغرف منها روايات وروايات. لذلك كانت مقالاتي وأبحاثي في النقد الأدبيّ فيها سرد قَصَصيّ، كان نوعاً من التعويض».

١٠ نشر محمّد دكروب هذه القصّة «أحلى من اللوز» في مجلّة «الثقافة الوطنيّة» (١٥ حزيران ١٩٥٤، ص ٣٦ ـ ٣٨). وهي، بدورها، تؤكّد ما ذكرناه سابقاً، حول قصّة «عقد الياسمين»، من التصوير الناجح عند دكروب للأجواء الشعبيّة ولروّاد الحَمّارات ههنا الذين كان يقصدهم محمّد لبيعهم الترمس، وعقله برغم العَتَمة الحالكة، والجوّ في صُوَر متأزّم راعب بسبب الغارات الجويّة الألمانيّة ودوريّات الدرك لا تفتأ تنادي: طفّوا النور! سكّروا الشبابيك! عقل الفتى، الحامل سلّة الترمس، مشغول بفاطمة ابنة الجيران، وبوعد أمّه له أن تبتاع له جِلّابية جديدة يزهو بها أمامها. موهبة دكروب القَصَصيّة واضحة المعالم؛ وكنت أحسَبُ، قبل مطالعتي هذه القصص للكتابة عنها، أنّها من النوع الساذج أدبيّاً، ففاجأتني بأنّها على شيء من الرقيّ الأدبيّ، بمعنى أنّها واعدة وحلوة، ومتفرّدة بالتعبير عن قاع المجتمع في مدينة ساحليّة وُلِد فيها دكروب وترعرع.

١١ بخلاف ما يخمّن الصديق دكروب، فإنّ مجلّة «المعهد» استمرّت أربع سنوات: ابتداءً من عددها الأوّل الصادر في شباط ١٩٤٥، حتّى عددها الأخير الصادر في حزيران ١٩٤٨. وبين يديّ المجموعة الكاملة المصوَّرة، وقد تلطّف بإهدائي إيّاها الأخ المهندس محمّد شرف الدين، ابن السيّد جعفر الذي كان يرأس تحرير هذه المجلّة القيّمة. وهي قمينة بدراسة مفصّلة تقييميّة، نظراً للدور الثقافيّ الذي نهضت به، على قصر عمرها؛ كذلك رعاية لأسماء الكتّاب الذين شاركوا فيها، إذ تكاد المجلّة، برغم صدورها عن معهد تعليميّ واقع في طرف الوطن، تستقطب كوكبة واسعة جدّاً من أقلام ذاك الزمن، والذين لا سبيل إلى تَعْدادهم ههنا لكثرتهم. وقد قام بتحقيق هذا العمل، بإضافة الفهارس والترجمة لجميع الذين كتبوا في «المعهد»، حسين شرف الدين، المدير الحاليّ للجعفريّة، إبّان الحوار الذي عقدناه مع محمّد دكروب الذي يشير إلى أنّ هذا المدير عهدذاك بعث إليه برسالة، كما جاء في ثنايا الحوار، يخبره فيها بما كتب دكروب في «المعهد». وإن كنّا نأخذ على عمل حسين شرف الدين اضطراباً في إيراد بعض الأرقام؛ كما هناك عدم الدقّة في ذكر بعض المعلومات العائدة إلى الكتّاب. وحصيلة محمّد دكروب أربعة نصوص نشرها في عام ١٩٤٥، أي خلال السنة الأخيرة من حياة هذه المجلّة، وكان عهدذاك في السابعةَ عَشْرَةَ من عمره، ما دام أنّه من مواليد ١٩٢٩. وهي التالية: قصّة مقال، مهداة إلى صاحب مجلّة «الرسالة» (س٤، ع١، ص ٢٨ و٢٩)، هذه «المادّة» الحاكمة (س٤، ع٣، ص٢٩)، رسالة إلى فنّان (س٤، ع٤، ص٢٧)، لكي نؤدّي الرسالة (س٤، ع٥، ص٢٥ و٢٦).
منذ المقالة الأولى المذكورة أعلاه، يستوقفك أنّ كاتبها محمّد إبراهيم دكروب على شيء من نُضج الفكر وسلامة العبارة، ولا يخطر في بالك أنّه فتًى في السابعةَ عَشْرَةَ فقط! وموضوع المقالة أنّ صديقه علي سلامي، الطالب في الكلّيّة الجعفريّة، قد بعث إلى مجلّة «الرسالة» المصريّة بقصّة تدور حول حادثة المعتصم مع المرأة العربيّة التي أسرها الروم فاستنجدت بالخليفة: وامعتصماه! وعوض أن تُنشر القصّة في المجلّة حاملةً توقيع صديقه، نزلت معدّلةً قليلاً ولكن باسم عمر الدسوقي. ويختم دكروب مقالته التي قارن فيها بين النصّيْن قائلاً: «عفوكم يا سَدَنَة الأدب ورُوّاد العلم والمعرفة. إنّنا من الذين يتعشّقون العلم والمعرفة، فلا تُقحموا اليأس إلى نفوسنا بمثل هذه الدروس القاسية، التي نتلقّاها منكم بين الحين والحين. وإذا كان لكم ما تقولونه في صدد قصّة هذا المقال، فإنّنا لسامعون. وما أسعدني إذا كنت على خطأ، فإنّني إذن لأغيّر رأيي» (س٤، ع١، ص٢٩).

في مقالته الثانية، «هذه «المادّة» الحاكمة!»، يتحدّث دكروب عن طغيان المادّة على حياة البشر، بحيث تشوّهت عندهم القيم المعنويّة. وها هو صاحبه يجلس بين أحضان الطبيعة بعيداً عن البلدة وضوضائها، فارتفعت معنويّاته، واتّسعت مداركه، وبدا له الناس جاهلين بعيدين عن الله وعن أنفسهم. «إنّ البشر بعيدون في هذه الحياة عن أنفسهم، ومتى بَعُدَ الإنسان عن نفسه بَعُدَ عن الله» (س٤، ع٣، ص٢٩).

أمّا في مقالته الثالثة، «رسالة إلى فنّان»، فيحضّ فيها صديقه أن يجعل موهبته في خدمة قومه الذين يمرّون في مرحلة توثّب وبناء، فيعمل بنظريّة «الفنّ للمجتمع»؛ لا أن ينساق لعواطفه ونزواته وخفقات قلبه، فيكون عندئذ من أصحاب «الفنّ للفنّ». فهذه الأمور الشخصيّة لا تخدم المجتمع ـ وَفْقَ رأيّ دكروب في ذاك الزمان ـ وهي في أضرارها على الناس المتذوّقين الأدبَ أشبه بأضرار المخدّرات الفتّاكة، وذلك أنّها «تعمل على هدم كيان نهضتنا الأدبيّة الحديثة، إذ إنّها تُبعد بعض الشباب عن متابعة مشاكل المجتمع وعلاجها، إلى هذا الترف الفنّيّ» (س٤، ع٤، ص٢٧). لا تعليق سوى: سامح الله محمّداً على سَذاجته وضلاله عهدذاك.

ويتبدّى النَّفَس القوميّ المتّقد عند الفتى دكروب في مقالته الرابعة، «لكي نؤدّي الرسالة»، وهو على ما يظهر في ثناياها كان متأثّراً في تلك المرحلة بالبعثيّين، وكان معادياً للشيوعيّين. وهو تأثّر حدّثني عنه خلال حوارنا الطويل، ويبدو جليّاً ههنا من تَرْداده لشعار البعث الشهير حيث يقول: «نحن العرب نحمل في أعماقنا رسالة سامية إلى الإنسانيّة». ويتناول في مقالته هذه وضع الشعر العربيّ، فيُطالب بالشعر القوميّ التوجيهيّ، لا الشعر الشخصيّ. عودة إلى الفكرة السابقة حول دور الفنّ ووجوب خضوعه لحاجات المجتمع. والأديب الحقّ الصحيح هو الذي يعبّر عن روح الأمّة. وهو مطالَبٌ بالاعتدال، فلا يعلو فوق «البرج العاجيّ» ولا ينحدر إلى ما تحت «الكوخ الخشبيّ». والخطر كلّ الخطر كامن في الأدب الجنسيّ المسيء إلى روح الأمّة. كذلك هناك ما ندعوه «الشعر المنثور» الوافد علينا من الغرب، فهدّام لكياننا الأدبيّ. «ولكنّ هذا الأدب «يحمل بيده جراثيم فنائه»» كما يقول العقّاد في الشيوعيّة» (س٤، ع٥، ص٢٥ و٢٦).

١٢ هو أحمد عارف الزين (١٨٨٤ ـ ١٩٦٠) الذي مارس الصّحافة في جرائد عصره الشهيرة، شأن «ثمرات الفنون» و«الاتحاد العثمانيّ» و«حديقة الأخبار»، ثم أصدر مجلّته التي اقترن اسمه باسمها وهي «العرفان» التي كان لها في الجنوب اللبنانيّ دور أدبيّ وثقافيّ بارز. عُرف بوطنيّته، بحيث سِيْقَ إلى الديوان العُرفيّ العثمانيّ في عاليه بلبنان، ولم يُطلق سراحه منه إلّا بعد انتهاء الحرب الكونيّة الأولى عام ١٩١٨. عاش مع عائلته في صيدا، وتعلّم عدّة لغات هي التركيّة والفارسيّة، فضلاً عن الإنكليزيّة والفرنسيّة. أصدر «العرفان» عام ١٩٠٩ في بيروت، ثم نقلها عام ١٩١٢ إلى صيدا. دخل السجن غير مرّة، وذلك لمناصرته الثورةَ السوريّة ولمناهضته الانتدابَ الفرنسيّ. وكان الشيخ أحمد عارف الزّين يملك مطبعة العرفان؛ وفيها صدر ديوان بدوي الجبل، كذلك كتاب الثورة العراقيّة الكبرى لعبدالرزّاق الحسني.

١٣ يقول محمّد دكروب في حواره مع كامل جابر في «السفير» عن محمّد عيتاني: «في بيروت وجدتُ أجمل صداقات العمر مع محمّد عيتاني، الذي بقيت إلى يوم وفاته، وأنا لم أزل أشعر بوجوده قربي إلى الآن. لقد ملأني هذا الرجل بثقافته كثيراً وصداقته وإنسانيّته، وعن طريقه تعرّفت إلى ألبير أديب، صاحب مجلّة الأديب». ويذكر محمّد في الكلمة التي ألقاها عند تكريمه في الحركة الثقافيّة ـ أنطلياس عام ٢٠٠٨: «ولعلّي لم أشعر أنّني صرت، بالفعل، واحداً من الكتّاب، إلّا عندما بدأتُ مجلّة «الأديب»، ذات الشهرة الواسعة، تنشر لي أشياء من كتاباتي: مقطوعات من النثر الفنّيّ، ومقالات حول بعض الكتب الجديدة، وأقاصيص». ويعاود دكروب في حواره، المتقدّم الذكر، الأسف البالغ على غياب محمّد عيتاني (١٩٢٦ ـ ١٩٨٨): «خسارته كانت كبيرة بالنسبة إليّ، كصديق وككاتب وفنّان. هو أهمّ مَنْ كتب عن ناس بيروت وبحرها، حتّى الآن لم تُعْطِ بيروت مثله».

٣٢ سنة على لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين
بداية البداية

وداد حلواني
رئيسة لجنة أهالي المخطوفين

مهدى إلى نجاة حشيشو التي لجأت إلى القضاء لمقاضاة خاطفي زوجها محي الدين. قضت أكثر من عقدين في المحاكم، بُرّئ المتّهمون، ولم تعرف مصيره بعد، لكن نجاة لا تزال متمسكة بحقها ولو من أميركا.
إلى نايفة نجار التي لم تحتمل غياب وحيدها علي فقررّتْ ملاقاته. انتحرتْ بعد مرور تسعة أشهر على خطفه.
أوديت سالم التي قضت صدماً بسيارة أثناء توجّهها إلى الاعتصام بحثاً عن وحيدَيها ريشار وماري كريستين.
إلى كل مَن غادرتنا قبل معرفة مصير مفقودها، إلى كل مَن أقعدها المرض أو الشيخوخة، إلى كل مَن لا تزال مثابرة على المشاركة في المعركة من أجل حق المعرفة، إلى أولادنا وأولاد جيلهم. لكي تصل القضية إلى خواتيمها.

بعد انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية، عدتُ إلى بيروت بصحبة ولديّ زياد وغسان بعدما كنا قد انفصلنا قسرياً ومن دون سابق تخطيط عن عدنان، زوجي، بفعل دخول العامل الإسرائيلي مباشرة، باجتياح جيشه للبنان، على وضع لم يكن مستقراً أساساً في البلاد بفعل الاقتتال الداخلي المسلّط فوق رؤوسنا منذ نيسان العام ١٩٧٥.

فرحة اللقاء لا توصف بالرغم من طغيان رائحة البارود وهول الدمار. لكن التئام شمل العائلة لم يَدمْ. فرَطَ بعد أقلّ من شهر وأخذَ معه كل الفرح، عندما دقّتْ يدُ الإجرام جرسَ بيتنا الواقع في «رأس النبع» - منطقة كانت تلاصق خط التماس الأساسي الذي شطر العاصمة آنذاك إلى بيروتين: شرقية وغربية - وخطفتْ عدنان في وضح النهار بذريعة «التحقيق لمدة خمس دقائق بحادث سيارة ثم يعود». بالطبع الحادثُ لم يحدث، وعدنان لم يعد منذ تاريخه (٢٤ أيلول ١٩٨٢).

لن أتطرّق إلى ما أصابني جراء هذه الكارثة سوى أنها خلخلتْ توازني على كل المستويات. لا أبالغ إذا قلت إن ما جعلني أتماسك وأقف على رجليّ هو حبّي لعدنان ولطفلين لم يتجاوز أكبرهما السادسة من عمره.

في غيْرِك مثلك

بدأتُ البحث عن عدنان. لم أتوقّع أن تتحوّل هذه العملية إلى مسار شاق، طويل مفتوح إلى ما لا نهاية. لم أتوقّع، بعد انقضاء حوالي الشهر من الركض بحثاً عن زوجي، أن أجدَ نفسي أفتش عن المئات بل عن الآلاف الذين خُطفوا مثله!

قمتُ بجملة مراجعات ووساطات بمفردي، وأحياناً عبر وسطاء من ذوي النفوذ أو«الأيدي الطايلة» وقتذاك. بعضها بلغ مستويات عالية، أذكر منها الرئيس الياس سركيس في بداية نهاية ولايته في القصر الجمهوري، رئيس الحكومة شفيق الوزان، مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد، القائد الفلسطيني أبو عمار، السفارتين الفرنسية والروسية. لم يسفر ذلك عن العثور على عدنان، ولا عن إقرار أي جهة رسمية أو حزبية أو ميليشيوية بمسؤوليتها عن خطفه وإخفائه. ما تلقّيته كان، إضافة إلى تشكيلة من العواطف الجامدة الملّونة بكلمات تحسر وشفقة على حظّي البائس وأنا في عزّ الصبا، عبارةً واحدة تكرّرتْ على مسامعي ممّن تسنى لي مقابلتهم من المسؤولين «هناك غيرك مَن جاؤوا يشكون حالات مماثلة لحالتك». إلّا أن مسؤولاً واحداً لم يُفدْني باسم مخطوف واحد، بالتأكيد ليس ضناً بذلك بل لأنه لم يهتم بحفظ أو تسجيل أي اسم ممن راجعه أهاليهم بشأنهم. يبدو أن الناس، بنظر هؤلاء المسؤولين، ليسوا أكثر من أرقام في ذلك الزمن الرديء، بل في كل الأزمنة كما خبرتُ ذلك لاحقاً وبالملموس.

فكّرت، فقررّت أن أجد بنفسي امرأة أو اثنتين من اللواتي بُلين مثلي بفقدان شخص عزيز. الخطّة التي رسمتها في رأسي كانت أن أعاودَ تكرارَ كل ما قمتُ وأقوم به من مراجعات واحتجاجات ومناشدات وتنظيم عرائض، لأجل إطلاق سراح عدنان، وتحويله إلى المطالبة بإطلاق سراح مَن فقدتْ هاتان السيدتان المُستهدفتان. كنتُ مقتنعة أني إذا نجحتُ بذلك، فسنكوّن معاً حلقةً أقوى، سيتضاعفُ ضغطنا على المسؤولين، فيُجبرون على التعامل بجدية أكثر مع موضوع بات يطال مجموعةً لا شخصاً واحداً.

مشهدٌ مذهلٌ ومخيف

توجّهتُ إلى إحدى الإذاعات المحلية، «صوت لبنان العربي»، وما أكثرها آنذاك. طلبتُ توجيه نداء إلى مَن لديه شخصٌ مخطوف للحضور الى لقاء تعارفي للأهالي. حددّتُ المكان والزمان، أمام جامع «عبد الناصر» في كورنيش المزرعة، وذلك بما يتناسب مع مكان ودوام عملي المهني في ثانوية «فخر الدين الرسمية» في منطقة «برج أبي حيدر». أمنيتي المُضمرة هي أن تكون السيدة أو السيدتان اللتان ستلبيان النداء أكثر طولاً مني وأكبر حجماً، أن يكون «عليهما القيمة والقدر» لإضفاء بعض جدّية ووقار ظناً مني أن قامتي الصغيرة لم تكن توفرهما.

ما إن دقّ جرس استراحة الساعة العاشرة، كان نهاية دوامي ذلك النهار، حتى سارعتُ إلى ضبضبة أوراقي، تأبطتُ محفظتي وهرولتُ نزولاً باتجاه كورنيش المزرعة والحماسة تملأني لملاقاة السيدتين المرجوّتين.

كان المشهد مذهلاً، مخيفاً. السيدتان المتوقع حضورهما ولأقل ثلاث سيدات أو أربع سيدات، صرن مئات يصاحبهن عدد من الأولاد والأطفال. امتلأت ساحة اللقاء. المكان يعجّ بزوار لا يعرفون بعضهم. تُرى، هل لبّت أولئك النسوة النداء وأتيْنَ رغبةً بالتعارف؟ بالتأكيد لا، فالزمن ليس بزمن اجتماعيات وترفيه، ولا الشارع يسمح بذلك. لقد جئن للتعريف عما حلّ بهن من مِحن.

بدأ التعارف تلقائياً ومن دون مقدمات عبر شروع كل واحدة برواية مصيبتها. واحدة أخذ المسلحون زوجها من السرير بالبيجاما، لم يمهلوه لتبديلها، أخرى اعتقل ابنها البكر بعدما صادروا منه ربطة خبز وُفّق، بعد جهد، بشرائها لإخوة جائعين، ثالثة فقدتْ ثلاثة من أبنائها وزوجها.

وجدتُني، لبرهة، متجمّدة الحواس والإحساس أمام هذا المشهد السوريالي. كنت مأخوذة وأسأل نفسي «هل يعقل أن يقع كل هذا الظلم، ودفعةً واحدةً على كل هؤلاء الناس؟» أفكار متناقضة في رأسي تتجاذبني.

لكن ضجيج النسوة وآهاتهن أعاداني إلى وعيي، وتسارعت في رأسي التساؤلات: طيّب ماذا بعد؟ يجب أن نعمل شيئاً، أكيد، بسّ شو؟ لازم أعرف، لازم اخترع، أو لستُ أنا من استدعاهن للمجيء؟ صحيح أن العدد فاق تصوّري وخطّتي المرسومة، لكن ذلك يجب أن يشكّل دافعاً أقوى للتحرك لا رادعاً!

ساعدني صوتي العالي على مخاطبة الجمع (الأرجح أني ورثته عن أمي أو امتلكته لاحقاً بحكم مهنتي في التعليم الرسمي وربما للعاملَين معاً). رجوتُ النسوة الكفّ عن البكاء والنحيب، اقترحتُ عليهن أن نشّد هممنا ونتوجه لمقابلة رئيس الحكومة. أذكر أن خياري ذاك يعود إلى عامل الجغرافيا، إذ إن السرايا الحكومية كانت تقع يومذاك في المنطقة الغربية لبيروت مقابل حديقة الصنائع، بمعنى أن الوصول إليها لا يحمل مخاطر لاجتياز معابر الخطف والموت الفاصلة بين البيروتين، فالبلدتين (صار تقسيم المناطق الى شرقية وغربية على مستوى لبنان لاحقاً وليس على مستوى العاصمة فقط).

امرأة تسند امرأة

انطلقت المسيرة إذاً من أمام جامع عبد الناصر في كورنيش المزرعة، وجهتها السرايا الحكومية المهجّرة، حينذاك، إلى منطقة الصنائع في المبنى الذي تشغله وزارة الداخلية اليوم، غايتها مقابلة رئيس مجلس الوزراء، شفيق الوزان، لمطالبته بالعمل الفوري سعياً للإفراج عن الذين خطفوا وفقدوا.

الصخب يملأ المكان. وجوه غاضبة، نظرات تعكس حجم الظلم الذي وقع، حناجر تكيل الشتائم بحق كل خاطف، لم توفر أي مسؤول سكت وما زال بالعاً لسانه عن جرائم الخطف، بل بقي متمسكاً بكرسيه، لا يحرّك، حتى إصبعاً، لأجل إعادة هؤلاء إلى عائلاتهم أو على الأقلّ لوقف مسلسل هذه الممارسات اللاإنسانية بحقّ الأبرياء العُزّل. بعض النسوة لم تطاوعهن الكلمات ففاض الدمع مدراراً يواكب سيل الشتائم والنواح...

خلال المسيرة، تابعت النسوة سرد وقائع اختطاف الابن أو الزوج أو الأخ، أو اثنين أو أكثر من أفراد البيت الواحد في بعض الحالات، دون أن يسقط منها أي تفصيل، وكأن ما حصل يحدث أمامها الآن فتجهش بالبكاء. تحاول الأخرى التي تجاورها تهدئتها ومساعدتها، فتأخذ دورها في الكلام، تدلي بمأساتها

وهكذا دواليك. امرأة تسند امرأة، رواية تصطّف وراء رواية.. وجريمة تنطح جريمة.

أعتقد أنه لو كان بمقدور الأرض أن تنطقَ بما تختزنه من حكايات أولئك النسوة لملأت مجلّدات. مجلدات حيّة قد تضفي عليها صور الجلادين مزيداً من الغنى والصدقية. وبما أن معظم هؤلاء المجرمين ما زالوا أحياء يرزقون، يتنقّلون بيننا بحرية وأمان، ومنهم مَن يتبوأ أعلى المراكز في مؤسسات الدولة السياسية والإدارية فإنه متاح تأمين صور لهم في زمني الحرب والسلم. في زي الميليشيا وفي الزي الرسمي. فهم القادة في الحرب وهم القادة في السلم.هم دائماً وأبداً زعماء. إنهم قادة «مخضرمون»، أو قادة «دوبل فاس». بكل الأحوال هم سيدخلون صفحات التاريخ السوداء، بل يجب ذلك.

عندما وصلت المسيرة إلى نقطة التقاطع الثانية على كورنيش المزرعة انحرفت يميناً فصعوداً إلى كورنيش «تلة الخياط» باتجاه السرايا الحكومية.

معركة غير متوقعة

ما إن اقتربنا من مبنى تلفزيون لبنان (كان يُعرف بالقناة ٧) حتى فوجئنا بمجموعة من عناصر الجيش النظامي تتقدّم صوبنا بشكل هجومي. كان الجنود بكامل الجهوزية والعدّة. كأنهم في وضعية قتالية تتأهب لمواجهة عدو حقيقي وقويّ، سرعان ما تبيّنا أن هذا العدو هو نحن.

أمرونا بلهجة حاسمة لا تخلو من التعالي، بالتفرّق الفوري والعودة إلى بيوتنا. لم ننصع للأمر، لم يتوقف البكاء ولا السباب، أصررنا على متابعة السير. هجموا علينا واختلطوا بجموع النساء ينهرونهن، يضربونهن بأعقاب البنادق وبدأ الكر والفر.

المعركة حامية بين الطرفين لكن بميزان قوى غير متكافئ. استشرستْ النسوة جسدياً وبرشقات من الشتائم من كل العيارات. مواجهتهن كانت مدهشة، بلحظة تبدّلت أحوالهن وهيئاتهن، بدَوْنَ بقوة استثنائية عكس ما كنّ عليه من ضعف وحزن وانكسار في بداية التجمّع. لم أجد تفسيراً لهذا التحوّل النوعي المفاجئ غير ذلك الشعور الذي أحسسته وعشته اثر اختطاف حبيبي، فأي خسارة أخرى قد تقع لن تكون أفدح وأقسى من خسارة شخص عزيز.. فممّ ومِمَن أخشى ويخشين بعد الآن؟

لا أنسى ذلك المشهد وقد بدا المهاجمون كأنهم فوجئوا بردة فعلنا القوية، تماماً كما فوجئنا نحن بتصرفاتهم العنيفة، بأدائهم العدائي اتجاهنا، المستخفّ بآلامنا.. كانوا كمَن لم يتوقّع أن يتجرأ أحدٌ على مخالفة أمر عسكري في زمن عسكري بامتياز.. فكيف إذا كان هذا الـ«أحد» جمهرة من النساء والأطفال! يبدو أن هذا ما زاد من درجة استفزازهم، فكأني بهم وقد انتفضتْ ذكوريتهم، مضافاً إليها مخالفة أمر المهمة المنوطة بهم بمنع وقمع كل تجمع في الشارع وكل ما يفرضه قانون الطوارئ المفروض على البلاد.

الأرجح أنه كان يتردد في حلق كل واحد منهم «لا يكفي أنهن نساء، بل نساء شارع خارجات على القانون!

هزأت النسوة بكلام الجنود وتصرفاتهم، بحالة الطوارئ وبقانونها. كأني بهن يستنكرن متسائلات «أي قانون هذا يتشدّقون به لا يقدر على حماية أولادنا من الخطف؟ بأي قانون، بأي منطق يمنعوننا من المطالبة بإعادتهم إلينا سالمين.!!؟ هل من حالة طارئة أشدّ من حالتنا؟

يا ليت ذلك القانون تجرّأ على إقطاعيات السلاح والمسلحين، صادر أسلحتهم، اعتقلهم، وحرّر مَن نبحث عنهم من سراديب هؤلاء المجرمين النتنة مثلهم!

فجأة التفتّ، تبيّنت عدد الكاميرات التي سرعان ما ملأت الميدان، حينها كان كل شيء جديداً بالنسبة إلي، فلم أدر كيف عرف أصحابها بما يدور، بأي سرعة حضروا ومن أين أتوا! ربما الجواب صار معروفاً اليوم، فقد اعتُبر ما قمنا به، بكل عفويته وصدقيته، حدثاً مميزاً. حدثٌ كسر روتين شريط الأحداث اليومية بالرغم من غزارتها آنذاك، ولو لم تكن قد درجت بعد موضة «الخبر العاجل».

«الجِيب» هو الهدف

صمود النساء في المعركة، تماديهن ونجاحهن في نشر غسيل المجرمين والمسؤولين على حد سواء، قد يكون حدا بهؤلاء الى استبدال القمع باللجوء إلى التفاوض مع الأهالي في محاولة التفافية لضبضبة الموضوع وتحاشي انفلاشه أكثر، لخنقه في المهد.

تراجع الجنود إلى الوراء عندما حضر الضابط. سأل النسوة، وقد طوّقنه من كل الجهات، عن الشخص المسؤول الذي يمكنه التكلم باسمهن. اتجهتْ العيونُ والأصابعُ بحثاً عني. أساساً كنت قد بدأت التقدّم من الصفوف الخلفية مجرّد أن لمحته يتوجّه صوبنا. بدأ كلامه بالاعتذار عما جرى ومبرراً حصوله في ذات الوقت. عرّفت عن نفسي، بناء على طلبه، وبدأت أجيب عن أسئلته: سبب وجودي هنا، اسم زوجي، مهنته، عمره، تاريخ خطفه ومَن أتهم. اعترضتُ على الاستمرار

بطرح هذه الأسئلة من دون معنى باعتبار أن القضية لا تنحصر بزوجي بل بذوي كل السيدات الموجودات في الساحة.. تابع يسأل عن علاقتي بهؤلاء النسوة، أين وكيف تعرّفت إليهن، هل حقيقة لديهم أشخاص مخطوفون، أعدادهم، أماكن وتواريخ الخطف، إلخ. أيضاً اعترضت على التمادي بالأسئلة وتنبّهت من أن يكون هناك شيء يُحضّر ضدنا من وراء هذه الإطالة وإضاعة

كادر رقم ١ :: بطاقة الهوية

محل الولادة: مدينة بيروت، كورنيش المزرعة، أمام جامع عبد الناصر.
تاريخ الولادة: الساعة ١١ ق.ظ. يوم ١٧ تشرين الثاني ١٩٨٢.
ظروف الولادة: حركةٌ احتجاجيةٌ سلمية خرجتْ من رحم الحرب، في زمن الحرب، معادية للحرب التي خلّفت مئات الآلاف من القتلى والجرحى والمعوقين، وخطفت آلاف الأشخاص من أحضان عائلاتهم وأخفتهم في المجهول.
علامات فارقة: انتفاضة نسائية ظهرت فجأة، يطعّمها عدد من الصبية والبنات. تخترق جدار حالة الطوارئ المُعلنة في البلاد، تتحدّى آلة الحرب وصنّاعها وأدواتها، تكسر حزنها وتُخرج معاناتها، من داخل البيوت، إلى الضوء.

الوقت، خصوصاً عندما انتقل إلى مجموعة أخرى من الأسئلة من نوع إلى أي حزب أو تنظيم أنتمي، من طلب منا التظاهر، إلخ. كان يصغي إلى كل كلمة أقولها محاولاً إيقاعي بأي تناقض أو تعارض في سياق الاجابة عن أسئلته المضجرة التي لا تنتهي. أكثر من مرة طلب مني إسكات الأهالي كلما ارتفعت أصوات تشي بنفاد الصبر أو علت صرخات غضب أو آهات تحسر وألم. وهذا ما أعطاني المبرر لطلب إنهاء التحقيق، وتركنا وشأننا نكمل الطريق. لكنه ابتسم متذاكياً محاولاً أن يلعب دور الحليف وحامي الحمى قائلاً: «لقد اقتنعتُ بقضيتِكن، معكن كل الحق، يمكنكن الآن العودة إلى البيوت باطمئنان. الرسالة وصلتْ وسأنقل الموضوع إلى الرئيس وكل ما تُردن طلبه منه، أساساً هو من انتدبني لأنوب عنه، ألا تثقين بي يا مدام؟».

طرحتُ السؤال عالياً على الأهالي إذا كنّ يقبلن بعرض الضابط، فجاءت الـ«لا» بصوت واحد، مدوّية.. هن مَن سيقابل الرئيس ولن ينوبَ أحدٌ عنهن.. عندما أيقن الضابط فشل مخططه بثنينا عن الهدف، عرض المقايضة التالية: أختارُ ثلاث نساء أو أربع على الأكثر لمقابلة الرئيس شرط أن تتفرّق التظاهرة فوراً وتمضي كل امرأة في طريقها، وطلب منا الصعود إلى الجيب العسكري المتوقف جانباً لاصطحابنا إلى السرايا.

تزاحمت الأقدامُ وتلاصقتُ الأجساد مهرولةً لبلوغ الجيب وركوبه. صار الجيب هو الهدف. المنافسة شديدة بين النساء، المقياس الحاسم للفوز هو السرعة. النتيجة المباشرة كانت أن ضاقتْ الآلية العسكرية بمَن تمكّنّ من تسلقها قبل غيرهن وحجز ولو شبراً جوّاتها. جلسنا بعضنا فوق بعض، عددُنا فاق المُقرّر، كل واحدة تكمّشتْ بالجزء الذي استطاعت ملامسته من الجيب وذلك تدعيماً لموقعها داخله. بالرغم من تهديد الضابط بإنزالنا كلنا وإضاعة هذه الفرصة من أيدينا. لم تقبل أي من النسوة التنازل عن فرصتها الذاتية، فرصة العمر بالنسبة إلى كل واحدة منهن. أظن أن كلاً من سيدات الجيب كانت تعتقد، أنه بعد مقابلة الرئيس وشرح قصتها أمامه، لن تعود إلا وهي متأبطة ذراع ابنها أو زوجها أو سواها. بعد الخبرة، دائماً ما يحضر الشخص المفقود افتراضياً لدى مَن يفتقده.

«لشو أنت رئيس»؟

استقبلنا الرئيس الوزّان بودّ مصحوب بعلامات تأثّر مرسومة على الوجه. حاول الظهور بمظهر مَن لا شأن له ولا علم بالمعركة التي خاضها العسكر ضدنا على بعد أمتار من حصنه.. لا أدري إذا كان وجودي في عداد الوفد، قد أراحه ومهّد لمبادرته بالكلام عن مدى إلمامه بالموضوع وتأمّله. بدا ذلك عبر توجيهه الكلام إليّ موظّفاً لقائي السابق به والرسالة التي أرسلتها له بشأن اختطاف زوجي. استأذنته مقاطعة بأن المسألة لم تعد تنحصر بـ«عدنان» وحده، وأن لكل سيدة من الموجودات «عدنانها»، وأننا لسنا سوى عيّنة من المئات من الأمهات والزوجات اللواتي منعهن الجيش، منذ قليل، من المجيء معنا للقائه. تثبيتاً لما كنت أقول طلبتُ من كل سيدة أن تعرّف الرئيس بقضيتها. هكذا أحرج الرئيس واضطر إلى الإصغاء لثماني أو تسع حالات لأشخاص خطفوا من داخل بيوتهم، أو من على حواجز المسلحين، أو خرجوا إلى أعمالهم ولم يعودوا.

عاودت علامات التأثر ارتسامها على ملامح الرئيس وذلك على وقع المآسي التي سُردت، والدموع التي ذُرفت. نطق بكمّ من العواطف لدرجة أوشكنا معها على تطييب خاطره والتخفيف عنه، جاهر بأحقّية مطلبنا واعداً ببذل كل جهوده لمساعدتنا وفكّ أسر أحبائنا.

عندما سألته عما سيقوم به ترجمة لذلك، انقلب الموقف وتلبّد الجو. بدأ يتحدث عن عجزه، عن ضعف الدولة بكافة

كادر رقم ٢ :: لبنان الأخضر أو الأخطف؟

كانت عمليات الخطف قد بدأت مع بداية الحرب في لبنان ورافقتها على مدار خمسة عشر عاماً (من نيسان ١٩٧٥ الى تشرين الأول ١٩٩٠). الحقيقة أنها لم تكن حرباً واحدة بل كانت حروباً داخل حرب.

أسباب الخطف تنوّعت وتشعّبت، فكان الضحايا يقعون فريسته إما نتيجة انتمائهم السياسي، أو الطائفي، أو المناطقي، أو تبعاً للجنسية أو اللون أو اللهجة... أحياناً كانت الميليشيات والأحزاب المتحاربة تلجأ إلى خطف الناس توظيفاً لتحسين وضعها في التفاوض السياسي، أو لإيصال رسالة ما إلى الطرف المعادي، أو لإسقاط هدنة لم تعد تخدم الخطة الموضوعة، أو لإشعال محور من المحاور.. أحياناً كان الناس يقعون فريسة للخطف تبعاً لأمزجة المسلحين وأحياناً أخرى بدافع السرقة أو بدافع التبادل لتحرير مختطفين لدى الطرف الآخر.. لقد تحوّل الإنسان في بلدنا إلى سلعة تُباع وتُشرى ويُقايض بها. صار الخطف سلاحاً لا يقلّ استعمالاً و فاعلية عن البارودة أوالقذيفة أوالمدفع...

أما وتيرة الخطف فقد تراوحت - انخفاضاً أو ارتفاعاً، إذا طالت أفراداً أو مجموعات - أيضاً وفقاً لتقلبات الظرف السياسي والعسكري... أذكر ثلاث محطات من الخطف الجماعي المتفلّت من أي معيار أو إطار، اثنتان منها أعقبتا اغتيال زعامتين، درزية ومسيحية، في البلاد: السيد كمال جنبلاط الذي اغتيل في شهر آذار العام١٩٧٦ وكان قائداً للحركة الوطنية اللبنانية، والسيد بشير الجميل اغتيل في شهر أيلول العام ١٩٨٢، وكان قائداً للقوات اللبنانية، وقد اغتيل بعد انتخابه رئيساً للجمهورية بأقل من شهر (انتخب في ١٩٨٢/٨/٢٣ واغتيل في ١٩٨٢/٩/١٤). تلت الاغتيال الأخير المحطة الثالثة من الخطف الجماعي التي تُوّجت بمجزرتي صبرا وشاتيلا وحصدتْ المئات من القتلى والجرحى والمفقودين من لبنانيين وفلسطينيين.

لا يوجد إحصاء علمي لعدد المخطوفين والمفقودين في لبنان، رجّحتْ تقديراتٌ شبه رسمية تعدادهم بـ/١٧٠٠٠/. وتقوم البعثة الدولية للصليب الأحمر بإجراء مسح ميداني مفصّل عن المفقودين في لبنان.

أجهزتها، عن انعدام هيبتها، عن تراجع نفوذها أمام سلطة ونفوذ الميليشيات وقوى الأمر الواقع المهيمنة على البلاد مستعيناً بمثل شعبي «العين بصيرة واليد قصيرة يا بنتي». فما كان من سيدة بيننا إلا أن قاطعته ناهرة بأعلى صوتها «ولييييي! لشو إنت رئيس؟ استقيل، ليش ما بتستقيل إذا كنت مَنّك قادر تعمل شي تتساعدنا؟». فوجئ الرئيس بهذا الاستجواب غير المتوقّع، احمرّ وجهه، وقف، ودعّنا من دون غشاء العواطف الذي استقبلنا به، تمسّك بالوعد لكن مخففاً بعدما نطقت يداه!

«مجنونات دار الفتوى»

انتهى اللقاء مع الرئيس. بدأ لقاؤنا مع بعضنا في باحة السرايا قبل مغادرتها. تعارفنا بالأسماء، استعدنا بعض ما دار في الحوار مع الرئيس، ما صادفنا على مدار ساعات ذلك النهار الشاق والطويل. ببساطة استنتجنا أن ما جرى كان مهماً، ليس فقط على مستوى مقابلة رئيس الحكومة ووضع القضية على طاولة «مسؤولياته»، بل أن القمع الذي تعرّضنا له على أيدي عناصر الجيش والتعدّي على كراماتنا قد يساهم في إعلاء صوتنا، وربما في تسليط الضوء على ما هو أكبر من المأساة الشخصية لكل واحدة منا، على مآس إذا ما توحّدت تصبح قضية.

لذا قررّنا التلاقي مجدداً في الغد، ثم ما بعده ثم كل يوم حتى تحقيق عودة الأحبة. وكرّت سبحة اللقاءات والتحركات. درجنا على الانطلاق في معظم التحركات من «دار الفتوى». وقد لقّبنا أحد الصحافيين، لم أعد أتذكّر اسمه، بـ«مجنونات دار الفتوى» نسبة إلى «مجنونات ساحة مايو» في الأرجنتين.

لم نترك مسؤولاً إلّا قابلناه، وأحياناً بالقوة، أذكر على سبيل المثال يوم نجحتْ قدمي في منع السيد نبيه برّي من إغلاق باب بيته في وجهنا، وذلك عبر اسراعي في زركها داخله مما حال دون تحقيق هدفه، مما اضطره إلى الاعتذار واستقبالنا.

لم نترك باباً، ظننا أنه قد يساعدنا، إلا طرقناه، حتى أننا قابلنا قادة الميليشيات، وآباء بعضهم أحياناً. أذكر لقاءاتنا مع بيار الجميل الأب، كميل شمعون، وليد جنبلاط، نبيه برّي، إيلي حبيقة وغيرهم، مراهنين على بقايا ذرة إنسانية لديهم من أجل الإفراج عن أبنائنا أو عن معلومة تطمئننا إلى مصير شخص واحد منهم على الأقل.

صارت التظاهرات سلوكاً اعتيادياً يومياً. لم يعد يخيفنا رصاص القناصين، لم تعد تردعنا القذائف



العشوائية ولا السيارات المفخّخة، لم ننصع للتهديدات ولم نضعف أمام الاغراءات. كل يوم كنا نتعلم دروساً إضافية مما يصادفنا على أرض الواقع بدءاً من المخاطر الأمنية وصولاً إلى الوعود الكاذبة التي كان يكيلها لنا المسؤولون. عرفنا أن الدرب ليس سهلاً وليس آمناً. أن الدموع لا تحرّر مخطوفاً ولا تعثر على مفقود، وأنه حتى لو تداعينا إلى حفل بكاء جماعي، وسالت دموعنا أنهراً لا بد من الفعل لا الانفعال. تعلّمنا أن وحدتنا هي قوتنا، فنظمنا صفوفنا للمطالبة بعودة أحبائنا جميعاً دون تمييز بين مخطوف وآخر وبغض النظر عن هويات الجهات المسؤولة عن اختطافهم.

البصمة الوراثية (DNA) لنملة مجتهدة منذ ٣٢ سنة

بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ٢٠١٤، تبلغ لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان عامها الـ٣٢. اثنتان وثلاثون سنة، ولجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان، تشكّل الإطار شبه الوحيد الذي يجمع أشخاصاً من كل الطوائف، من كل المذاهب، من كل المناطق، من كل الفئات الاجتماعية، من كل الانتماءات الفكرية، العقائدية والسياسية، في بلد كان في حالة حرب وكان الانقسام ينخر كل مؤسساته وأجهزته وناسه، وما زال. في زمن كان الاختلاف فيه على أشدّه حتى داخل البيت الواحد. وقتها كانت شريعة الغاب هي السائدة، كان كل مختلف عدواً، وكل عدو ينبغي التخلص منه، تنبغي إبادته.

اثنتان وثلاثون سنة، واللجنة حملت خلالها قضيتها على أكتافها النحيلة، برَت نعالها في شوارع بيروت، نادراً ما مدّ لها أحد يد العون أو التضامن أو التكاتف. صمدت كل هذا الوقت دون تمويل وموازنة لا من الداخل ولا من الخارج الحكومي أو غير الحكومي. كيف؟ يُسأل اليوم. بحرقة جرحها وبقوة تصميمها. وهذه بعض من نتائجها المؤقتة.

لقد حافظت اللجنة على استقلاليتها واستقلالية القضية التي تحمل، على نقاوتها بمنأى عن كافة التجاذبات السياسية، الدينية والمالية. وقفت اللجنة سداً منيعاً أمام محاولات التوظيف أو الاستغلال. أجبرت دولة «راجع يتعمّر لبنان» على الاعتراف بالقضية وأحقيتها، وبحق الأهالي بمعرفة مصائر ذويهم من خلال حملة «من حقنا أن نعرف». وحصل ذلك خلال حكومة الرئيس سليم الحص عام ٢٠٠٠ من خلال تشكيل لجنة رسمية للاستقصاء عن جميع المخطوفين والمفقودين وتحديد مصيرهم. وبموجب التقرير الصادر عن تلك اللجنة الرسمية، أقرت الدولة، وللمرة الأولى، بوجود جرائم حرب، وبوجود مقابر جماعية في طول البلاد وعرضها.

وفي الرابع من آذار ٢٠١٤، حكم مجلس شورى الدولة بحق الأهالي في تسلّم نسخة عن كامل ملف التحقيقات التي أجرتها اللجنة الرسمية الآنف ذكرها دون «أي انتقاص أو تقييد أو استثناء». ثم بتاريخ ١١ حزيران ٢٠١٤ ردّ المجلس المذكور طلب إعادة المحاكمة ووقف تنفيذ الحكم، مؤكداً على حق أهالي المفقودين بمعرفة مصائر ذويهم، مشيراً إلى أن المماطلة بالتنفيذ تكون بمثابة استمرار في تعذيب هؤلاء الأهالي (يمكن الاطلاع على قراري مجلس شورى الدولة على الصفحة الالكترونية للمفكرة القانونية http://www.legal-agenda.com/studies.php?folder=studies&lang=ar). بذلك، ارتبطت أعلى سلطة قضائية إدارية بقضية المفقودين «إيجاباً». وهذا دعم مشكور ونحن بأمسّ الحاجة إليه قبل الوصول القريب إلى لجان المجلس النيابي للمشروع الذي تقدّمنا به مع لجنة «دعم المعتقلين والمنفيين اللبنانيين - سوليد» بعنوان «مشروع قانون الأشخاص المفقودين والمخفيين قسرا»، عندئذ يبدأ التحدي الكبير ونأمله الأخير.

قد يكون هناك من يعتبر أن ما تم تحقيقه «هزيل» أو «مقبول أو حتى «مهم»، لكنه لا يتوازن مع حجم معاناة الأهالي، ولا مع الجهد الذي بذُل، ولا مع السنوات التي انقضت. كلام مشروع، لا بل صحيح في حال أغفلنا من حسابنا - إنسوا نحالة ظهرنا! - سماكة الجدار الذي نُصب في مواجهة الأمهات والزوجات منذ بداية تحركهنّ وما زال، جدار محصّن بترسانة المصالح المطوّبة باسم الزعامات السياسية والطائفية والمذهبية التي يتقاسمونها على حساب مصلحة العباد والبلاد.. جدار مدعّم بخمود مجتمع، بمن فيه طليعيوه، يعنّ بدلاً من أن يغيّر، ويعلّق بدلاً من أن يعمل. كلام صحيح إذاً في حال تناسينا أننا في بلد اسمه لبنان. ولكن أعدكم أننا سنتابع المشوار مهما طال، وسنخرق هذا الجدار وهذه المصالح وهذا الخمود وهذا اللبنان!

لا يسعني سوق كل هذا الكلام من دون استذكار وجوه كل رفيقات هذا الدرب الطويل الذي فرض علينا سلوكه على مدار سنين من عمرنا دون خيار منا. رفيقات لولاهن، لولا مثابرتهن، صبرهن، عنادهن، وتمسكهن بحقهن، لما قامت القضية، ولما تقدّمت بخطى نملة مجتهدة.

وللحديث تتمة.

الثورة العربية وإشكاليات الدولة
نحو أمة غير قومية

الفضل شلق

مهندس وسياسي وكاتب من لبنان. عمل في الهندسة. وتولى عدة مناصب ادارية ووزارية. كتب في الطائفية والحرب الاهلية والعلمانية، والامة والدولة في العالم العربي، وعودة الاستعمار، وتجديد المشروع العربي، من مؤلفاته «تجربتي مع رفيق الحريري» (٢٠٠٦). اصدر مجلة «الاجتهاد»، وجريدة «المستقبل» وله عمود اسبوعي في جريدة «السفير».

في الثقافة: أمة غير قومية

يعتمد الكثير من أفكارنا وأيديولوجيتنا على تعريف الأمة. هل الأمة كيان ميتافيزيقي له تجليات على الأرض؟ هل الناس الذين يشكلون أمةً ما، هم في سلوكهم وتصرفاتهم انعكاس لكائن علوي، ذهني أو مادي؟ أم أن الأمة هي الناس الذين يعيشون سوية على مدى التاريخ فيشتركون في سمات لغوية واجتماعية وأنظمة حكم؟ أم هي ما يتشكل في إطار الدولة التي تعصى عليهم أحياناً. هل الأمة جوهر علوي لا يتطور، أم هي وجود بشري تاريخي في حركة تطور دائمة؟ وهل يصح الحديث عن أمة يمكن أن توجد قبل الدولة؟ بالتأكيد متغيرات الثقافة (الأمة) متواكبة مع تغيرات الدولة. تغيرات السياسة تؤدي إلى تغيرات الدولة. الثقافة هي تغيرات الناس. لكن الثقافة تتطور وتتجاوز نفسها، وتفرض تغيراتها على الدولة. لا تغيُّر في الثقافة إلا ويفرض نفسه على الدولة. وهل للثقافة جوهر ثابت أم أن الثقافة علاقات وتراكم أفكار وممارسات تتغير بتغيير الأزمان؟ وهل الثقافة، بما فيها اللغة، بعيدة عن أن تمليها الدولة أو السيطرة الخارجية؛ وتعيد تشكيلها؟ أليست التقاليد، في بعض منها، إعادة إنتاج مختلف عن الأصل؟ ألا تُخترع التقاليد أحياناً؛ مع إعادة كتابة التاريخ؟ هل الأمة إنتاج ثقافي أم هي شأن تمليه السلطة؟ وهل السلطة الوحيدة هي ما يمت إلى الدولة أم هي سلطة الفاعلين الاجتماعيين؟

أحدهم عرّف الثقافة بأنها كل ما نفعله ولا تفعله القرود. ما يميّز الإنسان هو الثقافة. يشكل الإنسان ثقافات مختلفة نتيجة تجارب في مناطق مختلفة ذات جغرافيات ونباتات وحيوانات وأتربة مختلفة. تختلف الزراعة وأدواتها في المناطق المختلفة. تختلف الأفكار عن الطبيعة والحياة المنتجة وغير المنتجة باختلاف المناطق وباختلاف الحياة فيها. لا بد من أن الحياة تختلف بين جيل وآخر، بين زمن وآخر. تختلف التجارب وبالتالي الممارسات، وبالتالي الأفكار. تتراكم هذه وتتشكل الثقافات والأيديولوجيات. الإطار لهذه جميعاً هو الثقافة. في التراكم الثقافي يتغير التاريخ وتتغير الجغرافيا. مع تطور التاريخ تتغير الجغرافيا وتصير علاقة اجتماعية. يصير التعاطي مع الطبيعة للإنتاج ولتفسير ظواهرها علاقة اجتماعية. العلاقة الاجتماعية بين الناس تحصل من التفاعل المتغير مع الجغرافيا المتغيرة، وإن بوتيرة أبطأ من التاريخ.

الثقافة «الواحدة» لا يمكن أن تكون كياناً متجانساً، هناك اختلافات داخل كل ثقافة أكثر مما بين الثقافات نفسها (ربما؟). والحروب عبر التاريخ داخل الثقافات لا تقلّ عما بين الثقافات. إذا اعتُبر الدين أساس الثقافة، فهناك أمم متعددة الأديان؛ وإذا اعتبرت اللغة أساس الثقافة فهنالك أمم - دول مختلفة ذات لغة واحدة؛ وهناك أمم - دول متعددة اللغات وما من أمة - دولة ذات لغة واحدة أو دين واحد إلا نادراً. أما العادات والتقاليد فهي تختلف من قرية إلى قرية أو من قضاء إلى قضاء.

الأمة - الدولة: ثقافة وسياسة

علينا اجتراح مفهوم للأمة يتناقض مع الثقافة. الأمة تجاوز للثقافة، تجاوز للماضي، صنع للمستقبل بما يوحّد سياسياً ما اختلف ثقافياً وجغرافياً وتاريخياً. مفهوم الأمة غير القومية يقتضي تطوير مفهوم أمة سياسية. بالسياسة نتجاوز الثقافة. لا يمكن لكل منا الادعاء أنه خارج ثقافته. الثقافة ذاكرة جماعية. لكن كلاً منا مضطر إلى صنع شيء جديد، إلى تمييز نفسه بصنع المستقبل، إلى تمييز نفسه بالإنجاز، مضطر إلى التقا م. التقدم لا يحصل باستدعاء أمجاد الماضي، أو مآسيه، بل بصنع مستقبل جديد.

مفهوم المغايرة يتطلب الاستمرارية. أنت عندما تعمّر بيتاً في قريتك، فإنك تنشئ بيتاً جديداً من صخور وحجارة موجودة. إعادة ترتيب ما هو موجود ليست استعادة لما هو موجود بل صنع شيء جديد. يضاف إلى ذلك الإبداع والإضافات إلى ما هو موجود. الاستنقاع في الثقافة لا يبني أمة. تجاوز الثقافة هو ما يبني أمة، هو ما يبني مجتمعاً سياسياً يسير على طريق أن يصير الدولة؛ والدولة تصير أمة. لا تنفصل السياسة عن مصير الأمة؛ لذلك يقال الأمة - الدولة لجمع مفهومي الثقافة والسياسة في تعبير

اضطر ميشيل عفلق إلى التحوّل من المسيحية إلى الإسلام لأن مفهوم القومية عنده يؤدي إلى تطابق الأمة والدين

واحد. الأمة للدلالة على الثقافة، والدولة للدلالة على السياسة. الأمة - الدولة تجاوز للثقافة، لكنها ليست تجاوزاً للسياسة، بل هي تؤدي إلى سياسة من نوع آخر. الأمة المستنقعة في الثقافة تقتصر فيها السياسة على الاكتفاء بما هو موجود؛ الصراع على ما هو موجود، الصراع على السلطة لاقتطاع فوائض الإنتاج. الأمة المتشكلة في دولة التجاوز والاختلاف عما مضى هي مجتمع الدولة الذي يضع للسياسة شروطاً جديدة من أجل تجاوز الماضي، وتجاوز الثقافة؛ الشروط الجديدة هي التقدم: الإبداع على صعيد الوعي والفكر، الإنتاج على صعيد الاقتصاد، التوحد على صعيد الدولة؛ التنوع على صعيد المجتمع، والتنوع أمر لا يمكن ولا يجب إلغاؤه.

لا تنس أن كلاً منا متعدد الهويات. الذات غير الروح، الذات الفردية غير الروح الفردية؛ الذات الجماعية غير الروح الجماعية. الذات تعبير عن الوجود، كما هو وكما يسعى لأن يكون؛ الروح تعبير ميتافيزيقي.

تسعى السلفية إلى العودة للماضي، يريد الإخوان المسلمون العيش في الثقافة (الدين)، اعتبر البعث أن القومية وجود علوي متسام يتجلى أحياناً في الأمة. اضطر ميشيل عفلق إلى التحول من المسيحية إلى الإسلام لأن مفهوم القومية عنده يؤدي إلى تطابق الأمة والدين. لم يعر السياسة (بمفهوم إدارة المجتمع، لا مجرد الصراع على السلطة) الاهتمام الكافي، بل لم يعرها أي اهتمام. انتهى حزب البعث إلى عدم توحيد سورية والعراق حين كان يحكمهما في وقت واحد. السياسة بالنسبة إليه كانت مجرد صراع على السلطة، وانتهى تطابق الدين مع الأمة. فشل البعث في الأيديولوجية، كما فشل الإخوان المسلمون في الدين وكما فشل السلفيون في فهم التاريخ.

لا بد من أن يكون التاريخ غير الماضي (هو تجاوز)، ولا بد من أن يكون الدين غير المجتمع (هو فردي)، ولا بد من أن تكون الأيديولوجيا مؤدية إلى غير الماضي وإلى غير الدين. لا بدّ من أن يكون الوعي وعياً للتجاوز والإنجاز والتجديد. لا بد من أن يكون الوعي سياسياً بمعنى صنع المستقبل. لا يمكن صنع المستقبل كما كان عليه الماضي. المستقبل انقطاع مع التاريخ وليس استمراراً له. لا يكون الاستمرار إلا بالانقطاع؛ لا تتعلم بالاستنساخ بل بالإبداع. إن تبدع هو أن تكون ذاتك غير روحك، غير ما كنت عليه. أن تكون ذاتك متحولة متغيرة.

يختصر مفهوم التنمية أحياناً بالنمو الاقتصادي. الأمة غير القومية هي أمة تنموية، شرط أن تشمل التنمية جوانب الوعي والتفكير والسياسة والعلاقات الاجتماعية والدينية؛ شرط أن تشمل المجتمع بكل جوانبه.

التنمية ثورة. هي ثورة تخلق إبداعات في جميع جوانب المجتمع. أنتج العرب ثورة موحدة في عام ٢٠١١، وما قبل وما بعده. بالثورة الواحدة أكدت الأمة وحدتها. وهي تنادي لأن تصبح الثورة تنمية. تنادي نخبها لرسم طريق التنمية الشاملة، التطور الشامل، التجاوز الشامل. الثورة محكومة بالفشل إن لم تتحول إلى تنمية وتطور وتجاوز؛ إلى تجديد في الوعي وإلى سياسة التجديد، وإلى تجاوز الثقافة. لا معنى للثقافة إذا لم نتجاوزها. إما أن تكون الثقافة تحولاً دائماً أو تفقد معناها وتصير تخلفاً. لا معنى للثقافة إذا لم تتحول إلى ثورة دائمة، متجسدة في الدولة لا في السلطة وحسب.

يفرض المشترَك العربي نفسه، ليس هذا المشترك أكثر من اللغة. ومن أجل تحديد أكثر دقة، هي اللغة الفصحى. لكن حتى اللهجات تختلف بين قطر وقطر عربي آخر؛ وداخل كل قطر؛ بين حيّز جغرافي وآخر. صحيح أن اللغة تتشكل من رموز، وأنها ترتبط بالقرآن والدين، لكنها قبل كل شيء، وبعد كل شيء هي قاعدة التواصل والتفاهم بين العرب. الفصحى أنشأتها الدولة في وقت من الأوقات، لكنها هي الأساس لكل هوية عربية. اللغة غير الدين. هي القاعدة التي يؤسّس الكيان (Polity) عليها. الدين سقف يضغط على المجتمع من السماء. اللغة أرض، والدين سقف. والثورة تستدعي رفع السقوف لكنها لا تستطيع الاستغناء عن الأرض. قواعد البناء هي في اللغة. لا يمكن البناء والتشييد تحت

سقوف ضاغطة، وإلا يكون البناء قليل الارتفاع متدني التطور تحت سقف الدين.

هناك ضرورة لتأسيس هوية جديدة؛ أمة بمفاهيم جديدة؛ أمة بغير المفاهيم الموروثة عن الغرب وقومياته الفاشية أو الديمقراطية، وبغير المفاهيم الموروثة من تاريخنا. لكي تؤسس هذه المفاهيم هوية جديدة عليها أن تكون صاعدة من الأرض لا هابطة من السماء، خصوصاً إذا كانت السماء متدنية الارتفاع.

هوية اللغة وهوية الدين

بين هوية موروثة عن طريق الدين وهوية مصنوعة على أساس اللغة، نختار الثانية. بين أمة عربية وإسلامية، نختار العربية. الأمة هوية تصنع بالسياسة. لا نرضى بهوية معطاة بالوراثة. نريد هوية نصنعها نحن، هوية تتماهى مع المستقبل. عندما نصنع مستقبلنا، نصنع هويتنا الجديدة. حينذاك تكون الهوية مشروعاً للمستقبل، مشروعاً سياسياً. أصل السياسة هو أن نتعلم العيش معاً. الهوية المعطاة تمزقنا إلى أكثرية

لا يستقيم أمر الديمقراطية من دون تدمير الوسيط. كان مرسي الطاغية، ومنتخباً شرعياً، لكنه كان طاغية بسبب الوساطة التي تولاها هو وجماعته، بين الناس والله. بإلغاء هذه الوساطة يتحول الدين إلى علاقة بين الفرد والله، يتوقف الآلهة الصغار عن ممارسة دور الوساطة بل يختفي دورهم.

لكون العرب يعرفون اللغة، ولكون لغة القرآن متقاربة مع اللغة الفصحى، فإنهم لا يحتاجون إلى من يترجم لهم النص المقدس، لا يحتاجون إلى وساطة رجال الدين. يستطيعون تطبيق «لا إكليروس في الإسلام». الدراسات الدينية لا تعطي أصحابها سلطة، الأزهر جامعة كغيره. المدارس الدينية ليست بؤراً دينية لتفريخ بؤر سياسية وغيرها. برامجها تقررها الدولة. وعلى متخرجيها العمل كغيرهم. ليست الدعوة مهنة ولا المشيخة نخبة. عليهم أن يساهموا في إنتاج الفائض الاقتصادي كمواطنين، وأن يمارسوا السياسة كمواطنين، لا كنخبة تدّعي النطق باسم المتعالي. لا يحق لهم النطق باسم من لا ينطق. يفسرون النص المقدس ولا ينطقون باسمه.

بين هوية موروثة عن طريق الدين وهوية مصنوعة على أساس اللغة، نختار الثانية. بين أمة عربية وإسلامية، نختار العربية. الأمة هوية تصنع بالسياسة. لا نرضى بهوية معطاة بالوراثة. نريد هوية نصنعها نحن، هوية تتماهى مع المستقبل

وأكثرية وأقليات، إلى إثنيات قومية ودينية. السياسة تعلمنا كيف يكون الكردي كردياً عربياً، والأمازيغي أمازيغياً عربياً، وتعملنا كيف يكون العربي تعددياً؛ تعدد الفرد في ذاته. بالتعددية السياسية نتوحد، بالسياسة كمشروع للمستقبل المشترك نتوحّد؛ بالتعددية الثقافية، سواء كانت اثنية أو دينية يتمزق مجتمعنا (مجتمعاتنا) ويتحول (تتحول) إلى أشلاء. التاريخ يمزقنا، المستقبل يوحدنا. الثقافة مفهوم للتجزئة. السياسة مشروع للوحدة شرط أن تكون الوحدة فيدرالية، وأن تتمتع الأقطار بكل الاستقلال الذاتي، كي تكون معبرة عن إرادة سكانها لا بعض تجليات السماء. أمة التجلي قومياً تقود حتماً نحو الديكتاتورية. الذي يتجلى يحتاج إلى من يمثله في التجلي، ومن يمثله يحصل على السلطة العليا على الناس. يصير هو الواسطة بين الناس وبين المتسامي. الطاغية، سواء كان دينياً أو غيره، يزعم دائماً أنه الوسيط بين الناس والله. لذلك

يتأسس المشترك كمشروع سياسي يلغي المقولات العليا القومية والدينية، ويمارَسُ في السياسة كحركة جماهير. مشروع يمثل الناس بعُجَرهم وبُجَرهم، بأديانهم وقومياتهم وإثنياتهم من دون شروط مسبقة، سوى الأخذ بالاعتبار أن المشترك هو اللغة العربية الفصحى بكونها لغة التواصل والتفاهم بين عدد كبير من الناس. في هذا المجتمع هناك أولوية للاقتصاد (وقضايا الناس اليومية) على الأيديولوجيا الدينية والقومية. انتهى عهد الأيديولوجيا، لكن عهد اليوتوبيا لا يمكن أن ينتهي. اليوتوبيا هي حلم إنساني بمجتمع تعاوني، مجتمع يغلب فيه تعاوني، مجتمع يغلب فيه التعاون على التنافس والقتل والحرب، مجتمع قوي يعرف كيف يستخدم موارده ولا يكون مستتبعاً للغرب وشركائه المحليين أو الشركات العابرة للقارات. ولا يكون ذلك إلا في إطار دولة عربية واحدة فيدرالية، دولة صاعدة من تحت وليست هابطة من فوق من سماء الأيديولوجيا الدينية أو القومية.

دولة الدول

الدولة الفيدرالية ليست الدولة بحد ذاتها بل هي دولة الدول. الدولة الواقعية هي الدولة الحالية، الدولة القطرية. لكنها يجب أن تتطور وتحقق شرط أن تصير دولة تعبر عن الناس، تستمد شرعيتها منهم لا من صندوق الانتخابات وحسب، كما لا من الأيديولوجيات الدينية أو القومية. هي دولة الأقليات التي تصير أكثريات، هي دولة الأكثريات التي تصير أكثريات بانتمائها للذات الفردية لا بهوية الجماعة. هي دولة الفرد. الفرد في هذه الدولة العليا هو الأقدس. كل ما يعطيه هوية أقلية أو أكثرية يصبح بحكم الملغى. هي دولة للفرد. المواجهة فيها بين الدولة والفرد من دون وسيط اجتماعي متشكل من طوائف وإثنيات أو غير ذلك. الله قد خلق الإنسان على صورته، لكن شرعية الناس هي شريعة الله. شريعة الله تحتاج إلى تفسير وتأصيل وقوننة كي تصير شريعة الإنسان التي يفوضونها للدولة. لا تكون الدولة شرعية إلا عندما تستمدها من الناس يومياً. وليس بشكل متقطع كل أربع أو بضع سنوات حيث تكسب الانتخابات وتمارس العشوائية، عشوائية الطغيان ما بين الانتخابات. السياسة هي مصدر الشرعية، وهي عملية دائمة. السياسة المتقطعة تقود حتماً إلى الطغيان وتمنع تداول السلطة إلا شكلياً. السياسة الحقيقية هي إدارة شؤون المجتمع، وهذا شأن يومي ومستمر؛ نقاش دائم؛ حوار دائم، همٌّ أساسي هو شؤون الناس اليومية. بذلك تكون السياسة محلية في الأساس، كما يجب أن تكون.

الدولة إطار ناظم للمجتمع، وليست مجرد سلطة على الناس. السلطة الضرورية للعقاب. العقاب للحالات النافرة (الإجرام) لكن ذلك ليس الشأن الدائم للسلطة، وإلا تحولت إلى طغيان ديكتاتوري. الدولة الأمنية والقضائية لا يمكن أن تكون ديمقراطية.

هناك ضرورة للفصل بين الدولة والسلطة، وعلى السلطة أن ترجع دائماً لمبادئ الدولة. الدولة حدود جغرافية زائد فكرة، هي الدستور. الدستور بضع مواد تعنى بالتعاون البشري. ما فاض عن ذلك من شؤون لا يعالج بالدستور بل بالسياسة هي نقيض سلطة الطغيان والديكتاتورية. السياسة هي الديمقراطية الحقيقية. التناقض بين الطغيان والديمقراطية هو في الحقيقة بين الطغيان والسياسة.

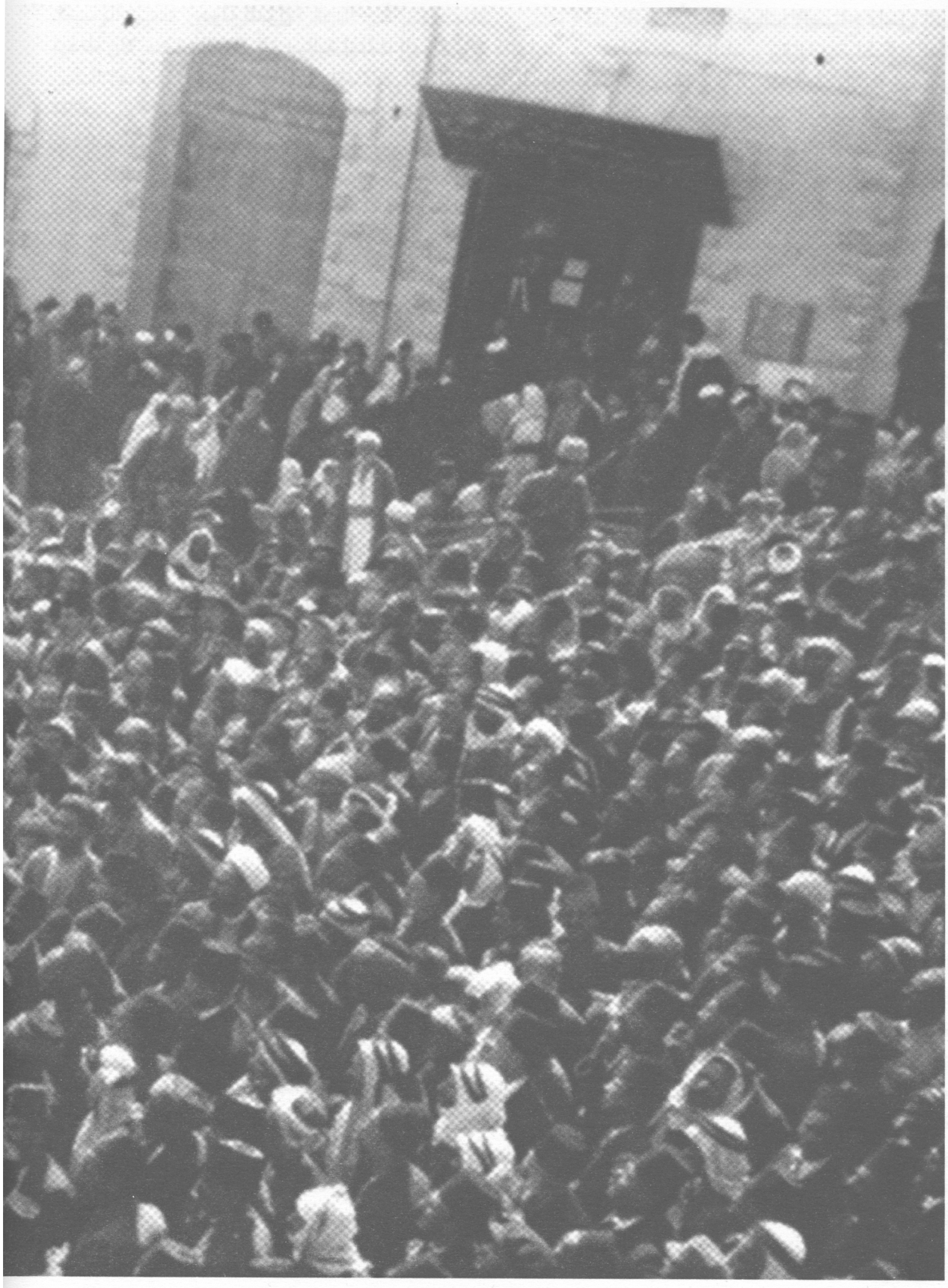
شرط الأحزاب أن تتصارع من أجل السلطة، لكن صراعها يكون في الدولة لا على الدولة. الصراع على الدولة يأخذ الدولة ودستورها إلى مكان آخر إلى فضاء الأيديولوجيات؛ الصراع داخل الدولة يبقيها في إطار حياة الناس، يبقيها ديمقراطية. بذلك تقود الديمقراطية إلى الحرية لا إلى طغيان الأيديولوجيات والمقولات وأصحابها.

بعد ثورات التحرر الوطني، عقب الحرب العالمية الثانية، خرج الاستعمار بمعنى الاحتلال، وبقيت الامبريالية بمعنى الاستتباع، بقيت تمسك بلادنا من رقابها بواسطة أيديولوجية الدين والقومية عن طريق دمج أيديولوجيا هؤلاء وهؤلاء في الإمبريالية. وهذه جعلتها بعض أدواتها. لا تتعلّق المسألة بالعمالة الاستخباراتية وحسب بل بالمناخ الفكري والأيديولوجي لأصحاب المقولات. هؤلاء اعتبروا أنفسهم سلطة عليا تندمج في سلطة العالم الإمبريالية. سلطة تندمج في السلطة العالمية. رأوا شيئاً طبيعياً أن يندمجوا في السلطة العالمية. أصحاب السلطة يألفون بعضهم في البعد عن الناس ومشاكلهم الحقيقية. قضايا السلطة في جميع أنحاء العالم مشتركة. هذا هو مشترك الإمبريالية في العالم. تناقضه مشتركات الناس. المشترك العربي مناقض بطبيعته للإمبريالية لكونه يتعلق بالناس وقضاياهم اليومية. عبد الناصر لم يأبه لصندوق الانتخابات بل لقضايا الناس فكان أكثر ديمقراطية، ومجتمعه أكثر حرية. الذين قاموا بالانفصال (البعث والإخوان المسلمون) كان همهم السلطة لا الدولة، السلطة كجزء من السلطة العالمية وليس الدولة كتعبير عن الناس. والناس كانوا يعرفون ذلك، ولكن لم يكن بيدهم حيلة فاستسلموا. من ناحية أخرى، كان على دولة الوحدة أن تكون وحدة دولتين لا وحدة مجتمعين. وهذا خطأ عبد الناصر. كان عليها أن تكون وحدة فيدرالية محلية الأساس. جرى التعدي على المحلي، فسهل القضاء على الوحدة.

القومي والمحلي

غربة الدولة عن المحلي هي غربة عن المجتمع، وذلك هو أساس الاستبداد. تتحلق النخب الثقافية والسياسية والاقتصادية حول السلطة؛ تتغرب مثلها. تصير الدولة مجرد سلطة في غربتها عن المجتمع وتحصل لديها مناعة ضد المجتمع. الاستبداد ليس مؤامرة ضد المجتمع وحسب (وربما كان كذلك أيضاً) بل هو في الأساس انفصال الدولة عن المجتمع، وكل انفصال عن المجتمع يؤدي إلى تحالف مع الغرب.

العرب مجتمع (مجتمعات) من دون دولة، ودولة (دول) من دون مجتمع. لا تنتمي الدولة إلى المجتمع لأنها فاقدة الشرعية. لا تحصل الشرعية إلا عند إحراز





رضى الناس. الدولة القطرية بدت غريبة على الناس منذ البداية. ودولة الوحدة تبدو بعيدة المنال. يقبع هذا التناقض في أساس الإحباط الذي يعانيه الناس. تاريخ العرب الحديث هو تاريخ ثورات وانتفاضات وهو تاريخ ثورات مضادة في الوقت ذاته. في كل مرة تحدث ثورة عربية، تعيد الإمبريالية تشكيل نفسها، وتعيد تشكل المجتمع. بالطبع، تعاونها طبقات محلية ترى مصلحتها في تأييد الراهن وإعاقة المستقبل. وإذا استخدمت التجارب التاريخية من أجل الاستفادة من عبَرها، فإنها تستخدمها بتأكيد الراهن على أنه نتيجة حتمية لما مضى. عندما يستخدم الماضي لتأكيد الراهن وتفسير المستقبل فإن الإرادة تصير استحالة والشرعية تصبح أمراً صعباً. الدولة القطرية لا تاريخ لها، ولّما تتقادم بعد لتصير عقداً اجتماعياً. أما دولة الوحدة فإنها تبدو بعيدة المنال. تحدث الثورة وتدور حول نفسها. تنتهي إلى صراع حول السلطة. تنجز الثورة مهامها بتدمير المؤسسات القائمة. بالطبع تنشأ مؤسسات جديدة مكانها؛ مؤسسات ليست بالضرورة أقل انحيازاً طبقياً ولا أكثر عدالة. لكن الثورة لا تحقق نفسها عندما تكون عوداً على بدء. ليس سهلاً قبول الرأي القائل أن ثورات الغرب لولبية الصعود بينما ثورات الشرق دائرية. ليس الغرب غرباً ولا الشرق شرقاً؛ ليس لأي منهما جوهر قائم بذاته. التمييز بينهما لا يعود إلى جوهر الثقافات بل إلى الظروف التاريخية وخصوصاً ما يتعلق منها بالشرعية.

الدولة القطرية بطبيعتها دولة فاشلة منذ تأسيسها. هي فاشلة لأنها فاقدة الشرعية. وهي فاقدة الشرعية لأنها مدانة منذ بدايتها. يرى الناس أنها حصيلة مؤامرة امبريالية. لذلك يكثر الحديث عن سايكس / بيكو. الدولة المصرية أو المغاربية تأثرت بهذا المناخ وإن بدرجة أقل؛ لكنها كانت أكثر استقراراً لأنها أقل انفعالاً تجاه سايكس / بيكو.

لكن الدولة العربية على العموم لم تدخل في وعي الناس إلا بشكل سلبي. هذه السلبية عند المجتمع تجاه دولته هي ما يقرر الشرعية، وهي ما يقرر ضرورة تغيير المؤسسات عند حدوث الثورة. من دون تغيير المؤسسات يصعب القضاء على الهيمنة الإمبريالية حيث بقيت هذه المؤسسات القائمة منذ ما قبل الاستقلال. قوبلت مؤسسات الدولة بالسلبية والإدانة، فاعتبرت الثورة أنه ليس مهماً تدميرها. بقيت المؤسسات الموروثة منذ نهاية الاستعمار قائمة. لم تدخل في وعي الناس منذ البداية. وما دخل في وعي الناس وجوب تغييرها.

العجز أمام الله يعود إلى العجز أمام السلطة؛ عجز يفترضه سطاء الدين والثقافة هو ما يعود إلى الاستسلام لمشيئة غير إنسانية. تنتصر مشيئة الآخرين (الإمبريالية أو إسرائيل)

الدولة الامنية

ساهم الخطر الإسرائيلي في بقاء الدولة العربية (القطرية) سلطة أمنية. هذه السلطة ما كانت يوماً مهتمة بالتنمية، سوى في عهد عبد الناصر، وانعدام التنمية ساهم في انعدام شرعية الدولة، وفي غياب ضرورة الدولة عن الوعي العربي، وعي النخب الثقافية والسياسية بذاتها وبدورها في مجتمعها. بقيت الدولة كياناً دخيلاً. وسادت فكرة سيادة المجتمع على نفسه. وهذه الفكرة بالضبط هي ما أتاح انتشار الإسلام السياسي: الإسلام هو الحل؛ لا الدولة هي الحل. ليست الدولة لديهم من صنع البشر؛ هي الوسيط بينهم وبين الله. يقف البشر عاجزين أمام أنفسهم وأمام الغير؛ ومن الطبيعي، أو الضروري، أن يكون الإنسان عاجزاً تجاه الله. الشعور بالعجز بداية الانهزام؛ يجرّ إلى الهزيمة. الهزيمة تجر إلى هزائم. والهزائم متعددة على الصعد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بالإضافة إلى الهزائم العسكرية. العجز أمام الله يقود إلى العجز أمام السلطة؛ عجز يفترضه وسطاء الدين والثقافة هو ما يقود إلى الاستسلام لمشيئة غير إنسانية. تنتصر مشيئة الآخرين (الإمبريالية أو إسرائيل).

لن تزول الدولة القطرية قريباً؛ ربما لن تزول أبداً. حتى لو تحققت الوحدة العربية، وهذا أمل يعجز العرب عن تحقيقه على المدى المنظور، فإن الدولة القطرية ستبقى في دولة الوحدة؛ وستكون قوانينها ومؤسساتها باقية في الدولة الموحدة. لا يستطيع الوحدويون العرب تجاهل الدولة القطرية في سعيهم إلى الوحدة. إهمالهم للدولة القطرية أدّى إلى إهمالهم للدولة، كل دولة؛ وإلى إهمال الدولة بذاتها ولذاتها. لا تستطيع أن تكون الدولة إلا بذاتها ولذاتها. السلطة تعمل لخدمة الناس، موجودة من أجل الناس، موجودة لغيرها. أما الدولة فهي موجودة بالناس من أجل أنفسهم. تنشأ الدولة بالغلبة أو بالصدفة؛ لكنها لا تصير دولة بالفعل إلا عندما تصبح عقداً اجتماعياً مع مرور الزمن. لن تكون الدولة الوحدوية إلا شريحة مضافة فوق الدولة (الدول) القطرية. لن تحل الدولة الوحدوية، في حال حدوثها، مكان الدول القطرية، بل ستكون مضافة إليها. سيرورة الوحدة تبدأ ببناء الدولة القطرية، بترسيخ التجزئة. يبدو الأمر متناقضاً. يحل التناقض بالتسوية بين طرفين: واقع التجزئة والدولة القطرية من ناحية ومشاعرنا القومية من ناحية أخرى. نعيد القول أن الأمة ليست قومية،

ليست كياناً بدائياً، بل هي حصيلة عمل سياسي. لن تتحقق كحصيلة لتطور اجتماعي موضوعي بل تتحقق بالعمل السياسي الإرادوي؛ بالإرادة المطابقة لمشاعرنا. هذه الإرادة متناقضة مع الواقع. الواقع هو ما سوف تصنعه إرادتنا. الإنسان ابن الطبيعة لكنه يصنعها أيضاً.

أزمة وعي الدولة

إن أزمة الوعي العربي في الزمن الراهن هي أزمة وعيهم بالدولة. بين دولة واقعية مرفوضة، ودولة مأموله لكنها بعيدة المنال، يجد العربي نفسه في فراغ فكري (أيديولوجي، عقيدي، ديني، سياسي) يجد نفسه محبطاً يائساً، فاقد الأمل. مضى القرن العشرون ولم يحقق العربي شيئاً: بل هزائم عسكرية، وتراجعياً اقتصادياً ومجتمعاً استهلاكياً قائماً على فتات إيرادات النفط.

دول النفط هي الدول المؤثّرة، هي الدول التي تصوغ الأفكار السائدة. تصدّر بفضل أموال النفط فكراً مأزوماً إلى شرق آسيا وتستورد إسلاماً مأزوماً إلى جميع البلدان العربية وتنشره لتستفيد منه سياسياً وليشكل الأساس الذي يبني عليه المستشرقون نظرياتهم لجعل الإسلام جوهراً ثقافياً متطرفاً إرهابياً وغير عقلاني، إلخ. تبعهم في ذلك كثرة من المثقفين العرب.

المعركة الكبرى بين التنمية والاستهلاك، بين الإسلام العقلاني والإسلام الإرهابي، بين المسلمين في دول واقعية والمسلمين الذين لا دولة لهم إلا الأمة، هذه المعركة انتهت في ١٩٧٠ بعد موت عبد الناصر، لتتجدد الآن. انتقل غزل السادات مع الإخوان المسلمين إلى جعلهم جزءاً من النظام في مصر وسورية والعراق والسعودية واليمن وغيرها من البلدان من المغرب العربي.

الأممية الإسلامية التي نشأت لم تكن تلزمها دول. عندها الأمة. تحوّل تعبير الأمة إلى مفهوم خطير يهدد كل دولة، ويهدد كل وعي بالدولة. أحتاج إلى ثورة من أجل اقتلاعه، وأحتاج إلى ثورة مضادة لإعادة تشكيل الامبراطورية والقضاء على الدولة، والثورة لمّا تنته بعد.

معظم دول النفط شعوبها قليلة العدد. أممية لا تحتاج إلى شعوب. تحتاج إلى أيديولوجيات وحسب، أممية تملي أزماتها على العالم الإسلامي برمّته. أيديولوجيا تتأسس عليها أزمات الوعي العربي والإسلامي.

ليست المسألة هي التخلف أو التقدم ولا الحداثة أو التأخر. فرضت الإمبريالية حداثتها. في مجتمعات النفط تجاوزت إلى ما بعد الحداثة. هي مسألة دين مأزوم غاضب محبط. هو غير تاريخه. هذا الدين المأزوم ليس إشكالية دينية بل حصيلة تطور نفطي. إذا كان كل مجتمع تلزمه دولة فإنّ دولته قائمة في الغرب؛ دولة امبراطورية تدير شؤون الدولة النفطية؛ أممية إسلامية تحتقر مجتمعاتها؛ الاحتقار مبرر، ما دام النصيب في الجنة موعوداً، والله قد أنعم عليهم بالثروة (دون غيرهم). لم تجد الإمبريالية في تاريخها شعوباً وحكاماً أكثر إسلاماً واستسلاماً لها. هم جزء من الإمبريالية في سياستهم وتطلعاتهم. ليسوا مجرد عملاء. هم جزء من كيان جوهره الاحتقار. يحتقرهم الغرب، ويحتقرون شعوبهم.

أممية ودول سلطانية

أوجدوا نموذجاً للدولة هو الخلافة، نموذجاً لم يكن موجوداً منذ أكثر من ألف عام. المسلمون وضعوا الدولة السلطانية مكان الخلافة ونظروا لهذه الأخيرة خلال التاريخ. فرض الإسلام السياسي تطبيق الشريعة على كل دولة؛ فكأن الشريعة نزلت للتطبيق وليست مجرد خلفية ذهنية للمسلمين؛ وكأن المسلمين لم يكونوا مسلمين يطبّقون الشريعة بخلفيتهم الذهنية قبل طرح الشعار. هم الذين كانوا أداة الإمبريالية في منع قيام الدولة، فضلاً عن قيام الدولة الحديثة، في منعهم وضع دستور متعارف عليه. دولهم الإسلامية (السعودية وباكستان) لا تزال من دون دستور فكأنها دول صهيونية إسلامية (إسرائيل ليس لها دستور مكتوب).

إضعاف مفهوم الدولة أو إلغاؤه، هو المفهوم الأساسي للنيوليبرالية. لذلك عندما وصلوا إلى الحكم في مصر كانت سياستهم الاقتصادية والاجتماعية هي سياسة الخصخصة والسوق الحرة من دون الحاجة إلى دولة؛ دولة لم تكن موجودة في الأساس، دولة لم يعملوا لإيجادها.

حربهم على العروبة هي ضد قيام الدولة العربية الواحدة؛ ومعنى ذلك وجود مجتمعات من دون دولة، أو بالأحرى قيام دولة ضعيفة. ضعف المجتمع هو نتيجة ضعف الدولة. ضعف الدولة هو ما يؤدي إلى سلسلة الهزائم: أمام إسرائيل والإمبريالية. التبعية للإمبريالية حصيلة أكيدة لضعف الدولة. تنتج من الأممية الإسلامية تبعية بنيوية للإمبريالية.

لا يمكن فهم الوضع العربي على أساس ثنائيات التقدم والتأخر، التخلف والحداثة، الدين والعلمانية، بل على أساس التبعية للإمبريالية؛ وهي تبعية بنيوية. معنى ذلك أن معركة التحرر الوطني أو القومي لم

تنته. لا تزال حرب التحرر القومي قائمة، لا بسبب وجود إسرائيل وحسب، بل بسبب كون أممية الإسلام السياسي جزءاً من الأممية الإمبريالية.

الإمبريالية هي المفهوم المفتاح لفهم الإسلام السياسي والدولة في البلدان العربية. يصعب، بل يستحيل فهم الوضع العربي من دون هذا المفهوم. ويصعب فهم الثورة المضادة من دون هذا المفهوم أيضاً.

المجتمع وما بعد إيديولوجيا النفط

يتشكل المجتمع العربي من مجتمعات؛ تتنوع المجتمعات في داخلها بتنوع العادات والتقاليد والأساليب. التنوع داخل كل مجتمع هو السمة البارزة. يتوحد العرب في اللغة وفي التطلعات المشتركة. بإمكان العرب أن يتوحدوا بالسياسة، لا لأنهم مجتمع واحد في بُناه وطبقاته وفئاته الاجتماعية، بل لأن الناس يريدون (إذا أرادوا) أن يكونوا، أو يصيروا، أمة واحدة. أمة متنوعة تجمعها وحدة سياسية ووحدة دول؛ وحدة ذات مكوّنات الدول الحالية لا الطوائف أو الإثنيات.

السؤال «هل يمكن العيش معاً؟» يطرح في أمم - دول موحّدة، حتى التي تكون الأكثر اندماجاً وانسجاماً داخلياً من دون تنوّع إثني أو طائفي. يحتاج العرب إلى هذا السؤال، وإلى الجواب عليه، أكثر من غيرهم. الكلام عن الأمة محفوف بالمخاطر الفكرية والأيديولوجية. الأمة لا توجد إلا في دولة. على العرب أن يجتمعوا في إمكانية قيام الأمة - الدولة، لا افتراض أن الأمة موجودة وقائمة. الأمة غير موجودة بالفعل، وهي لن توجد إلا بوجود الأمة الدولة. الكلام عن الأمة وحسب يفيد الأممية الإسلامية، أو البعث الانفصالي (ساهم في الانفصال على أساس أن الأمة موجودة محفوظة حتى ولو حدث الانفصال).

قيل عن المجتمع العربي إنه متخلف، لكنه أنتج ثورة شعارها «عيش، حرية، كرامة، عدالة اجتماعية». قيل عن المجتمع العربي إنه إسلامي الهوى والهدف، وإنه لا يعرف إلا الخلط بين الدين والسياسة، لكنه أسقط الإسلام السياسي. وقيل إنه بؤرة للتطرف، وقيل إنه منبع للإرهاب، وقيل إن هذا هو جوهر ثقافته. وقيل إنه مجتمع لم يعرف يوماً سوى السلطة الأبوية والعشائرية والقبلية؛ وإنه لا يعرف إلا الخضوع للسلطة؛ وإنه لا يستحق سوى سلطة تقمعه. قيل إنه ليس مجتمع الصناعة والزراعة، ولا يقيم وزناً إلا للتجارة، لكنها تجارة الخداع والاحتيال.

استبيح المجتمع، تآكل وعيه وتهمش، أصبح الوجه الآخر لرؤية الإمبريالية عنه، صار مرآة الاستشراق، فَقَدَ اعتباره لنفسه، خضع لدونية ادّعت اكتشافها أبحاث الاستشراق والأنثروبولوجيا والدراسات الاستراتيجية حول المناطق. دخل في وعي النخب الثقافية والسياسية أنها هي ومجتمعها كما يصفها الغرب: هما شرقيان متجوهران كما وصفهما الغرب، كما أراد الغرب هندستهما عن طريق الاستشراق.

ساهم في ذلك النفط ومفاعيله. مردود مالي ينتج من نشاط شركات أجنبية عابرة للقارات. لا دور للعربي سوى في المفاوضات (الاحتيالات) لتقرير أسعار سلعة النفط. يوزع مردود النفط على المجتمع بشكل غير متكافئ. رغم كثرة المردود المالي نسبياً إلا أن نسبة البطالة تبقى عالية حتى في البلدان المصدّرة للنفط، وربما أعلى في البلدان النفطية من البلدان العربية غير النفطية. المهم أن موارد النفط تستخدم للاستهلاك. لا استثمار حقيقياً. مجتمع استهلاكي من دون إنتاج. تغيب قيم العمل والسعي والبذل والنشاط وتتراخى قيم الاعتزاز بالذات حيال مجتمع كل قيمه سطحية ذات بُعد واحد، بُعد استهلاكي.

موارد النفط تستخدم للاستهلاك.
لا استثمار حقيقياً.
مجتمع استهلاكي دون إنتاج.
تغيب قيم العمل والسعي
والبذل والنشاط
وتتراخى قيم الاعتزاز بالذات

الصحراء لا تنتج. جرى تصحير مزيد من الأراضي العربية كي لا يكون هناك مجال لعودة الزراعة. الاستثمار في الصناعة هامشي. قطاع البناء والتشييد هو وحده القطاع المزدهر، وبجانبه القطاع المالي لتقديم الخدمات المالية للاستهلاك. مارس المجتمع تجاه نفسه دونية ليست أقل من الدونية الثقافية التي فرضتها عليه الإمبريالية. مارس استشراقاً معاكساً. استوعب، بل دخلَنَ، العلاقات الاجتماعية التي بشّر بها الاستشراق والإمبريالية. وليس أدل على ذلك من تحويل الصحراء من علاقات اجتماعية إلى علاقات طبيعية بيئية. كما لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال صحراء الطبيعة، فإنك تعجز عن تحويل العلاقات الاجتماعية المتصحرة. مجتمع يعتمد على ما في باطن الأرض من دون عمل، وعلى أيديولوجيا السماء بانتظار منّتها وما تجود به من ثواب الإيمان؛ مجتمع خواء فارغ المحتوى والقيم. شعار

«الإسلام هو الحل»، هو المقابل لمجتمع استهلاكي فاقد القيم. الإسلام هو الحل: النعيم بعد الموت حكم على المجتمع كي يموت قبل أن يعيش في نعيم الآخرة.

أمام ضغط الإمبريالية من الخارج، أحاط المجتمع نفسه بغلاف واق من الداخل: أصولية إسلامية وقومية (كل منها نشأ في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات؛ وأخذ من سفالات الفكر الغربي الفاشي). لكن الشعب ثار من الداخل؛ تهدم الهيكل. لم تعد المؤسسات القائمة صالحة. حاولت الثورة المضادة ملء الفراغ بعدّتها القديمة. هي أيضاً ساهمت في الفراغ. تسيّس الشعب، صار للجمهور إرادة؛ لكن ليس لها ما يقابلها على صعيد السلطة وبناء الدولة. ينفجر الوضع من الداخل، ولا مؤسسات تحتوي الانفجار. الصراع في مصر يملأه العسكر والشرطة حتى إشعار آخر، قبل أن تأتي موجة أخرى من الثورة، إذا أتت. أما الصراع في سورية فتملأه الحرب الأهلية. في تونس وغيرها يستمر الصراع؛ لا تتجه الأمور في الأرجاء العربية نحو الاستقرار؛ يتشاءم الكثيرون، وكأن في الأمر خواءً فكرياً. هل هو خواء ثقافي أم سياسي؟ وهل إفلاس النظام القديم (الراهن) أو إفلاس نظام جديد في طور الظهور وليس الاستقرار باعثاً على التساؤل والشك وابتداع طريق جديد للمعرفة والوعي؟

عدّة شغل جديدة للثورة

كل ذلك يحتاج إلى مواجهة: مواجهة التيارات الأصولية كما مواجهة التيارات القومية الفاشية لإنتاج فكر جديد يتناسب مع المرحلة الجديدة. لا يمكن مواجهة الثورة المضادة إلا ببرنامج فكري تصوغه النخب وتعمل على نشره والنضال تحت رايته؛ برنامج ما بعد الثورة لا ما قبلها.

انفجر المجتمع من الداخل، عدة شغل الثورة لا بد أن تكون من خارج المجتمع القديم، ومن خارج السلطة القائمة. ثورة تواجه الداخل والخارج. إلحاق الهزيمة بالخارج يعتمد على إعادة ترتيب البيت الداخلي. مراجعة الخواء هي المهمة الأولى؛ وهي عمل ثقافي يتعلق بالوعي والإدراك. تحولت جماهيرنا إلى السياسة؛ أصبحت إرادة. على النخب الثقافية أن تصوغ برنامجاً، بالأحرى نظرية، لهذه الإرادة. المشكلة ليست في الممارسة بل في النظرية. اجتراح نظرية للثورة وللمجتمع الجديد الذي تحول إلى السياسة بعدما كسر حاجز الخوف. العيش يتطلب تنمية، والكرامة تتطلب عدالة في التوزيع، وذلك يتطلب كسر وتدمير المؤسسات القائمة، السياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية.

الثورة مراجعة على الذات، تتطلب مواجهة مع الذات، مع الثقافة السائدة، مع الوعي المهمّش. مطلوب تحويل الوعي المهمش البائس اليائس إلى ما يتناسب مع الإرادة المتفائلة. وذلك لا يكون إلا عن طريق التنمية. والتنمية تحتاج إلى مواجهة مع إسرائيل ومع الإمبريالية، علماً بأن الواحدة منهما تجر إلى الأخرى. القوة لا تكون بقرقعة السلاح وحسب.

هناك بعض من الشوفينية المصرية: مصر حضارة قديمة. ربما كانت هذه الشوفينية ضرورية للخروج من الدونية الثقافية والأخلاقية. مصر لا يمكن أن تبقى ضمن حدودها. تحيط بها صحراء من الغرب وأخرى من الشرق، لكن النيل هبة لمصر ينبع من الخارج؛ المجال العربي أكثر ضرورة مما مضى لمصر. والخروج إلى المجال الأفريقي أو المجال العربي يتطلب حكماً مواجهة مع اتفاق كامب ديفيد ومفاعيله التي عزلت مصر. والمواجهة مع الإخوان المسلمين تتطلب مواجهة أخرى مع العسكر. يواجه العسكر الأصولية الدينية بأصولية وطنية مصرية لا تقل خطراً.

انكسر حاجز الخوف من السلطات الاستبدادية الدينية والقومية والعسكرية، والمطلوب الانتقال من حالة انكسار الخوف إلى مجتمع العمل والإنتاج والسعي. بالعمل والإنتاج نكتسب القوة، وبهذه القوة نواجه إسرائيل. في مجتمع سويّ منتج ليس صعباً استيعاب خمسة ملايين يهودي من مجتمع عربي يفوق الثلاثمئة مليون. ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. المفاهيم حول القوة تتغير.

لا أمل إلا بالتصنيع وزيادة الإنتاج الزراعي. وكل منهما يتطلب إعادة هيكلة الاقتصاد على أسس جديدة تزج كل قوى العمل في السعي والإنتاج. لا يمكن البقاء على انتظار المساعدات، سواء كانت عربية أو عالمية. المساعدات تبقي مصر عالة على غيرها. العمل والإنتاج يجعلان مصر دولة قوية ومحركة للمنطقة العربية وغيرها. النهوض العربي يحتاج إلى مصر، لكنها هي الأخرى تحتاج إلى العرب.

على السياسة ألّا تبقى مقتصرة على التنافس من أجل السلطة. عليها أن تعمل على تغيير البنى التحتية، تغيير وسائل الإنتاج وقوى الإنتاج وأساليب الإنتاج والتوزيع... لا تصبح مصر والأمة العربية قويتين من دون ذلك. السياسة في الأصل هي فن إدارة المجتمع، لا مجرد الصراع على السلطة.

ليس المطلوب تغيير ما في النفوس، لأن ما في النفوس لا يتعارض مع التنمية بل يطالب بها. المطلوب زعزعة علاقات الإنتاج القائمة وتدميرها. الاهتمام بالدستور أمر ضروري من أجل ضمان بقاء العقد الاجتماعي. يصوغ الدستور بضعة أشخاص مستنيرون، لكن العمل الأكثر جذرية يتعلق بقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. في مجتمع تنتشر فيه البطالة المبرمجة، والعشوائيات التي ترعاها السلطة، لا حل إلا عن طريق الإنتاج وإعادة هيكلته بالاعتماد على القوى المحلية.

النقاش حول طبيعة الدولة سوف يستمر طويلاً، حتى بعد إقرار الدستور. وفي إطالة هذا النقاش حجب لأولوية الإنتاج وقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. لا تزال القيود على الإنتاج منذ كامب ديفيد، والأمل معقود على فكفكة هذه البنى التي وضعت أساساً لتكبيل مصر والأمة العربية. والأمر يتعلق بالتصنيع، بجميع أشكاله، وبالزراعة في كل مجالاتها، بالأجور على جميع المستويات؛ إيجاد فرص عمل للجميع في جميع المجالات المنتجة، دمج العشوائيات في المدن والأرياف. والعشوائيات هي الأمكنة التي تتعشش فيها النيورأسمالية والأصوليات في آن معاً. هي تجمعات سكانية لا ريفية ولا مدينية، هي المجتمع الذي أجبر على أن يكون خارج ذاته. تتمسك بها الرأسمالية بإبقائها على هامش المجتمع كي تستمد منها الأيدي العاملة الرخيصة. في مصر وحدها أكثر من ٤٨٠ عشوائية سكنية.

بالعمل والإنتاج تصير الدولة كائناً محلياً، تفقد غربتها. وتصير النخب الثقافية محلية، تتوجه أعينها وأفكارها إلى الداخل لا إلى تقليد الخارج والموضات التي ينتجها. بالعمل والإنتاج يعاد ربط المجتمع بعضه ببعض ولا يبقى مشلعاً مفكك الأواصر.

النخبة وما بعد الإحباط

ليس صدفة أن نظام الإخوان المسلمين (الإسلام السياسي) سقط في مصر بعد عام من تسلّمه السلطة، وأن نظام البعث (القومية العربية) سقط في سورية والعراق بعد ثلاثين أو أربعين عاماً من تسلّمه السلطة. الأول أسقطته ثورة شعبية لعب فيها العسكر دوراً كبيراً أو صغيراً. الثاني أسقطه أو يكاد يسقطه الاحتلال الأجنبي الإمبريالي. الأول جهاد برضى الإمبريالية، والثاني جهاد بالرغم عنها، وحاز رضاها لاحقاً.

بعد هذه الملاحظات، وقبلها، علينا الاحتراز من القول أو إبداء الرأي بشأن شعبية أي منهما. لم يكن أي منهما أقل ارتباطاً بالإمبريالية حين الصعود أو حين النزول. ولا يغيب عن البال قول أحد قادة البعث، الذين ساهموا في تسلّم السلطة في العراق عام ١٩٦٣ أنه «لم نكن ندري في حينه أننا جئنا إلى السلطة بعربة تجرّها خيول أميركية». ما دامت الإمبريالية تلعب الدور الأكبر في تقرير مسار البلدان العربية بعد الاستقلال فنحن لا ندري، أكثر مما ندري، من له المساهمة الكبرى في تسلم السلطة حينذاك. تشابهت الأمور علينا؛ «تكاثر الذباب على خراش فما يدري خراشه ما يصيد»؛ جميعها أنظمة مدانة، والمأزق العربي أن أياً منا يميل إلى إدانة نظام أكثر من الآخر سوف يكون بدوره أكثر تعرضاً للإدانة. لكن المسألة ليست وجهة نظر وحسب.

يبقى السؤال هو: لماذا كانت، ولا تزال، الفكرة الإسلامية السياسية أكثر هشاشة لدى الشعوب العربية من الفكرة العربية؟ المبالغة هنا هي في استخدام كلمة فكرة. لا الدين الإسلامي فكرة، ولا العروبة فكرة.

خان البعث عروبته واحتمى بالقطرية. أهان الإخوان المسلمون العرب في دينهم واحتموا بالأممية الإسلامية. كل منهما حاول ابتزاز شعبه؛ واحد باسم الإسلام، وواحد باسم العروبة. استطاع البعث أن يبتز شعبه لمدة ثلاثين أو أربعين عاماً في كل من سورية والعراق. أما الإخوان المسلمون فإنهم لم يستطيعوا ابتزاز شعبهم وهم في السلطة لأكثر من عام واحد. يمكن ابتزاز الشعوب العربية بالدين ويستحيل ابتزازها بالسياسة. ربما كان السبب أن العروبة هي موضوع السياسة، في حين يصعب أن يصير الإسلام موضوع السياسة. هو موضوع ديني وحسب.

القومية، الإسلام السياسي، الأممية العمالية

في العقود الماضية، جرى تشويش الوعي العربي بين قومية عربية ذات مرجع ميتافيزيقي، وبين إسلام سياسي مرجعه ادعاء الحلول مكان الذات الإلهية، وبين طبقة عاملة مرجعها أممية اجتماعية كان وجودها مستحيلاً. نشأت هذه الأمميات الثلاث في عشرينيات القرن العشرين؛ وجميعها تأسست على إلغاء السياسة؛ وجميعها كانت فاشية؛ وجميعها أدت إلى قطع اتصال النخبة العربية بشعبها (أو شعوبها) العربي، عن قصد أو غير قصد. وليس في الأمر محاكمة النوايا.

قبل تأسيس هذه الحركات الثلاث، كان المجتمع العربي يعيش تطوراً في حالة تقدم مطردة اقتصادياً وسياسياً

واجتماعياً. كان المجتمع من دون أحقاد على الإنسانية، من ودون معاداة ثقافية للغرب، وكان يعدّ نفسه جزءاً من التطور الإنساني. وكانت السياسة تتطور، حتى في أواخر العهد العثماني وفي عصر الانتداب والاستعمار، باتجاه أن يؤخذ رأي الناس بعين الاعتبار. وكانت القوانين العثمانية والاستعمارية، تسن باتجاه مزيد من الحرية للناس وأعراضهم وأملاكهم ومعتقداتهم. وكان الشعب العربي قوة يؤبه لها؛ ولم يستطع البريطانيون المضي في تطبيق وعد بلفور، ولم يجرؤ الأميركيون على إعلان دعمهم له رغم قرار الكونغرس في ١٩٢٤؛ وأنيطت السياسة الإمبريالية القاضية بإنشاء دولة إسرائيل بالفرنسيين الذين لم يتخلوا يوماً عن حمقهم بالرغم من دعاوى «الحرية والمساواة والإخاء». ساهمت الحركات الإسلامية في قطع صلة السياسة بالناس، وأحالت السياسة إلى مرجع غير بشري أو فوق إنساني. والأكثر من ذلك أن هذه الحركات الثلاث أحدثت قطيعة بين التطور التاريخي لما سمي «عصر النهضة» وما بني عليه لاحقاً ومنذ الثلاثينيات من وهابية وستالينية عربية وقومية فاشية.

نتيجة كل ذلك، أنه بالرغم من اكتشافات النفط، ومزاعم أصحابها الأيديولوجيين والسياسيين والثقافيين والماليين، هي أن النمو الاقتصادي في القرن العشرين كان معدله السنوي أدنى مما في القرن التاسع عشر. ومن الطبيعي أن يتدنى الإنتاج حين يرى الناس انهم أداة بيد غيرهم، وحين تتحول القيمة من كونها نتيجة العمل الإنساني إلى كونها ناتجة من مصدر غير إنساني. في مجتمع يجرّد من كونه مصدر القيمة الاقتصادية، ومصدر كل القيم الأخرى، يصير الاستبداد حتمية تاريخية. وفي مجتمع يجرد من كونه مصدر القيمة والقيم الأخلاقية يصير الاستتباع لقوى خارجية هو القيمة الوحيدة المكنة.

في مجتمع يجرد من كونه مصدر القيمة الاقتصادية، ومصدر كل القيم الأخرى، يصير الاستبداد حتمية تاريخية. وفي مجتمع يجرد من كونه مصدر القيمة والقيم الأخلاقية يصير الاستتباع لقوى خارجية هو القيمة الوحيدة المكنة

يقودنا كل ذلك إلى تلمس، أو محاولة تلمس، مهام النخبة العربية في هذه المرحلة. نقطة البداية هي الإقرار بأن النخبة الثقافية (فضلاً عن السياسية) لم تكن مهيأة لهذا الزلزال العظيم المتجسّد في الثورة العربية، ثورة ٢٠١١، وما قبلها وما بعدها. لم تكن النخب العربية مهيأة بسبب ذلك الانقطاع الحاد الذي حدث من الثلاثينيات من القرن العشرين، بين الأمة وتاريخها، بين الأمة وواقعها، وبين الأمة ومستقبلها، بين الأمة ودولها. ليس تاريخ الأمة هو الاستسلام للسلف الصالح؛ وما السلف الصالح ألا تهويمة أيديولوجية؛ وليس واقع الأمة أن تستسلم لقوة غير إنسانية، مهما كانت؛ والقوة غير الإنسانية هي بالضبط الوحشية الإمبريالية مقرونة بوحشية التسامي التي تدّعي تمثيله السلفية السائدة. وليس مستقبل الأمة الاستسلام لقيم غير إنسانية مهما كانت ادعاءات الفاشية والإسلام السياسي والأمميات الأخرى، الأمميات غير الإنسانية. الأممية ادعاء أيديولوجي. والإنسانية وجود بشري.

ما يبنى عليه هو الوجود البشري. الوجود البشري العربي يمكن أن يبني ويؤسس على اللغة، لا لشيء إلا لأن اللغة وسيلة تواصل، وهي متاحة للعرب بما لا يتاح لغيرهم؛ ولأن اللغة بريئة إلى درجة كبيرة من الانحيازات والتحايلات الأيديولوجية. لا يمكن البناء تحت سقف الأيديولوجية الدينية التي تضغط على الوجود البشري وتقزّمه. يمكن البناء على قاعدة اللغة، التواصل الإنساني، المحررة أصلاً من كل السقوف والضواغط، لكن اللغة قيمة سلبية بمعنى الحياد.

ويمكن البناء على قاعدة القيمة الإنسانية الأكيدة وهي العمل والسعي والإنتاج، وليس الإنتاج مسألة اقتصادية وحسب، بل هو مصدر تحقيق الإنسان لذاته، هو مصدر للاعتزاز؛ هو إعلان سيطرة الإنسان على مصيره وتحويل الطبيعة ومواردها إلى ما يفيد؛ بالأحرى إنتاج الطبيعة.

التنمية ليست مسألة اقتصادية وحسب، بل هي أيضاً سياسية واقتصادية وثقافية، تتعلق بكل نواحي المجتمع. المجتمع القوي المتماسك هو مجتمع التنمية. الدولة القوية هي دولة مجتمع التنمية. تبدأ التنمية بالقرار، والقرار يتخذ في نظام ديمقراطي أو غير ديمقراطي. والانتقال من مجتمع متخلف إلى مجتمع متقدم، على الصعيد الإنتاجي، لا يتطلب أكثر من ١٠ إلى ١٥ سنة، كما تشير تجارب دول شرقي آسيا.

والدولة التنموية ليست دولة اقتصاد مجرد، اقتصاد مبتذل، بل هي دولة الاقتصاد السياسي، دولة الإرادة، والثورة إرادة؛ بالثورة يتحول الشعب إلى إرادة. عشوائية الثورة أمر محتوم. هي عشوائية لأنها تمثل آراء وإرادات متنوعة متناقضة وذات مستويات مختلفة. وهي ثورة لأنها تحدث بما هو غير متوقع؛ من دون برنامج مسبق، أي من دون قيود. القيود موانع للحرية، عقبات في وجه التحرر. البرنامج تعداد لرغبات نخبة تهدف إلى السيطرة على المجتمع. وكل ذلك يحتم على النخبة التي تتنطح لوضع برنامج للثورة أن تميز بين الرغبات والوقائع الحقيقية، بين الحقيقة والاعتقاد، بين الاعتقاد والإيمان، بين الإيمان وإرادة الفعل. أسوأ أنواع الاعتقاد والإيمان والحقيقة هو ما لا يقترن بالعمل السياسي والقدرة على التسوية. والتسوية فيها تخلّ عن الرغبات والحقيقة والمبادئ. هي ليست فقط الاعتراف بالآخر؛ هي قبل كل شيء الاعتراف بالذات على أنها غير الحقيقة كاملة. بمقدار ما نقر بتنوع أو بتعددية الذات، فإننا نقر بأن



الذات ليست مطلقة، ليست إلهاً، ليست ما يمتلك الحقيقة. هي فقط سعي من أجل الحقيقة. والسعي محفوف بالأوهام. ومن يلج طريق الأوهام له أجر واحد؛ أما من يجتاز الأوهام إلى ما يعتقد أنه الحقيقة فله أجران.

إعادة الاعتبار للسياسة

يمكننا سرد تاريخ الأمة في القرنين الأخيرين على أنه ثورة متواصلة أو متقطعة من محمد علي إلى عبد القادر الجزائري إلى عبد الكريم الخطابي إلى عبد الناصر مروراً بعرابي ومهدي السودان إلى المقاومة الفلسطينية إلى المقاومة الإسلامية في لبنان. ثورات تحرر وطني، توحدت أقطار في مواجهة الإمبريالية. نراها الآن غير قابلة للتوحد كما كان في العراق بعد ثورة ١٩٢٠، وسورية في الثلاثينيات وصولاً إلى وحدة اليمنيين. وتشتت بعد الثورة المضادة أو الاحتلال.

يفصل بين القرنين وعد بلفور وسايكس بيكو وظهور الدولة القطرية. وعد بلفور أنتج دولة إسرائيل. سايكس بيكو أنتج الدولة القطرية. إسرائيل تعني النكبة أو الهزيمة. الدولة القطرية تعني فقدان شرعية الدولة؛ كلاهما يعني أن الأمة العربية، إن وُجدت، فهي لا دولة لها. أمة من دون دولة، دول من دون شرعية، وهذا في أساس أزمة الوعي العربي: الوعي بالأمة يفوق بكثير الوعي بضرورة الدولة.

قبل وعد بلفور وسايكس بيكو كان الوعي متفائلاً. من الشيخ حسن العطار إلى رفاعة الطهطاوي إلى جمال الدين الأفغاني إلى محمد عبده مروراً بابن باديس إلى خير الدين التونسي وصولاً إلى علال الفاسي، لم يكن العرب يجدون حداً بين ثقافتهم والثقافة العالمية، وإن مرت عليهم قرون بؤس توجت بالعبء العثماني. رغم ذلك كانت الحلول تعتبر في متناول اليد. ولا تقف الثقافة حائلاً بيننا وبين النهوض. كانت النهضة تعتبر فعل إرادة أي مسألة سياسية.

بعد وعد بلفور وسايكس بيكو صار الوعي متشائماً. اعترانا نوع من الدونية. صرنا نرى المشكلة في ثقافتنا. اعتبرنا أن النهضة تحتاج إلى إصلاح في الثقافة والدين. رأينا شعوبنا مدانة «بالفقر والجهل والمرض»؛ ظهرت القومية الفاشية والإسلام السياسي وتجاوب يسارنا مع الستالينية. اعتبرنا أننا بحاجة إلى هندسة اجتماعية. يعاد إنتاج المجتمع على مقاس النخب العسكرية والسياسية. تُوج هذا التطور بعقود غير مسبوقة من الاستبداد في أواخر القرن العشرين. التركيز على الثقافة أدّى إلى أن يستعاض عن الجمهور بالطاغية.



نحن أمة من دون دولة، ودول بغير الأمة: دول قطرية فاقدة الشرعية، وبالتالي هي مضطرة إلى الاعتماد على الخارج، إلى التبعية للامبريالية التي لا ترى في المنطقة العربية سوى الصحراء والنفط. الصحراء غير منتجة (أو هكذا يظنون)، والنفط ينتجه آخرون. انعكس ذلك في الوهابية ومجتمع استهلاكي من دون إنتاج. صار العمل قيمة ثانوية، وما عاد هو أساس «العمران» كما عند ابن خلدون. أوامر تأتي من السماء (أو من أرض السلطة الإمبريالية)، وريع مستمدّ مما يخرج من باطن الأرض. بين السماء وباطن الأرض لا أهمية لمن يعيش على سطح الأرض. تحولت الشعوب العربية إلى كمّ مهمل.

أعادت الثورة العربية الاعتبار للسياسة. في تعبير الأمة - الدولة صارت الأولوية للمسائل المتعلقة بالدولة والسلطة والجمهور. حاول الإسلام السياسي مصادرة السياسة (والدولة) عن طريق شعار «الإسلام هو الحل» الذي أعاد الأولوية للأمة على حساب الدولة والوطن. سقط الإسلام السياسي وما كان ممكناً أن يسقط إلا على أيدي العرب الذين لا يحتاجون إلى وساطة بينهم وبين السماء. والسماء هي في متناول أفهامهم. ليسوا بحاجة إلى ترجمة القرآن وإلى طبقة وسيطة تقوم بهذه الترجمة.

كتب الكثير عن «الشخصية العربية» وعن «العقل العربي» وعن «الخطاب العربي» وكأن هناك وحدة في الثقافة لأمة تعوزها الوحدة السياسية وعجز عن تحقيق الدولة. لكن المشترك داخل الثقافة يمكن أن يكون حاوياً اختلافات أكثر مما بين الثقافات المختلفة. إن ما يحتاج إلى التوحيد هو السياسة؛ الشعوب العربية موحّدة في اتجاهاتها ومواقفها السياسية. شعوب المغرب قاتلت في فلسطين قتالاً يزيد شراسة عن غيرها. ما يجمع الشعوب العربية هو اللغة والسياسة، هو الرغبة في أن نكون معاً.

أما الحداثة.. لقد فرضت السيطرة الإمبريالية حداثتها في جميع أنحاء الوطن العربي. هي حداثة مجتمع استهلاكي؛ حداثة متخلفة. الحداثة التقدمية شيء آخر، هي التي يمكن إحرازها في مواجهة الإمبريالية. التنافس داخل الأمة العربية ليس بين الحداثة وبين التخلف بل هو بين الأمة والسياسة من ناحية والإمبريالية من ناحية أخرى. مجتمع استهلاكي يصير فيه نزع السياسة، وبالتالي علوّ شأن الاستبداد؛ اتكالاً على النفط وتحويلاته، وبالتالي توسع الإسلام السياسي وعزوفاً عن العمل والإنتاج. هي حداثة في استخدام سيارات وأدوات تقنية أنتجها الغير ولا تعبّر عن حاجات محلية، بالأحرى لا تعبّر عن حاجات تكون تلبيتها بعملنا وسعينا.

حدثت الثورة العربية في شتى أنحاء الوطن العربي في وقت واحد، انكسر حاجز الخوف. معنى ذلك أن الناس صاروا أحراراً؛ قبضوا على مصيرهم. ما يحدث من تطورات وتقلبات سريعة هو نتيجة هذه التقلبات. التغيير لدى الناس أهم بكثير من التغييرات لدى السلطة. لا شك في أنه ستأتي سلطة أو سلطات ظالمة كسابقاتها، لكنها لن تكون قادرة على القمع والتبعية كسابقاتها. تغير الخطاب السياسي العربي لدى الجماهير ولدى السلطات.

العرب موحّدون في وجدانهم وثقافتهم أكثر مما هم موحّدون سياسياً. وهم يدركون حقائق لا تدركها نخبهم حول الوحدة. وحدة الشعوب متحققة. لكن ما استحال على التحقيق هو وحدة الدول. شعار الثورة هو عيش، حرية، عدالة اجتماعية، وذلك يتعلق بالكرامة الإنسانية وعدالة التوزيع والعمل لخلق اقتصاد إنتاج لا اقتصاد مساعدات. عنوان ذلك هو التحرر الفردي، وقد حدث. هذه هي حداثتنا التي نواجه بها حداثة فرضتها الإمبريالية.

المواجهة بيننا وبين الإسلام السياسي ليست بيننا وبين الإسلام. معظمنا مسلمون ومن أهل السنة والجماعة. نعتبر الإسلام السياسي تعدياً على إسلام الجمهور؛ بدعة غريبة عن مجتمعاتنا. فصل الدين عن السياسة مطلب جماهيري. من الطبيعي أن يفكر كل منا بخلفية إسلامية لا بغيرها. التحول إلى دين مدني لا يضير الإسلام، بل يضير الإسلام السياسي. والدين المدني دين فردي بطبيعة الحال. وذلك يستدعي إلغاء الكثير من الطقوس الاجتماعية للدين؛ ووضع الدين في عهدة الدولة، هكذا كان الأمر عبر العصور.

المسألة ليست هي تجديد الثقافة أو إصلاحها. هي كما هي؛ تطور تاريخي. في كل عمل سياسي، تنموي أو غير تنموي، النضال الثوري يتجاوز الثقافة باتجاه صنع المستقبل؛ والقبض على المصير وتحقيق ثقافة جديدة. الثقافة تراكم والحداثة تراكم. المهم هو التجاوز، تجاوز المعطى وتجاوز الثقافة وجعل الهوية مشروعاً سياسياً لا مفروضاً بأوهام والتاريخ. نصنع التاريخ بمقدار ما نقبض على المصير.

المواجهة بين التخلف والتقدم ليست ثقافية بل سياسية، ليست استخدام الثقافة الموروثة لتبرير التجديد، بل بناء ثقافة جديدة يكون فيها الوعي المطابق هو الأساس؛ الوعي المطابق لحاجات مجتمعاتنا ومطالبها. الوعي لا يكون إلا تاريخياً كي يكون جدياً. الوعي التاريخي يأخذ التاريخ والتراث بعين الاعتبار لكن عينه تبقى على المستقبل.

الطبقات الاجتماعية في لبنان ٢/٢
الطبقات والطوائف: تقاطع وفعل متبادل

فواز طرابلسي
كاتب وأستاذ جامعي من لبنان

٤. العلاقة بين الطائفي والطبقي

في العام ١٩٧٤، كتب كلود دوبار مساهمة بالفرنسية بعنوان «البنية الطائفية والطبقات الاجتماعية في لبنان» (دوبار: ١٩٧٤، ٣٠١-٣٢٨) عرض فيها نتائج الأبحاث التي أجراها منذ سنوات مع زميله سليم نصر والتي صدرت العام ١٩٧٦ بعنوان «الطبقات الاجتماعية في لبنان» (نصر ودوبار: ١٩٨٢).

يتعرّض دوبار في المقالة الى الإشكالية النظرية عن العلاقة بين الطوائف والطبقات. وإذ يستبعد كل تحليل يختزل ميكانيكياً كل الظواهر الاجتماعية الى الصراع بين الطبقات، يقول بوجوب الاعتراف بالوجود المتزامن في البنية الاجتماعية اللبنانية لبُنيتين، بنية سياسية - طوائفية، يعرّفها على أنها «مجموع المواقع والعلاقات الرمزية التي توحّد الجماعات الاثنية الدينية المختلفة (خصوصاً المسيحيين والمسلمين) وبُنية طبقية تتكوّن من المواقع والعلاقات الاجتماعية الناجمة عن نظام اقتصادي معيّن.

بناءً عليه، يدعو الكاتب الى قطيعة مزدوجة: قطيعة مع المثالية الثقافوية التي تنكر كل فاعلية للقاعدة الاجتماعية، وقطيعة مع المادية الميكانيكية التي تنكر كل استقلال لـ«العلاقات الاجتماعية التقليدية» (دوبار: ١٩٧٤، ٣١٢) هكذا يعيّن دوبار منهجه (المشترك مع نصر) على أنه البحث عن الكيفية التي تمكّن هذه البنية من العلاقات الاقتصادية، في تحديدها الممارسات الاجتماعية للأفراد، من أن تعدّل من بنية العلاقات الرمزية التي تنتظم أولاً وفق منطق طائفي لا يمكن اختزاله الى علاقات اقتصادية فعلية» (دوبار: ١٩٧٤، ٣١٣).

لقد أبانت العيّنة التي درسها نصر ودوبار مدى التقاطع بين التمييز (والامتياز) الطائفي والتمييز (والامتياز) الاجتماعي الطبقي. فقد شكّل المسيحيون، والموارنة خصوصاً، أكثرية في الطبقات العليا والمتوسطة، فيما شكّل المسلمون، وخصوصاً الشيعة، الأكثرية في الطبقات الشعبية المدينية منها والريفية. وشددت الدراسة على التفاوت في فرص التعليم بما هي أبرز مظاهر التمييز الطوائفي - الاجتماعي حيث إن ٦٠٪ من المسلمين في العيّنة لم يتمّوا المرحلة الابتدائية، فيما النسبة لا تتعدى الـ ٢٨٪ عند المسيحيين. وعكساً، في حين أتمّ ٣٤٪ من المسيحيين المرحلة الثانوية فإن ١٥٪ فقط من المسلمين كان قد أتمها. (دوبار: ١٩٧٤، ٣١٩-٣٢٤). على أن هذه الفروقات في الامتياز التعليمي - الاجتماعي لا تقتصر على التفاوت بين المسيحيين والمسلمين بما هما جماعتان طائفيتان، ذلك أن التفاوت الإسلامي - المسيحي في فرص التعليم قائم ضمن الطبقات الوسطى بين مسلمين ومسيحيين أيضاً.

بعد الشغل على مقياسين آخرين يقسمان الطبقات على أساس طائفي - المواقف المتباينة من العروبة ومن النظرة الى المسألتين الطائفية والطبقية - يخلص دوبار الى «أن الانقطاع الظاهر بين الحيّز السياسي والحيّز الاقتصادي في تشغيل المجتمع اللبناني ناتج من تفصل مزدوج: تفصل الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية على الانتماءات الطوائفية من جهة، وتفصل العلاقات الطوائفية على المؤسسات السياسية من جهة أخرى. إن البنية الطوائفية تشكل إذاً مستوى وسيطاً بين الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية والوقائع السياسية، مستوى قد يفيد بما هو حاجز أمام الترجمة السياسية للمطالب الاقتصادية قدر ما هو حافز مضخّم لها (...) وهكذا فإن الذين يراكمون الاستغلال الاقتصادي مع الحرمان الطوائفي، يتمكنون من إدراك الجذور

السياسية للاستغلال والحرمان، فـ«يتعزز [الشعور بـ] الحرمان الاقتصادي مع مطالب «المشاركة الطوائفية»». (دوبار: ١٩٧٤، ٣٢٧-٣٢٨).

غير أن هذا الانفصام في حياة اللبنانيين الاجتماعية على أساس «ازدواجي» لا يسمح للوعي الاجتماعي المتذرر بأن يخلي المجال أمام وعي سياسي مستقل. وهذا ما يفسّر «تماسك الطبقات القائدة في ما يتعدى الحيّز الطوائفي وتذرّر الطبقات الشعبية في ما دون الحيّز السياسي - الطوائفي». ويخلص دوبار الى خلاصة غامضة تقول «إن مكان الطوائفية في الوعي الاجتماعي يمثّل إذاً وأخيراً مؤشراً جيّداً لأشكال التضامن الطبقية» (دوبار: ١٩٧٤، ٣٢٨)

بُنيتان

الميزة الكبرى لمساهمة دوبار - نصر أنها تعترف بوجود بُنيتين في المجتمع اللبناني: بنية طبقية وبنية طائفية، مع أنها مضطربة في تعيينها العلاقة بين السياسي والاقتصادي وبين الطائفي والطبقي. فدوبار لا يزال يحيل الطوائف الى حيّز السياسة والرمز والوعي. والطبقات الى الحيز الاقتصادي. وهذا هو ترجيع للفكرة الطاغية عند اليسار والحركة الوطنية في السبعينيات التي أحالت الطائفية الى عالم الايديولوجية (بما هي «وعي زائف») أو حَصَرتها في «البناء الفوقي شبه الإقطاعي» مع التأكيد على أن «التناقض الرئيسي»، المفجّر للحرب الأهلية، هو ذاك بين التطور الاقتصادي للبنية التحتية وتخلّف البنية الفوقية (الإقطاعية، الطائفية، الخ.).

يروي دوبار - نصر هذه الثنائية على طريقتهما حين يشددان على أن «الانقطاع الظاهر بين الحيز السياسي والحيز الاقتصادي في تشغيل المجتمع اللبناني ناتج من تمفصل مزدوج: «تمفصل الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية على الانتماءات الطوائفية، من جهة، وتمفصل العلاقات الطوائفية على المؤسسات السياسية من جهة أخرى». حقيقة الأمر أن هذا التمفصل المزدوج لا يزال يقف على قدم واحدة لأنه يغفل تمفصل العلاقات الطبقية على السلطة والمؤسسات السياسية والدولة.

فلنتدرّج في استكشاف علاقات التمفصل المزدوجة هذه.

الطائفية والدين

لا يمكن فصل الطوائف عن الدين بحجة أنها مؤسسات سياسية أو من قبيل تبرئة الديانات من أقوال أبناء الطوائف وأفعالهم، على اعتبارها نقيضاً لـ«روح» الديان التي يُفترَض أنها منفتحة، سمحة، قائمة على الحب ونابذة للعنف. ليس لأن هذا التمييز ليس قائماً، بل لسبب آخر هو أن المبدأ التعريفي والتمييزي لمذهب أو طائفة، هو تعريف الجماعة المعنية بالمبدأ الأول الذي يبرر وجودها المستقل والمتمايز ليس فقط عن سائر الديانات والمذاهب بل عن سائر الجماعات (الإثنيات، القبائل، الأسر، الجندر، الخ.) وهو انتماؤها الى ديانة مشتركة أو الى مذهب مشترك في تلك الديانة. في أقل تقدير، يمكن القول إن الطائفة «جماعة ذات تخوم دينية»، حسب تعبير مكسيم رودنسون الحاذق. وهي تخوم محروسة بالتحريمات الانثروبولوجية التي تمنع الانتقال من ديانة الى اخرى ومن مذهب الى آخر ومن الزيجات المختلطة.

كيانات مركّبة

وثمة مقولة أخرى تعيّن الطوائف بما هي كيانات «مركّبة» constructed أو «متخيّلة»، استلهاماً لكتاب بنديكت أندرسن عن القومية بعنوان «الجماعات المتخيلة» (اندرسن، ١٩٩١) وأحياناً كثيرة لا يتعدّى الاستلهام حدود عنوان الكتاب. لنشدّد على أن ما عناه اندرسن بالجماعة «المتخيلة»، ليس انتماءها الى عالم ذهني أو خيالي، بل حقيقة أنه يستحيل على أفرادها أن يعرفوا بعضهم بعضاً واحداً واحداً مع أنهم يعتقدون أنهم يتشاركون في حياة جماعية مشتركة. والتمييز عند اندرسن هو بين جماعة عضوية، نموذجها القرية، وجماعة متخيّلة. ثم إن اندرسن يرى أن «التخيّل»

لا يمكن فصل الطوائف عن الدين بحجة أنها مؤسسات سياسية أو من قبيل تبرئة الديانات من أقوال أبناء الطوائف وأفعالهم، على إعتبارها نقيضاً لـ«روح» الديان التي يُفترَض أنها منفتحة، سمحة، قائمة على الحب ونابذة للعنف

الكامن في نشوء القوميات وتكوّنها رابط مادي جداً ينسبه الى «رأسمالية الطِباعة»، أي مرحلة معينة من تطور الرأسمالية سمحت بالانتشار السريع للكلمة المطبوعة قياساً الى المخطوطة أو الشفهية سابقاً.

الطوائف كائنات مجتمعية حقيقية، وإن يكن بالإمكان تطبيق مقولة «التخيّل» عليها مثلما هي عند اندرسون.

المؤكد أنها ليست جواهر فوق التاريخ ولا هي تملك استمرارية تاريخية. إنها تتركب وتنفك، تتوحد وتنقسم، تتعاظم أهميتها في الحياة المجتمعية أو تتضاءل، حسب عوامل لا يلقى معظمها تفسيره داخل الطائفة بل خارجها.

من جهة أخرى، لا إمكانية لعملية الـ«تركيب» لمذهب أو طائفة أن تتم، إذا لم يكن أفراد الجماعة المقصودة يفترضون أن لحمة التركيب هي المعتقد الديني أو التشيّع المذهبي. لذا فتشبيه الطوائف بالقبائل قياساً الى العصب الذي يشدّ الجماعتين (صليبي: ١٩٨٨) لا يتعدّى التشبيه. صحيح أن البنيتين القبلية والطائفية تلتقيان على أن الانتماء اليهما ليس طوعياً بل هو بالولادة. وصحيح أن الطوائف يمكنها أن تستعير العصب القبلي - على سبيل الاستعارة - لتشدّ عصبها وتحقق لحمتها. لكن مبدأ وحدة الجماعة الطائفية يختلف عن مبدأ وحدة الجماعة الأخرى. فعصب القبيلة هو رابطة الدم والنسب المشترك، وربما الحِمى المشترك، فيما عصب الجماعة المذهبية أو الطائفية لا يمكن أن يكون إلا الهوية الدينية أو المذهبية التي ينتمي اليها المرء بالولادة. علماً أننا نتذكر أن التركيب لا يكون هنا دون قيادة أو رئاسة أو غلبة، على ما يذكّرنا ابن خلدون.

رواسب تخلّف؟

بناءً عليه، لا معنى لاعتبار الطوائف رواسب تخلّف في بنية حديثة أو رواسب قبل رأسمالية (قبلية، عشائرية، إقطاعية، الخ) في بنية رأسمالية، مع ما يستتبعه ذلك من تصوّر أنّ تطور الرأسمالية ذاتها كفيل بكنسها عن قعر المجتمع وسطحه. إن الطوائف، في المجتمع الرأسمالي الذي نتحدث عنه، مراتب مجتمعية قائمة بذاتها. صحيح أنها في الأصل عناصر وأجزاء من بنى وعلاقات إنتاج قبل رأسمالية، إلا أنها انخرطت في الرأسمالية، وترسملت وتعولمت، وباتت تؤدي فيها أدواراً محددة لا علاقة واضحة لها بالقياس الى وظائفها السابقة. وإن إعادة الطوائف والطوائفية الى تاريخها اللاهوتي لن يجدي نفعاً هو أيضاً في فهم الكثير عنها من حيث فاعليتها وأدوارها السياسية والاجتماعية والتعبوية في لبنان الحديث.

نقاش مع مهدي عامل

ينفي مهدي عامل الصفة (الحدود) الدينية/المذهبية عن الطائفية. تشير الطوائف عنده الى السياسة وحسب، وتعرَّف بوظيفتها السياسية. والحيّز الطائفي إن هو إلا علاقة سياسية لا وجود لها إلا في الدولة وخلال الدولة (عامل: ١٩٨٦، ٣٠). والغريب في الأمر أن مهدي كان يؤكد على هذه المقولة في فترة تفككت فيها الدولة واستولت الزعامات الطائفية كل منها على «أرضها» و«شعبها». ولا يكتفي مهدي بإتمام القطيعة بين الديني، من جهة، والطائفي، من جهة أخرى، وإنما يصرم أي صلة بين السياسي والاقتصادي وبين الدولة والمجتمع.

الى هذا، يؤكد عامل أن المسألة الطائفية مسألة سياسية وليست مسألة اقتصادية. (عامل: ١٩٨٦، ١٥٢). فلا وجود للطوائف في الصعيد الاقتصادي حيث البشر يعرّفون بانتماءاتهم الطبقية وحدها. فلا أهمية للتركيب الطائفي للبرجوازية والطبقة العاملة حتى لو كان أفراد هذه وتلك ينتمون بنسبة ٨٠ في المئة الى طائفة واحدة. ومع ذلك، فالعلاقة الوحيدة الممكنة بين السياسي والاقتصادي، وبين الطوائف والطبقات، في نظر مهدي، هي «علاقة تمفصل بين مستويين منفصلين» (أنظر: مهدي عامل، الطريق، العدد ٦، كانون الثاني/يناير ١٩٧٨، المجلد ٣٧، ص ٦٣-٦٤). لا يفصّل مهدي في معنى عملية التمفصل تلك، وما إذا كان انفصال المستويين يشتمل على التأثير المتبادل بينهما أو لا.

لكنّ ما يفصّل فيه مهدي عامل هو الطابع الوظيفي للحيّز الطائفي في خدمة الحيّز الطبقي، حيث الطائفي هو «الشكل التاريخي المميَّز للنظام السياسي الذي به تمارس البرجوازية سيطرتها الطبقية» فتمنع الطبقة العاملة من أن تتكوّن بما هي «جماهير»، أي بما هي «قوة سياسية مستقلة». ذلك أن الطائفة، في عين مهدي، ليست «كياناً» ولا «جوهراً» ولا هي «شيء» وإنما هي «علاقة سياسية». (عامل، ١٩٨٦، ص ٢٥٥-٢٥٧). إن هذا التعريف ليس هو مشكلة بذاته. المشكلة هي أنه يحتاج الى تفسير لأنه يثير سؤالين لا جواب لمهدي عنهما: ما الذي يسمح للبرجوازية بأن تمارس دور الاستتباع؟ وما الذي يلزم الجماهير العمالية بهذه العلاقة ويمنعها من أن تتحرر وتتكوّن في قوة سياسية مستقلّة؟ ليس لدينا عند مهدي غير تفسير السياسة، بعد الجهد، بالسياسة. ولسنا نستطيع حتى الحديث عن الطائفية بما هي ايديولوجيا في عملية الاستتباع هذه لأن مهدي اختزلها بما هي علاقة سياسية، في خدمة السيطرة الطبقية.

دولة برجوازية أم طائفية؟

بناءً على هذا النظرة الى الطائفية، يعلمنا مهدي عامل أن «التناقض المأزقي» الذي تعاني منه البرجوازية سببه

الظاهرة الطائفية. فمع أن هذه الأخيرة هي الشرط الأساس لوجود دولتها - دولة البرجوازية اللبنانية - فإنها تشكّل العقبة الأساس أمام بناء تلك الدولة بما هي دولة برجوازية. ولكي لا تتحول هذه المقولة الى لغز عصيّ على الحل، لا بد من التذكير بأن مهدي عامل يميّز بين شكلين اثنين للدولة البرجوازية، شكل طائفي وشكل لاطائفي. وهذا الأخير إن هو إلا «شكل» الدولة البرجوازية كما تطورت في أوروبا، أي الدولة العلمانية، وهو الشكل المدعو الى أن يلعب دور النموذج بالنسبة إلى الدولة اللبنانية. بعبارة أخرى، تدور المسألة كلها مدار نجاح أو عدم نجاح الدولة البرجوازية اللبنانية في أن تتخلّص من «شكلها» الطائفي لتتلبّس شكلاً آخر، هو الشكل اللاطائفي - بما هي دولة علمانية، فتحقق بذلك برجوازيتها.

الغريب في الأمر أن دعوة البرجوازية الى أن تخلع لبوسها الطائفي توازي دعوتها الى الانتحار ما دام مهدي عامل نفسه قد عيّن الطائفية بما هي علاقة سياسية في خدمة البرجوازية وظيفتها ربط الطبقة العاملة بالبرجوازية بعلاقة تبعية.

فلنكمل.

إن أي دولة تستطيع في التجربة التاريخية والعملية أن تكون برجوازية من دون أن تكون بالضرورة علمانية. والدولة، أي دولة، تستطيع أن تكون علمانية من دون أن تكون بالضرورة برجوازية. مثلاً: الدولة في الاتحاد السوفياتي السابق كانت علمانية، بل ملحدة، من دون أن تحكمها طبقة برجوازية مالكة لوسائل الإنتاج وقابلة لتوارثها.

والسؤال الآن وقد غادرنا مهدي قبل أن يكتمل العصر النيوليبرالي: هل من تعارض حقاً، والى الحد «المأزقي»، بين النيوليبرالية والطائفية؟ لا يرى جورج قرم تناقضاً مأزقياً أبداً بل ينفي التعارض، وله أسباب وجيهة في ذلك: النيوليبرالية تعادي دولة الرعاية، الساعية الى تكافؤ الفرص بين المواطنين على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، وايديولوجيا العولمة النيوليبرالية تتعايش جيداً مع الايديولوجيات الانتمائية التي تعطي الأولوية للهويات وتشدد على «الحق في الاختلاف» وتحلّ هذا الحق محل الحق الجمهوري في المساواة. (قرم: ٢٠٠٣).

حقيقة الأمر أن رؤية مهدي عامل لأزمة الدولة البرجوازية اللبنانية تعبير أكثر تطلباً من الناحية النظرية لمقولة درجت عند اليسار اللبناني عن التناقض بين البنية التحتية الرأسمالية والبناء الفوقي شبه - الإقطاعي والطائفي، كما أسلفنا. وهي نظرة غلبت على مشروع الإصلاح الديمقراطي الذي أعلنته الحركة الوطنية اللبنانية في صيف ١٩٧٥. وقد دفع مهدي هذا التناقض الى حد المأزق. وما لم يجر تصوّره في الحالتين هو إمكان التعايش بين البرجوازية ونظامها الطائفي. وبمعنى آخر إنه يتعيّن التفتيش عن مكامن التناقض في النظام الطوائفي والبرجوازي في مواقع أخرى.

مهما يكن، فإن مقولة التناقض في الدولة اللبنانية بين طابعها البرجوازي وطابعها الطائفي فرضت على مهدي عامل تمزقاً مستمراً بين ضرورات الاتساق النظري والرغبة في التغيير الثوري. فحيناً تجده يحثّ البرجوازية على بناء دولتها البرجوازية اللاطائفية/العلمانية وفق النموذج البرجوازي الغربي، وحيناً آخر تجده يتوقع سقوط البرجوازية مع سقوط نظامها السياسي الطائفي الذي سوف تطيحه «الأزمة المأزقية» التي تفجّرت بسببها الحرب الأهلية عام ١٩٧٥.

في الحصيلة، نحن أمام طبقتين تبدوان عند مهدي عامل شاردتين عن موقعهما وسلوكهما الطبقي المفترَض: برجوازية ذاهلة عن مهمتها التاريخية في بناء دولة غير طائفية، أي برجوازية؛ وطبقات عاملة حبيسة علاقة استتباع سياسية طائفية، عاجزة عن وعي ضرورة التحرر منها والتكوّن في طبقة مستقلة.

وإننا نتحاشى هنا استخدام مفردة «مصلحة» تحديداً لأن كل محاجة مهدي تحصل على مستوى الوعي وتستبعد المصالح المادية للطبقتين المعنيتين. فيبدو الجواب على هذا الذهول المزدوج لدى الطبقتين الرئيستين في المجتمع (في عرف مهدي) هو: التوعية والمزيد من التوعية والتوعية دوماً.

فكيف يمكن لدور التوعية أن يفعل فعله بلا أي قاعدة مادية يتأسس عليها؟ وكيف للوعي/الأفكار أن تتجذّر في الناس بلا أرض تتمدّد فيها الجذور؟ ثم ماذا لو أن المسألة برمّتها ليست مسألة وعي؟

لقد استخدمنا مفردة «الذهول» لأن افتراض مهدي هو أن هذه الجماعة وتلك ليست تدري ما هي فاعلة ولا هي واعية عواقب فعلتها، على طريقة القول المنسوب الى السيد المسيح: «ابتِ، أبتِ، اغفر لهم فهم لا يعرفون ماذا يفعلون؟» فماذا لو أننا استعرنا السؤال المؤرق الذي أثاره سلافوي جيجك: ماذا لو كانوا يعرفون ماذا يفعلون؟ ويستهترون بالنتائج ما دامت نتائج آنية، أو مؤمّلة؟ وطرحنا السؤال الذي يستتبعه ذلك: ماذا إذا كانت المسألة مسألة فعل لا وعي؟ (Zizek: ٢٠١٢).

يمكن أن نكتفي بطرح مثل هذه الأسئلة المزعجة لنقول إننا نحاول تقديم نظرة أخرى الى موضوع العلاقة بين الطائفة والطبقة تأخذ بالاعتبار الاتجاهات الآتية:

أولاً، أن البنية الطائفية تخترق كل مناحي الحياة المجتمعية وتتدخل في الاقتصاد والاجتماع والثقافة قدر تدخلها في السياسة والرمز والايديولوجيا.
ثانياً، أن الطوائف لا تختزل المجال السياسي. فهذا المجال هو أيضاً وخصوصاً مجال السلطة الطبقية.
ثالثاً، أن الطوائف والطبقات في المجتمع اللبناني جماعتان

نشأت المسألة الطائفية اللبنانية تاريخياً من التفاوت في ارتباط الجماعتين الدرزية والمارونية (أو المسيحية عموماً) بمواقع سياسية واقتصادية - اجتماعية مختلفة بل متناقضة في بنية النظام المقاطعجي في جبل لبنان في مراحله الأخيرة

تتنازعان على الاستحواذ على الفائض الاجتماعي وتخوضان نزاعاتهما على صعيدي المجتمع والسلطة معاً. ومع ذلك فالعلاقة بين الطبقة والطائفة ليست علاقة تطابق بقدر ما هي علاقة توزيع عمل وتقاطع وفعل متبادل.

في تفاوت الأصول والتطور المتفاوت

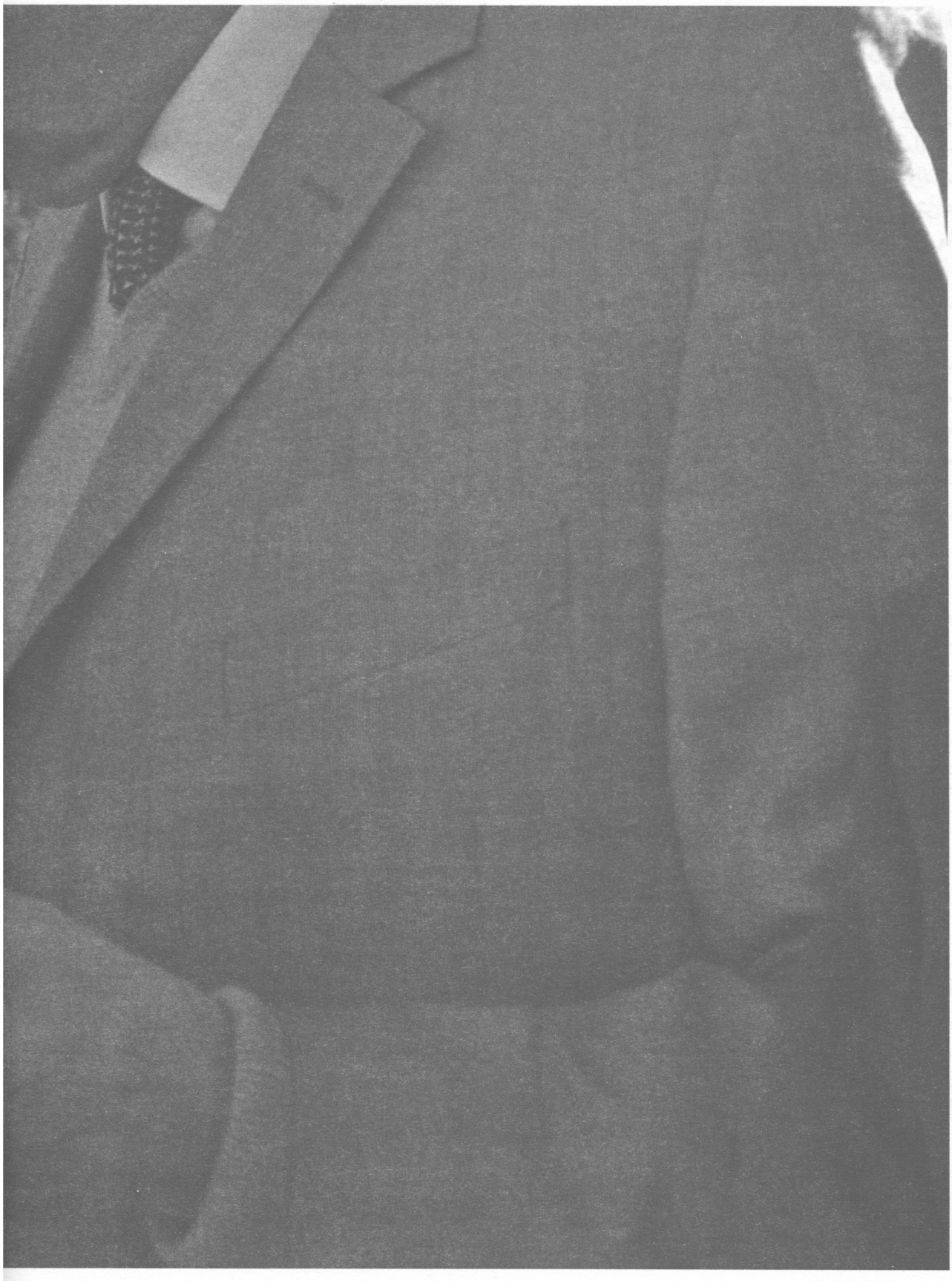
نشأت المسألة الطائفية اللبنانية تاريخياً من التفاوت في ارتباط الجماعتين الدرزية والمارونية (أو المسيحية عموماً) بمواقع سياسية واقتصادية - اجتماعية مختلفة بل متناقضة في بنية النظام المقاطعجي في جبل لبنان في مراحله الأخيرة. كان الخاصة من حكام جبل لبنان ينتمون الى الأسر المقاطعجية الدرزية (خلا أسرتين أو ثلاث من الموارنة) والعامة - على اختلاف مهنهم ومستوى معيشتهم من تجار ومرابين وحرفيين وفلاحين وعمال - كانوا من المسيحيين في أكثريتهم. وقد تغذى التفاوت بين هاتين المرتبتين المميزتين للتشكيلة الاجتماعية العثمانية، من ارتباط فئات من الجماعة المسيحية المبكر بالاختراق الرأسمالي للساحل وجبل لبنان من خلال اقتصاد الحرير، ومن أسبقية في تحصيل العلم من خلال المدارس الدينية الأهلية (التي تقرر إنشاؤها في مجمع اللويزة ١٧٣٦) ومدارس الإرساليات الأجنبية. أفضتْ حرب ١٨٦٠ الأهلية، وقبلها عامية كسروان، الى نتيجة متفارقة: انتصرت خلالها الجماعة الدرزية عسكرياً لكنها سارت الى الانحدار مع تفكك النظام المقاطعجي الذي ترأسه زعماؤها. وانهزم المسيحيون عسكرياً، لكنهم نجحوا في أن يحوزوا لوناً من الحكم الذاتي في جبل لبنان، حيث يشكلون أكثريته السكانية. وتكرّست هذه النتيجة في قيام متصرفية جبل لبنان (١٨٦١ - ١٩١٥) يحكمها مجلس إدارة منتخب على درجتين تتوزع مقاعده الاثني عشر على الطوائف الستّ الرئيسة بأكثرية مسيحية.

وما لبث التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي المتفاوت للطوائف أن عبّر عن نفسه بجملة من الامتيازات المارونية - المسيحية والحرمانات لسائر الطوائف:

- الأفضليات في الموقع من السلطة السياسية والعسكرية. من خلال السلطات شبه المطلقة لرئيس الجمهورية وإشرافه المباشر على قائد الجيش ومديري قوى الأمن الداخلي والاستخبارات والمالية وحاكم مصرف لبنان ووزير الدفاع.
- الأسبقية الاقتصادية للمسيحيين عموماً في القطاع الأكثر إدراراً للربح في الاقتصاد - الخدمات والتجارة والمال - وفي امتلاك المؤسسات المالية والتجارية والصناعية والسياحية.
- الأسبقية الثقافية التي تغذّت من مئتي سنة من الانفتاح على أوروبا. والأسبقية التعليمية التي أفادت من الدور المبكر للإرساليات الأجنبية في التعليم والإهمال المبكر للتعليم الرسمي.
- التفاوت في النمو بين المركز والأطراف ومعدّلات نمو المناطق وفي حصتها من التنمية والموارد وخدمات الدولة والعِلم والصحة، إضافة الى التفاوت في توزيع الثروة.

الطوائف والطبقات جزء من منظومة سيطرة واستغلال

الاعتراف بوجود بنيتين طائفية وطبقية في المجتمع اللبناني لا معنى له إلا اذا تكامل مع الاعتراف بأن النظام الطائفي هو جزء من منظومة السيطرة في المجتمع اللبناني. وهذا ما يقصّر عنه دوبار ونصر. ذلك أن علاقة أبناء الجماعة الطائفية بالطائفة ومؤسساتها وزعامتها ليست مجرد علاقة طوعية، بل تنطوي على مقدار من القسر والإلزام المؤسساتي والقانوني. فالنظام اللبناني يعرّف الحقوق السياسة والاجتماعية والتعليمية للفرد بما هي حقوق يكتسبها





بصفته عضواً في جماعة مذهبية - طائفة لا هوية له عملياً سواها. وهي حقوق توازي حصصَ مذهبه أو طائفته من تلك الحقوق. وهي حقوق قد تؤمّن له مبدئياً ونظرياً مثل تلك الحصص إلا أنها تحرمه بما يتعدّاها مما قد يكتسبه بناءً على كفاءاته وخبرته ومهاراته ومؤهلاته العلمية. ويجب التأكيد على أنه في فترة بعد الحرب، تعزز التحكّم والضبط اللذان تمارسهما زعامة الجماعة المذهبية أو الطائفية على أعضائها بدل أن تضعف. ويعود ذلك بالدرجة الأولى الى إطباق وحدانيات أو ثنائيات قيادية على الطوائف الست الرئيسة في البلد رفعت من درجة الضبط والتحكم للقيادة المذهبية والطائفية على الأفراد والمزيد من حرية التصرّف التي تتخذها هذه القيادات في تمثيل الجماعات والنطق باسمها وإلزامها بسياسات ومواجهات بما فيها المواجهات العنفية.

هذا من جهة القسر. ومن جهة أخرى، يرتفع في الآن ذاته منسوب الطواعية الذي تحققه التعبئة الايديولوجية والدينية والمذهبية للقيادات والمؤسسات المذهبية والطائفية لأفرادها. لذا وجب إيلاء الولاء الطائفي/المذهبي ما يستحقه من أدوار في تنظيم الطواعية لدى أبناء المذهب والطائفة، قدر أهميته في تنظيم القسر والسيطرة عليهم.

والموضوعة الرئيسة هنا هي الانطلاق من أن السياسة هي ميدان الصراع للاستحواذ على الفائض الاجتماعي تخوضة الجماعات (الاثنية، المناطقية، الطائفية، القبلية، الخ) والطبقات الاجتماعية في آن معاً. وهو صراع يدور في الدولة كما في المجتمع. وهذا هو معنى الاعتراف بأن البنية المجتمعية اللبنانية تتضمن بنية طبقية وبنية طائفية.

دور الطوائف في البنية الطبقية

تشتغل الطوائف في الفجوات والثغر التي لا تدخلها الطبقات. نعني أن ميدانها الأثير هو العمالة والتوظيف، وقسمة العمل، والفوارق بين المدينة والريف، وبين المركز والأطراف، وبين العمل الذهني والعمل اليدوي، كما أنها تتحكم بديناميات الارتقاء الوظيفي والاجتماعي، إلخ. والجامع بين فعل الطوائف في هذه كلها هو معاندتها قواعد السوق حيث تضمن للبعض حصصاً في سوق العمل تمنع الاستئثار أو تحمي مواقعه حسب مكان كل طائفة في الهرمية الاجتماعية. وفي كل الأحوال، تتبدى الفروقات الطوائفية هنا بما هي امتيازات وحرمانات تعليمية ومناطقية ووظائفية واجتماعية صغيرة ضمن الفروقات الطبقية الكبيرة.

تتدخل الطوائف في سوق العمل من خلال القيود والتعديلات على قوانين السوق التي تفرضها الحصص الطوائفية في التشغيل وفي الارتقاء في وظائف الدولة والقطاع العام. وقد انتقلت المحاصصة الطائفية/المذهبية من الوظيفة الحكومية ببطء ولكن بثقة حتى باتت تقليداً شائعاً في القطاع الخاص. يتبدى ذلك في الأولوية أو الأفضلية في التشغيل التي يمنحها رب عمل أو مؤسسة اقتصادية لأبناء المِلّة، أو في منح هؤلاء مراكز القرار والتحكّم في المؤسسة المعنية. وينتج من ذلك التمييز في التشغيل وفي مستوى الأجور والرواتب والرتب وفرص الارتقاء وامتلاك سلطة القرار وغيرها. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن توزيع المواقع والمسؤوليات على أساس طائفي أو مذهبي داخل المؤسسة قد يكون لأغراض فرض توازنات قوى بين العاملين من أبناء المذاهب والطوائف المختلفة لمصلحة ضبط قوة العمل عن طريق توظيف الوكلاء من مذهب معيّن أو من انتماء سياسي معيّن. فخلال الحرب الأهلية، كانت مؤسسات عديدة تتكل على الميليشيات بما هي وكلاء تشغيل وعناصر ضبط للعمال في أماكن العمل.

وللطوائف دورها في الترقي الاجتماعي. تتدخل هنا عوامل عديدة، منها التوزيع المتفاوت لتحصيل رأس المال الثقافي بين تعليم خاص/ وتعليم رسمي في كل المراحل؛ ونسب التسرّب المتفاوتة في مراحل التعليم؛ وتفاوت فرص التعلّم في الخارج (والفوارق بين بلدان الدراسة والتخصص في الخارج: رومانيا «الاشتراكية» في مقابل الولايات المتحدة الأميركية مثلاً) وسواها.

يدير النظام الطائفي لعبة النزاعات على الريوع في الدولة ومن خلالها مثلما يدير الصراعات على توزيع خدمات الدولة وتعهداتها وعقودها، وتعيين حصة المناطق المختلفة من الموازنة العامة

وفي كل الأحوال، يدير النظام الطائفي لعبة النزاعات على الريوع في الدولة ومن خلالها مثلما يدير الصراعات على توزيع خدمات الدولة وتعهداتها وعقودها، وتعيين حصة المناطق المختلفة من الموازنة العامة. وهو صراع يشمل أيضاً توازع تعهدات الدولة وعقودها واقتسام الريوع المختلفة بين الكتل والتحالفات الطائفية المعنية. ونسمّيها لعبة لأن النزاعات لن تلبث أن تنتهي في تسويات وشراكات ترضي الأطراف المتنازعة بحسب موازين القوى بينها.

تتبدى الفروقات الطوائفية بما هي امتيازات وحرمانات تعليمية ومناطقية ووظائفية واجتماعية صغيرة ضمن الفروقات الطبقية الكبيرة

ولعل أكبر مبارزة تتعلق بالنزاع الشهير على الاستحواذ على الفائض بين رئيس الجمهورية اميل لحود ورئيس مجلس الوزراء رفيق الحريري، في ولايته الثانية، الذي دار مدار خصخصة الهاتف الخلوي. فالأول يصرّ على ملكية الدولة للخلوي والثاني على خصخصته. الأول: الاستحواذ من خلال الدولة/ الثاني الاستحواذ من خلال السوق. وقد فاز الرئيس لحود في هذه المبارزة.

في زمن أقرب، لا يزال السجال على أشده بين التيار الوطني الحر وحركة أمل - وهما حلفاء في تكتل ٨ آذار - على تثبيت ميامومي شركة الكهرباء حيث يرفض الوزير، جبران باسيل، التثبيت على اعتبار أن أكثرية المياومين هم من الشيعة المحشورين حشراً في شركة الكهرباء بفضل النفوذ السياسي للرئيس نبيه بري، علماً أنه يمكن الاستغناء عن الكثير منهم إذا كان المطلوب خفض خسائر الشركة. ولعل المثال الأبرز للتسابق على اقتسام الريوع وتوزعها من خلال الكتل المذهبية الطوائفية هو ما يجري في الآونة الأخيرة من منافسة وتسابق داخل تحالف ٨ آذار ذاته بين حركة أمل والتيار الوطني الحر على طريقة تقسيم المربّعات البحرية لتلزيم التنقيب عن النفط والغاز على الساحل اللبناني، وعلى شروط التلزيم وأولوياته، ما يخفي أيضاً تبايناً في المصالح والشركات التي يمثلها كل طرف من فريق ٨ آذار ذاته.

بهذا المعنى، فالطوائف والمذاهب تلعب في العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية دور قنوات لتعديل البنية الطبقية من خلال عمليتين: دور الطوائف في السلطة السياسية بما هي ميدان إنتاج مصالح اقتصادية جديدة أو الدفاع عن مصالح موجودة أو تنميتها. هذا من جهة. ومن جهة ثانية، الحراك الاجتماعي التصاعدي الناجم عن خدمات الجماعات الطائفية والمذهبية من خارج مؤسسات الدولة: التعليم، الاستشفاء، الإحسان، الخدمات الاجتماعية والصحية، توزيع المال السياسي، الخ.

السياسة هي حيّز الطبقات قدر ما هي حيز الطوائف. بل هي حيّز الطبقات بامتياز. أي أن إعادة إنتاج التمييز والاستغلال الطبقيين، وإعادة انتاج البنية الطبقية للمجتمع اللبناني برمّتها، تعتمدان بالدرجة الأولى على الانتماء الاجتماعي للممسكين بالسلطة السياسية واندماجهم وتماهيهم المتزايد بعد الحرب بالطبقة المسيطرة اقتصادياً وتوجيههم السياسات والقرارات في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي.

التحولات الديمغرافية والحراكات الاجتماعية والطبقية هي صاحبة الأثر الأبرز في تحوّل موقع الطوائف داخل النصاب السياسي والدولة، والتغيّر بل الانقلاب، في موازين القوى بينها والتعديلات التي تطرأ على التوازنات داخلها

بعبارة أخرى، تشكل الدولة المجال الذي فيه يعاد إنتاج المحاصصات الطوائفية - المذهبية بالاتكال على العصب الطائفي والمذهبي، بما تتضمنه من تسويات، مثلما يُعاد فيه إنتاج البنية الطبقية، بما يتضمّن ذلك من تعديلات أيضاً عليها، بالاعتماد على وزن الطبقات ذاتها وعلى الطبيعة السياسية للسلطة.

دور الحراك الطبقي في توازنات الطوائف وزعامتها

لا يكتفي الخطاب الطوائفي بتفسير كل حدث وكل ظاهرة بالعامل الطوائفي وحده، بل يفسّر أيضاً ما يجري داخل الطوائف وما بين الطوائف بالعامل الطوائفي أو بالطائفية. ولما كان السائد أن الطوائف هي نِصاب السياسة، يفسّر الخطابُ الطوائفي السياسية بالسياسة، وهو بذلك كمن يفسّر الماء، بعد الجهد، بالماء. أما مدرسة أخرى في التفسير فتفسّر التحولات في العلاقات والتحالفات بين الطوائف والمذاهب، والتحولات داخل كل واحدة منها، بالعودة فقط الى التبعيات والتحالفات الخارجية، الإقليمية منها والدولية، التي تلجأ اليها الطوائف لتستقوي بها على خصومها. الاستعانة بالعامل الخارجي في الصراعات المحلية حقيقي وفاعل لكنه ليس يختزل التفسير ولا هو يطغى على سائر العوامل.

يستحيل علينا أن نفهم التوازنات والتحولات بل الانقلابات في علاقات القوة بين الطوائف والمذاهب بالعودة الى الطوائف والمذاهب وحدها، من دون إدخال فعل المسارات الاجتماعية الداخلية في هذه التوازنات والتحولات. والأحرى أن التحولات الديمغرافية والحراكات الاجتماعية والطبقية هي صاحبة الأثر الأبرز في تحوّل موقع الطوائف داخل النصاب السياسي والدولة، والتغيّر، بل الانقلاب، في موازين القوى بينها والتعديلات التي تطرأ على التوازنات داخلها.

حالة من نشأة لبنان الحديث. أنتج التطور الاجتماعي المتفاوت للطوائف مطلع القرن العشرين فريقين سياسيين متفارقين من حيث الانتماء الاجتماعي، انبنى عليهما «لبنان الكبير»: سياسيين صادرين عن الحداثة الرأسمالية في بيروت وجبل لبنان، هما نتاج اقتصاد الحرير وتشكل نواة الإدارة الحكومية (من خلال مجلس إدارة المتصرفية جبل لبنان، ١٨٦١-١٩١٥) في مقابل أسر درزية تعتاش على الريوع والزراعة، ووجهاء ريفيين في الأطراف (الأسر الوجيهة في عكار، الكورة، البقاع، الجنوب). الأولون مسيحيون والثانون مسلمون. علماً أن هذا الفريق السياسي الجديد لم يكتفِ بمنافسة

الزعامات ذات القواعد الزراعية في الأرياف، بل امتلك الموقع الاقتصادي لمنافسة الزعامات السنّية والمسيحية (الأرثوذكسية) في بيروت. مثال على الحالة الأخيرة حلول المحامي اميل إده، الماروني الجبلي، محلّ جورج ثابت، المالك العقاري الأرثوذكسي البيروتي الثري، في تمثيل الارستقراطية المدينية (آل سرسق، بسترس، الخ).

حالة معاصرة. يمكن النظر بشيء من التمعّن في العوامل الديمغرافية والاجتماعية التي أدت الى التنامي السريع لوزن الجماعة الشيعية في السلطة والمجتمع اللبنانيين ابتداءً من السبعينيات من القرن الماضي والقفزة النوعية التي حدثت في علاقات القوى المتبادلة بين هذه الجماعة وسائر الجماعات والقوى خلال الحرب وبُعيدها. ولا يمكن إدراك هذه التحولات من دون العودة الى هذه العوامل:

١ التمدين المتسارع للجماعة الشيعية حيث انتقلت في أقل من ربع قرن من جماعة مكونة من ٧٠ بالمئة من الريفيين الى جماعة مكونة من ٧٠٪ من المدينيين؛
٢ الرسملة المتسارعة للزراعة الجنوبية والبقاعية وانهيار نظام الشراكة والمرابعة وتراجع زراعة التبغ خلال فترة الحرب الاهلية وتنامي المضاربة العقارية بالدرجة الأولى من أموال الاغتراب؛
٣ الهجرة الشيعية الكثيفة في موجاتها الثلاث الكبرى بعد محطات ١٩٤٨ و١٩٧٥ و١٩٨٢ الى المغتربات الأسترالية والأميركية والأفريقية والعربية وعودة أعداد كبيرة من المهاجرين والمغتربين للسكن أو الاستثمار في لبنان والضغوط التي مارسها رجال الأعمال الاغترابيون، خصوصاً من أجل الانخراط في النظام اللبناني، السياسي والاقتصادي؛
٤ بروز انتلجنسيا شيعية نمت بسرعة من خلال التعليم الثانوي والجامعة اللبنانية تدقّ أبواب سوق العمل الخاص والرسمي، وتشكل كتلة ضاغطة على وظائف القطاع العام خصوصاً (راجع نصر: ١٩٨٥).

تضافرت هذه التطورات على نخر أركان الزعامات التقليدية للجماعة الشيعية، آل الأسعد في الجنوب، وآل حمادة في البقاع، وآل الخليل في صور، وتجاوزت أيضاً الزعامات المتوسطة التي دعمتها الأجهزة الشهابية في الخمسينيات والستينيات، أمثال آل العبدالله وبزّي. وعبّر هذا الحراك الاجتماعي عن نفسه، وتجسدت تطلعات الفئات الاجتماعية الجديدة (المغتربون والانتلجنسيا خصوصاً)، في قيادة السيد موسى الصدر، عالم الدين المدعوم من شاه إيران، الذي سعى، بدعم مَن الأجهزة الشهابية وبعدها من حركة «فتح»، الى تأسيس فريق شيعي سياسي ثالث بين الزعامات التقليدية الآنفة الذكر وقوى المعارضة القومية واليسارية التي استحوذت على قطاع واسع من جماهير الشيعة ومن شبابها خصوصاً. وإنه لمعبّر جداً أن يخلف السيد موسى الصدر على رأس حركة أمل ابنُ تاجر من تجار الاغتراب الأميركي أمضى هو نفسه فترة من حياته في الاغتراب وله فيها مصالح. ولئن تقاسم الرئيس نبيه بري والسيد حسن نصرالله تركة السيد موسى الصدر، ونجحا في فرض تنظيميهما ممثّلين سياسيّين شبه حصريين للجماعة الشيعية على الصعيدين السياسي والاجتماعي، غير أنه لم تكفِهما مرجعيةُ المال الاغترابي، ولا الدعم الإيراني المتعدد الأوجه، ولا الوزن العددي للجماعة الشيعية، ولا محورية جنوب لبنان في المعركة مع إسرائيل في تثبيت هذا التحوّل. اقتضى الأمر اللجوء الى العنف المسلّح لفرض الشيعة على الحياة السياسية اللبنانية وتعديل موازين القوى الطوائفية والمذهبية لكي تتكرّس مواقع وموازين قوى جديدة لمصلحة حركة أمل وحزب الله في اتفاق الطائف (١٩٨٩) وتطبيقاته وتعديلاته اللاحقة. وليس في الأمر أية غرابة، فما من جماعة مهمشة أو صاعدة نجحت في أن تفرض نفسها على الحياة السياسية في البلاد إلا بتوسّط الحروب الأهلية: الجماعة المارونية خلال «حوادث» فترة ١٨٤٠-١٨٦١، والجماعة السنّية خلال «حوادث» ١٩٥٨، والجماعة الشيعية خلال الحرب الأهلية، ١٩٧٥-١٩٩٠.

حالة أخرى. دور رأس المال في ترسيخ الزعامة الطائفية داخل الطائفة. استطاع وليد جنبلاط أن يجدد زعامته على الطائفة الدرزية بأن يتحول خلال الحرب، الى رجل أعمال رأسمالي (متعدد التوظيفات والمشاريع)، مقارنة بحياة أبيه المتقشفة واتكاله على موارد أراضيه بالدرجة الأولى. وتأكيداً على المبدأ ذاته، لم يكن بمستطاع النائب طلال أرسلان أن يحتفظ بنفوذ له في الطائفة، في وجه زعامة وليد جنبلاط المترسملة، إلا بأن يترسمل هو نفسه ويتكل على نحو متزايد على قريبه (شقيق زوجته) مروان خير الدين، الوزير وصاحب «بنك الموارد».

أن تعيش ليلاً

إتيل عدنان

روائية وشاعرة ورسامة ومؤلفة مسرحية من سورية ولبنان. من اعمالها المترجمة الى العربية «الستّ ماري روز»، «سفر الرؤيا العربي»، «مدن ونساء: رسائل الى فواز»، «قصائد الزيزفون»، «باريس عندما تكون عارية»، «في قلب قلب مدينة أخرى».

منذ بضع سنوات وأنا أفكر في الليل

أفكر؟ لست متأكدة اني افكّر. انه امر مختلف عن التفكير واكبر من مجرد التفكير. انه توظيف لكياني في حضور الليل، في معناه الجسدي بامتياز، توظيفه في ذلك المفهوم الغريب الذي يشمل حياتنا اليومية منذ الولادة.

انا كائن مسائي

لابعد ما تعود بي الذاكرة، كان يحيّرني إنهيار الليل على نهاراتي. هي ستارة تنسدل بالمعنى الحرفي للكلمة في ساعات مختلفة، حسب تنوّع الفصول، ولكن المؤكد انها تنسدل. ما الذي تحمله لنا؟ تحمل شموعا وقناديل، بالتأكيد، وتحمل عشاوات ثم نوم. نوم ليس هو غياب اليقظة، وانما هو بدايةُ لعالم مختلف. وانا كنت دوما مولعة بالنوم، حميمية النوم وطابعه المغامر. ففي النهاية، الليل هو مملكة الاحلام والاحلام هي أعظم عملية توسيع لاذهاننا.

الليل تجربة مخمليّة

عتمة الليل، حتى في ذروتها، تمتلك نورا خاصا بها. نور يعرفه بعض الحيوان اكثر مما نعرفه نحن. بل انه عالم حيث الرؤيا، حين توجد، تبلغ ارقى درجاتها. انه المادة التي يتكّون منها الفضاء بين الكواكب. انه أقرب مقاربة ممكنة للمادة التي يتكوّن منها الكون.

كثيراً ما افكّر بمصير الجنس البشري لو أنه عاش في الليل

لو انه نام خلال النور المعمي لنهاراتنا. لعلنا كنا صرنا أكثر حساسية للحب. من يدري؟ ولعل ذلك الطريق الى مستقبل ما. من يدري؟

اني أدعوكم لعدم النوم هذه الليلة

أدعوكم لأن تخرجوا الى العراء. ليس هذه الليلة فقط وانما في عدة ليال على التوالي. أدعوكم لأن تقودوا سياراتهم في الليل فقط. ان تستجلسوا على ضفة نهر، نهر الراين، نهر الإلب، او نهر الامازون، وان تنصتوا لذاك النهر. أن تعيشوا بالليل يعني ان تعيشوا بواسطة الأذن، والعين تتبع الأذن فتتسع منها الرؤية. وسوف تكتشف آذانُ روحكم وأعينها صداقةً وعالماً ودودًا يختلف عن العالم الذي تعرفون، عالم يحملكم في رحلات لم تتصوّرها المخيلة بعد.

العرب والحب في زمن اللّاحب

الطاهر لبيب

عالِم اجتماع وكاتب، تونس

١

قبل ما يقارب العشر سنوات، وفي هذا المكان بالذات، أنهيت حديثاً عن «العرب والحب» بالجملة التالية: «علينا أن نواجه هذه المفارقة الغريبة التي تحوّلت فيها ثقافةٌ كبرى للحب إلى ثقافة موتٍ فأصبح أهلها مطالبين بإثبات قدرتهم على الحب كي لا تُثبت إدانتهُم بزرع الموت».

ما الذي حدث مُذّاك؟ عمّقَ الموت المفارقةَ وتحوّلت التّهمة إلى اتّهام جوّاني؟ المفارقة عمّقها موت متفرّع، سافرٌ أو مُتنكّر، صارخٌ أو مستبطَن، مثرثرٌ أو كاتم الصوت، ضالّتهُ الحياة يُخرسها أينما وكيفما نبضتْ: في الفكر، في الحسّ، في الإبداع، في التعبير، في العمل. أما التّهمة فارتدّت على أهل ثقافتها: نحن اليوم، مَن عليه أن يتساءل: ما هذه الثقافة التي تسمّيها الهويّةُ «عربيّة إسلاميّة»؟ وما دهاها ليجد فيها بعض أهلها بذور الموت ولتتّسع فيها الحقول والشّعاب لزرعه وحصاده؟

لهذا سياقُه. المشهد الخَلفيّ امتدّ عرضُ بنيته في أطنانِ البحوث والتقارير والتحاليل. ما يقال عنه، هنا، تلميحاً، هو من تكرار المعلوم وإنْ تفاقمت، في بعض حالاته، بعضُ ظواهره: تسلّطٌ طوّر آليات قمعه، فساد فرّع قنواته، إقصاء سياسي جدّد شعاراته، حرمان فئوي يصرخ قهرُه، فردانية بلا فرد، تحديث بلا حداثة، علم تخالطه الخرافة وإنسانيات بلا إنسان، جهلٌ جديد له أتباعه، إلى غير ذلك مما تطول قائمتُه. موازاةً، تراجعت المرجعيات الفكرية والإيديولوجيّة الكبرى وتراجعت معها أو غابت أحلامٌ عربيّة كبرى.

«عناقيد الغضب»

هنا كانت تكمن وتنضج عناقيدُ الغضب. كانت المكبوتات تتراكم إلى أن وصلت الحلق، في مجتمعات لا فضاء فيها للتصعيد. عناقيد الغضب هذه منها ما يتدلّى من شرعية الطلب ومنها ما يتدلّى من تشريع العنف المميت. وإذا كانت قد تراءت للبعض العناقيدُ وللقلّة ما كان يحملها فإن ما لم يستشرفه أحدٌ فظاهرتا عنف تزامنتا وتساندتا في العالم العربي: عنف الجيوساسة وعَنْفَنة الدين.

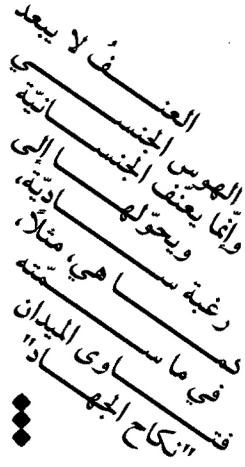
ليس مفيداً ولا مطلوباً، هنا، ذكر المعلوم ممّا لأقوياء الجيوساسة من أهداف ومصالح عَسْكروها ورسموا، من أجلها، للعرب، خرائطَ الطرق. المهم، هنا، قدرتهم، على استنهاض العنف في الداخل العربي وعلى ردّه إليه، وقدرتهم على توريط السياسة والدين فيه. على أن الأهم والأدهى من قدرتهم هذه قابليّةُ المجتمعات العربيّة لجوّانية العنف المخطط خارجَها. القابلية أعمق وأوسع من القبول. أن تنجح قوى الخارج في صنع العداء بين العرب وفي أوطانهم فهذا جديدُ تاريخهم الحديث والمعاصر. اليوم، وَلّى وقت «أنا وأخي أو ابن عمي على الغريب». اليوم، لكلّ عربيٍّ عربيٌّ يكرهه أو يعاديه. لا يحتاج هذا إلى أمثلة، فللعربي، في المسموع والمقروء والمرئيّ، أعداءٌ من العرب أو مرشّحون لعدائه في الحصاد اليومي. وإذا كان القرار للسياسة، فالعِبءُ على الثقافة، في واسع معناها: من السهل المألوف أن تتبدّل العلاقة بين الدول، أن يتحول العدو فيها إلى صديق أو شقيق، لكنّ ما تستنبطه الثقافة من كره بين المجموعات الاجتماعية أو العرقية أو الدينيّة هو أصعب تجاوزاً.

عَنْفنةُ الدين هي المفاجأة الأكبر واللغز الأصعب في تاريخ العرب المعاصر. باسم الإسلام - وأيّ إسلام؟- هبّت، من وراء القرون وتحت رايات الظلام، كائناتٌ مسكونة بالموت، مهووسة بزفيره وشهيقه في كل ما ينبض حياةً أو يوحي بجمال. الإرهاب الذي، تبرّأ العرب منه، لفظاً أو اصطلاحاً، باسم التحرير والمقاومة، عادت إليهم تهمتُه من حيث لم يحتسبوا: من بوابة الدين. اليوم،

ليس لهم أن ينكروا أن إرهاباً بدائياً، وحشياً، يسعى بينهم، في أرضهم، وأنّ يومياتهم أصبح يكتبها موتاهم.

ليس في ما يتوفر من نتائج البحث ما يتيح الحديث عن الأصول والمسارات والدوافع أو عن تركيبة اجتماعية. ما يكاد يتبيّن، من جهة النظر، أن المأخوذين بالإرهاب أو إليه آتين، في الأغلب، من أوضاع متدنيّة، اجتماعياً وثقافياً أو تعليمياً. والواضح أن في هذا هشاشةً مهيّأةً للاستقطاب والاحتواء والتسخير. أما ما نعرفه، من جهة الإرهابيين، فهو ما يعلنونه من معتقداتهم ومن طقوس القتل وآلياته، وقد ردّ على ما فيها من انحراف التأويل وغرابة الإفتاء، ومن أسْطرةٍ وتخريفٍ، علماءُ في الدين قذف الله في قلوبهم نوراً فاجتهدوا.

ليس الحديث، هنا، عن عقيدة ولا عن معتقدات وإنما هو عن تجلّياتٍ تجسّم الكره، نقيضَ الحب، وقد ذهب به أهله، وذهبَ بهم، إلى أقاصي حدوده. ما يُذكَر منه، هنا، يُذكر كما يتلقّاه الفهمُ الخائفُ منه: أول مُفزعاته أن يكون القتل طريقاً إلى الله، إلى الرحمن الرحيم. قياساً: أن تكون جحيم الأرض طريقاً إلى جنة الآخرة. ما هذه الجحيمُ؟ عجينُ أبرياء من عامةَ الناس، فيها يُنادى بقتل الأطفال، فيها الذبحُ أمام ذوي القربى، فيها تُنتزع القلوب وتؤكل. كلّ هذا مع التهليل والتكبير. كيف أمكن التبرير؟ بأيسر الطرق: بالتكفير جملةً، فضلاً عن التفصيل. ليس في هذا جهدٌ: جماعةٌ تكفّر من ليس منها، ومن كُفِّر هُدِر دمُه فوجب قتله، ولو كان مجتمعاً بأسره. وإذا أراد القتلُ أن يَتَمنْهج فما عليه إلّا أن يتطيّف وأن يتمذهب.



الهوس بالقتل: عجز ويأس

التجليّات، بما هي أعراضٌ، تطرح سؤالاً هو، في الواقع، سؤال الحس المشترك بين الناس: ما طبيعة هذه النفسيّة المهووسة بالقتل، بهذه الصورة وإلى هذا الحد؟ الإجابة، ضمناً، أن التّشخيص موكول، نهاية الأمر، إلى التحليل النفسي. إذا كان ذلك ففي حدود الأبجديات يكون هذا الهوس من أعراض العجز أو اليأس. لا قوّة فيه: «المهووسون يحتاجون، أولاً، إلى إمكانية الموت لحلّ النزاع في نفوسهم». مأتى النزاع ما تلاقيه الرغبة من صعوبة التحوّل إلى واقع. الرغبة مرتبطة، جماعيّاً، بنموذج أصلي أو «أركيتيب» مثالي، لا تاريخي، يواجه صعوبةَ التحقّق في مجتمع حديث. المهووس نفسُه لا يقدر على تقمص نموذجه الذي بناه مخياله وغذّته هُواماتُه. العنف محاولةٌ لحلّ هذا العجز، في المجتمع بالقتل، وفي الذات بالانتحار. ولأنه كذلك ففيه لذّة تزداد بقدر ما يكون موضوع الرغبة قديماً، مثلما هو عند الكارهين تاريخاً كاملاً، بمن فيه. من هنا كان الحِداد المزمن لا يزال أهله يرفعون رايات سواده.

وما دام موضوع الحديث هو الحب واللّاحب فلا مناص من التذكير بأن «الليبيدو لا يستسلم»، مهما كانت قوة الموت، كما رأى فرويد. الجهاديّ، كما يُسمَّى اليوم، يعتقد أنه «يؤجّل» رغبته الجنسيّة إلى حياة أخرى. قد يكون هذا بالصبر والإمساك عن «شهوةٍ قد كَلِبتْ عليه»، كما يقول ابن حزم، كما يكون بطمس الحَوَرِ في عيون نساء الدنيا، رغبة في حورِ العين: يكفيه من ذلك، أنه «يُعطى قوّةَ مائة» ليصل، في اليوم إلى مائة منهنّ. أما إذا قرأ أو قُرئ له قصيدُ ابن قيّم الجوزية، مُريدِ ابن تيميّة، يصف الحوريّة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وكأنه عائد من عندها، فكيف لهُواماته أن لا تدفعه إلى تهديم العالم من أجلها؟ العنفُ لا يبعد الهوس الجنسي بل يعنّف الجنسانيّة ويحوّلها إلى رغبة ساديّة، كما هي، مثلاً، في ما سمّته فتاوى الميدان «نكاح الجهاد». هكذا تتحول النزوة الجنسيّة إلى نزوة عدوانية، بعد أن سدّ عليها أصحابها سبل التصعيد أو التسامي التي هي، أساسيّاً، في الإبداع الفنّي والاستقصاء الفكري، وهذان، تحديداً، ممنوعان عندهم. ما يغطيه شعار الحب بلا جنس يعرّيه جنسٌ بلا حب.

في سياق النازية والفاشية والحرب العالمية الثانية، أوجد جورج أرويل للمراقبة والقمع، في روايته الشهيرة «١٩٨٤»، ثلاث وزارات مهمّاتُها نقيض عناوينها: وزارة الحقيقة للدعاية، ووزارة السلم للحرب، ووزارة الحب لتعذيب المحبّين. أغلب الظن أنه لو كان عربياً في أيامنا لأضاف رابعةً تكون وزارة الضمير للتكفير. أغلب الظن، أيضاً، أنّه يتيقّن مما ذهب إليه خياله من أن العنف يجعل الأرض «وكأنها ملجأ لمرضى نفسيين آتين من كوكب آخر». محمود درويش أقرب إلينا وإلى أيامنا، ومع ذلك فلو كان معنا، اليوم، لرأيناه يعترف بأنه، في حب ريتا، كان محظوظاً: بين عيونه وريتا بندقية! اليوم، بين عيون المحبين، في الحلم واليقظة، أشباح رعب، وسيوف، وأحزمة ناسفة، وأشلاءُ قتلى ومنتحرين. بينها خرائط أرضٍ وبشر منقّبة، مهترئة، من ثقوبها تسقط أعشاش المحبّين.

٢

زمن اللّاحب هو مثل «زمن الكوليرا» لا تحدّده الأحداث في ذاتها بقدر ما يحدّده امتداد آثارها في الزمن الاجتماعي. هبَّة الكره والقتل، في إرهاب السنوات الأخيرة، دفعت الأفراد والجماعات إلى الإحساس بحياةٍ معلّقة في خيط

رفيع لا يعرفون متى وأين وكيف يُقطع «من تحت»، خارج الآجال المنتظرة «من فوق». زمن اللاّحب هو هذا الزمن الاجتماعي الذي تبدو فيه الحياة متراجعةً أمام الموت، يبدو فيه الإله إيروس متراجعاً أمام الاله تاتانوس. أما الموت فهو كلّ قضم أو تهديم لأي نبض في أحاسيسنا، في خواطرنا، في نصوصنا، في حركاتنا وسكناتنا، في أجسادنا.

وكما لهذا سياقه، كما أشرتُ، بدءاً، فله إرهاصاته، وإن لم تُنبئ بما عليه، اليوم، تجلياتُه. ليس في النيّة ولا بالإمكان التأريخُ لهذا. يكفي التوقّف عند بعض المنعطفات، توقّفاً لا يخلو من مجازفة. ولما كانت المقاربة متّجهةً إلى علاقة الحب بالموت، فالإشارة لا تكون إلاّ عابرةً إلى ما أفرزت النهضة العربية من رومنطيقيّة أدبيّة لم تكن بنت أنوارٍ ولا حداثة، كما كانت في الغرب، ولكنّها سمحت بسماعٍ نبض الحب في نص المرأة، مثلما سُمع في نص مي زيادة التي راسلت وأحبت جبران عشرين عاماً من دون أن تراه ولو مرة واحدة، وهي، في هذا، نموذجُ رومنطيقيةٍ شرقيّة.

المنعطف أضعه في بداية ستينيات القرن الماضي، وتحديداً في لحظة تقاطع فيها الفلسطيني واللبناني، اللبناني نشأةً أو مقطعاً من سيرة حياة. وليس هذا لانعدام التعبير عن علاقة الحب بالموت في مواطن عربية أخرى وإنما لأن لهذه العلاقة جدليّةً خاصة، بحكم طبيعة الأحداث واستمرارها، ولما جمعت وفرّقت، ولما اتّسع من التعبير عنها:

بين ليلى بعلبكي ونزار قبّاني

في أواخر الخمسينيات صرخت ليلى بعلبكي: «أنا أحيا». وبقطع النظر عن القيمة الفنيّة للرواية، ففيها امرأةٌ تعلن شدَّ حياتها إلى الحب وإلى حريّة حركتها فيه، بدءاً بامتلاك الجسد: امرأةٌ عربية تعلن، في سياق نضالي، حبّاً بلا ملامح رومنطقيّة تقليديّة، وتسند «الجبن» فيه إلى الرجل. هو حبّ تؤرخ به لحياتها ولا يطول نفسُ الرجل فيه. في هذا ما يذكّر بما قالت مدام دي ستيل، قبل أكثر من قرنين، قبل الرومنطيقية الفرنسية: «الحب هو تاريخ حياة المرأة، وهو حلقة من حلقات حياة الرجل». كان على المرأة العربيّة أن تُنطق حبَّها لتنقلب الآية العربيّة! لا ندري لماذا نُسي أو تُنُوسي «أنا أحيا»، هذا النّص المؤسس لانتفاض المرأة، في الأدب، ولمطلب الندّية التي على الرجل أن يجد، في الحب، قوّةَ الوصول إليها. لم تعد المرأة رهينتَه فيه. هذا التوق تسرّب إلى مجالات مختلفة: حتى أم كلثوم خرجت عن مألوفها، عام ١٩٦٤، لتغنّي: «للصبر حدود، يا حبيبي».

في الشعر، هجر الحب رومنطيقيته ليسكنَ مجازَ بطولتين: بطولةٍ دون جوانية ذات ملامح شرقية، لا توسُّط، على الورق، بينها وبين حميميّاتٍ كانت منغلقة، وبطولةِ ثائر، بينه وبين حبّه مشاريعُ ثورته وهزائمُها. الأولى سبقَت الثانية، زمناً، وطاولتها زمناً، قبل أن تأخذها التراجيديا العربية إلى التقاطع معها في ضواحي ٦٧:

بعدما «فصّل من جلد النساء عباءةً وبنى أهراماً من الحلمات» أخذ نزار قباني يشتمّ رائحة الموت في حبّ ما بعد الهزيمة. المرأة التي استمرّ يراها «بين واحدة ودّعته وواحدةٍ سوف تأتي» لم يعد بين نهديها «حياة أو بشر». أصبح بينهما «قرى محروقة وملايين ملايين الحُفر». «طفولة النهد» ذهبت، ودون جوان تلاحقه أشباح الموت:

لقد تساوى حبنا وكرهنا وأصبح البقاء كالرحيل ——
أفلسنا، تكررنا، تعودنا على الموت ——
انتظرنا في كراسينا ——
كما ينتظر الأمواتُ، في أكفانهم، يومَ النشور ——

الحب الذي «نقله من كهوفه إلى الهواء الطلق» وأسس له «أول فندق حب/بتاريخ العرب/ليستقبل العاشقين»، كما يقول، أصبح مذعوراً بموتٍ «يدخل علينا ضاحكاً، ويقفل الأبواب». أصبح السؤال: «متى يعلنون موت العرب؟»:

تابعت كلّ الحروب على شاشة التلفزه ——
فقتلى على شاشة التلفزه ——
وجرحى على شاشة التلفزه ——
ونصر من الله يأتي علينا من شاشة التلفزه ——

كان نزار قباني يُعتبر «شاعر الحب والمرأة» وكأنّ هذا اختصاصه. المعاناة العربية وحتى الشخصيّة، إذ قُتلت بلقيس، زوجتُه، في انفجار ببيروت، وله رثاء فيها، جعلته يرى الحبّ، وإلى آخر حياته، «تعويضاً عادلاً عن هذا السقوط القومي الكبير في بحر الكراهية العربي».

«ريتا محمود درويش»

محمود درويش جعل من الحب والموت كلمة واحدة، اسماً مركّباً، يلفظه «أموت-أحبّك». قليلاً ما تخلو قصيدةٌ من قصائده من الموت أو من مشتقّاته. قبل عيون ريتا «العسليّة»، كانت العيون «شوكة في القلب» و«هجرة» و«منفى». قد

«يكتب عنها بلاداً/ويحتلها الآخرون». قد يحبّ الشّهد
«رغم ان الشهد مسكوب في كؤوس الآخرين».

أيها الموت الخرافي الذي كان يحب ــــــــــــــــــــــــ
لم يزل منقارك الأحمر في عيني ــــــــــــــــــــــــ
سيفاً من لهب ــــــــــــــــــــــــ

في عالم يعلّمون فيه «أن نَصون الحبّ بالكره»، «يُصبح الحب ملحمةً»، كما يقول. من عناوين هذه الملحمة ريتا التي بدأ الموت معها حاداً ولكنه استسلم للحب، أو كاد، في نهاية الأمر. في مسار ريتا علاقةٌ بين الحب والموت تستحقّ العرضَ:

سواءٌ وُجدت ريتا أمْ كانت «تركيباً لغويّاً لأكثر من تجربة» فصورتها مرسومة في خمس قصائد توزّعت في مدى ربع قرن. في الصورة ملامح صيرورةِ حبٍّ قوي، في فضاء عداوة أصليّة:

نعرف ما كان بين العيون و «العيون العسلية»، عام ١٩٦٤: بندقية تطلق النار على «مليون عصفورٍ وصورة/ ومواعيد كثيرة»، في «صمت العشيّة»، حين تكون «المدينة كنست كلَّ المغنّين وريتا». ريتا، فيها، لا تتكلم، وللحب ملامح المستحيل.

في «العصافير تطير في الجليل» (١٩٧٠) لا تزال القبلة «تُرتشف من حدّ السكين»، ولكن البندقية تحوّلت إلى موتٍ مرافق. يتوحّد المحب والموت، يخاطبان ريتا في ضمير المثنّى:

وهبناكِ أنا والموت ــــــــــــــــــــــــ
سرَّ الفرح الذابل في الجمارك ــــــــــــــــــــــــ
وتجدّدنا أنا والموت ــــــــــــــــــــــــ
في جبهتك الأولى ــــــــــــــــــــــــ
وفي شبّاكِ دارك ــــــــــــــــــــــــ

في «ريتا أحبّيني» (١٩٧٠)، لا تزال للمحب «أشواق السجين»، ولكنّ المنعطف بدا في النّداء: «أحبيني!». لم يكن من معنى في أن يموت صاحبُ النداء، وإذا كان لا بد من موتٍ فَلينادى إليه المحبوبِ:

ريتا أحبيني! موتي في أثينا ــــــــــــــــــــــــ
لتموت أشواقُ السجين. ــــــــــــــــــــــــ

في «الحديقة النائمة» (١٩٧٧)، تتسع الحديقة في القلب، وفيها «تأخذ ريتا قُبلتها وأيامها». بعد عشرين عاماً من عمر البندقية، تُحضر ريتا للمحب قهوته العربيّة. في «أحبّك ريتا»، مكرّرةً، يلين الموت كما يلين في رمي السؤالِ عنها إلى ما «بعد ثلاثة وعشرين عاماً» ويبقى الغياب.

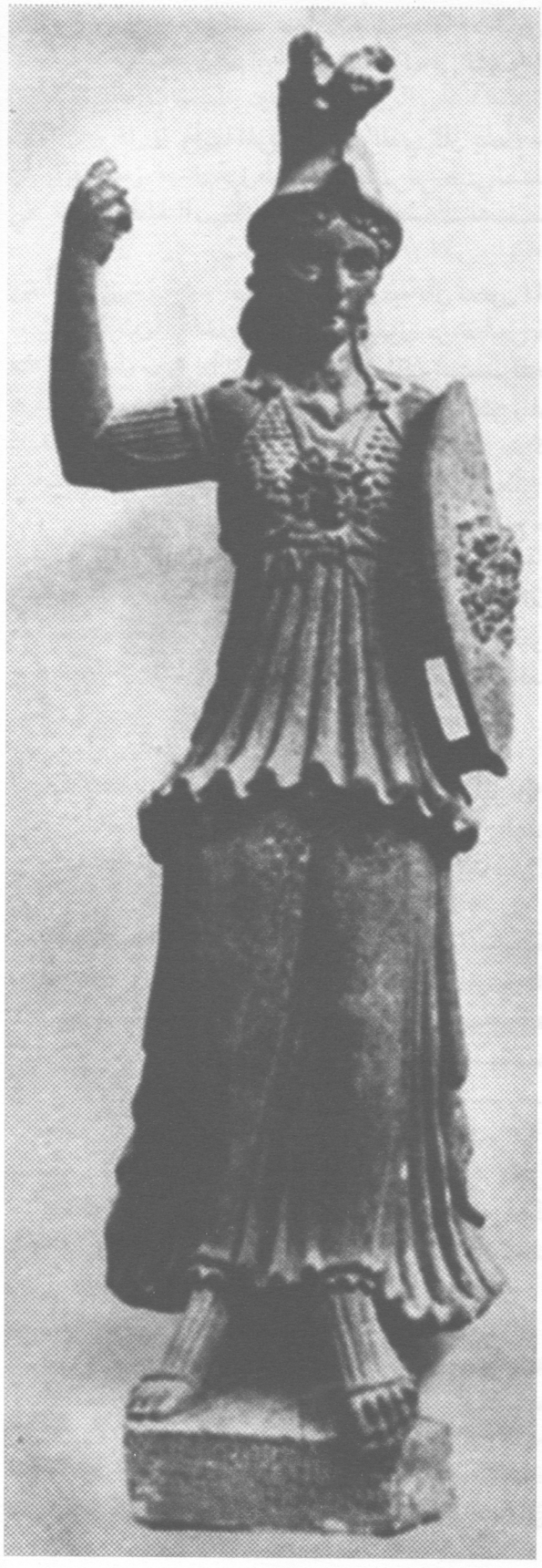
في «شتاء ريتا الطويل» (١٩٩٢)، يكون المحب قد مرّ إلى ريتا «بين سيوف إخوتها ولعنة أمّها». كل منهما يُعلن للآخر حبّه. يبقى الحب محاصراً، إذ «الطبول هي الطبول»، وعبور ريتا النّهرَ صعبٌ، والرحيل يُدرك الاثنين، ولكن ريتا «تجهش: هذا الشتاء طويل»، «وتضع مسدّسها الصغير على مسودّة القصيدة».

كثيرون، غير قباني ودرويش، أرادوا انتشال الحبّ من مأساته العربيّة، من «زمان العشق في القبور»، كما ينعته قاسم حداد، هذا الشاعر الذي ينتصر لحياة القبور بـ«حبّ مذعور»، بحب صعب، و«ما أصعب الحب الذي يأتي من الدماء»، كما يقول.

الحب الفايسبوكي

وإذا كانت العبارة المحبّة قد تركت الشعر إلى النثر ومصنّفاته حين توقّف المدّ الحضاري العربيّ فإن زمن اللاحب الذي نحن فيه أطردها من الشعر والنثر، معاً، على الأقل في ما عهدناه، طويلاً، من معنى الشعر والنثر. ظهر حبّ فايسبوكي ذهب بالعبارة المحبّة إلى وضعين: التخزين والتشبيك. في التخزين رغبة في الإنقاذ، وله عناوينُ أشهرها: «من أجمل أو أروع ما قيل في الحبّ». وإذا كان للشعر نصيبه منه، فلغيره منه أرصدة متوازية أو متناضدة او متداخلة: حِكمٌ وأمثال وآيات قرآنٍ وأحاديث، والكلُّ يساند أو ينازع بعضه بعضاً، في شحن الذاكرة. أما التشبيك، وبقطع النظر عن آلياته التقنيّة، فأغلبه رغبةٌ في التعلّق، رغبة في الحب أكثر مما هو تعبيرٌ عنه. ولما كان في المجتمع، في «الأنا الأعلى»، رقيبٌ لا ينام فالحب مبنيٌّ للمجهول: علنيّتُه مبتورةٌ، والأسماء فيه مختزلة أو مستعارة. لا تكلفةَ له، في لحظة العابر، فهو قد يكون بعض كلماتٍ تتحرك أسفلَ شاشة. هو مُرفَّهٌ فقدَ طعمَ المخاطرة.

في التشبيك الاجتماعي نوع من «تناصّ» لا يتسع له ديوان شعر ولا رواية ولا فنّ من الفنون المعهودة. موضوع الحب فيه مجرّد سياق يبرّر خليطاً من الرأي والمراجع والنزوات والفتاوى، ويستثير تعاليقَ لا نواةَ لها ولا ضوابط ولا حدود: الحبّ، بآماله وخيباته، والجنس، مرفوضاً ومطلوباً، والمقدّس بمثاليته وبما يُخفي من مدنّس، وأخبار المحبوبين من مغنين وممثلين وتوب موديل. وللحب، في التشبيك، وصْفاتُه: مثلاً، «كيف تقول لزوجتك: أحبّك؟ أحضر قاموس جيْب أو معجماً واكتب: أنتِ (you) بجوار



كلمة الحياة (Life)، ثم أضف جملةً شاعرية مثل: «بدونك ليس للحياة معنى». أما قواميس الحب، كما تسمَّى، فكثيرة، كما أن «الحب في الموبايل» متوفّر وله مواقعه.

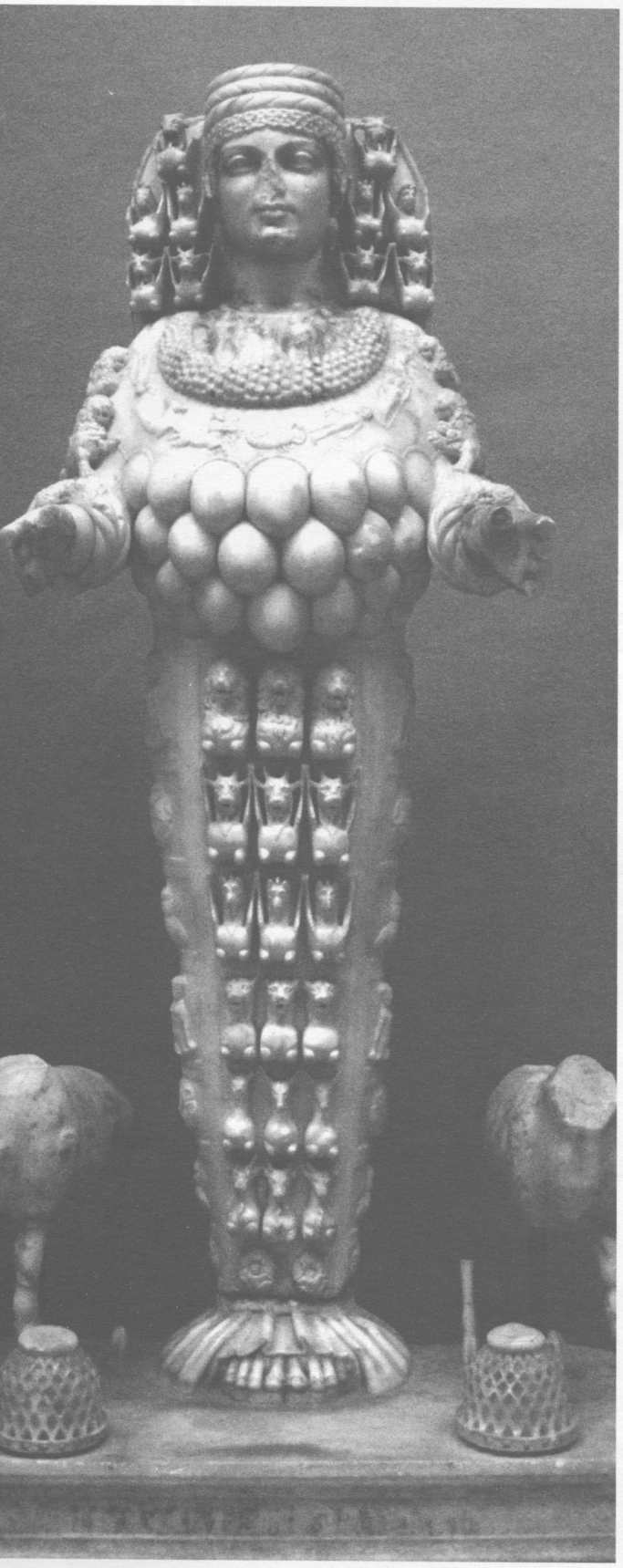
الحرية الافتراضية أخرجت الحب من لغة الشعر والنثر إلى لغة لم تُعرف ولم تُضبط قواعدُها بعدُ: لغة دارجة ذات ألفاظ وتراكيب غير مألوفة، تُكتب صوتيّاً، مهما امتدّ الصوت: أحبّك، مثلاً، تُكتب «أحبووو..ك»، بما شئتَ من الواو، وجدّاً تكتب «جداااااا...ن»، بما شئتَ من الألف، مضافةٌ إليها نونُ للتنوين. هذا مع صيغ أقرب ما تكون إلى الذبذبة، من نوع «هههه..» ولعلّها صيغة تعليق ضاحك أو باك، لا ندري. هذه اللغة المشبّكة يفهمها المشبّكون، ولكن قدّ لا يفهم الكثير منها من خرج عن خصوصيتها أو عن مَحليّة استعمالها.

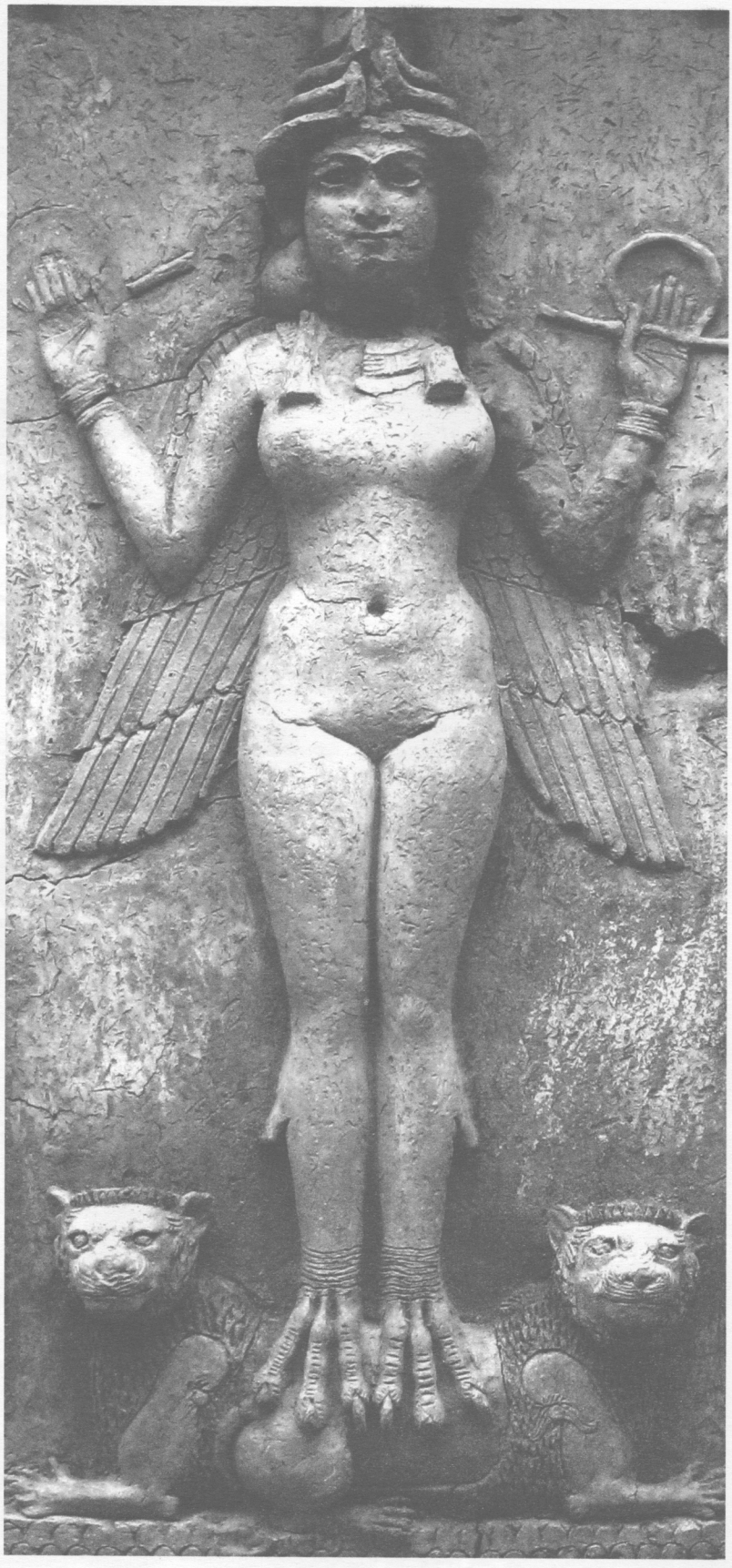
غزارة «التواجد»، في الافتراضي، تعكس صعوبة الانتقال من «مبدأ الرغبة» إلى «مبدأ الواقع»، في معناهما الفرويدي. المسافة الفاصلة هي مسافة فراغ يتحول فيها «أحبّكَ» أو «أحبّكِ» إلى «أحبّني» أو «أحبّيني». هي مسافةُ نداء أكثر مما هي مسافةٌ لإعلان حب. هذا الوضع أوجد لغةً لها، بلا شك، مجازُها وبلاغتها وسيميائيتُها، ولكنّ من ضروریاتها أن تكون منمّطة، شعبيّاً، وأن تكون مشفّرة تشفيراً يعرف أهلُه مفاتيحه، وأن تكون لها، أيضاً، مواصفاتٌ تتحمّلها، تقنياً، وسائل الاتصال الحديثة. هذه اللغة لا تحتاج إلى ما عهدناه من «فن الكتابة»، ولهذا قلت: إن العبارة المحبّة خرجت من الشعر والنثر معاً. أقول: العبارة ولا أقول: الحب، لان هذا، بما هو احساس كوني وقيمة انسانية لا يزيله شيء وإن تغيّرت أنماطه وتجلّياته، كما لا يزيله زمنٌ حتى ولو كان زمنَ اللّاحب.

٣

الحب نداء الحياة والتّوق إليها. تَحقُّقه انتصارٌ لها. لا إرادة للحياة الفردية أو الجماعية من دونه. هو رؤية للعالم ولجمال الكون في مواجهة القتامة والبشاعة. هو طاقة إبداع متفرّعة، يسري فعلُها في مجالات الحياة كلّها. هو، في نهاية الأمر، ذلك المطلب القديم للسعادة التي ما انفكّت تحاصرها سلطٌ متنوّعة، إما لاثبات أنها المتحكّم في منحها للناس وإما لتأجيلها إلى عالم آخر.

وأزمة الحب ليست أزمةَ علاقة بين الرجل والمرأة، فهي، قبل ذلك، أزمة حريّة تضيق بها ثقافة سائدة تتماهى معها سلطة سياسيّة، على أنها ثقافة الشعب وتقاليدُه. لا يولد





الذكر ذكوريّاً ولا الأنثى أنثويّةً وإنما يصبحان كذلك بسبب عوامل محدّدة في المجتمع. العلاقة بينهما ليست فطريّة بل مبنيّة: القبيلة، مثلاً، لا تتحمّل الحميميّةَ بينهما لأنها ترى فيها تفرّداً ونوعاً من السريّة أو تواطؤاً ضدّها. لهذا لم يعرف الشعر العربي، قديماً، تغزّلاً بالزوجة ولا حتّى رثاءً لها إلاّ نشازاً: حين جرؤ جرير على رثاء زوجته اكتفى بالقول:

لولا الحياء لها جنى استعبار ــــــــــــــــــــ
ولزرتُ قبرَك والحبيب يُزار ــــــــــــــــــــ

السلطة، عموماً، مع الحب الجماعي، مرادفاً للتضامن أو للوحدة الوطنيّة. أن يعبّر الفرد عن حبٍّ يعلن حريّة الارادة والاختيار والعبارة فهذا، دائماً، مصدر ريبة، لا باعتباره حبّاً في ذاته، وإنما باعتباره تجلّياً لحريّة فرديّة. هذه الريبة، مهما كان نوعها، هي في محلّها لأن في إعلان الحب تجاوزاً واحتجاجاً. الحب العذري نفسه هو، في أصله احتجاج على هامشيّة بني عذره وليس امتثالاً للدين، كما يقال.

الحب ليس هو الجنسانية

يحتاج الحب، في المجتمع العربي الإسلامي، إذاً، إلى اصرار فكري على ربطه بمطلب الحريّة، أولاً. وهو يحتاج، كذلك، إلى تخليصه من تأويل المهووسين بالجنس في الحب، ممن لا مرجعيّة علميّةً لهم في ذلك. هم قد يفاجأون، مثلاً، إن علموا أن التحليل النفسي، نفسَه، أوجد تمييزاً بين الحب والجنسانيّة: المحلل النفسي الفرنسي الشهير لاكانْ قال بأنه «لا توجد علاقة جنسيّة» لأن المتعة الجنسيّة هي متعة الواحد، تأخذه بعيداً عن الآخر. ما يسمّى «علاقة» هو مسافة وانفصال أو «لا علاقة»، والحب هو الذي يعوّض هذه «اللاعلاقة»، وبه، فقط، يتجاوز الشخص نرجسيّته. الحب ليس علاقة مغلقة بين اثنين: هو تجربة اثنين يُقدمان على بناء عالم لا يبنيه شخص واحد. حتى الشيطان، لو أحبّ، في تجربة كهذه لانتفى شرّه!

إن عنْفنة الدين مكّنت أسوأ خلف لأحسن سلف أو أحسنَ خلف لأسوأ سلف من أن يُطرد الحبّ من إسلامه، كما هو في هُواماته. هذا في حين أن اذكياء المجتهدين، في عصور ازدهار سابقة، جعلوا الدين يتسع له، بل ويُهادن تطرف العبارة فيه. كان الكثيرون منه يرون الله حيث يسكن الحب، ومنهم، كابن عربي، من رأى أن الله لو تجلّى في امرأةٍ لهام بها. وللمناسبة، فإن الإفراط في تمجيد التراث، من دون نظر نقدي، ساهم، من دون شك، في تمكين الماضي الذي لا يمضي من إفراز التطرّف الديني وعنفِه وإفتائه في «مفاسد» الحب.

الدفاع عن الحب، في زمن اللّاحب، ليس دفاعاً عن نزوة. هو دفاع عن ظاهرة إنسانية مركّبة، لها روافدها وعراقيلها في كل المستويات والمجالات، ولا تتشكّل وتنمو إلاّ عبر تنوير فكري وتقدّم اجتماعي، بدءاً بالسياسة، إذ للحب بُعده السياسي أيضاً. ومهما بدا في هذا من إيتوبيا فقد حان الوقت لتكون قدرة المجتمع على إنتاج الحب، بما هو دليل حرية، مؤشراً من مؤشرات التنمية الانسانية فيه. أليس الحبّ «تصويباً للخلق»، كما قال أنسي الحاج؟ ليدافعْ من شاء عن حروبه، ولكن ألمْ يحن الوقت «لنتفرّغ للدفاع عن حبنا»، كما طالب قاسم حداد؟ ثم لعلّ الله، رغم أنف أعداء المحبين، يستجيب لنداء نزار قباني:

يا إلهي ــــــــــــــــــــ
إن تكن ربّاً حقيقيّاً، فدعنا عاشقينا ــــــــــــــــــــ

الدفاع عن الحب ليس شعاراً. هو حاجة حيويّة للانسان والحضارة. والمفارقة أن زمن اللّاحب العربي يتطابق والمرحلة التي يعود فيها الفلاسفة، في الغرب، إلى موضوع الحب، معتذرين عن إهماله، وقتا طويلاً. في «مدح الحب» يذكّر الفيلسوف الفرنسي آلانْ باديو، بدءاً، بما قاله الشاعر رامبو من أن علينا «اختراع الحب من جديد»، وبما قاله أفلاطون: «من لا يبدأ بالحب لا يمكن، أبداً، أن يعرف ما الفلسفة». وقد رأى أن الحب مهدّد وأنه يحتاج إلى الدفاع عنه، باعتباره ضرورة. الفيلسوف، عنده، لا يكون فيلسوفاً إلا إذا كان عالماً وفناناً ومناضلاً، ومحبّاً أيضاً. ومهما كان النفاق الاجتماعي فالمثقف لا يختلف في حاجته إلى الحب وفي رعشته فيه عن الإنسان العادي.

كلمة أخيرة: زمن اللّاحب هو زمن الرجل: الرجل هو الذي فشل في نشر حبّه لأنه لا يحيا من دون كره، في حين لا تحيا المرأة من دون حب. الصراع الدائر اليوم يبيّن أن الماضويّة تريد أن تجعل من المرأة آخر معاقلها. وإذا كان الشاعر أراغون قد قال قولته الشهيرة: «المرأة مستقبلُ الرجل» فوضعنا يقول: المرأة العربيّة مستقبل العرب، والمرأة المحبّة مستقبل العرب والعالم. أكاد أقول: أيّها المحبّون اتحدوا!

أولاً، وهو يحتاج، كذلك، إلى تخليصه من تأويل المهووسين بالجنس في الحب